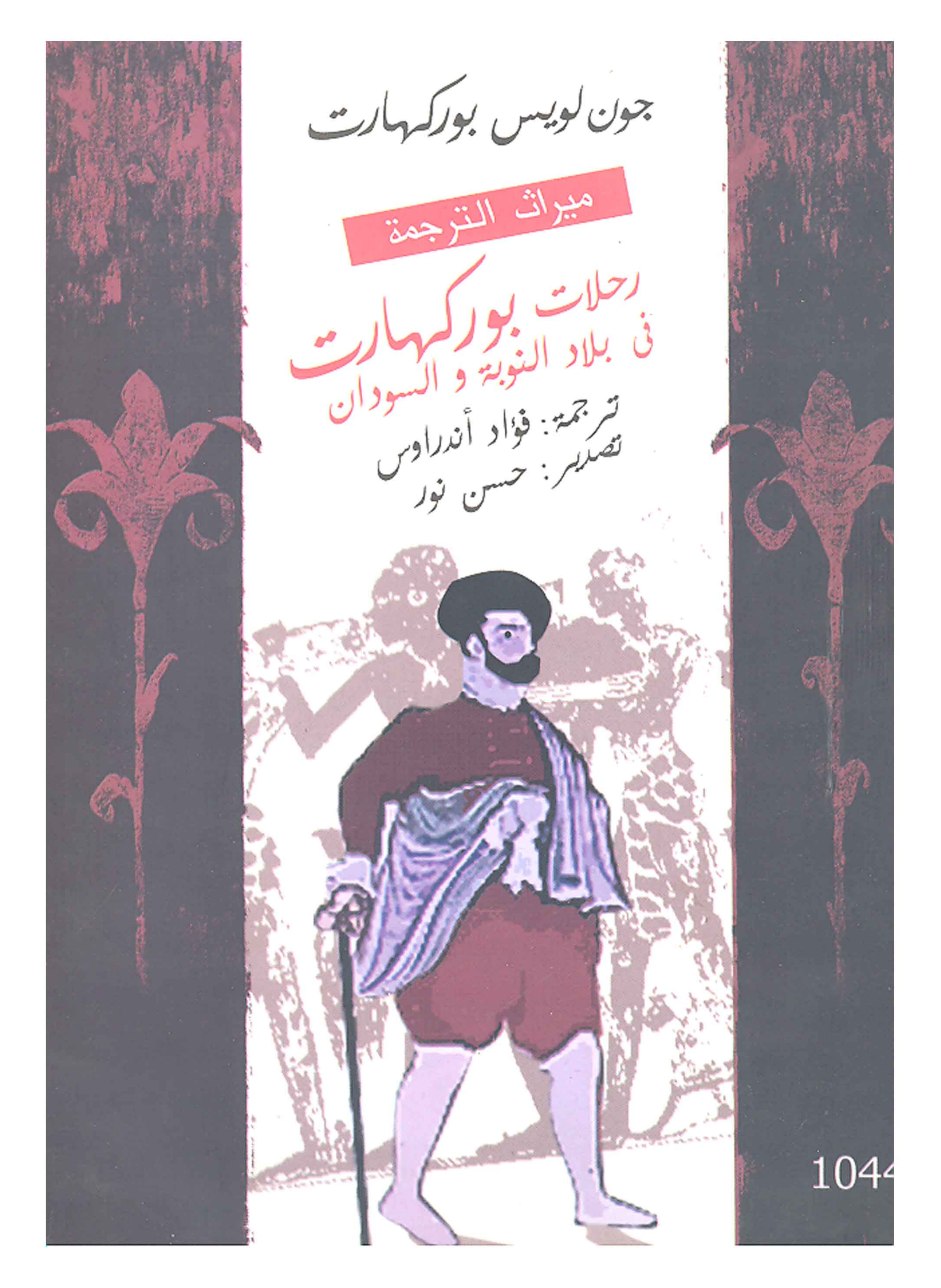

جون لويس بوركهارت
ميراث الترجمة
رحلات بوركهارت
فى بلاد النوبة و السودان
ترجمة: فؤاد أندراوس
تصدير: حسن نور
1044

رحلات بوركهارت

في بلاد النوبة والسودان

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر: طلعت الشايب

- العدد : ١٠٤٤

- رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان

- جون لويس بوركهارت

- فؤاد أندراوس

- محمد محمود الصياد

- الشاطر بصيلى

- محمد شفيق غربال

- حسن نور

- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

TRAVELS IN NUBIA;

By : JOHN LEWIS BURCKHARDT

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

المشروع القومى للترجمة

رحلات بوركهارت
فى بلاد النوبة والسودان

تأليف : **جون لويس بوركهارت**

ترجمة : **فؤاد أندراوس**

تقديم : **محمد محمود الصياد**

حقق أعلامه : **الشاطر بصيلى**

أشرف على نشره : **محمد شفيق غربال**

تصدير : **حسن نور**



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس .
رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان / ترجمة : فؤاد أندراوس - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٤٤٠ ص ؛ ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة)
١ - السودان وصف ورحلات .
(أ) أندراوس ، فؤاد (مترجم)
(ب) العنوان ٩١٦,٢٤

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٩٧٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 201 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تصــدير

وُلِد جون لويس بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧) بمدينة لوزان بفرنسا ، إلا أن أباه أصر على مغادرة بلاده بعد أن فقد ثقته فى حكامها الجدد الذين اتهموه بالخيانة وممالأه الأعداء ، ولما لاقته أسرته من ظلم وعنت ، وما آلت إليه حالتهم الاقتصادية من تدهور بعد حياة العز والرفاهية ، ويرحل الشاب بوركهارت إلى إنجلترا وهو يناهز الخامسة والعشرين من عمره القصير باحثًا عن عمل ؛ إذ رأى أبوه أنه من الحكمة عدم البقاء فى بلاده حتى لا يقع مرة ثانية فى أيدى الحكام الجدد الذين باتت نيتهم للقضاء عليه على الرغم من ظهور براءته مما نسب إليه .

تعلَّم جون لويس بوركهارت على يد معلم خاص ثم التحق بجامعة ليبزج ، وظل بها أربع سنوات ، وكان قد بلغ العشرين من عمره ، ثم انتقل إلى جامعة جوتنجن .

عُرف بالاستقامة والاحترام والجرأة فى إبداء آرائه ، كما عرف بطموحه العلمى وجده واجتهاده فى التحصيل والمعرفة ، ولأنه مثل أبيه لا يثق فى رجال الثورة الفرنسية حمل عصاه ورحل إلى إنجلترا عساه أن يجدد هناك الملاذ الآمن الذى افتقده فى بلاده، وقد تحقق له ذلك ، فقد كُلِّف هناك باكتشاف سر نهر النيجر الذى كان مجهولاً بالنسبة لهم ، حتى إنهم كانوا يعتقدون أنه أحد روافد نهر النيل ، إلا أن القدر لم يمهله لاستكمال هذه المهمة ، على الرغم من أنه قضى ثمان سنوات من عمره القصير فى رحلته الأولى إلى بلاد النوبة التى صادف خلالها صعوبات جمة ، ذلك أن قارة أفريقيا فى هذا الوقت (بداية القرن التاسع عشر) كانت لم تزل مجهولة للأوروبيين ؛ حيث إن ظروفها الطبيعية كانتشار الغابات الكثيفة ، وتظاهر الصحارى فى معظم سواحلها ، وانتشار الجنادل على امتداد نهر النيل مما يعوق الملاحة فيه كان من أهم العوامل التى أخرت اكتشافها .

وعلى الرغم من أن العرب قد عرفوا الطريق إلى القارة الأفريقية عن طريق القوافل التجارية التى كانت تسلك السواحل الغربية للقارة أو يصعدون فى حوض النيل إلى قلبها إلا أن نتائج هذه الرحلات لم تكن معروفة أيضًا عند الأوروبيين حتى يستفيدوا منها ، لهذا نجد أن بوركهارت تحمَّل مصاعب جمة وهو يجتاز القرى النوبية من شمالها إلى جنوبها ، مخترقًا الجبال والوديان والسهول فى وقت لم تكن وسائل النقل الحديثة قد عُرفت ، مما اضطره إلى الاستعانة بالنوق المعروفة بسفينة الصحراء وتحملها الجوع والعطش تحت درجات الحرارة العالية ، وعلى الرغم من أن المسافة بين قرية وأخرى كان يمكن قطعها فى زمن لا يزيد على الساعة أو الساعة والنصف باستخدام المراكب الشراعية ، إلا أنه كان يستغرق لقطعها زمنًا طويلاً يزيد عن ثمان ساعات لوعورة الطرق التى كان يسلكها وطبيعة البلاد القاسية ، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يكيف نفسه على تحمل هذه الصعاب ، خاصة الأطعمة الخشنة التى عاش عليها النوبيون خلال هذه الفترة ؛ فالخبز مصنوع من دقيق الذرة الخشن ، والإدام غالبًا ما يكون من ورق اللوبيا (الكشرنجيج) أو العدس المخلوط بالويكة ، وربما كان الوقت الذى أقدم فيه على هذه الرحلة لم يكن مناسبًا ؛ فقد تصادف مع هروب المماليك إلى هذه المناطق من مذبحة القلعة التى دبَّرها لهم محمد على ، الأمر الذى جعل الكثير من حكام النوبة يشكون فيه وفى مقصدة ؛ فقد ظنه الكثير منهم أنه أحد رجالات محمد على جاء ليتجسس عليهم وعلى من يناصرهم من هؤلاء الحكام الذين أظهروا تعاطفهم معهم ، ولولا الخطابات التى كان يحملها لهم من حاكم إسنا لما لاقت رحلته النجاح ، بل ربما كان قد لقى حتفة على يد أحدهم .

لقد حقق بوركهارت بعض الأهداف من رحلته إلى بلاد النوبة ؛ فعرف طبيعة المنطقة ... جبالها ووديانها ومناخها ونباتاتها وطرق ريها ومواسم حصادها وحيواناتها وطيورها ، وأيضًا مناطق التعدين بها ، كما عرف عادات أهلها وتقاليدهم وأصولهم وأسلافهم ، وكذا معابدها الكثيرة المنتشرة فى أنحائها ، ابتداء من معبد أبى سمبل ومرورًا بمعابد السبوع وكلابشة والدكه وقورته وقرشه ومرواو وبلانه .

لقد استمر فى رحلته حتى وصل إلى شمال الخرطوم ، واضطره تعنت بعض حكام النوبة إلى العودة قبل أن يتم مهمته بالدخول إلى دنقلة (آخر بلاد النوبة فى الجنوب) ، وقد لاحظتُ على عرضه لهذه الرحلة عدم تعرضه لأى صناعة تكون قد صادفته هناك ؛ مما يدل على الفقر المادى والفكرى ؛ فإذا افترضنا عدم توفر المواد الخام الزراعية ؛ فلماذا لم تقم صناعة على التعدين أو على الصيد مع توافر مناجم الرخام بأنواعه المختلفة ، وامتداد نهر النيل بطول البلاد ..؟

لقد استغرقت رحلة بوركهارت إلى بلاد النوبة ذهابًا وإيابًا ثمان سنوات اقتطعها من عمره القصر (٣٣ عامًا) ، ولو عرفنا أنه دوَّن كل ما صادفه فى هذه الرحلة لأدركنا مدى الجهد الذى بذله فيها ، خاصة أنه اضطر لاستخدام النوق فى تنقلاته ، وأن ذلك كان يستغرق منه ساعات طويلة يقضيها على ظهورها تحت وهج الشمس الحارقة ، ومع ذلك لا يركن إلى الراحة إذا ما حطَّ رحاله فى إحدى القرى ، بل يروح يدون ما لاقاه ولاحظه خلال الساعات الفائتة ، فى الوقت الذى لم يجد فيه إلا لقيمات قليلة أو بعض التمر ليسد بها رمقه ، ومع هذا فإنك تكاد تحس بنبضه وحسه وصدقه مع كل كلمة تقرأها ، بل وكأنك تشاركه فى رحلته ... فى ذهابه وإيابه ومقابلاته ومعاناته ، لأن كل كلمة تنبض بالحياة .

إن هذا الكتاب يشمل الكثير من المعلومات ، فهو أدب رحلات ، وهو أيضًا بحث اجتماعى يتناول حياة النوبيين ... عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وأخلاقهم وأصولهم وقبائلهم وسلالاتهم ، وهو أيضًا كتاب فى التاريخ ، وفى الجغرافيا ، وفى الآثار ؛ فقد تناول بالتفصيل كل معابد المنطقة بأسلوب سهل بسيط سلس بحيث يستوعبه غير المتخصص .. أسلوب بسيط بساطة أهل النوبة الذين بسطوا له أذرعتهم واستقبلوه بحرارة مناخ بلادهم ؛ فأقبل عليها ببساطة أشد على الرغم من كل ما لاقاه من صعوبات – كما سلف وأوضحت – بدءًا من قلة معلوماته عن المنطقة ومرورًا بقسوة طبيعتها وخشونة طعامها وندرته وقسوة بعض حكامها وابتزاز بعض الأدلة الذين استعان بهم ، وتخلف وسيلة الانتقال الوحيدة التى اضطر لاستخدامها فى تنقلاته ، بالإضافة إلى

حداثة سنه وقلة خبرته، وعلى الرغم من كل ذلك لم يتوان لإنجاز رحلته عن روح المحب، تلك الروح التى ساعدته على إنجازها ، بل والتخطيط لإعادة الكرَّة مرة أخرى ليحقق الهدف الأساسى منها (اكتشاف النيجر) لولا أن منيته كانت أسرع من كل أمانيه .

لقد نجح هذا الرحالة الطموح فى أن يردف قارئة وراءه على ظهر دابته ليجوب معه قرى النوبة ونجوعها من أسوان وإلى آخر قرية حطَّ رحاله فيها (شمال الخرطوم) وجعله يعيش معه هذه المغامرة الحلوة الصعبة الخطرة ، وأكسبه خبرات لم يكن يعرفها عن هذه البلاد ولم يسمع عنها ، ولو سمع عنها فربما لم يعرف غير اسمها ، ثم يجد نفسه وهو يلتهم صفحات هذا الكتاب ، يغترف منه كل معلومة عنها ، فلا يستطيع أن يتركه قبل أن يأتى على صفحاته . لقد بدأ رحلته من الشمال إلى الجنوب ، أى عكس جريان الماء فى نهر النيل العظيم الذى ارتوى من مائه طوال هذه الرحلة ، وربما اقتفى أثره فى بعض تنقلاته من قرية إلى أخرى ، فيسير هانئًا مطمئنًا بجواره حتى يبلغ حدود دنقلة ، ثم العودة مرة أخرى إلى أسوان ، والتوقف عند كل قرية من قرى النوبة ، خاصة القرى الكنزية الغنية بالمعابد للكتابة عن كل واحد منها بالتفصيل ، وترتيبها من حيث ضخامتها ودقة بنائها وروعة هندستها المعمارية ونقوشها وتماثيلها ... إنه لم يكتف بزيارته لهذه القرى وهو متجه ناحية الجنوب بل نجده يعيد الكرَّة عند عودته ؛ مما يدل على إيمانه بهذه الرحلة وأهميتها ، وأيضًا على قوة عزيمته التى لا تفلها الصعاب التى لاقاها – سبق الإشارة إليها – طالما كانت لخدمة العلم الذى يهون من أجله كل شىء ، وهنا ثار سؤال ألحَّ كثيرًا على ذهنى : ما بال شبابنا فى هذا العصر (القرن الواحد والعشرون) قد تقاعسوا وتكاسلوا وارتكنوا إلى الدعة والتواكل والاهتمام بتوافه الأمور ، وتقليد الغرب فى أرذل خِصاله وسلوكه ....؟ ربما لعدم توافر الحافز العلمى لديهم ، وربما لانعدام الطموح عندهم ، وربما ليئسهم فى مستقبل أفضل ، وربما لإحساسهم بعدم جدوى ما يُحصِّلونه من علوم ، وربما كل هذا ، وربما أيضًا القصور الشديد فى المناهج المدرسية المقررة ، خاصة مادتى التاريخ والجغرافيا اللتين أغفلتا أجزاء كثيرة من الوطن مثل سيناء وسيوة والواحات والنوبة ، فانعدم بالتالى التعرف عليها ، لقد انتابنى الحزن طويلاً عندما سمعت محاضرًا يقول أمام جمع غفير من المستمعين له فى معرض حديثة : إن الجالية النوبية ....

وقبل أن يسترسل فى كلمته سمع همهمة من بين صفوف الحاضرين ؛ فعرف أنه أخطأ فأسرع بالاعتذار ، فكيف إذن يمكننا إعادة الثقة لدى شبابنا وتحفيزهم لجدوى العلم وما يُسهم به فى مسيرة التقدم ...؟ إن ذلك لن يتحقق إلا بتكاتف كل مؤسسات المجتمع ، خاصة وسائل الإعلام المختلفة التى لها تأثير فعَّال على سلوكيات هؤلاء الشباب ، وإنها للفتة طيبة من المجلس الأعلى للثقافة أن أخذت على عاتقها إعادة طبع هذا الكتاب القيم الذى يتضمن معلومات قيمة عن جزء عزيز من مصرنا ، على أمل أن يستفيد منها شبابها الواعد .

حسن نور



الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان

تأليف
جون لويس بوركهارت

ترجمه : فؤاد اندراوس
قدم له بمقدمة تحليلية نقدية : محمد محمود الصياد
حقق أعلامه : الشاطر بصيلي
أشرف على نشره : محمد شفيق غربال

هذه ترجمة كتاب

TRAVELS IN NUBIA;

BY THE LATE

JOHN LEWIS BURCKHARDT

PUBLISHED BY THE
ASSOCIATION FOR PROMOTING THE DISCOVERY
OF THE
INTERIOR PARTS OF AFRICA

WITH MAPS, & C.

LONDON

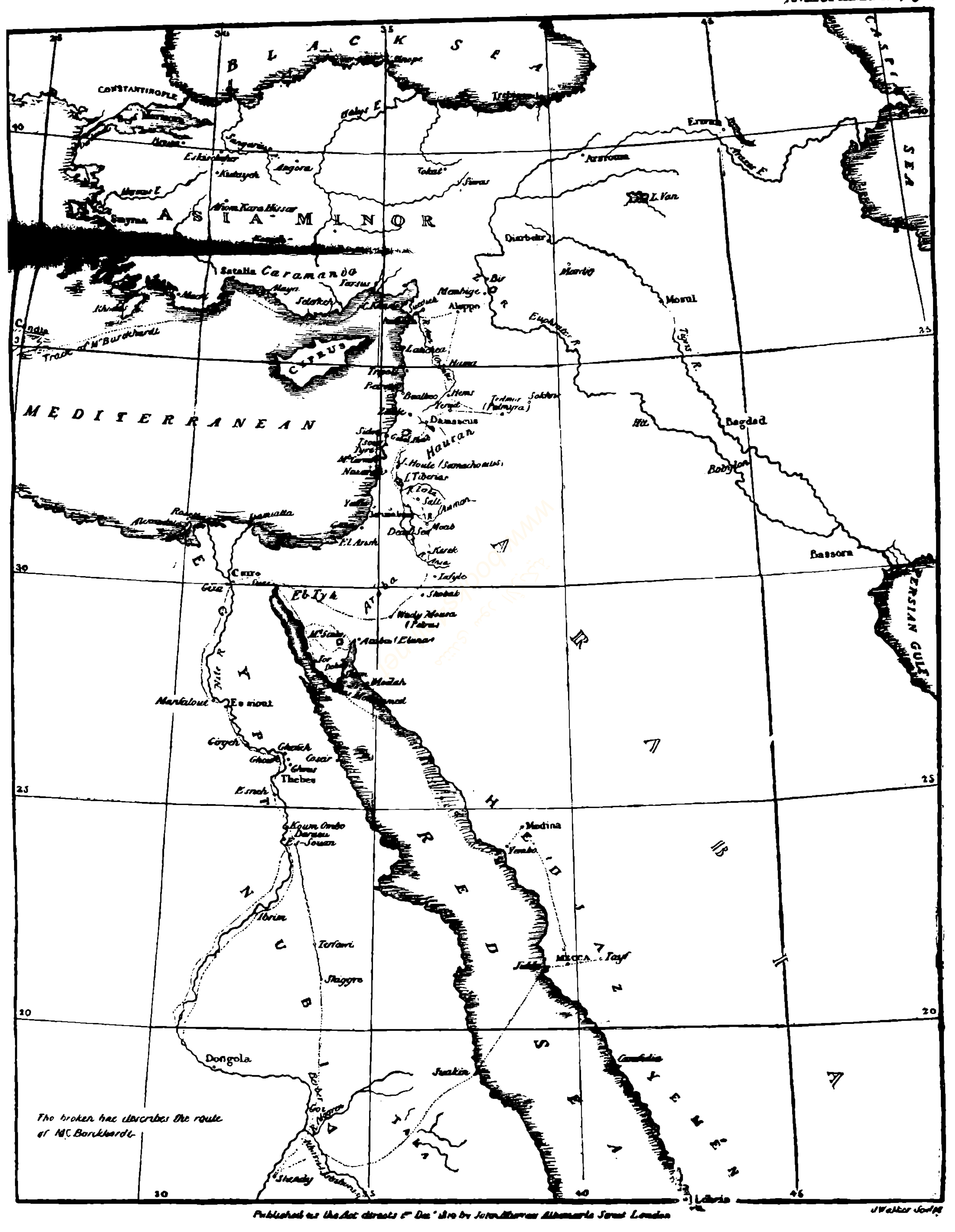
JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET.
1819.



جُون لويس بورُكهارت

محتويات الكتاب

To face the Memoir vol. page 1.



Published as the Act directs 1st Dec. 1819 by John Murray Albemarle Street London

J Walker Sculp.

بوركهارت ورحلاته
(١٧٨٤ - ١٨١٧)

مقدمة بقلم

محمد محمود الصياد

(١)

لم تكن النوبة هدفه ولا جزيرة العرب وجهته ، ولكن شاءت الأقدار أن يرتبط اسمه بما كتب عن هذه الأقطار .

أرسلوه ليكشف عن سر النيجر ، فإذا هو يدفن على ضفاف النيل بعد أن يطوف فى أراضى الوطن العربى ثمانية أعوام طوال .

لقد أدرك جون لويس بركهارت John Lewis Burckhardt منذ البداية أن الرحلة الجغرافية لا بد لها من أدوات . . . إنها ليست سياحة للمتعة وجمع النوادر ، بل هى دراسة عميقة تحتاج إلى استعداد طويل ، وتتطلب خبرات متعددة ، ومن ثم أنفق خير سنى صباه يتأهب لمهمة لم يمهله المرض حتى يقوم بها فيحقق أحلامه ويبلغ أمانيه .

ولكن هذه السنوات الطويلة لم تذهب عبثاً ، فقد وهب الشاب قوة الملاحظة والقدرة على سبر أعماق الأمور ، فامتازت كتابته عما شهد فى هذه السنوات بالدقة ، وكان لها رونق وفيها عذوبة ، ومع أنه لم يزر أرضاً جديدة مجهولة لم يطرقها أحد من قبله ، فإن مذكراته عن رحلاته لم تخل من طرافة ، وحسب بركهارت أنه كان من الرحالة القلائل فى عصره ، الذين قاموا برحلاتهم خدمة للعلم ... لم يكن تاجراً ، ولم يكن داعية حرب ، ولم يذهب فى سبيل راية ، أو من أجل التبشير بدين ، وإنما دفعه حب الاستطلاع والبحث عن الحقيقة إلى أن يرحل وأن يسجل ما رأى فى هذه الرحلات .

وكانت إفريقية حتى أوائل القرن الثامن عشر لا تزال فى نظر الغرب قارة شبه مجهولة ، إذ تحكمت ظروفها الطبيعية فى حركة الكشف عن أجزائها . إن ساحلها لا يشجع أبداً على اختراقها ، فأجزاء طويلة منه يكاد لا يوجد بها مكان واحد تستطيع السفن أن تلجأ إليه ، ولهذا كانت موانيها الطبيعية قليلة إلا فى الشمال . وتظاهر الصحارى وأشباهها نصف سواحل القارة تقريباً ، وتظاهر الغابات الكثيفة معظم الجزء الباقى ، وهى غابات يصعب اختراقها ، بل ربما استحال فى بعض الأحيان .

وقليل من الأنهار الأفريقية هو الذى يصلح للملاحة ، إما لأن مجاريها تزدحم بالجنادل والشلالات ، وإما لأن مصباتها تسدها الحواجز ، أو تنتهى إلى البحر فى أخاديد تخنقها الغابات ، ومن ثم كان الوصول إلى الداخل عن طريق الماء أمراً لا سهولة فيه ولا يسر .

ولم يكن الانتقال بطريق البر قبل وسائل النقل الميكانيكى أقل صعوبة ، إذ أدى انتشار ذباب تسى تسى إلى تعذر استخدام الخيل أو الماشية أو أى نوع آخر من الحيوان دابة للنقل فى مساحة واسعة من القارة ، ولهذا كان لا يوصل إلى الداخل إلا سيراً على القدم ، ولا يستخدم للعمل والنقل سوى الإنسان .

وكان مناخ القارة باستثناء أطرافها الشمالية والجنوبية مما لا يلائم الأوربيين ، بل وكان قاضياً عليهم فى كثير من الأحيان حتى عرفت الطرق الحديثة لعلاج ما توطن فى المناطق الحارة من أمراض .

أمام هذه المصاعب لم يكن غريباً أن يتأخر كشف الأوربيين لإفريقية إلى عهد حديث . . . لقد كان العرب يعرفون الكثير عن القارة الغامضة منذ العصور الوسطى حين كانت قوافلهم تعبر الصحراء من بلاد المغرب إلى تمبكتو ، وقد كتب ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى وصفاً مفصلا لهذه المنطقة ، ولكن هذه المعلومات العربية ظلت مجهولة خارج نطاق العالم الإسلامى ، وكان أثرها ضئيلا فى رحلات الكشف التى تمت بعد ذلك . واقتصرت معرفة الأوربيين بإفريقية على الاستكشافات التى قام بها المصريون والإغريق والرومان . وكان الرحالة القدماء يسلكون طرقاً ثلاثة رئيسية تسير مع السواحل الشرقية أو السواحل الغربية أو تصعد فى حوض النيل . وشملت معلوماتهم عن سواحل إفريقية الجزء الغربى منها حتى مكان « سيراليون » ، كما عرفوا حوض النيل حتى منطقة السدود . وقد اجتذبت منابع النهر اهتمام القدماء ، ولم يكن هذا غريباً إذ أن النيل هو النهر الذى غذى الحضارة المصرية وعلى أساسه قامت واستقرت ، وهو يجرى لمسافة طويلة عبر الصحراء دون أن ينصب فيه رافد واحد يجدد من حيويته ، وهو يعد أطول الأنهار التى عرفها إنسان ذاك الزمان .

(١)

ويأتى العصر الحديث وتبدأ محاولات جديدة للكشف عن أسرار القارة الغامضة ، وتمر هذه المحاولات فى أربعة أدوار لكل منها خصائص ومميزات .
ويمتد الدور الأول من القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وفيه يقوم رحالة غرب أوربا بزعامة البرتغال بالكشف عن بقية سواحل القارة ، ويجمعون قسطاً من المعلومات عن أحوالها الداخلية ، وهى معلومات تحتاج إلى تمحيص واستقصاء .

ويمثل الدور الثانى أهم فصول قصة الكشف الجغرافى فى افريقية ، وقد افتتحه « بروس » برحلته التى قام بها فى سنة ١٨٦٨ وينتهى بوفاة « لفنجستون » (١٨٧٣) بعد ذلك بمائة وخمسة أعوام .

أما الدور الثالث فهو مرحلة الكشف السياسى ، ويشمل بصفة عامة الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ويبدأ برحلة ستانلى إلى الكنغو فى سنة ١٨٧٤ وينتهى بتقسيم القارة بين الدول الأوربية .

ويمتد الدور الرابع حتى اليوم ، وهو يمثل مرحلة الكشف العلمى المفصل كخطوة أساسية فى سبيل التطور السياسى والاقتصادى للقارة ، وهو دور بدأه الاستعمار لخدمة أغراضه وحماية مصالحه ، وجدير بإفريقية المستقلة أن تواصل السير على الدرب حتى تكشف عن شخصيتها ، وحتى تعرف بنفسها مكانها من العالم ، وحتى تستخدم إمكانياتها ومواردها فى تقوية بنائها ورفع مستوى شعوبها .

(٢)

وبركهارت من رحالة الدور الثانى وإن لم يوفق فى الكشف عن مجهول من القارة ، فقد خرج من انجلترا ليتجول فى داخل إفريقية ولكنه مات وهو على الأعتاب ، وحينما بدأ هذا الدور لم يكن الأوربيون قد زاروا سوى أجزاء محدودة من القارة ، وحتى هذه الأجزاء لم تكن قد وصفت بعد الوصف الدقيق ، بل ولم يكن الساحل قد عرف كما يجب ، ولم يرسم رسماً قريباً من الصواب إلا عند ما قام بمسحه كابتن أوون Owen فى المدة من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٢٥ .

وكان من أهم العوامل المشجعة على الاستكشافات فى هذا الدور أن بدأت الحملة للقضاء على تجارة الرقيق ، وتركزت الأنظار على إفريقية المصدر الأول للسلعة الآدمية ، وزاد اهتمام الرأى العالمى بهذه القارة الغامضة ، وكان من مظاهر هذا الاهتمام أن تكونت فى سنة ١٧٨٨ الجمعية الإفريقية African Association تحت رعاية السير « جوزيف بانكس » Joseph Bankes .

ولم يتجه اهتمام الجمعية الإفريقية إلى نهر النيل بل اتجه إلى مشكلة جغرافية أخرى هى مشكلة نهر النيجر الذى أصبح أمره محيراً للاذهان أكثر من منابع نهر النيل . ولم يكن النيجر قد عرف كنهر مستقل حتى ذلك التاريخ . . لقد رآه ابن بطوطة قبل ذلك بأربعة قرون فظن أنه النيل وكتب فى رحلته : « ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو ، والنيل ينحدر منها إلى كابره ثم إلى زاغة . . . ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم إلى كوكو ... الخ(*) .

وهكذا لم يكن أحد فى أوائل القرن التاسع عشر يعرف من أين ينبع النيجر ولا إلى أين ينتهى ...أينتهى إلى البحر أم إلى بحيرة كبيرة فى الداخل ؟ بل لم يكن أحد يعرف فى أى اتجاه يسير . . أيمكن أن يكون هو النيل الأعلى؟؟ أم يكون أحد نهرى الغرب — غمبيا والسنغال — هو مصبه ؟

لقد قامت الجمعية الإفريقية لتجيب عن مثل هذه الأسئلة . . وكانت محاولاتها الأولى فاشلة لسوء الحظ . . لقد أرسلت أربعة رحالة تحت رعايتها الواحد تلو الآخر وهم «لديارد» Ledyard و«لوكاس» Lucos، و«هورنمان» Horneman ، و«هوتن» Houghton ولكنهم جميعاً لم يصادفوا سوى الخيبة ، ولقى ثلاثة منهم حتفهم فى إفريقية، ووقع اختيار الجمعية فى المرة الخامسة على « منجوبارك» Mungo Park وكان أسعد حظا من زملائه فوصل فعلا إلى نهر النيجر ، وأذاع حقيقة جريانه

(*) « مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » المطبعة الأميرية ١٩٣٣ الجزء الثانى صفحة ٣٠٠ .

إلى الشرق ، وعاد بوصف لجغرافية النهر كما يتصورها سكان البلاد ، ولكنه لم يستطع أن يعرف من أين ينبع النهر ولا فى أى مكان يصب ، وحاول مرة أخرى — على حساب الحكومة لا على حساب الجمعية — أن يركب النهر هابطاً فيه ليصل إلى مصبه ولكنه لقى حتفه عند « بوصا » فى أوائل سنة ١٨٠٦ . وفى السنة التالية وصل إلى الجمعية نبأ وفاة مبعوث آخر من رجالها هو هنرى نيكولز Henry Nicholls عند خليج بنين وهو يعد نفسه لرحلة استكشافية فى داخل البلاد .

(٣)

فى هذا الوقت الذى سيطر فيه اليأس على الجمعية أو كاد ، وفد على لندن شاب غريب عنها فى الخامسة والعشرين من عمره ، وجاءها يبحث عن عمل بعد أن ضاق بالأوضاع فى بلده وفقد المال والجاه

كان هذا الشاب هو الولد الثامن ، لجون رودلف بركهارت ، الشهير باسم بركهارت كرشجارتن Kirshgarten نسبة إلى قصره فى بازل . وقد استهل الأب حياته فى أحسن الظروف ، ولكن سرعان ما تغير الحال بقيام الثورة الفرنسية ، فبدأ يواجه منذ اللحظة الأولى لقيامها سلسلة من المتاعب والأخطار أوشكت أن تصل به إلى المقصلة فى يوم من الأيام . لقد حكم عليه الحزب الفرنسى فى بازل بالإعدام بتهمة الخيانة وممالأة الأعداء بتسليمه حصن هننجن Hunengin للنمسويين فى سنة ١٧٩٧ . وظهرت الأدلة واضحة فيما بعد على أن بركهارت برىء مما نسب إليه ، وأدى هذا إلى الإفراج عنه ، ولكن الرجل وجد أن ليس من الحكمة أن يظل تحت رحمة الفرنسيين ، خصوصاً وقد تجمعت لديه الأدلة على أنه لا بد مقضى عليه ، فهو فى رأس قائمة الشخصيات التى تقرر التخلص منها بأى وسيلة فى السر أو فى العلن ، ولهذا نجده يلتحق بالفرقة السويسرية التى تعمل فى خدمة إنجلترا ، ويترك زوجته وأطفاله فى بازل عسى أن ينقذ بقاؤهم فيها الأسرة من تدمير تام .

فى هذا الجو الخانق وفى مدينة لوزان ولد الطفل « جون لويس » وفيها نما

وترعرع وهو يرى بعينيه كل يوم مظاهر الشقاء التى تعانيها أسرته تحت الحكم الفرنسى الجمهورى . . . لقد ضاع كل شيء ، الثروة والجاه ؛ ولم يعد للأسرة من مجدها القديم سوى ذكريات تجترها كلما ضاقت منها النفوس . وفقد الطفل وهو لا يزال فى فجر حياته كل ثقة فى الحكم الفرنسى ، واحتقر المبادىء التى ينادى بها الفرنسيون ، وقر فى ذهنه ألا يعيش أبداً تحت سلطانهم ، وتعلقت آماله بأن يخدم فى جيوش الدول التى تحارب فرنسا حينما تسمح له السن أن يكون من حملة السلاح ، ولكن لابد له من أن يتم تعليمه أولا فهو صبى طموح لاتعوزه القدرة ولا ينقصه الذكاء ، وكانت موارد أسرته لا تزال تسمح له بأن يتعلم على يد معلم خاص يزوره فى بيت أبيه ، ولهذا لم يلتحق بدراسة نظامية إلا لمدة سنتين قضاها فى معهد بنيوشاتل .

ويبلغ الصبى السادسة عشرة من عمره فى سنة ١٨٠٠ فيحمله أبوه « الزعيم بركهارت » إلى جامعة ليبزج وفيها يقضى أربع سنوات ثم ينتقل إلى جامعة جوتنجن ، وفى كلتا الجامعتين كان « جون لويس » طالباً مثالياً أكسبته مواهبه الممتازة ، ورغبته الصادقة فى المعرفة ، وتمسكه بقواعد الشرف ، تقدير أساتذته واحترام زملائه ، وأصبح له مجموعة كبيرة من الأصدقاء يحبون فيه صراحته الكاملة ، ومرحه المعتدل ورقة حاشيته وصفاء طبعه .

وترك بركهارت جوتنجن فى سنة ١٨٠٥ ليلحق بأبيه ، ومضت عليه فترة لا يعرف أى خطة يرسمها لمستقبله . . إنه يريد أن يعمل ولكن بعيداً عن فرنسا والفرنسيين . ويتعذر عليه أن يجد فى القارة دولة لا تربطها بفرنسا رابطة . لقد أصبحت كل الدول الأوربية إما خاضعة لفرنسا أو متحالفة معها ، ولهذا يرفض غير آسف وظيفة فى السلك السياسى يعرضها عليه البلاط الألمانى .

وأخيراً ينتهى به التفكير إلى أن يرحل إلى إنجلترا عسى أن يجد الباب مفتوحا فيدخل فى خدمة هذه الدولة التى لم تخضع بعد لفرنسا أو تتحالف معها ويصل إلى لندن فى يولية سنة ١٨٠٦ مزوداً بتزكية كثير من الرجال الممتازين ومن بينهم

بلومنبـاخ Blumenbach أستاذه فى جامعة جوتنجن الذى حمله رسالة إلى السر جوزيف بانكس يزكى فيها تلميذه ويوصيه به خيراً .

ويتعرف بركهارت بكثير من أعضاء الجمعيـة الإفريقية البارزين ، ويعلم عن طريقهم أن الجمعيـة بدأت تعتقد أن الأفضل لرحالتها الذين تبعثهم للـكشف عن داخل إفريقية أن يحاولوا الوصول إليه من الشمال لا من الغرب كما كانوا يفعلون. وتلقى أهداف الجمعية هوى فى نفس بركهارت الذى تميز برجاحة العقل وحب العلم وروح المغامرة ، فلا يمضى طويل وقت حتى يتقدم إلى السير جوزيف بانـكس والدكتور هاملتون أمين صندوق الجمعية وكاتم سرها بالنيابة ، عارضاً خدماته ، ويرحب الرجلان بالسويسرى الشاب لـما يعرفان من خلقه وشجاعته . ويعرض هاملتون طلبه على الجمعية الإفريقية فى اجتماعها السنوى العام فى مايو سنة ١٨٠٨ فتوافق عليه ، ولا شك أن هـذا الأمر قد أثلج قلب بركهارت ، فقد أرضى طموحه ، وفتح أمامه البـاب واسعاً لمغامرة طويلة قد يكون من ورائها ذيوع شهرته وضم اسمه إلى سجل النابهين من الرحالة والمستـكشفين .

ولم تصل موافقة الجمعية رسمياً إلى بركهارت إلا فى ٢٥ يناير من سنة ١٨٠٩ ، ولـكنه بدلا من أن يقضى هذه الشهور الثمانية يستبد به القلق ، ينتقل إلى كمبردج ليتعلم اللغة العربية وفروع العلم الضرورية لشخص يوشك أن يقوم بمهمة كمهمته ، فيحضر محاضرات فى الـكيمياء والتعدين والفلك والطب والجراحة ، فإذا ما فرغ من دروسه أخذ يتأهب لما هو مقبل عليه من مغامرة .

ولو كنت ممن يتجولون فى ريف مقاطعة كمبردج فى صيف سنة ١٨٠٨ لاسترعى انتباهك شاب وسيم قد أطلق لحيته الـكثة السوداء وهو يسير على قدميه عارى الرأس لمسافات طويلة وبخاصة فى الأيام الصاحية التى تشرق شمسها وترتفع درجة حرارتها ، فإذا ما أنهـكه الجوع أخرج من مخلاة صغيرة يحملها قليلا من الخبز والخضر يسكن بها صراخ بطنه ، وربما استبد به التعب فنام فى ظل شجرة أو على ضفة نهر . . . إنه « جون لويس بركهارت » يدرب

نفسه على تحمل المشاق قبل أن يبدأ المغامرة التى سعى إليها ووافقت الجمعية على أن يقوم بها .

وتقضى التعليمات الصادرة إلى بركهارت بأن يسافر إلى سورية أولا حتى يتقن اللغة العربية ، فقد أصبحت أهم المؤهلات ما دام يريد أن ينفذ إلى داخل القارة عن طريق الشمال ، وحتى يستطيع أن يعيش فى مجتمع لا تختلف عاداته وتقاليده عنها فى البيئة التى سيتخذها قاعدة يطرق منها أبواب الداخل الغامض المجهول ، وبذلك يسهل عليه تجنب الأخطار التى قد تنشأ عن اكتشاف أمره فى المستقبل . وكان عليه بعد أن يقضى عامين فى بلادالشام أن يرحل إلى القاهرة ليصحب إحدى القوافل التى تسير منها إلى واحة مرزوق التى سيتخذ منها بداية لرحلته داخل إفريقية .

وفى ٢ مارس سنة ١٨٠٩ يستقل بركهارت باخرة تجارية تقلع بحمولتها من ميناء كاوس Cowes فى جنوب انجلترا متجهة إلى ميناء البحر المتوسط ، ويصل إلى مالطة فى أواسط ابريل فيسارع بكتابة رسـالة إلى السير جوزيف بانكس مؤرخة فى ٢٢ ابريل يخبره بوصوله إلى الجزيرة الصغيرة وأنه علم من أحد تجارها أن طبيباً ألمانيا يدعى دكتور سيتزن Dr. Seetzen وصل إلى القاهرة منذ عام ونصف وأنه يستعد للقيام برحلة إلى داخل افريقية .

ثم يبعث إليه مرة أخرى بخطاب مؤرخ فى ٢٢ مايو يخبره بأنه سيسافر من مالطة إلى حلب كتاجر هندى مسلم اسمه ابراهيم بن عبد الله يحمل رسائل من شركة الهند الشرقية إلى قنصل بريطانيا الذى هو فى نفس الوقت وكيل الشركة فى حلب ، ويذكر له أنه نجح فى أن يظهر بالمظهر الشرقى الصحيح فى أثناء إقامته بمالطة وأنه تدرب قدر استطاعته على الحديث باللغة العربية ، ويؤكد اعتقاده فى أن سره لم يقف عليه أحد . ثم يسترسل فى خطابه فيترك الحديث عن نفسه لينقد الرأى الذى يقول بأن صقلية هى مصدر التربة التى تغطى أراضى مالطة، ثم يتحدث عن الحكومة المالطية وسياستها .

وتنقطع أخبار بركهارت عن الجمعية لمدة أربعة شهور ، ثم يكتب لها من حلب فى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٩ رسالة طويلة يقص فيها أخبار رحلته من مالطة حتى استقر به المطاف فى حلب ، فيتحدث عن أصحاب المراكب وعدم تمسكهم بكلمتهم ، وعن رفاقه فى الرحلة وأسئلتهم الكثيرة التى وجهوها إليه عن الهند وسكانها ولغاتها ، وإلحاحهم فى أن يذكر لهم نماذج من اللسان الهندى ، وكيف كان رد عليهم بجمل ألمانية ينطقها بأسوأ اللهجات السويسرية ، ويصف الطريق الذى سلكه فى البحر والبر والبلاد الذى نزل بها وأنماط الحياة السائدة فيها والأشخاص الذين قابلهم وأحاديثه معهم ؛ ولا يجد حرجا فى أن يذكر أن ما جمعه من المعلومات عن بعض البلاد لا يكفى لكى يصدر عليها حكما سليما ، ويصلح مواقع بلاد أخرى على الخريطة ؛ فيذكر مثلا أن طرسوس التى ترى على كثير من الخرائط بلداً ساحليا إنما تبعد فى الواقع عن البحر بأكثر من ثلاثة أميال .

ويتحدث فى نهاية خطابه عن الحمى التى أصابته عقب وصوله إلى حلب ببضعة أيام ويذكر أنه يعتزم البقاء فى حلب حتى نهاية الصيف التالى وأنه وفق فى الحصول على معلم كفء للغة العربية ، وسوف يقوم بزيارة البدو فى صحرائهم ليقضى بينهم عـــدة شهور وذلك حينما يصبح فى مقدوره أن يتحدث إليهم بلهجاتهم .

(٤)

وعاش بركهارت فى سورية عامين ونصف عام يضيف كل يوم جديداً إلى معلوماته فى اللغة العربية وإلى خبراته بأخلاق أهل الشرق وطباعهم وبأحوال المجتمع الإسلامى وعاداته . واتخذ من حلب المركز الرئيسى لإقامته ، وظل يحمل اسم « إبراهيم بن عبد الله » الذى أطلقه على نفسه فى مالطة ، ولكنه إيماناً منه بأنه لا يزال قليل الخبرة والتجربة فى تمثيل دور المسلم ، واعتقاداً بأنه ليس هناك ضرورة ليعيش متخفيا فى حلب ، لم يكن حريصاً على أن يخفى أصله

الأوربى ، وا كتفى بأن يلبس الملابس التركية كما كانت عادة أمثاله من الرحالة الأوربيين ، لا رغبة فى التخفى وإنما اتقاء لما يمكن أن يوجه إليهم من إهانات ، ومن ثم يستطيع أن يختلط بالمسلمين فى حلب ويستطيع فى نفس الوقت أن يتصل بالأجانب إذ لم يعد هناك ما يحول بينه وبين هذا الاتصال ، وقد ساعده هذا على أن يستفيد بحماية مستر باركر قنصل بريطانيا والمستر ماسيك (Masseyk) قنصل هولندة السابق وغيرهما من أعضاء الجالية الأوربيـــة التى تعيش فى حلب .

وقضى بركهارت معظم وقته فى مدينة حلب يتعلم اللغة العربية ، وكان مقررا ألا تطول إقامته فى الشام لأكثر من عامين . ولكنه بعد مضى سنة يكتب إلى الجامعة بأنه وإن يكن يبذل كل ما فى وسعه لإجادة اللغة العربية إلا أنه يحس بأن صعوبتها تجعل المدة الباقية لا تكفى لتحقيق رغبته ، ويلتمس من الجمعية أن تسمح له بستة شهور أخرى يقضيها فى بلاد الشام . وتجيبه الجمعية إلى طلبه ويقبل بركهارت على دراسته ويحاول أن يكتب قصة عربية مقتبسة من قصة روبنصن كروزو مستعينا فى كتابتها برجل من الافرنج ولد فى حلب لا يكتب العربية ولا يقرؤها ولكنه يتكلم بها كأحد الوطنيين . ويطلق على قصته عنوان « در البحور » ويرسل بها إلى السير جوزيف بانكس .

ويتعرف على أحد شيوخ التركمان الريحانلية ،ويتفق معه على زيارة المنطقة التى تسكنها قبيلته كطبيب يبحث فى خواص الأعشاب الطبية ، فيترك حلب ليقيم أسبوعين من شهر مارس سنة ١٨٠٩ مع هذه القبيلة الرحالة التى تخيم على مسيرة يوم من حلب فى فصل الشتاء والربيع . . . ومرة أخرى يرافق فى سبتمبر سنة ١٨١١ قافلة إلى السخنة ومنها إلى ضفاف الفرات ، ولكن وصف هذه الرحلة لا يصل إلى الجمعية كما هى عادة بركهارت دائما ، وأغلب الظن أنه بعث بتقريره ثم ضاع فى الطريق .

ويترك بركهارت حلب فى صيف سنة ١٨١٠ ليزور تدمر وحوران وينتهى

به المطاف إلى دمشق فيقضى فيها ثلاثة شهور ويقوم منها برحلتين تستغرق إحداها أسبوعين يطوف فيهما بجبال لبنان الساحلية والداخلية ويزور زحلة وبعلبك ووادى البقاع ، ويزور فى الرحلة الأخرى منطقة حوران التى آخر زيارته لها تغير الحكومة فى دمشق وما تبع ذلك من اضطراب .

ثم يعود إلى حلب وقد غاب عنها ستة شهور ليواصل تعلم اللغة العربية وليتم استعداده لرحلته الإفريقية . ويواصل كتابة الرسائل إلى السير جوزيف بانكس والدكتور هاملتون ، وهى رسائل مفصلة يتحدث فيها عما يدور حوله وعما يجمعه من معلومات . فيتحدث عن تاريخ حلب المعاصر ، وعن إغارات السعوديين على بلاد الشام ، وعن عزل يوسف باشا والى دمشق وتولية سليمان باشا حاكم عكا مكانه ، وعن إغلاق الوهابيين لطريق الحج الشامى والمحاولات التى يبذلها الولاة الأتراك لإعادة فتحه . ويتلقف الأخبار من جميع مصادرها الممكنة ، فيتعرف إلى درويشين فارسيين يصلان إلى حلب وكانا قد قضيا عامين فى بلاط آل سعود فى الدرعية ، كما يتعرف بشيوخ القبائل الذين يفدون إلى حلب للتجارة والميرة ، ويرسل إلى الجمعية بدراساته وملاحظاته ، فيبعث إليها بتصنيف للقبائل العربية فى بادية الشام ، ويبحث عن عادات البدو وشمائلهم ، وببعض ملاحظات عن جغرافية الصحراء ، هذا بالاضافة إلى التقارير التى يكتبها عن الرحلات التى يقوم بها فى بلاد الشام .

وفى فبراير سنة ١٨١٢ يغادر حلب نهائياً فيصل إلى دمشق ويقيم بها فترة يزور خلالها حوران مرة أخرى ، ثم يغادر دمشق فى ١٨ يونية فى طريقه إلى مصر ، فيزور طبرية والناصرة ويمكث بها أياما حيث يلتقى ببعض التجار من السلط فيصحب قافلتهم ويهبط إلى إقليم الغور قرب بيسان فيزور السلط ومنها يزور خرائب فلادلفيا (عمان) وينتهى به المطاف إلى وادى موسى أحد أودية جبال الشراة حيث يسره أن يرى بقايا مدينة أثرية تتكون من عدد كبير من المبانى والتماثيل المنحوتة فى الصخر . ويكون بذلك أول أوربى يزور خرائب مدينة « بترا » عاصمة بلاد العرب الحجرية . ثم يتجه الى الغرب سالكا وادى عربة ومخترقاً صحراء التيه ، ومن السويس يسلك طريق الحج حتى يصل إلى القاهرة .

(٥)

وصل بركهارت إلى القاهرة فى الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٨١٢ ، وكان أول عمل له بها أن يكتب وصفاً مفصلا لرحلته من دمشق إلى عاصمة مصر ولم يلبث أن بعث بهذا الوصف إلى الجمعية .

وحدث عند وصوله إلى القاهرة أن سمع بخبر قافلة صغيرة توشك أن تترك مصر إلى القسم الشمالى من الصحراء الكبرى ، وكان طريقها هو نفس الطريق المفروض أن يسلكه بركهارت قاصداً بلاد النيجر ، وفكر رحالتنا الشاب فى الموضوع واستقر رأيه على التخلف فى القاهرة بعض الوقت . . . إنه لا يريد أن يعرض آماله للأخطار بالاشتراك فى قافلة لا يدرى من شأنها سوى القليل ... إنها فرصة ما فى ذلك شك ، ولكن النجاح فيها غير مضمون ، وإذا لم تكن الفرصة السانحة فيها كل عوامل النجاح فمن الأفضل أن يؤجل تنفيذ مشروعاته ، وخير له أن يبقى فى مصر عدة شهور ليتعود الحياة فيها وهى لا شك تختلف عن الحياة فى بلاد الشام ، ويكتب إلى الجمعية فتقره على رأيه فليس هناك أخطر من الاستعداد الفج فى رحلة خطيرة كتلك التى يعتزم رحالتها القيام بها .

ويكتب بركهارت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨١٢ رسالة إلى الدكتور هاملتون سكرتير الجمعية الإفريقية يعبر فيها عن مشاعره نحو هذا الموضوع ، ويتحدث عن اعتزامه القيام برحلة برية إلى مصر العليا وبلاد النوبة بمجرد أن تسمح حالة النهر بذلك، وأن فى نيته أن يتجاوز الشلال الثالث إذ أن المنطقة التى تقع فوق الدر لم يزرها أحد من الرحالة من قبل،وهى كما علم من بعض الوطنيين غنية بالمعابد القديمة والآثار التى تشبه آثار الأقصر وجزيرة فيلة ، ويشجعه على القيام بهذه الرحلة مالاحظه من استتباب الأمن فى مصر ،ولو لم يكن المماليك الذين استقروا فى دنقلة يسيطرون على النوبة لكانت زيارة دنقلة ضمن خطته ، « ولكنى لن أعرض نفسى لطغيانهم وسأكون سعيداً لو وصلت إلى ما يبعد عن دنقله بمسيرة خمسة أيام أو ستة ، واستطعت أن أقوم ببعض رحلات هامشية فى الصحراء النوبية » . وكان بركهارت يأمل أن تجعله هذه الرحلة ملماً بطبيعة الأمم الإفريقية وسلوك تجار الرقيق فإن هذا

مما يسهل عليه مهمة جوب داخل القارة ، وقد قدر أن تستغرق رحلته نحو خمسة شهور ، ولا ضير فى ذلك إذ لا ينتظر وصول قافلة من فزان إلى مصر قبل شهر يونية التالى ، ومن ثم فسيكون لديه من الوقت ما يمكنه من الالتحاق بها عند عودته إلى القاهرة .

وقد حقق بركهارت القسم الأول من خطته على الصورة التى وصفها ، ولكن « رحلاته الهامشية فى الصحراء النوبية » كانت أوسع مما تعلقت به آماله ، فقد قادته إلى أن يصل إلى ضفاف نهر استابورس (عطبرة) ومن هناك عبر الصحراء الى سواكن على ساحل البحر الأحمر . وكانت هذه الرحلة فى صحراء النوبة ورحلته الأولى على طول النيل حتى دنقلة هما الرحلتين الوحيدتين اللتين أراد له القدر أن يقوم بهما فى افريقية الهدف الأول لرحلاته ، ولكنهما ادتا لرحلة إلى بلاد العرب نتج عنها كثير من الدراسات التى لم تكن أقل إثارة وجدة من الدراسات التى قام بها بركهارت فى بلاد النوبة .

ومع أن بركهارت أقام فترة طويلة فى مصر العليا بين رحلتيه النوبيتين ، وأنفق ما يقرب من عامين فى رحلاته الأفريقية الآسيوية ، فإن هذا لم يكن سبباً فى ضياع أى فرصة للوصول إلى هدفه الأساسى ، فلم تقم من مصر أى قافلة تسلك الاتجاه الغربى إلى ليبيا الجنوبية خلال مدة تغيبه عن القاهرة .

ويواصل بركهارت كتابة رسائله إلى الجمعية ، فيبعث فى ٢ مايو سنة ١٨١٣ برسالة من إسنا كانت أولى رسائله منذ مغادرته القاهرة فى ١١ يناير . وكان قد عاد لتوه من رحلته الأولى فى بلاد النوبة . فيتحدث عن الرحلة وعن نجاحه فى الخطة التى رسمها لنفسه ، ثم يكتب من أسيوط فى ١٢ يوليه يبدى أسفه لعدم تمكنه من مصاحبة قافلة سنار بالسرعة التى كان يتوقعها . وفى رسالة من إسنا بتاريخ ١٤ أكتوبر يبرر تأخره عن مواصلة أسفاره بانتشار المجاعة فى بلاد النوبة مما اضطر القوافل إلى التجمع فى بلدة « دراو » انتظاراً لموسم الذرة الجديد ، ويشير إلى أنه ينوى حينما تسمح الظروف أن يتجه من الدامر إلى مصوع ومنها

يعبر البحر الأحمر إلى ساحل بلاد العرب ليعود إلى القاهرة عن طريق الحجاز ، ويأمل أن تقره الجمعية الإفريقية على ذلك .... إنه لم ينس هدفه الأول وسوف يبدأ رحلته الإفريقية حينما يعود إلى القاهرة ، ولكنه يرى أن رحلة إلى داخل بلاد النوبة تستحق ما ينفق عليها وما تتطلبه من وقت ، وأن امتداد الرحله إلى بلاد العرب سيجعله أقدر على مجابهة ما قد يتعرض له من أخطار فى رحلاته المقبلة فى أنحاء العالم الإسلامى .

وخلال الفترة المضجرة التى كان محتوما على بركهارت أن يقضيها فى مصر العليا استمر متخفياً فى زى تاجر مسلم بسيط ، وكان شديد الحرص على ألا يكشف أمره أو تعرف أغراضه ، ولم يستطع أن يغادر إسنا إلا فى ٢ مارس سنة ١٨١٤ ليبدأ رحلته النوبية الثانية . وكان من الصعب عليه بعد أن ترك دراو أن يجد الفرصة الكافية لكتابة مذكراته وتسجيل ملاحظاته . وكان أكثر صعوبة من هذا أن يبعث برسائله إلى الجمعية حتى وصل إلى سواكن ومنها عبر البحر الأحمر إلى بلاد العرب ، ومن جدة أرســـل إلى السير جوزيف بانكس بخطاب مؤرخ فى ٧ أغسطس سنة ١٨١٤ يصف فيه الطريق الذى سلكه وأهم المعلومات التى جمعها خلال رحلته النوبية الثانية ، تلك الرحلة التى لم تصل المعلومات المفصلة عنها إلى الجمعية إلا فى سنة ١٨١٦ وهى التى تكون الجزء الأكبر من هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

وانقضى ما يقرب من عام قبل أن تصل إلى الجمعية أى أخبار من رحالتها ، فقد كان الخطاب التالى مؤرخا من القاهرة بعد عودته إلى مصر من بلاد العرب وقد حالت أحواله الصحية السيئة دون أن يذكر فى هذا الخطاب كثيراً من تفاصيل رحلتـه فى بلاد العرب ، ولكنه أرسل فى السنة التالية إلى الجمعية أجمل قصة عن الحجاز ، ووصف المدينتين القدسيتين مكة والمدينة أحسن وصف ، فقد ساعدته معرفته الجيدة للغة العربية ووقوفه على عادات المسلمين على أن يمثل دور المسلم بنجاح حتى لقد استطاع أن يقيم فى مكة طول موسم الحج وأن يؤدى مع الحجاج جميع المناسك دون أن يحوم حوله أدنى شك .

وأراد محمد على ذات مرة أن يختبر إسلامه ؛ وكان فى مركز قيادته بالطائف ، ولم يكن يجهل أن بركهارت على صلة بانجلترا ؛ فدفع باثنين من أكبر علماء الحجاز فى ذلك الوقت ليمتحناه وليعرفا مدى علمه بالقرآن ومبلغ فهمه للشريعة الإسلامية . وكانت النتيجة اقتناع الممتحنين أو على الأقل إقتناع المستمعين بصحة إسلامه .

وحمل بركهارت لقب « حاج » وهو لقب كان يعتقد فى أهميته لرحلاته المقبلة فى قلب إفريقية ، وجمع من المعلومات عن بلاد العرب ما لم يتح لرحالة آخر قبله . ولكنه دفع الثمن غالياً فى سبيل الحصول على هذه المعلومات ؛ فليس من شك فى أنه لم يسترد عافيته أبداً بعد إقامته فى الحجاز ، ولم يبرأ من الآثار التى سببها جو الحجاز . لقد كانت هجمات الحمى والزحار التى بدأ يعانيها فى بلاد العرب هى السبب الأول الذى أدى إلى وفاته بعد سنتين من عودته .

وقد بعث من القاهرة فى ١٥ يونيه سنة ١٨١٥ بخطاب إلى السير جوزيف بانكس يذكر فيه : أنه مضى زمن طويل منذ كتب إليه رسالته السابقة فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، ويخبره بوصوله سالماً إلى جده ؛ ويشير إلى صعوبة إرسال الخطابات من الحجاز ، وإلى أن الأطباء لا يسمحون له بأن يكتب كثيراً ، ومن ثم فهو يكتفى بإعطاء صورة بسيطة عن رحلاته فى الحجاز . ويعلل تدهور صحته فى الحجاز بسوء المناخ ورداءة الماء . والماء الردىء فى نظره هو السبب المباشر فيما يحس به من اعتلال

وفى يولية من نفس السنة يكتب للدكتور هاملتون سكرتير الجمعية فيقول : « لن أقول شيئاً الآن عن رحلتى إلى داخل إفريقية عن طريق الصحراء الليبية ، ولا بد لى من وقت حتى أسترد صحتى وأتم كتابة تقاريرى ، وآمل حينما أفرغ من هذا العمل ألا يكون هناك ما يحول بينى وبين الإسراع فى القيام برحلتى الأخيرة التى أحس أننى الآن مؤهل لها كل التأهيل » .

وفى خلال الشهور التسعة التالية كان كل اهتمام بركهارت موجهاً إلى استرداد عافيته وإلى اعداد مذكراته عن رحلاته إلى النوبة وإلى بلاد العرب ليقدمها إلى

الجمعية ويتنقل الى الإسكندرية عسى أن يكون جوها أكثر ملاءمة له من جو القاهرة فيبرأ من علته ، ثم يتركها بعد ثلاثة أسابيع عائداً الى القاهرة عن طريق دمياط وقد أمضه طول الانتظار لقافلة تأتى من بلاد العرب فيعود معها ، ولكنه يتذرع بالصبر ويتعلق بواسم الآمال ويفرغ من إعداد مذكراته عن رحلاته فى بلاد النوبة ويبعث بها إلى الجمعية فى ٨ فبراير سنة ١٨١٦ .

(٦)

ويتفشى الطاعون فى القاهرة ويتوقع بركهارت أنه لا شك منتقل إلى أراضى الوادى والدلتا فيعتزم الرحيل إلى الصحراء ليعيش مع البدو فى شبه جزيرة سيناء إذ أنه لا يريد « أن يتصرف تصرف الوطنيين بالاستسلام للقضاء والقدر ، ولا تصرف الأفرنج بأن يحبس نفسه فى منزله شهوراً » ، ويترك القاهرة فى ٢٠ ابريل سنة ١٨١٦ فيزور دير سانت كاترين وخليج العقبة ويتجول فى أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة ، فإذا ما عاد إلى القاهرة فى ١٤ يونية سارع فكتب إلى الجمعية فى أول يولية خطابا يصف فيه رحلته بإيجاز ويذكر « أنه لا يزال قليل الأمل فى بدء رحلته الإفريقية فى وقت قريب » ويشير فى هذا الخطاب إلى مشروع بدأ يفكر فيه بالاشتراك مع مستر هنرى صولت والمسر بلزونى لنقل رأس ممنون من الصعيد إلى الاسكندرية ثم إلى لندن لضمها إلى مقتنيات المتحف البريطانى . .

وكانت رحلة سيناء هى آخر رحلات بركهارت . . وعاش بعدها فى القاهرة ينتظر القافلة المرتقبة عاكفا على ترتيب أوراقه وإعداد مذكراته عن رحلاته وقد يسمح له الوقت فيقوم بدراسات تتصل بالأدب الشعبى أو يسهم فى الترتيبات الخاصة بنقل رأس ممنون إلى الاسكندرية ومنها إلى إنجلترا ، فيرسل إلى الجمعية فى ٥ أكتوبر سنة ١٨١٦ بحثاً عن « بدو الجزيرة العربية » وآخر عن « تاريخ الحركة الوهابية وحملة محمد على إلى الحجاز » . ثم يرسل إليها فى ٢٠ فبراير ١٨١٧ مذكراته عن « رحلاته فى الحجاز » مع بعض ملاحظات جمعها من داخل إفريقية ، وترجمة لما كتبه المقريزى عن جغرافية بلاد النوبة وتاريخها ،

ويرسل مع الكابتن جامبير Gambier يونية سنة ١٨١٧ مجموعة من الأمثال القاهرية ليوصلها إلى الدكتور هاملتون ويجعل عنوانها « الأمثال العربية : أو شمائل وعادات المصريين المحدثين كما تصورها الأمثال العربية القاهرية » وقد جمع فيها ٧٨٢ مثلا تعطى صورة صادقة للمجتمع القاهرى فى ذلك العهد . وكانت هذه هى أول محاولة جدية يقوم بها رحالة لدراسة المصريين المحدثين ، ووضع بذلك الأساس لما قام به لين فيما بعد

ويرسل مذكراته عن رحلته فى سيناء ويفهم من خطابه الى السير جوزيف بانكس المؤرخ فى ١٨ مايو سنة ١٨١٧ أن هذه المذكرات تكون مجلداً ضخماً ولكنه يترك للجمعية حرية حذف ما تشاء عند نشرها . ويعتقد بركهارت أنه كان لديه الفرصة للكتابة فى هذه الرحلة أكثر مما كان له فى أى رحلة أخرى ، ويذكر أن هذه البلاد الصغيرة ذات الأهمية البالغة فى تاريخ البشرية لم تلق بعد ما هى جديرة به من العناية . ويلحق بمذكراته تعليقاً على الطريق الذى سلكه بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر .

ويواصل بركهارت كتابة رسائله الى الجمعية ، وهى رسائل تشتمل على كثير من الملاحظات عن أحوال مصر وحكومتها ، وعن الموضوعات التى كانت الغرض الأساسى لرحلته كمبعوث للجمعية الإفريقية ، وقلما تخلو رسالة من هذه الرسائل من إشارة لما يشعر به من الألم لعدم تمكنه من إنجاز مهمته ، ولكن اليأس لا يتطرق إلى نفسه برغم الحرج الشديد الذى يشعر به . . . «لقد مضى علىّ سنتان لا أفعل سوى التعليق على رحلاتى السابقة أو التحدث عن رحلاتى المستقبلة . . إنى اقدم وعودا بدلا من أن أؤدى أعمالا . . ومع ذلك فلا أزال غير قادر على التحرك من مصر ، فلم تصل بعد قافلة من الغرب ، ومنذ زمن طويل ونحن نتوقع وصولها ، وقد حال الانتظار بينى وبين القيام بأى رحلات أخرى . . ولو أن هناك طريقاً آخر يصل بى إلى داخل افريقية غير طريق فزان لما تأخرت عن سلوكه لما أشعر به من ألم خوفاً من أن يظن بى الكسل أو يفهم أن روحى قد ضعفت... لقد مضى علىّ ثمانية أعوام. ولكنى

بذلت كل ما فى وسعى لاكتساب المؤهلات التى تلزمنى فى مشروعى ... فإذا فشلت فإن خلفى سيحتاج إلى سنوات طويلة يتدرب فيها ليلج أبواب ليبيا بنفس الثقة التى أستطيع أن ألجها بها الآن ...» ويعلل بركهارت تأخر وصول القوافل من فزان باشتداد الطلب على العبيد السود فى ساحل بلاد المغرب ليحلو محل العبيد البيض الذين حررتهم حروب الرقيق ، ويتوقع أن تصل القوافل إلى مصر بمجرد أن يستوفى السوق المغربى حاجاته من هذه التجارة الآدمية خصوصاً وقد قضى الطاعون على كثير من العبيد فى مصر إذ هم فريسة سهلة له ، وأصبح السوق المصرى فى حاجة إلى وارد جديد .

وجاء موسم الحج لسنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) وقرر بركهارت أن يترك القاهرة فى صحبة الحجاج العائدين إلى ديارهم فى الغرب بدلا من أن ينتظر قوافل التجار . وكان يتوقع أن يبدأ فوج الحجاج المغربى رحلة العودة من القاهرة فى شهر ديسمبر . وكان قد أرسل إلى انجلترا كل الأوراق الخاصة برحلاته السابقة ، فعقد العزم على أن يبدأ مهمته الأساسية التى غادر إنجلترا من أجلها . وأحس أنه قد أصبح مسلحاً بالدراسات الكافية والخبرات العديدة حتى ليستطيع أن يتجول وهو مطمئن من فزان إلى النيجر وأن يلقى جزاء صبره الجميل ومثابرته الطويلة .

ولكن القدر أراد له أمراً آخر . ففى الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٨١٧ عاودته أعراض الزحار ، واشتد به الألم ، حتى لقد استدعى لعيادته الدكتور « ريتشاردسن » وهو طبيب بريطانى كان لحسن الحظ موجوداً بالقاهرة فى صحبة اللورد بلمور . وأسرع إليه الطبيب يسهر عليه ويرعاه ، وبذل كل ما يستطيع عسى أن ينقذ الرحالة الشاب من علته أو يخفف عنه آلامه ، ولكن المرض كان أقوى من كل دواء ، وأخذت حالة المريض تسير من سىء إلى أسوأ .

وأحس بركهارت فى صبيحة اليوم الخامس عشر من أكتوبر بأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من منيته ، فاقترح أن يستدعى صديقه مستر هنرى صولت قنصل بريطانيا فى مصر ليكون بجانبه ، ووافقه الطبيب على اقتراحه . ويقول مستر صولت فى خطاب أرسله إلى الدكتور هاملتون سكرتير الجمعية الإفريقية « لقد ذهبت فى

التو ، ولا أستطيع أن أعبر عن الصدمة التى واجهتها حينما رأيت التغيير الكبير الذى طرأ عليه فى مثل هذا الوقت القصير » . . . وبرغم شدة العلة ظل المريض محتفظا بكل حواسه وهو يملى على مستر صولت وصيته الأخيرة ، وهى وصية تدل تفاصيلها على ما كان يتحلى به بركهارت من صدق الوفاء والاعتراف بالجميل .

ولم تمض ساعات حتى أسلم الروح وهو يتحدث عن الرحلة التى كان يزمع القيام بها خلال شهرين مع القافلة العائدة من مكة إلى فزان ثم إلى تمبكتو . لقد كان صراعا بين الآمال الغاربة والأقدار الغالبة ، وانتهت فى هدوء حياة رحالة شاب عقدت عليه أوسع الآمال . وكانت جنازته إسلامية كما رغب ، وكانت جنازة حافلة تتفق مع المركز المحترم الذى كان له فى عيون المصريين . واستقر فى ثرى الأرض الطيبة الجسد الذى عاش صاحبه خمسة أعوام على ضفاف النيل .

(٧)

وتعرف بركهارت فى القاهرة باثنين من الزملاء هما هنرى صولت Henry Salt وجيوفانى بابتستا بلزونى Giovanni Baptista Bilzoni ، وعاش الثلاثة فى مصر فى وقت واحد ، وعاون كل واحد منهم زميليه فى تحقيق أهدافه ، وعملوا أكثر مما عمل غيرهم من رحالة العصر ، وكان أسبق الجميع وصولا إلى القاهرة جون لويس بركهارت حيث أقام بها من سبتمبر سنة ١٨١٢ حتى وفاته فى أول أكتوبر سنة ١٨١٧ .

وقد عين هنرى صولت قنصلا عاماً لبريطانيا فى مصر سنة ١٨١٥ . ولم يكد يصل إليها حتى بدأ فى سنة ١٨١٦ فى تكوين مجموعة من الآثار لحساب « إيرل مونتنورس » ، واستمر اهتمامه بالآثار المصرية حتى وفاته فى سنة ١٨٢٧ . وكان يجمعها بنشاط ويدرسها بعناية ويرسم لها لوحات بقلمه . وقد استخدم هو وبركهارت فى سنة ١٨١٦ جيوفانى بلزونى لنقل رأس ممنون إلى الاسكندرية بقصد إهدائها للمتحف البريطانى . وقد أوصى بركهارت وهو على فراش الموت بأن يدفع نصيبه فى هذا المشروع ، ويذكر صولت كاتب وصيته . « أنه كرر هذا مراراً خوفاً

من أن أظن أنه قد دفع فعلا ما يكفى كما لمحت إلى ذلك مرة » . . . وقد جمع سولت أثناء إقامته فى مصر كثيراً من التحف الأثرية وكان لديه أحسن مجموعة من البرديات حتى ذلك العهد . وكان أقصى أمانيه أن يكتب كتاباً عن مصر . ويقال إنه فرغ فعلا من تأليف هذا الكتاب ولكن أصوله ضاعت وكان كل ما خلفه أشعار عن مصر طبعت فى الاسكندرية .

أما الرحالة الثالث فهو « جيوفانى بابتستا بلزونى » ، وهو إيطالى عاش فى بريطانيا لمدة تسع سنوات ووفد على مصر هو وزوجته الإنجليزية فى سنة ١٨١٥ ، وقد استخدمه محمد على بعض الوقت لينشىء له محطة هيدروليكية ، وحينما فشل فى هذا المشروع قدمه بركهارت إلى مستر سولت واستخدماه فى نقل رأس رمسيس من طيبة إلى الإسكندرية . وقد أدى نجاحه فى هذه المهمة إلى أن يواصل عمله فى الآثار المصرية لمـــدة أربعة أعوام . ويحكى الكتاب الوحيد الذى ألفه بالانجليزية قصة حياته فى مصر ، وقد نشره جون مرى فى سنة ١٨٢٠ . وكان بلزونى يختلف عن زميليه فلم تكن له روح العالم ولا دقة الباحث ، ومع أنه نجح فى فتح هرم الجيزة الأوسط والكشف عن معبد أبى سمبل فلم يكن يحمل للآثار ولا لأصحابها أى احترام ، وكثيراً ما أحرق العظام وبقايا الموميات حينما كان يعوزه الوقود ... لقد كانت قصة بلزونى بحثاً عن الشهرة فحسب ، وتصيداً للآثار بطرق غير علمية وبوسائل غير مشروعة .

وقد عرض الجبرتى مؤرخ مصر الحديثة لموضوع الآثار واهتمام الأجانب بها ، وتحدث عن زيارة قام بهـا لمنزل هنرى سولت قنصل بريطانيا فى صحبة بركهارت فذكر فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢٣١ هـ : «أن طائفة من الإفرنج الإنجليز قصــدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة ببر الجيزة غربى الفسطاط لأن طبيعتهم رغبتهم الإطلاع على الأشياء المستغربات والفحص عن الجزئيات وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان والتصـاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى بالناحية القبليــة وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطالق الأقاليم بقصد هذا الغرض ويصرفون لذلك جملا من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم حتى أنهم

ذهبوا إلى أقصى الصعيد وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وتصاوير . ونواويس من رخام أبيض كان بداخلها موتى بأكفانها ، وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا . ووجه القبور مصور على تمثال صورته التى كان عليها فى حياته ، وتماثيل آدمية من الحجر الساقى الأسود المنقط الذى لا يعمل فيه الحديد جالسين على كراسى . واضعين أيديهم على الركب ، وبيد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة أطول من قامة الرجل الطويل ، وعلو رأسه نصف دائرة منه فى علو الشبر ، وهم شبه العبيد (المشوهين) الصورة ، وهم ستة على مثال واحد كأنما أفرغوا فى قالب واحد يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين ، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة .

«وأحضروا أيضاً رأس صنم كبير دفعوا فى أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيساً فيها ثلثمائة وعشرون ألف نصف فضة وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليهـا . وذلك عندهم من جملة المتاجرة فى الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير المعروف بالساعاتى وسيدى ابراهيم المهدى الانجليزى (بركهارت) إلى بيت القنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية وشهدت ذلك كما ذكرته وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم وصقالة أبدانهم الباقية على مر السنين والقرون التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

«وأرادوا الاطلاع على الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة ، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحين والغلقان وعبروا إلى داخلها وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره ونزلوا إلى الزلاقة ونقلوا منها ترابا كثيراً وزبلاً ، فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك ، هذا ما بلغنا عنهم . وحفروا حوالى الرأس العظيمة التى بالقرب من الأهرام التى تسميها الناس رأس أبى الهول فظهر أنه جسم كامل عظيم مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه

نقوش شبه قلم الطير وفى داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر وأبيض باسط ذراعيه فى مقعد الكلب ، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ورأيته يوم ذاك ، وقيس المرتفع من جسم أبى الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان اثنين وثلاثين ذراعا وهى نحو الربع من باقى جسمه وأقاموا فى هذا العمل نحواً من أربعة أشهر »(*) .

(٨)

لقد لفتت الحملة الفرنسية الأنظار إلى مصر وخاصة بعد أن ترجم كثير مما كتبه علماء الحملة إلى الانجليزية وأصبح لما يكتبه الرحالة أهمية خاصة ، ولو فحصنا الكتب التى تركها الرحالة الانجليز عن مصر لوجدنا أن ما ظهر منها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر مما ظهر فى أى وقت آخر ، ومعظم هذه الكتب مذكرات تزدحم بالمعلومات عن مظاهر الحياة المختلفة ، وهى فى الغالب معلومات جمعت فى سرعة وبدون تبصر لتحمل أكبر قسط من المعرفة دون أن يكون هناك ترابط بينها أو جمال فى اتساقها

وأدى استقرار الحال فى مصر واستتباب الأمن إلى أن يكثر عدد الرحالة الذين يزورون مصر العليا وبلاد النوبة . وكان معظم اهتمامهم موجهاً الى آثار البلاد، فلم تمض سنوات حتى كان فى استطاعة انجلترا أن تنشىء متحفاً خاصاً بالآثار المصرية فى سنة ١٨١٢ . ومع كثرة عدد الرحالة فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فإن الذين نشروا مذكراتهم لا يزيد على الخمسة وعشرين رحالة ، كان بركهارت بلا شك من أكثرهم دقة وأحسنهم وصفاً .

وبالرغم من أن رحلات بركهارت فى بلاد النوبة والمعلومات الشفوية التى جمعها من المناطق الداخليه من إفريقية التى تقع إلى الغرب هى وحدها التى تتصل بأغراض جمعية هدفها تشجيع اكتشاف المناطق الداخلية من إفريقية ، إلا أن

(*) راجع الجبرتى . « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » المطبعة الأميرية الجزء الثالث صفحة ٢٨٣ وما بعدها .

دقة ملاحظاته وطرافة معلوماته عن الأجزاء المختلفة من بلاد الشام وجزيرة العرب دفعت بالجمعية الإفريقية إلى أن تهتم بها جميعاً . فنشرت مذكراته عن بلاد النوبة في مجلد هو الذي بين أيدينا ونشرت كتاباته عن بلاد العرب في مجلد آخر نتمنى أن نرى ترجمته العربية النور في وقت قريب .

وقد نشرت « رحلات في النوبة » في سنة ١٨١٩ وأعيد طبعها في سنة ١٨٢٢ . والطبعة الثانية هي التي اعتمد عليها الأستاذ فؤاد أندراوس صاحب هذه الترجمة . وتشير مقدمة هذه الطبعة إلى أن بركهارت وإن يكن موهوباً بطبعه ، وعنده قدرة على الملاحظة ودقة فيها ، إلا أنه كتب رحلاته بلغة لم يتعلمها إلا وهو في الخامسة والعشرين من عمره ،ولم يكن قد تدرب على الكتابة بها قبل سفره الى تلك البلاد البعيدة حيث لم تعد لديه الفرصة ليسمعها أو يتحدث بها ، ولم يكن لديه الوقت ليلم باصول الأساليب الانجليزية ويحتذيها . وبالإضافة إلى هذه الصعوبات كتب مذكراته عن رحلاته التي يشتمل عليها هذا المجلد في ظروف غير مواتية ، كتبها كما يقول هو « في زاوية من فناء مكشوف أو بجانب إبله تحت حرارة الصحراء وفي رياحها السافية وهو يشكو من رمد بعينيه» ومن الضروري أن تتناول مخطوطة بركهارت بشيء من التعديل في الأسلوب ،وكان من اللازم في بعض الأحيان أن يعاد ترتيب المعلومات الموزعة في يوميات الرحالة حتى تجمع الملاحظات الخاصة بموضع واحد مع بعضها البعض . ولكن حرص على أن يكون هذا في أضيق الحدود حتى تعرض أفكار الرحالة كما هي على القراء دون تغيير أو تبديل .

ولكن مهما يكن من أمر، فإن لرحلة بركهارت قيمتها العلمية . . إنها تعطى صورة صادقة إلى حد كبير عن المجتمع النوبي وعن حياة العبابدة والبشاريين في أوائل القرن الماضي ، ولا يدعي بركهارت أنه قد الم بكل شيء بل يذكر في تواضع وهو يتحدث عن النوبيين (ص ١١٦) : « كانت إقامتي من القصر بحيث لا تتيح لي تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا ، وكان في مشاهداتي قصور سببه جهلي باللغة النوبية التي كان يستخدمها النوبيون في حديثهم في أثناء وجودي بينهم . . » وينقد من سبقه من الرحالة لميلهم إلى المبالغة في وصف ما صادفهم من متاعب ولكنه لا يغمطهم حقهم

فيقول عن بروس (ص ١٦٥) . « وأرانى مضطراً إلى القول إن الرحاله بروس قد غالى كثيراً فى وصف ما وقع له من حوادث فى الصحراء . وواجبى يدعونى إلى تقرير هذه الملاحظة ، ولكنى فى الوقت نفسه أقرر هنا وأنا الخبير بخلق النوبيين أنه لايسعنى الا التنويه بما كان عليه بروس من دراية عجيبة باخلاق الناس وما أوتى من ثبات وحزم وسرعة خاطر . . . الخ » .

ويصف بركهارت كثيرا من آثار النوبة ومعابدها التى أغرقت مياه خزان أسوان بعضا منها وتحاول الجهات المختصة أن تنقذ ما بقى منها قبل أن تغمره مياه السد العالى . ولم يكن بركهارت عالم آثار بل أن علم الآثار المصرية كان لا يزال فى فجره ، ومع ذلك فان الأوصاف التى تركها الرحاله لم تعوزها الدقة أو ينقصها كمال التصوير .

وربما قسا الرحالة فى بعض أحكامه على المجتمع الذى تنقل فيه والناس الذين قابلهم ، ولكن يخيل لنا أنه لم يكن يقصد الإساءة لذاتها ، ولم يكن من صفاته التحامل والتجنى ، وعلينا أن نقرأ رحلته فى ضوء الظروف التى كانت تحيط به ... رحالة متنكر فى لباس غريب ، يتكلم لغة ليست لغته الأصلية ، ويسافر فى قوافل ليس فيها من يدانيه فى ثقافته وعلمه ، وعلى طرق لم تكن قد رسمت على الخرائط بعد ، وفى ظروف مناخية قاسية لم يألفها ... ... أليس من بين هذه الظروف مايقوم بالعذر عن بركهارت حينما يشط به قلمه فى بعض الأحيان ؟! .

وتوالى نشر آثار بركهارت ، فنشرت « رحلات فى سوريا والأراضى المقدسة » فى سنة ١٨٢٢ وترجمت الى الألمانية فى سنة ١٨٢٤ . و« رحلات فى بلاد العرب » فى سنه ١٨٢٩ . وقد ترجمت هذه الرحلات إلى الفرنسية والأسبانية والإيطالية . و« ملاحظات عن البدو والوهابيين » فى سنه ١٨٣٠ . ثم « الأمثال العربية » فى سنة ١٨٣٠ ، وقد أعيد طبعها فى سنة ١٨٧٥ . ونشرت مترجمة إلى الألمانية فى سنة ١٨٣٤ ، وكانت آخر ما نشر من اثار الرحالة الشاب .

(٩)

لقد كان بركهارت شخصية فذة حقا ، كان لديه من المواهب والاستعدادات ما يجعله من الطراز الأول من الرحالة والمستكشفين ، ولكن الظروف لم تكن

مواتية ولم يكن الحظ فى صفه . ويزيد فى قيمة مواهب بركهارت ما امتاز به كإنسان ... كان لديه العقل اليقظ الذى شجعه على أن يكرس حياته لخدمة العلم فى ميدان الكشف الجغرافى ، وكان لديه الجلد الذى جعله قادراً على مجابهة الصعاب والتغلب عليها فى مهارة ، ولم تكن حرية تفكيره وتمسكه بمبادىء الشرف الرفيع ، وتقديره للصفات الطيبة فى الآخرين ، وكراهيته للظلم والخداع ، وعرفانه بالجميل ، لم تكن هذه الصفات النبيلة أقل وضوحاً من حرارة قلبه ونشاطه فى عمل الخير .. وكثيراً ما أنفق المال مساعدة للمحتاجين برغم ضيق موارده ، ولعل أبلغ مثل على رقة شعوره وسعة عقله تلك الأحاسيس التى كانت تجول بخاطره وهو على فراش الموت . فقد كان اسم أمه ، وفشله فى تحقيق الهدف الأسمى لرحلاته ، والآمال الغاربة التى امتلأ بها قلبه ، هى الأمور الوحيدة التى كان يتردد طويلا إذا ماتناولها بالحديث .

لاجرم كان موت بركهارت وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره خسارة كبيرة للجمعية الافريقية التى لم يكن فى استطاعتها أن تملأ الفراغ الذى خلفه بسهولة ، وكان صدمة للمهتمين بشئون القارة الغامضة ،وسيظل اسمه يذكر بما هو جدير به من التقدير .

وشكر الله للجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن أتاحت لقراء اللغة العربية أن يطلعوا على بركهارت فى ترجمة أمينة وأسلوب رصين .

محمد محمود الصياد

١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٩
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٩

It may be inferred from the account which Herodotus has given of the Island Tachompso the lake near it &c. that the Greeks had very little correct information regarding the country above Syene for no such island or lake now exists nor is there any appearance or probability of its having ever existed.

The Greek Inscription on the temple at Debod copied by Mess.rs Hamilton and Leake in 1802 and another at Dakke, are the only ones so old as the time of the Ptolemies all the others are of the Roman Empire & some of Christian Times.

The following are the names & distances of the anc.t places above Philae as given in the Itinerary of Antoninus

	M.P.
From Contra Syene to Parembole	16
Tutzis	2
Taphis	14
Talmis	8
Tutzis	20
Pselcis	12
Corte	4
Hiera Sycaminon	4

The modern names Tafa and Korti and the relative distances of the principal ruins leave little doubt of the Site of all the above places. The entire District was called Dodecaschoenus by the Greeks & Romans on account of its length. Making use of the Theban Schene of 60 Stadia (Strabo L. 17 p 804) and taking the English Mile at 8½ Stadia twelve Schenes will be found to correspond very accurately with the actual distance from Assouan to Maharraka measured along the stream.

The first accurate knowledge of the country beyond the Dodecaschoenus seems to have been obtained by the military expedition commanded by Petronius in the reign of Augustus.

Strabo who travelled in Egypt shortly afterwards has left us an authentic account of it. He describes the Æthiopians to have been armed nearly as the Bisharye now are with shields axes spears and swords. Petronius having defeated them in the field took Pselcis and from thence having crossed the sands which in a more remote age had proved fatal to Cambyses he advanced to Premnis a strong position. He then marched against Napata the capital of Queen Candace, took and destroyed it and returning to Premnis fortified that place. Here the Roman Garrison was soon afterwards attacked by Candace and opportunely relieved by Petronius. Pliny speaking of these occurrences says. Oppida expugnata a Petronio (qua sola invenerat quo diximus ordine Pselcin Primin Aboccin Phthurin Cambusin Attenam Stadisin ubi Nilus praecipitans sese fragore auditum accolis aufert. Diripuit et Napata. Longissime a Syene progressus 870 M. Passus.

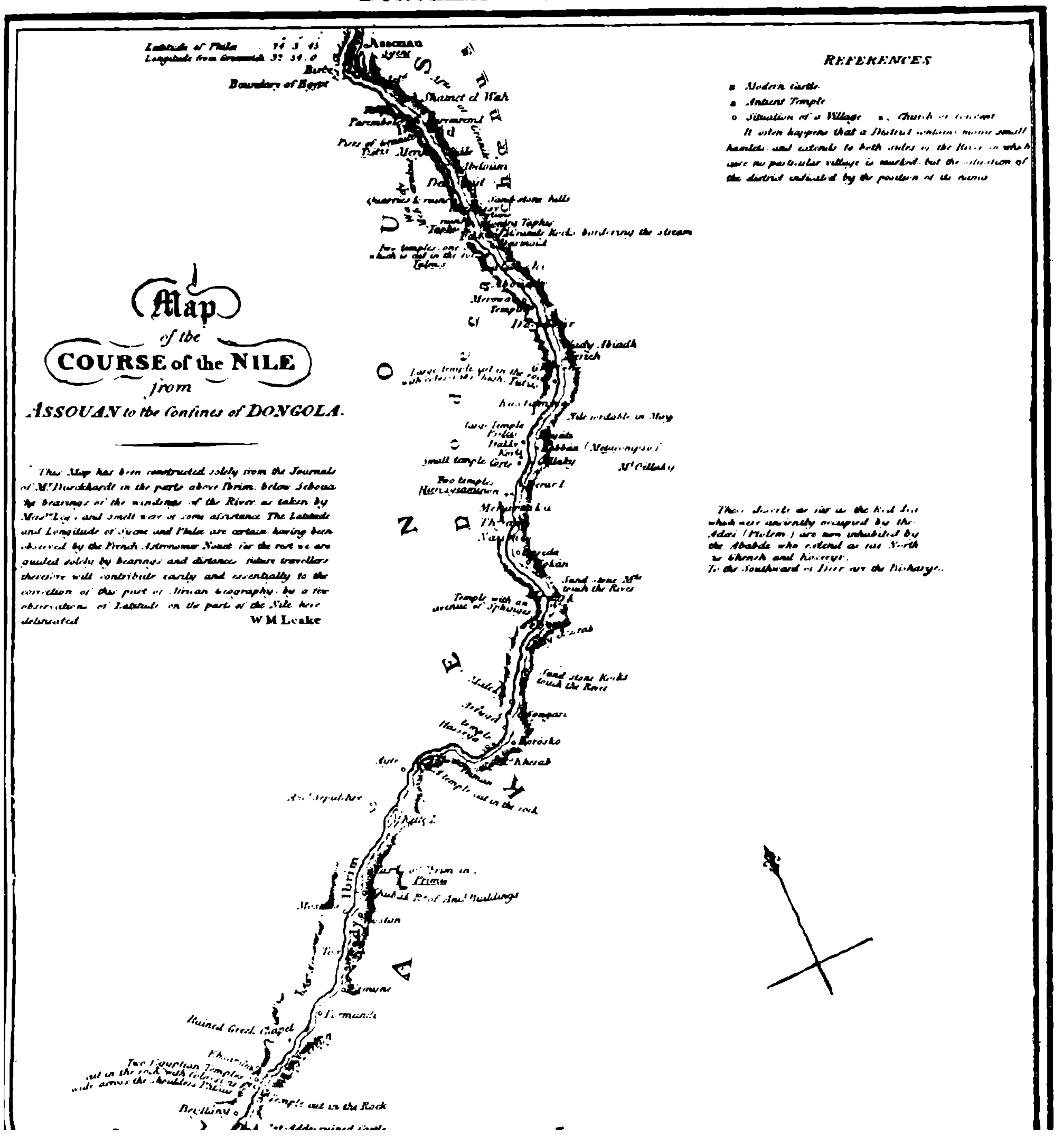
Pliny also gives the distance from Syene to Meroe as reported by some [illegible] sent there expressly by Nero but among the names there are only two of the places above mentioned viz Hiera Sycaminon 54 M.P. and Napata 624 M.P. from Syene. Little information is derived from Ptolemy who names some of the places mentioned by Pliny but not in the same order. On the Western bank above Pselcis he has Phthuri, Abunci and [illegible] [illegible].

The Batn el Hadjar is a rugged desert having a few cultivated spots at intervals. The navigation of the river is here interrupted by rocks and rapids & there are places where the stream is so narrow that a stone may be thrown across.

Set [illegible] to the [illegible] of Dilham from the Kingdom and the [illegible] places at Dongola

Cataract the southernmost until you arrive at the country of the Shegaye

To face page



Map of the COURSE of the NILE from ASSOUAN to the Confines of DONGOLA.
This Map has been constructed solely from the Journals of Mr. Burckhardt in the parts above Ibrim: below Seboua the bearings of the windings of the River as taken by ... and small ... at some distance. The Latitude and Longitude of Syene and Philae are certain, having been observed by the French Astronomer Nouet: for the rest we are guided solely by bearings and distances. Future travellers therefore will contribute easily and essentially to the correction of this part of African Geography, by a few observations of Latitude on the parts of the Nile here delineated.
W M Leake
REFERENCES
Modern Castle
Antient Temple
Situation of a Village
Church or Convent
It often happens that a District contains many small hamlets and extends to both sides of the River, in which case no particular village is marked, but the situation of the district indicated by the position of its name.
Latitude of Philae 24 3 45
Longitude from Greenwich 32 54 0
Assouan
Syene
Boundary of Egypt
Shamet el Wah
Parembole
Debout
Kalabshe
Dandour
Sand stone hills
Granite Rocks bordering the stream
Two temples, one of which is cut in the rock
Temple
Korti
Sebua
Wadi Halfa
Sand stone Mts. touch the River
Temple with an avenue of Sphinxes
Sand stone Rocks touch the River
Korosko
Temple cut in the rock
Ibrim
Ruins of Ant. Buildings
Ruined Greek Chapel
Two Egyptian Temples cut in the rock
Temple cut in the Rock
Small temple
Large temple
Two temples
Mc Callah
These districts as far as the Red Sea which were anciently occupied by the Adai (Ptolem.) are now inhabited by the Ababde who extend as far North as ... and ...
To the Southward of ... are the Bisharye.
NUBIA
KENOUS

الرحلة على ضفاف النيل

مِن أسوان إلى المحس على حدود دنقله

بلغت أسوان فى الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٨١٣ بعد أن زرت معظم آثار وادى النيل ، وكانت تحدونى الرغبة القوية إلى مواصلة الرحلة مصعداً مع النهر إلى أبعد ما أستطيع دون أن أعرض نفسى لخطر قريب . وكنت إبان الأسبوع الذى مكثته بإسنا — وهو آخر بلد هام فى صعيد مصر — قد جمعت طائفة كبيرة من المعلومات عن أحوال بلاد النوبة ورتبت رحلتى معتمداً عليها . ومن بين الترتيبات التى لم يكن لى عنها مندوحة شراء هجينين كريمين لى ولمن استأجر من الخبراء(*) فى شتى البلاد التى أزمعت المرور بها فى النوبة . لذلك بعت الحمارين اللذين جلبتهما من القاهرة إلى إسنا ، واشتريت هجينين باثنين وعشرين جنيها . وقد أثبتت التجربة أنهما من أقوى الإبل وأصلبها عوداً ، فإنى لم أرحهما سوى يوم واحد طوال الرحلة من أسوان إلى المحس وبالعكس ، وهى رحلة استغرقت خمسة وثلاثين يوماً ، وكنت أنا ودليلى نركبهما بمعدل عشر ساعات فى اليوم .

وفى إسنا سوق للإبل اشتهرت فى مصر كلها لأن عرب البشارية والعبابدة يختلفون إليها ، ومعروف أنهم يقتنون أعرق الإبل فى هذه الأصقاع من إفريقيا . وقد زودنى حاكم إسنا التركى حسن بك — وهو رجل قبرصى الأصل — بتوصية قوية رجوته أن يوجهها لأبناء سليمان كاشف الثلاثة الذين يحكمون النوبة فيما بينهم . وكنت أعلل نفسى بأن ما يتمتع به والى مصر محمد على من نفوذ متزايد خليق بأن يضفى على هذه التوصية الموجهة من أحد كبار موظفيه شيئاً من الأهمية والخطر . وكنت إلى ذلك قد حصلت من الباشا نفسه على فرمان ولكنه كان مكتوباً بالتركية — وهى لغة لا يقرؤها النوبيون — وكان فرماناً عاماً لا تخصيص فيه ، لذلك لم أركن إليه كثيراً ولم يهمنى منه سوى اشتماله على اسم قلعة إبريم واسم حاكمها ، والاسمان واضحان يستطيع أن يتبينهما حتى من لا يعرف سوى العربية .

(*) الخبراء « الأدلاء » متوفرون فى النوبة والحصول عليهم يسير ، ولكن قل منهم من يرضى أن يركب دابته فى رحلة محفوفة بالخطر .

أما الكتاب الذى عقدت عليه الآمال فى نجاح الرحلة فكان من آل حباتر — عيون تجار إسنا — وقد أوصاهم بى صديق فى القاهرة . ويكاد آل حباتر يحتكرون تجارة البلح النوبية ، وهم وكلاء للحكام النوبيين فى كافة صلاتهم السياسية بمصر ، يضاف الى ذلك أنهم من الأشراف ذوى الثراء العريض ، لذلك كانوا يتمتعون بسمعة طيبة واسعة ، وقد تجدى توصياتهم بالتجار والمسافرين على طول الطريق الصاعد مع النيل حتى سنّار .

وصلت أسوان بعد رحلة سهلة من إسنا اقتضتنى أربعة أيام . وأسوان أبدع بلاد مصر قاطبة ولكنها لا تستحق هذا المديح الذى يكيله لها بعض الرحالة من أجل آثارها وآثار جزيرة الفنتين المجاورة لها . وكنت أحمل من حسن بك حاكم إسنا كتابا إلى أغا أسوان ، فرجوت الأغا أن يزودنى بخبير يصحبنى إلى الدر حيث يقيم حسن كاشف أحد حكام النوبة . وسرعان ما جىء إلىّ بخبير عربى عجوز من أصل نوبى ، وقد رضيت بعد لأى أن أنفحه ريالاً إسبانيا نظير مرافقته إياى فى رحلتى إلى الدر ، وهو أجر كاف لرحلة طولها مائة وأربعون ميلا . ثم خلفت بأسوان خادمى ومعه متاعى القليل . وبعد أن تزودت قت مع خبيرى فى الرابع والعشرين من فبراير وأنا لا أحمل غير بندقيتى وسيفى ومسدسى ، وحقيبة للزاد ، وحراماً مغربيا من الصوف يصلح فرشاً أو غطاء . وارتديت الزعبوط الأزرق الذى يلبسه تجار الصعيد بعد أن تركت بإسنا ثياب السفر التركية التى كنت أرتديها . وبعد أن قدرت نفقاتى المحتملة فى النوبة ، ألقيت فى كيسى ثمانية ريالات إسبانية جريا على المبدأ الذى لا أحيد عنه فى أسفارى ، وهو أن السائح يكون فى مأمن من العثار والفشل كلما اقتصد فى مصروفه وتخفف من حمل النقود فى أثناء رحلته . ولقد عدت الى أسوان بثلاثة ريالات بعد رحلة قطعت فيها أربعمائة وخمسين ميلا فى سفرى جنوبا ومثلها فى العودة ، فلم تتجاوز جملة ما أنفقت خمسة ريالات ، يدخل فى ذلك كافة النفقات باستثناء الهدية التى قدمتها

لحسن كاشف(*) . ويجب ألا يعزى هذا إلى الشح أو التقتير ، إنما هو جزء من خطتي التي أنتهجها في أسفاري ، أسوقه على سبيل النصيحة لكل مسافر في أصقاع الشرق المجهولة المحفوفة بالخطر .

٢٤ فبراير ١٨١٣ — غادرت أسوان مع الظهر ، ومررت بحذاء جبانة مدينة أسوان العربية القديمة على الجانب الشرقي من التـــل ، حيث أقام الفرنسيون بقيادة ديزيه طابية تقوم إلى جوارها قبة عالية من الآجر شيدت تذكاراً للولي التركي الشيخ ونس . وتنتشر المقابر التركية على مساحة محيطها ثلاثة أميال تقريباً ، وقد دفن فيها عدد كبير من الأولياء ذوي الكرامات الذين يحج الأتقياء لقبورهم من شتى أنحاء مصر . وشواهد القبور المكتوبة بالخط الكوفي لا يحصى عددها ، ولكن ما كتب عليها حديث العهد رديء الخط . ويروي المقريزي المؤرخ المصري أن ٢١٫٠٠٠ شخص ماتوا بالطاعون في أسوان عام ٨٠٦ هـ

(*) هذا بيان بشتى نفقاتي في أثناء الرحلة :

بارة	قرش	
٢٠	٦	للخبير من أسوان للدر .
١٠	٠٠	هدية للخبير .
٣٠	١	ثمن ذرة مشتراة بأسوان .
٢٥	٠٠	ثمن خبز وبصل مشترى بأسوان .
٠٠	١	هدية لخادم الوالي بالدر .
٠٠	١	« للكاتب ليكتب خطاباً لسكوت ، وقد أغرته الهدية بكتابة توصية قوية .
٠٠	٦	ثمن زاد من الذرة اشتري من الدر إلى المحس .
٠٠	١	ثمن تبغ اشتري في الدر .
٥	٠٠	أجرة تصليح حذاء بالدر .
٠٠	١	دفعت في الطريق للخبير الذي رافقني للمحس .
٢٠	٦	أجرة الخبير في رحلة العودة للدر .
٠٠	٢	هدية للخبير .
١٠	١	مدفوعة للنوبيين لمرافقتي في زيارة الآثار من الدر لأسوان .
١٠	٠٠	أجرة معدية في دبوت .
٢٠	٦	مدفوعة للخبير من الدر لأسوان .
٢٠	٠	هدية للخبير .
١٠	٣٦	أو جنيه انجليزي و ١٥ شلناً .

الأمر الذى يدلنا على أهمية المدينة فى ذلك العهد . ويبدأ حيط المجـور ، وهو سور الآجر الذى ذكره دينون Denon ، على نحو ميل من الجبانة ، ويمتد على طول السهل الرملى بين الصخور الجرانيتية حتى قرب جزيرة فيلة .

ويزعم الأهالى أن الحائط بناه ملك يدعى عجورا . ولعله قصـد به أن يكون حصناً يدفع غارات بدو الجبل الشرقى حين كانت تقوم بين فيلة وسيناء تجارة بريه نشيطة . ويقول الوطنيون إنه كان فى الأصل جسراً لقناة ، ويرى نوردن أن النيل كان يجرى قديماً فى هذا الجانب ، ولـكنه فرض يبدو لى مستحيلا لأن الأرض تعلو من فيلة صوب أسوان بشكل واضح . ويرى الناظر إلى الصخور الجرانيتية القائمة على طول الطريق نقوشاً هيروغليفية تزداد كلما دنونا من الجزيرة . كذلك يرى بعض نقوش إغريقية مطموسة ، ولعلها سجلت فى يوم ما أسماء رحالة من الإغريق دفعهم حب الاستطلاع إلى زيارة هذه الأنحاء . وبين أسوان وفيلة طريق آخر أطول من هذا يحاذى شاطىء النهر ماراً بالجندل .

وبعد أن ركبنا أربعة أميال من أسوان ، بلغنا سهلا مكشوفاً خالياً من الصخور ، يجرى النهر فى جانبه الغربى . وهنا لاحت لى أطـــلال جزيرة فيلة (أنس الوجود) ، ولما لم أجد قارباً يحملنى إلى الجزيرة — وكنت أعلم أننى سأمر بها فى رجوعى لأسوان — لم أطل وقفتى إلا ريثما ألقى نظرة على الصخور الجرانيتية القائمة على ضفاف النهر ، والتى يسترعى النظر من بينها المقعد المشهور الذى رسمه كثير من السائحين . والقرية الصغيرة الواقعة مقابل فيلة تدعى البربا وهى الحد الجنوبى لمصر . والقرى العديدة القائمة منها إلى أسوان شمالا هى جزء من إقليم البربا الذى أعفى من شتى أنواع الخراج بمقتضى فرمانات قديمة صادرة من الباب العالى . وتبدأ أملاك الأمراء النوبيين جنوبى البربا ، وتدخل فى أملاكهم فيلة . والأهالى فى الأنحاء المحيطة بالشلال سلالة مستقلة ، يعتزون بالمناعة التى أكسبتهم إياها طبيعة بلادهم ، ويسكن كثير منهم الجزائر ، وجل اعتمادهم فى قوتهم وقوت أسرهم على صيد السمك من النهر .

واتفق فى أثناء رحلتى أن كان النوبيون من أهل أسوان فى حرب مع جيرانهم أهل الجنوب . وقد نشبت الحرب لأن الجنوبيين استولوا على مركب محمل بالبلح وهم يعلمون أنه ملك لتاجر أسوانى . وقبل وصولى بأيام قلائل دارت رحى معركة تجاه جزيرة فيلة ، قتلت فيها امرأة حبلى برمية من حجر ، ولا غرابة فنساء النوبيين يشتركن فى القتال أينما نشب ويهاجم بعضهن بعضاً فى ضراوة ووحشية وهن مسلحات بالمقاليع . أما الجنوبيون من ذوى القتيلة فيطالبون أعداءهم بدية ، لا عن المرأة القتيل فحسب ، بل عن الجنين الذى كان فى بطنها وقت موتها . وقد أنكر خصومهم عليهم هذا الطلب . ولما كانوا أقل نفراً ، ولما لم يكن فى أسوان حامية يستعينون بها ، فقد رأى الرجال أن من الحكمة الانسحاب من الميدان . فأخلوا القرى الملاصقة لفيلة ، ولم يتركوا بها سوى نسائهم وبناتهم ، ونزحوا إلى أسوان هم وبنوهم . ولما عــــدت من المحس لم يكن الصلح قد تم بين الفريقين ، وكان النوبيون لا يزالون فى أسوان ، وكانت تصلهم كل يوم قافلة من النساء تحمل الزاد لأزواجهن .

عبرنا السهل الذى ذكرت آنفا مرة أخرى تجاه الجزيرة ، ولاحظت كثرة الشقف فى هذا السهل . ثم ارتقينا الجبل جنوب الجزيرة لعدم وجود طريق بحذاء النهر صالح لسير الإبل ، وسرنا زهاء الساعتين فى فجاج الجبل العميقة . وفى صخور الجبل أنواع لا تحصى من الجرانيت أجملها الوردى اللون . وتتكون هذه السلسلة من صخور من السيانيت والفلسبار الأحمر والجرانيت . ثم هبطنا ضفة النهر ثانية على مقربة من كفر صغير من الكفور التى يتألف منها إقليم **شيمة الواح** . ومجرى النهر هنا خال من الصخور والجزائر ، ولكن جسوره على الجانبين تضيق فلا يكاد عرض الأرض الصالحة للزراعة يبلغ المائة ياردة . وبعد مسيرة نصف ساعة بلغنا قرية ساى الجمل من أعمال وادى دبود وأنخنا بعيرينا تجاه بيت شيخها حيث قضينا ليلتنا . وفى بيت الشيخ ذقت لأول مرة هذا الصحن الذى يعيش عليه أهل الإقليم والذى أصبح طعامى الدائم طوال الأسابيــع الخمسة التى استغرقتها رحلتى ، وهو فطائر رقيقة من الذرة ، غير مختمرة ، ومخبوزة خبزاً خفيفاً ، تغمس فى لبن حلو

أو حامض(*) . وهذا الطعام خشن جداً نظراً لرداءة طحن الذرة ، ولولا فرط الجوع لما أغريت بتذوقه .

٢٥ فبراير — واصلت سفرى ملتزماً ضفة النهر الشرقية . والطريق إلى الدر مأمون لا خوف فيه على المسافر ما دام فى صحبة أحد الوطنيين . ولقد وجدت فى الأهالى أينما سرت فضولا لم ألحظه فى غيرهم من قبل . كنا نمر بالقرية عدواً فى أكثر الأحيان فيخرج الرجال من بيوتهم أو من حقولهم ويجرون خلفنا ليسألوا الخبير من أنا ، وما غرضى من رحلتى . فكان يجيبهم بأنى قادم من إسنا ، منطلق إلى الدر ، أحمل خطابات من والى إسنا إلى الأمراء النوبيين . فيسألون عن فحوى هذه الخطابات ، ويلحون علىّ فى الترجل والإفطار معهم ليوصلوا استجوابى على مهل . وبلغنا وادى السيالة بعد ساعة ونصف ، ووادى عبرون بعد ساعتين ونصف ووادى دهميت بعد أربع ساعات . ولفظ «الوادى» يطلق هنا على كل قرية فى هذه النواحى حتى دنقلة . ويشمل الوادى الواحد مجموعة من ثلاث قرى أو أربع . فوادى دهميت مثلا يمتد نحو أربعة أميال على ضفة النهر ، ويشتمل على أكثر من ست قرى لكل منها اسمها الخاص . لذلك يقع السائحون الذين يدونون أسماء القرى فى هذه النواحى فى الخطأ بسهولة إذ يخلطون بين الاسم العام لمجموعة القرى ، واسم كل قرية على حدة . وثمة قرى كبيرة قليلة العدد ، ولكنك أنى سرت صادفت تجمعاً من خمسة بيوت أو ستة تقوم أينما نبت النخل على ضفة النهر أو سمح عرض الوادى بالزراعة .

وفى دهميت وجدت داود كاشف ، بن حسين كاشف ، معسكراً فى نفر من رجاله فى أخصاص من البوص . وأنخت بعيرى عند خصه ، وتناولت معه الفطور وأخبرته أنى مبعوث لأبيه وأعمامه فى مهمة . وحكام النوبة دائبو التنقل فى أملاكهم ليجبوا الخراج من رعاياهم ، ويرافقهم على الدوام حرس من أربعين رجلا أو خمسين ليجمعوه قسراً إذا اقتضى الأمر ، وليكونوا فى هذا الثغر أقدر على السلب والنهب.

(*) تعرف هذه الفطائر محليا بالكابيده (المترجم) .

وفى الليلة السابقة لوصولى دهميت ، جاءنى نوبى فى ساق الجمل يشكو إلىّ ظلم داود وطغيانه . ذلك أن داود نمى إليه أن الرجل وأسرته ينعمون سراً بأكل خبز من دقيق القمح ، فاعتبر هذا دليلا كافياً على ثرائه العريض . ومن ثم حاصر أعوان داود بيت الرجل ليلا ، وطلبوا منه بعيراً لسيدهم ، ولما أبى هاجموا بيته ، وإذ لم يكن له جيران أقربون ، فقد أخفق فى الدفاع عن نفسه ، فأثخنوه تجريحاً وأخذوا ماله غنيمة . ورأيت داود فقير المظهر يرتدى الجلباب الأبيض الذى يلبسه النوبيون . وقد سألنى أن أعطيه بارودا ، ولكننى اعتذرت بأن ذخيرتى من البارود لا تكاد تكفينى (*) ، فلم يبد عليه أى امتعاض لرفضى إجابة سؤاله ، وكان مئات من الفلاحين مجتمعين حـــول معسكره ومعهم قطعان البقر والغنم التى يدفعون منها الخراج .

وغادرنا دهميت ، وبعد رحيلنا من وادى دبود بخمس ساعات وصلنا وادى قرتاس ، حيث مررت بأطلال معبد صغير لم يبق منه غير ركن جدار ، ولم أر بقايا أعمدة ، ولكنى رأيت على بعض الأحجار المتناثرة نقوشاً هيروغليفية تتكرر فيها قرص الشمس المجنح . وهناك خرائب واسعة تجاه هذا المكان على الضفة الغربية . وقد ذكر لى الخبير أن فى الجبل الشرقى ، على مسيرة يوم كامل ، توجد خرائب مدينة تدعى قلزة وبلغنا نجع الجامع بعد خمس ساعات ، ونفة بعد ست ، والقريتان تقومان على ضفتى النهر . وعرض الوادى بين ضفة النهر وسفح الجبل ربع ميل . وهنا توجد خرائب بنائين قريبين من بعضهما البعض لم يبق منهما غير الأساس . وهما مبنيان بالحجر الرملى بناء بدائيا جداً ، ومساحتهما أربعون قدما مربعة . وليس هناك بقايا أعمدة ولا أحجار منقوشة من أى نوع . كذلك توجد بعض الخرائب على الجانب المقابل من النهر . ولا شك أن هذه الخرائب هى بقايا طافيه (Contra Taphis, Taphis) . وإلى الجنوب من هذه الأطلال مباشرة

(*) منذ تقهقر المماليك إلى دنقلة حظر محمد على باشا والى مصر بيع البارود فى جميع أرجاء الصعيد ، وبذلك منع وصول الذخيرة إلى أعدائه الذين يضطرون الآن إلى شراء كل ٦ دست من الخرطوش بعبد.

تحول الجبال القائمة على ضفتى النهر دون السير عليهما ، فلا سبيل للمسافر إلا أن يخترق الجبل ساعة . وقد لاحظت مرة أخرى أن الجبل يتألف هنا أيضاً من الصخور الجرانيتية . والسلسلة الجرانيتية لا تنقطع من أسوان إلى دهميت . أما فى جنوب دهميت فالجبل الذى يكتنف النهر قوامه الحجر الرملى ، ويظل كذلك حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا . فيما خلا الصخور الجرانيتية المشرفة على تيفة ، والتى تمتد إلى كلابشة .

وهبطنا ضفة النهر بعد ساعة ، ومررنا بقرية **وارموت** (دار موسى) ، وبعضها مشيد على جزيرة صخرية ، وبعضها على الصخور العالية المشرفة على الضفة الشرقية . وليس أبهى وأروع من منظر الشمس الغاربة على الجزائر الجرانيتية السوداء تحيط بها مياه النهر الصافية (*) والشطئان المكسوة بالخضرة . والجزائر الكثيرة ترصع مجرى النهر من هنا إلى تيفه . وبعد مسيرة سبع ساعات وثلاثة أرباع الساعة بلغنا وادى **كلابشة** وهو أكبر الوديان أو القرى التى مررنا بها حتى الآن . وعلى الرغم من ضيق الوادى هنا توجـــد تلال كبيرة من الأنقاض وحطام الأوانى الخزفية على طول سفح الجبل ، مما يشير إلى موضع مدينة قديمة كانت تقوم فى المكان . وبما أن هناك أطلالا كبيرة على الضفة المقابلة ، فإن المرء يستطيع أن يخلص مطمئناً إلى أن المكانين هما Contra Talmis, Talmis . وليس ثمة أنقاض متخلفة من أى بناء فى الضفة الشرقية ، والبيوت التى تتألف منها القرية القائمة على هذه الضفة — وعددها مائتان — تشغل مساحة يقطعها المسافر فى نصف ساعة ، وبلغنا **الشِّقِبِّى** بعد ثمانى ساعات ونصف ، **وأبو هور** بعد ثمانى ساعات وثلاثة أرباع الساعة . وقد مررت خلال رحلتى فى هذا اليوم بعدة مجار للسيول . والسيول تندفع إلى النهر حين تهطل الأمطار غزيرة على الجبل ، ولكنها لا تسير أكثر من يومين . وهذه السيول هى السبب فى الزيادة الطارئة

(*) تصفو مياه النيل من مارس إلى يونيو . وقد استنكر ثوانى كدر مياه النيل ، ولكنه لم يرها إلا فى الخريف والشتاء .

على مياه النيل فى مصر فى أثناء الشتاء حين تبلغ التحاريق أقصاها. ولا يسقط المطر على وادى النيل فى النوبة ، فيما خلا شآبيب خفيفة ، ولكن هناك فصلا منتظما للمطر على الجبال الشرقية حتى السويس ، وتنمو على هذا المطر الأعشاب البرية الوافرة والمراعى التى تنتجعها ماشية البدو القاطنين تلك الأصقاع . وقد ذكرت فى يومياتى عن فلسطين ظاهرة شبيهة بهذه فى جبال شرق فلسطين : فقلما يسقط المطر على وادى الأردن أو الغور ، فى حين أن للجبال على ضفتيه فصلا مطيراً منتظما . وقدم لنا مضيفنا فى أبو هور هذا المساء « العصيدة » وهى سنابل خضراء من الشعير مسلوقة فى الماء ومخلوطة باللبن .

٢٦ فبراير — يقطع المسافر وادى أبو هور فى نحو ثلاثة أرباع الساعة . ومررنا بقرية دندور بعد مسيرة ساعتين، وبوادى أبيض بعد ثلاث ساعات ونصف وما زال السهل على ضيقه الشديد . وقد أقام سكان النوبة الأقدمون جسوراً من الحجر تمتد عشرين أو ثلاثين ياردة فى عرض النهر لينتزعوا منه رقعة من الأرض . وهذه الجسور تكسر من حدة التيار فتخلف شمالها مساحة صغيرة من الأرض لا تغمرها المياه . وكثير من هذه الجسور لا يزال باقياً ولكنه متهدم . وقد لاحظت وجود جسور مماثلة على الضفة الغربية للنهر تجاه الجسور الشرقية تماماً . ومررنا بمارية (مريم) بعد أربع ساعات ونصف ، وبقرشة بعد خمس واجتزت خرائب مدينة قديمة أرجح أنها مدينة عربية ، بعضها مبنى بالآجر وبعضها بالحجارة الصغيرة . ويروى الأهالى أن ملكا يدعى دَ بقورا كان يملك فيها . والوادى عند قرشه أعرض منه فى أى مكان جنوبى أسوان ، ويبلغ الميل عرضاً . وقرشة فقيرة فى السكان كسائر القرى التى مررت بها حتى الآن ، فثلثا منازلها مهجور . وقد خرب الإقليم المماليك الذى سكنوه شهوراً أثناء تقهقرهم أمام جيوش محمد على التركية ، والقليل الذى أبقوا عليه أتى عليه الجنود الترك الذين يقودهم إبراهيم بن محمد على، الذى أفلح أخيراً فى طرد المماليك من النوبة فعبروا الجبال إلى سهول دنقلة ، وقد فشت بعد تقهقرهم مجاعة رهيبة هلك فيها ثلث سكان النوبة من الفاقة والحرمان، أما الباقون فلاذوا بمصر، وأقاموا بالقرى الواقعة بين أسوان وإسنا حيث هلك منهم بالجدرى خلق كثير . ولم يعد السكان

الحاليون لمسقط رأسهم إلا قبل رحلتي لهذه الأنحاء ببضعة شهور ، فبدأوا يزرعون الأرض عقب انحسار مياه الفيضان ، ولكن كثيرين من بني جلدتهم ما زالوا مقيمين بمصر . ولعل في وفرة القبور الجديدة على مقربة من قرى الإقليم أصدق دليل على صحة الروايات المفجعة التي قصها الأهالي علي .

وبعد ست ساعات بلغت وادي كشتمنة وهي قرية جيدة المباني وفيها اشتبك المماليك مع جيوش ابراهيم بك في معركة انتهت باندحار المماليك ، فتقهقروا للجبال الشرقية واعتصموا فيها شهوراً حتى رجع أعداؤهم لأسوان . وهبط معظم البكوات إلى ضفاف النيل في مايو ١٨١٢ ، وكان منسوب الماء في النهر منخفضاً جداً ، فاجتازوه عند مخاضة قريبة من كشتمنة[١] ، ومعهم نساؤهم ومتاعهم . وواصل فريق من المماليك السير جنوباً على ضفة النهر الغربية وهم ينهبون القرى التي مروا بها — الدر ووادي حلفا وسكوت والمحس . أما الأمراء من البكوات فقد اصطحبوا مماليكهم ، واتخذوا أقصر الطرق عبر الصحراء الغربية . والتأم شمل الجميع ثانية على ضفاف النيل قرب أرقو وهي من أهم القرى الداخلة في أملاك ملك دنقلة[٢] . وبلغ عددهم جميعا نحو ثلاثمائة من المماليك البيض ، ومثلهم من العبيد المسلحين ، أولئك هم البقية البائسة التي تخلفت من نيف وأربعة آلاف رجل ، وهو عددهم يوم بدأ محمد نضاله معهم في سبيل السيادة على مصر . ولا حاجة بي لتكرار القصة المعروفة ، فقد ذبح منهم في القلعة ألفا ومائتين على رأسهم زعيمهم شاهين بك مع أنه أمنهم على حياتهم بأغلظ العهود والمواثيق . ولكن هناك مذبحة أخرى شبيهة بهذه وإن تكن أقل منها شهرة وقعت في إسنا ، ولا بأس بذكرها هنا دليلا على غفلة المماليك وفساد مشورتهم . فقد اعتصم هؤلاء الفرسان الأشداء بالجبال التي يسكنها عرب العبابدة والبشارية ، ونفقت خيلهم جوعاً ،

---

(١) ليس للنهر مخاضة إلا هذه فيما أعلم .

(٢) وصل أخيراً إلى القاهرة اسكتلندي كان قد أسر في حادث رشيد المشؤوم (١٨٠٧) وانضم بعد ذلك إلى المماليك . ثم تركهم في دنقلة وعاد وحده مجتازاً النوبة والصعيد على الرغم من جواسيس الباشا .

واضطر حتى أغنى بكواتهم إلى بذل آخر فلس لإطعام جندهم ، لأن العرب كانوا يبيعونهم الزاد بأفحش الأثمان . ولما حرموا أسباب النعيم والترف التى كانوا يتقلبون فيها بمصر منذ صباهم ، رأى ابرهيم بك الفرصة مواتية لاقتناصهم فى الفخ كما فعل أبوه بإخوانهم فى القاهرة . وإذ صحت عزيمته على ذلك أرسل إليهم يؤمنهم ويقطع لهم أوثق العهود إذا هم نزلوا من الجبل ، ويتعهد بتقليدهم وظائف فى حكومة محمد على تتفق ومراتبهم . ولا يكاد المرء يصدق كيف انطلى هذا العرض الكاذب على أكثر من أربعمائة مملوك على رأسهم عدد من البكوات ، مع علمهم بمذبحة القاهرة التى وقعت فى العام السابق . وهبط المماليك الجبل فى جماعات صغيرة ، وبينما هم فى الطريق جردهم الخبراء الخونة من ثيابهم ، فوصل الجميع معسكر ابراهيم بك — قرب إسنا — عراة باستثناء ثلاثين منهم تقريباً . وبعد أن التأم شملهم ولم يعد ينتظر وصول هذه القلة صدرت الإشارة بذبحهم ، فذبحوا عن بكرة أبيهم ، هم ونحو مائتين من العبيد السود ، ذبح النعاج فى ليلة واحدة ، ولم يترك منهم على قيد الحياة سوى مملوكين فرنسيين إجابة لرغبة طبيب ابراهيم بك . ومثل هذا النكث للعهود يقع بين الترك كل يوم ، وأعجب العجب أنك لا تزال تجد من الناس من بلغت بهم الغفلة مبلغاً يوقعهم فى فخاخ كهذه .

وبلغنا جبل هبانى بعد ثمانى ساعات وربع ، وكوبان بعد ثمان ونصف ، وتقع كوبان تجاه معبد الدكة الجميل الذى يقوم على الضفة الغربية .

٢٧ فبراير — وعلى مقربة من كوبان أطلال مدينة قديمة يحيط بها سور من اللبن كثير الشبه بسور بلدة الكاب Eleithias الواقعة شمالى أدفو . ويبلغ طول ضلعه المستطيل نحو مائة وخمسين خطوة ، وعرضه مائة ، وسمكه يزيد على عشرين قدماً ، وارتفاعه فى عدة مواضع أكثر من ثلاثين . وتشتمل المنطقة التى يحيط بها السور على خرائب مساكن مبنية بالحجر والآجر . ورأيت تيجاناً لأعمدة صغيرة من الطراز المصرى ملقاة هنا وهناك . وفى ظاهر الركن الجنوبى

الشرقى للسور أطلال معبد مصرى صغير جداً . بدائى البناء لم يبق فوق أساسه غير قليل من الأحجار ، وعليه رسوم هيرو غليفية . وتدل العجلة الحربية المنقوشة على أحد أحجاره على أن قصة معركة حربية قد كتبت عليه . ويبدو أن هذا السور اللاصق للنهر قد بنى ليكون حصناً ، وتلال الأنقاض الكبيرة المتخلفة من المدينة القديمة تمتد على الطريق مسيرة خمس دقائق بعد ذلك .

ووصلت بعد ذلك إلى العلاقى بعد أن مررت بقناة عريضة تجرى إلى جوار القرية . وأمثال هذه القنوات كثير فى النوبة ، إذ لا بد من الرى الصناعى حيث تترامى أطراف الوادى وتعلو الضفة كثيراً عن مستوى الماء فى النهر . ولكن هذه القنوات لم تعد تلقى عناية من أحد ، وهى لذلك تسد شيئاً فشيئاً . وعرض الوادى هنا ميل .

ويطلق اسم العـــــلاقى أيضا على سلسلة من الجبال تبدأ شرقى القرية ، وتخترق التلال العالية فى الصحراء الشرقية فى اتجاه شواطىء البحر الأحمر . وفى ظنى أن « بروس » مر بهذه السلسلة . ويحتوى هذا الجبل على مناجم للذهب فيما يزعم الوطنيون وبإجماع الجغرافيين العرب . على أنى أميل إلى الاعتقاد أن مصدر هذه الروايات ، وهم البدو الذين يرتادون هذه النواحى دون غيرهم ، قد ظنوا الميكا الصفراء ذهباً ، فالنهر يحمل معه قدراً كبيراً من الرمل المختلط بالميكا فى مجراه النوبى كله . ولقد قرأ حسن بك والى إسنا — وهو رجل يستهويه علم المعادن من حيث اتصاله بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة — قرأ عن مناجم العلاقى فى أحد الكتب ، وأراد التحقق من صحة هذه الرواية ، فأرسل أربعة من جنده يحرسون رجلا يونانياً يزعم أنه خبير بالأحجار ومعهم إذن بالتنقيب فى الجبل . فوصلوا قرية العلاقى ثم ساروا منها نحو ساعتين إلى الشرق ولكنهم روعوا حين سمعوا أن جماعة كبيرة من المماليك تهبط الجبل ، فعادوا أدراجهم وهم يبثون الرعب بإذاعة النبأ فى الإقليم كله . ولقد لقيتهم فى دهميت فألحوا على أن أعود معهم مؤكدين لى أن المماليك سيضربون عنقى بلا ريب لو علموا أنى أحمل رسائل من حسن بك . ولم يكن النبأ يخلو من الصحة ، ذلك أن

اثنين من بكوات المماليك — وهما إبراهيم بك الجزايرلى وعثمان بك بهنس — كانا قد تخلفا معتصمين بهذه الجبال ومكثا مع العرب بعد رحيل زملائهم من البكوات إلى دنقلة ، مطلبين النفس بالعودة إلى مصر إذا تغيرت الحال بها غير الحال ، ولكنهما اضطرا فى النهاية ، تحت ضغط الفاقة ، أن يأخذا خمسا من نسائهم وخادمين فقط(*) ويلحقا بإخوانهم . وكان العرب قد ابتزوا منهما كل ما يملكان من مال ومتاع ثمنا لما يبيعونهما من زاد . وكانت خيولهما قد نفقت ، ومماليكهما تولوا عنهما ، وثيابهما ومعداتهما قد بليت وتمزقت . فلما انتهيا إلى هذا المصير أطاقا فكرة الكر على مصر من جديد وخرجا من المكان الذى اعتصما به لأقرب شواطىء البحر الأحمر تجاه جدة ، واتخذا ومن معهما الطريق إلى الدر ، ولكنهما ارتدا إلى الجبل مسيرة يوم حين سمعا بنبأ هذا اليونانى والجند الأربعة الذين ذكرت آنفا ، حتى إذا أخبرهما جواسيسهما برحيلهم استأنفا السير ، فبلغا الدر قبل أن أبلغها بيوم واحد .

وسرت من ساعتين إلى ثلاث بحذاء شاطىء صخرة تجاه جزيرة ضرار ، وهذه الجزيرة مزروعة بعناية ويقطعها المرء طولا فى ثلاثة أرباع الساعة . وعلى الضفة الغربية قرية قورته ويمتد وادى المحرقة من ثلاث ساعات إلى أربع ، ويمتد وادى السبانة فى أقصى الجنوب من أربع ساعات إلى خمس . وهنا أسعدنى الحظ بلقاء سائحين من الانجليز هما مستر لى ومستر سملت ، ورجل أمريكى هو الكبتن بارتود ، وكنت قد شاهدت الأولين من قبل فى القاهرة وأسيوط ، وكانا قد غادرا القاهرة على ظهر سفينة ريفية بعد رحيلى عنها بيومين ، ولما بلغا أسوان استأجرا زورقا كبيراً لينقلهما للدر ، ومنها زارا إبريم ، فكانا بذلك أول الأوربيين الذين بلغوا هذا البلد وفحصوا الآثار التى بينه وبين جزيرة فيلة ، لأن

(*) أكد لى بعد ذلك خادم من خدم هؤلاء البكوات لقيته بالدر — وهو مسيحى يونانى من بروسه بآسيا الصغرى — أن أفراد هذه الجماعة ، حين عجزوا عن الإقلاع عن التدخين ، وانعدم التبغ فى الجبال ، كانوا يحشون قصباتهم بروث الغزلان الجاف .

« توردن » لم ير هذه الآثار إلا بمنظاره المقرب . وقد استوقفتهما فى زورقهما وأنا راكب جملى بحذاء النهر . وقضينا بضع ساعات سويا ، ثم استأنفا رحلتهما شمالا إلى أسوان . ووصلت وادى **نعمة** بعد خمس ساعات ونصف ، و**باردة** بعد ست ساعات ، و**كوقان** بعد ست ونصف . وهنا رأيت عدداً كبيراً من التماسيح ، وهذا أول ما رأيت منها بعد رحيلى من القاهرة ، لأن طريقى فى مصر قلما كان يلاصق النهر . وهنا أيضا لاحظت وجود الجسور الحجرية فى النهر فى مناطق عديدة . وبلغنا وادى **النصرلاب** بعد سبع ساعات ونصف . وإلى الجنوب من كوقان بساعتين تحدق الجبال بالنهر فلا يتسع الشاطىء لا للمرور ولا للزراعة طبعاً . ومررنا بعدة مجار للسيول ، وبعد سفر ثمانى ساعات ونصف وصلت وادى **المضيق** حيث قضيت الليل .

٢٨ فبراير — وعلى مسيرة ساعة من وادى المضيق يقع وادى السبوع . ويطلق عليه هذا الاسم نسبة لتماثيل أبى الهول التى لها أجسام السباع ، والتى تقوم أمام المعبد المتهدم المشيد على الضفة الغربية تجاه وادى السبوع . والزرع فى هذه البقعة أزكى منه فى أى بقعة مررت بها من أسوان إلى الدر . وسكان وادى السبوع ، وسكان وادى العرب إلى الجنوب منهم ، تجار نشيطون أغنياء . وهم يسلكون الجبل إلى بربر حيث تقع « **القوز** » التى ذكرها « بروس » وتبعد عنهم مسيرة ثمانية أيام ، ومنها يجلبون السلع المختلفة التى تحفل بها أسواق سنار . والطريق مأمون جداً حتى إن جماعات منهم تصل كل أسبوع تقريباً ومعها أربعة جمال أو خمسة محملة بالبضائع . ولكن أخلاق هؤلاء التجار منحطة ، فهم غادرون محتقرون لبخلهم . وأهل وادى السبوع ووادى العرب لا ينتمون لقبيلة **الكنوز** كجيرانهم ولكنهم من **العليقات** الذين أتوا أصلا من الحجاز(*) .

(*) زرت بعد ذلك جبال سيناء فوجدت فيها قبيلة أخرى من البدو تسمى العليقات ، تقيم فى وديان سيناء الجنوبية . وقد أكدو الى أن عرب العليقات بالنوبة بنو جلدتهم ، وأنهم فى الأصل شعبة منهم . ومنذ سنوات عقد عربى من عليقات سيناء النية على زيارة عرب النوبة ، وجمع بعض الهدايا منهم . وقد لقى حفاوة فى وادى السبوع بحكم القرابة ، وعاد بعدد من الإبل اشتراها بما جادت عليه به كل أسرة .

ويضرب بعضهم فى الجبال الشرقية كالبدو . وهم لا يتكلمون إلا العربية ، وجلهم يجهل لغة الكنوز . ويجبى أمراء النوبة الضرائب على كل البضائع التى يستوردها عرب العليقات من الجنوب ، ولكنهم قلما يستطيعون أن يبتزوا منهم ضرائب إضافية لأن عددهم كبير ، ولأنهم مسلحون خير تسليح ، ولذلك استطاعوا أن يقتنوا ثروة طيبة . وهم يبيعون فى الصعيد العبيد والبلح والصمغ العربى وريش النعام والإبل التى يجلبونها من بربر ، ويشترون منه السلع التى تلزم لأسواق الجنوب(*) .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف من وادى المضيق يقوم وادى العرب ، حيث تجد فضلا عن عرب العليقات عرباً من قبيلة « الغربية » سكنوا الوادى من أيام الفتح الإسلامى للنوبة . وشاطىء النهر زكى الزرع فى كل أنحائه . وتكتنف الصخور النهر مسافة يقطعها الراكب فى ثلاثة ساعات ونصف إلى خمس ، ولا تترك الصخور من الضفة سوى شقة ضيقة لا تصلح إلا للسير على القدم ، أما طريق الإبل فتخترق الصخور الرملية الخشنة والفجاج العميقة فى بطن الجبل . وبلغت وادى سنقارى بعد خمس ساعات ونصف ، وكرسكو بعد ست ونصف . وهنا يعرض الشاطىء ، وتبدأ أحراج من النخيل تحف ضفتى النهر حتى إبريم . ويرى المسافر مجموعات من البيوت على كل مائة ياردة ، مما يصعب معه تعيين الحدود الدقيقة لكل قرية . وتقوم بُشْبر نُبرقة على مسيرة سبع ساعات ، وشقة على مسيرة سبع وربع ، وضراب على ثمان . وهنا توجد أكوام من الحجارة المنحوتة ، وهى خرائب متخلفة من مبان قديمة اشتقت منها القرية اسمها .

(*) تسير فى كل شتاء قافلة من ثلاثين أو أربعين بعيراً محملة بالبضائع من وادى السبوع إلى القاهرة . وقد اعتاد تجار السبوع أن يشتركوا فى التجارة مع النوبيين المساكين ، فيقرضونهم مبالغ من المال ليغروهم بالسفر إلى بربر للتجارة ، وعند عودتهم يقاسمونهم الأرباح . وهناك أسر تشتغل بهذه الشركة من عهود سحيقة . والمسافة بين السبوع ومقرات على النيل شمالى بربر تبلغ سبعة أيام من السفر الهين . وعلى مسيرة ثلاثة أيام من السبوع عين ماء كبيرة تدعى (ربت) وعلى مسيرة خمسة أيام عين أخرى .

وتقوم وادى عشرا على مسيرة تسع ساعات ، ووادى دنواد على تسع ونصف ، والدر على عشر ونصف . والدر أهم بلد بين مصر ودنقلة ، ولست أذكر أننى رأيت حقولا تلقى الزراعة فيها من العناية ما تلقى الحقول بين كرسكو والدر . كذلك لاحظت أن بيوت الفلاحين هنـــا أوسع وأنظف من بيوت الفلاحين المصريين .

أول مارس — وصلت الدر بعد الغروب ، وأنخت بعيرى عند دار حسن كاشف حيث ينزل وجوه المسافرين ، وحيث نزل الأميران المملوكان اللذان أشرت إليهما آنفا . ولما كان الحاكم قد خلا إلى جناح الحريم ، فإننى لم أذهب لأراه ، بل مضيت إلى فراشى بعد أن أبيت إشباع فضول قومه ، وفضول خدم الأميرين ، الذين أمطرونى وابلا من الأسئلة . ولـكن ما أصبح الصبح حتى فاجأنى حسن قبل أن أستيقظ ، وأقبل إلى فناء الدار حيث قضيت ليلتى ، بعد أن زار الأميرين . ثم سألنى عن غرضى من رحلتى ، وهل أنا تاجر أو رسول موفد إليه من والى مصر . وكان فى نيتى قبل أن أعلم بوصول الأميرين أن أزعم أننى موفد من الباشا فى مهمة سرية للنوبة ، لأننى علمت من أهل الصعيد أن أمراء النوبة يخشون بأس محمد على ، فهم لا يجرؤون إذن على مسِّى بسوء . ولـكننى حين علمت بوصول المملوكين — وكان حديثى مع الفلاحين الذين بت فى بيوتهم فى أثناء رحلتى إلى الدر قد أقنعنى بأن الأمراء النوبيين يرهبون المماليك جيرانهم فى الجنوب كما يرهبون جارهم فى الشمال — حين علمت هذا رأيت أن من الخطر علىّ أن أخفى غرضى الحقيقى من رحلتى . أما وقد شجعنى مالقى مستر لى ومستر سملت من توفيق فى رحلتهما ، فقد صارحت حسن كاشف بأننى إنما جئت النوبة سائحا كما جاءها السيدان اللذان سبقانى إلى الدر ، وقدمت إليه فى الوقت نفسه خطابات التوصية التى أحملها . ولـكن صراحتى لم تغننى فتيلا ، فقد حُمِل هذا الإفصاح من نواياى على محمل الخديعة والغش ، وأبى الجميع أن يصدقوا أننى سائح قدمت بلدهم للفرجة فحسب . وكان فى إلمامى بالعربية ، وخبرتى بالعادات التركية ، ماحمل كاشفاً على الاعتقاد بأننى تركى ، وأننى مبعوث حسن بك والى إسنا للتجسس عليه . وقد زاد فى سوء ظن كاشف بى تحريض المملوكين له ، مع

أنهما كانا معي في غاية التلطف والأدب حين زرتهما . وأنفقت اليوم كله وبعض الغد في مفاوضات مع الحاكم للحصول على خبير يصحبني للجنوب . وكانت الهدية التي قدمتها له ، وهي صابون(*) وبن وطربوشان أحمران (وكلها تساوي نحو ستين قرشاً) ، خليقة بالقبول لو قدمت في وقت آخر ، ولكن الهدايا التي قدمها إليه مستر لي ومستر سمث بلغ ثمنها نحو ألف قرش، مع أنهما لم يتجاوزا في رحلتهما إبريم . قال لي الحاكم « وها أنت تعطيني أشياء تافهة مع أنك تريد أن تتجاوزها إلى الشلال الثاني » . قلت صحيح أن هديتي لا تناسب مكانته ، ولا توفيه حقه ، ولكنها في الواقع فوق طاقتي ، وأنني كنت إخالني مميزاً على صاحبي بما أحمل من خطابات توصية من حاكم إسنا . وأخيرا بلغت منه ما أريد بفضل مصادفة من المصادفات الطيبة ، فقد نمى إلي أن قافلة كبرى قامت من المحس قاصدة إسنا ، وأن جانباً كبيراً من السلع التي تحملها ملك لكاشف نفسه ، ينوى بيعه بأسيوط والقاهرة . فذهبت إليه ، وخلوت به ، وقلت له إنني لو عدت لإسنا وعلم واليها بما لقي خطابه الذي زودني به من إغفال تجلى في منعي من تجاوز الشلال الثاني مع أنه طلب السماح لي بذلك صراحة ، لوجد في هذا مسوغاً لفرض غرامة على القافلة حين وصولها إلى إسنا ، أو لمنعها من المضي إلى أسيوط . ووجم كاشف طويلا ثم قال لي « مهما تكن هويتك ، وسواء أكنت إنجليزيا كصاحبيك اللذين سبقاك أم جاسوساً للباشا ، فلن أردك خائباً . فامض في رحلتك إن شئت ، ولكنك لن تكون في مأمن بعد تجاوزك سكوت . فلتكن هذه البلدة نهاية رحلتك ومنها تعود» . فطلبت إليه أن يزودني بخطاب توصية لسكوت ، ففعل دون تردد . كذلك جاءوني بخبير من البدو . واشتريت زاداً لرحلتي من الذرة والتمر ، وغادرت الدر قبيل ظهر ٢ مارس ، بعد أن فشلت محاولات المملوكين لعرقلة سفري . ويجدر بي قبل أن أمضي في وصف رحلتي أن أقف هنيهة لأصف في شيء من التفصيل الأهالي والنواحي التي اجتزتها حتى الآن منذ قمت من أسوان .

(*) الصابون هدية يقدرها الناس تقديراً كبيراً في جميع هذه النواحي ، لأنه لا يصنع بمصر ، ما خلا نوعاً رديئاً جداً تصنعه أسيوط . وهو يستورد من الشام ، وعلى الأخص فلسطين . ويساوي رطل الصابون في إسنا شلنا ونصفاً .

يتجه النهر في مجراه من أسوان لـكرسكو من الشمال إلى الجنوب عموماً ، ثم ينحرف إلى الغرب ، ويحتفظ بهذا الاتجاه الجديد طوال مجراه إلى دنقلة . وضفة النهر الشرقية في هذا الجزء من الوادي أصلح للزراعة من ضفته الغربية ، وتراها أينما كان لها عرض يذكر مكسوة بطبقة خصبة من الغرين الذي رسبه النيل فوقها . أما في الضفة الغربية فإن رمال الصحراء تجتاح الوادي في غير هوادة حتى تبلغ جرف النهر نفسه ، وتحملها الرياح الشمالية الغربية التي تسود الإقليم في فصلي الشتاء والربيع . ولا يتيح السهل الضيق قيام الزراعة عموماً إلا في الجهات التي تصد الجبال فيها الرياح الرملية العاتية . لذلك كانت الضفة الشرقية أكثر عمراناً من الغربية. ولـكن الغريب أن كل الآثار الهامة تقوم على الضفة الغربية . ولعل قدماء المصريين كانوا أشد تدينا وتعبداً لآلهتهم الـكريمة في البقاع التي يخشون فيها شدة بطش إله الشر «تيفون[1]» (الذي يمثل الصحراء) ، العدو اللدود للإله الخـيّر أوزيريس (الذي يمثل مياه النيل) .

ومجرى النهر هنا في جملته اضيق كثيراً منه في أي أجزاء مصر ، واعتراض الشطوط الرملية لسير المياه هنا أقل . وما إن ينتهي الفيضان حتى يزرع النوبيون الفقراء في الوادي الضيق الذرة والدخن (الذي يصنع منه الخبز)[2] . ولـكن جل اعتمادهم في الغذاء على محصول الذرة ، كذلك تصلح سيقان الذرة الجافة طعاماً لماشيتهم طوال الصيف بدلا من التبن . وبرسيم مصر لايعرف هنا ، ولا في صعيدها جنوبي قنا . وبعد أن تنحسر مياه الفيضان وينتهي محصول الذرة ، تروى التربة بالسواقي التي تديرها الأبقار ، فترفع الماء إما من النهر أو من آبار محفورة على الشاطىء ، لأن الماء الباطني موفور في كل مكان بعد الفيضان على عمق خمس عشرة قدماً أو عشرين . ومثل هذا تجده في الصعيد صيفاً ، ولـكن مياه هذه الآبار كريهة المذاق ضاربة إلى الملوحة ، وأفضل أنواعها عسر الهضم[3] . ولـكي تتشرب التربة المياه

(١) إله الشر عند المصريين هو ست (وهو تيفون عند اليونان) ، وست أخو أوزيريس وقاتله ، وعدو هورس بن أوزيريس (المترجم) .

(٢) لايزرع الدخن في مصر ، ولـكنه طعام أساسي في دارفور وسنار وساحل البحر الأحمر من جدة إلى اليمن .

(٣) الشرقيين ذوق مرهف يميزون به الماء ، وهم يصفونه عادة بالخفة أو الثقل ، وكذلك كان الإغريق يميزون بين النوعين .

جيداً قسمت الحقول مربعات صغيرة — مساحة كل منها عشر أقدام — رفعت حوافها لتحتفظ بالماء الذى تحمله إليها مساق جانبية ضيقة . ثم تزرع الحقول ثانية شعيراً وفولا من نوع يدعى « كشرنقيق» وتبغاً من أردأ الأنواع ، ولوبياء فرنسية (وأوراق هذه اللوبيا إذا سلقت كان منها حساء يستطيبه النوبيون) . ولم أر القمح إلا نادراً . وعلى مقربة من الدر حقول يزرع فيها العدس والحمص والبطيخ . وعلى جرف النهر — وهو أشد من السهل رطوبة وأقل تعرضاً للشمس — يزرع الترمس المر الذى لا يحتاج لرى . والترمس معروف فى مصر ، وهو المعروف عند الإيطاليين بـ «اللوپينى» . وينضج القمح والشعير فى منتصف مارس . وبعد حصاد الشعير فى نهاية إبريل تزرع الأرض أحياناً ذرة زرعة ثالثة ، وتروى بالسواق . ويسمى هذا الزرع زرعاً صيفياً ويكتمل نموه فى شهر يوليو ، ولكنه لا يكون إلا فى أخصب البقاع .

وتنمو على ضفاف النهر أنواع برية مختلفة من الأشجار الشوكية من فصيلة الميموزا (السنط) ، بالإضافة إلى النخل والدوم (*) . كذلك تنمو شجيرات السنامكى القصيرة برية من إسنا إلى الحس فى كل مكان غمره الفيضان . على أن الناس قلما يفقهون مزايا هذه السنامكى ، ولا يستعملها غير الفلاحين الذين خبروا فوائدها الطبية . وتمتاز السنامكى الصعيدية على السنامكى النوبية والجبلية بكبر أوراقها . وبين الكثبان الرملية التى على الضفة الغربية تنمو أشجار الطرفاء ، وهى نفس الأشجار التى تحف بأطراف الفرات فى صحارى الجزيرة .

ولم أر من الحيوان فى رحلتى على ضفاف النيل فى النوبة إلا القليل . وماشية النوبيين البقر والضأن والماعز والجاموس أحياناً ، ويقتنى وجوه القوم الحمير ، والإبل قليلة إلا عند تجار السبوع ووادى العرب . وتوجد التياتل (الماعز الجبلى) فى الجبل الشرقى ، وقد رأيت منها تيتلا فى أسيوط ، ويسمونه « البدن » فى إقليم البطراء . وحدثنى عرب البشارية عن فصيلة من الأغنام البرية ذات القرون المستقيمة

(*) الدوم شجرة منتشرة فى مصر حتى دندرة شمالا

تقطن جبالهم . والبلاد حافلة بالغزلان الشهباء المعروفة ، وليست الأرانب البرية بالحيوان النادر فيها ، ويصيد بعض عرب القراريش الغزلان والأرانب بكلاب سلاقية يربونها خصيصاً لهذا الغرض .

أما طيور النوبة فنوع صغير من الحجل أحمر الساقين كنت أحياناً أتناوله عشاء عجباً إلى نفسى ، وإوز برى من أكبر الفصائل ، وفصائل من اللقلق ، والرخم ، وجحافل من الغربان ، وطير القطا فى أسراب صغيرة ، وجيوش من العصافير الذورية التى يخشى النوبيون أذاها لأنها تلتهم ثلث الحصاد على الأقل . كذلك تجد نوعاً من الزقزاق الشامى واسع الانتشار ، ورأس هذا الطير هو الذى تجده مرسوماً بالهيروغليفية على عصا الرياسة (فكذلك كان يخيل إلى كلما رأيته ينشر عرفه) . وثمة طائر مائى أبيض فى حجم الإوز الكبير ، يطلق عليه الأهالى اسم « الكركى » يسكن الجزائر النيلية الرملية فى أسراب قوام السرب منها مئات ، ولكنى لم أتمكن قط من الدنو منها دنواً يتيح لى تأملها . ولا يزور النوبة الزقزاق الذى نراه كثيراً فى صعيد مصر ، والذى يقال إنه يتسلل إلى فم التمساح ويأكل الطعام المهضوم الذى يخرجه هذا الحيوان من جوفه . كذلك لم أر بالنوبة أى طائر من فصيلة أبى قردان .

ومن الخنافس (الجعارين) المختلفة الأحجام والأشكال ما لا يحصى على الضفة الغربية الرملية . وكثيراً ما وجدت آثار أقدامها تغطى الطريق الرملى على هذه الضفة تماماً . ويطلق النوبيون على الجعران اسم « الكافر » ، وهم يخشون الخنافس لاعتقادهم أنها سامة ، وأنها تنفث السم فى كل طعام تمسه . ولونها فى الغالب أسود وأكبر ما رأيته منها كان فى حجم نصف الكراون . ولعل عبادة قدماء المصريين لهذا الحيوان نشأت فى النوبة أولا ؛ وهو جدير بأن يتخذ رمزاً للخضوع للقضاء والتسليم بأحكام القدر ، إذ يستحيل على هذه الخنافس أن تذوق الماء وهى تسكن تلالها الرملية ، والطعام الذى تعيش عليه ضئيل تافه ، ومع ذلك تراها لا تفتأ مصممة فوق الرمل فى همة لا تعرف الكلل ولا الوهن .

وليس لدى النوبيين عتاد من أى نوع لصيد السمك اللهم إلا من سكن منهم

مناطق الشلال الأول والدر والشلال الثانى ، حيث يصاد السمك أحيانا بالشباك . ويبدو أن أكثر أنواع السمك انتشاراً هنا هما النوعان اللذان يطلق عليهما الأهالى اسمى الدبس والساوق .

ويقسم السكان الإقليم الذى عبرته من أسوان للدر قسمين : أولهما وادى الكنوز — ويمتد من أسوان إلى السبوع ، وثانيهما وادى النوبة — ويشمل كل الإقليم الواقع جنوبى السبوع حتى الحدود الشمالية لدنقلة . وسأفصل الكلام عن وادى النوبة وسكانه فيما بعد[١] . ويسكن وادى الكنوز عرب كنوز (واحدهم كنزى) الذين يزعمون أنهم قدموا فى الأصل من صحارى نجد ، واستوطنوا هذا الإقليم حين انتشرت بمصر القبائل البدوية العظيمة القادمة من الشرق[٢] . ومن بين هؤلاء أيضاً بدو ممن كانوا يسكنون بجوار بغداد ، يعرف أحفادهم إلى الآن باسم « البغدادلية » ويسكنون وادى دهميت ووادى الأمبركاب على ضفة النيل الغربية . وينقسم عرب كنوز إلى عدة عشائر أطلق اسمها على النواحى التى يقتطونها ، فوادى النصرلاب وأبوهور وغيرها تسكنها عشائر النصرلاب وأبوهور . وبين هذه القبائل تحاسد وتناحر يؤديان أحياناً إلى نشوب القتال .

ويبدو أن المستعمرين الجدد ما لبثوا أن اختلطوا بالوطنيين المغلوبين على أمرهم واتخذوا لغتهم وما زالوا يتكلمونها . وليس فى هذه اللغة أصوات عربية على الإطلاق ، ويتكلمها الأهالى من أسوان شمالا حتى السبوع جنوبا ، فى كل قرية شمالى أسوان حتى أدفو ، لأن أفواجا من عرب كنوز استوطنوا الصعيد حديثا . ومن الحقائق التى تسترعى النظر ، أن تمر لغتا الكنوز والنوبة الغريبتان هذا

---

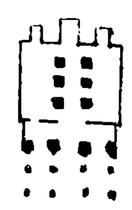
(١) يطلق المصريون على سكان وادى النوبة ووادى الكنوز حتى دنقلة اسم « البرابرة » ولكن هذا اللفظ قلما يستعمله الوطنيون أنفسهم حين يتكلمون عن أمتهم . ولعل اللفظ مشتق من اسم إقليم بربر الواقع فى اتجاه « القوز » التى ذكرها الرحالة بروس . ويعتبر أهل بربر أحيانا نوبيين .

(٢) ينتشر أسلال البدو فى كل أنحاء مصر تقريبا شمالى المنيا . ومعظم فلاحى الصعيد من أصل بدوى ، بل إن من القبائل الشامية عشائر عديدة استوطنت شواطىء النيل .

الزمن الطويل ويمتنع استعمال العربية امتناعا يكاد يكون تاما فى إقليم محصور بين دنقلة جنوبا ومصر شمالا ، وكلاهما لا لغة له سوى العربية وحدها . ولا يتكلم العربية من الكنوز سوى من زار مصر ، ومعظم نسائهم يجهلنها تماما . كذلك مما يسترعى النظر أن يحتفظ عرب العليقات فى السبوع ووادى العرب بلغتهم العربية الخالصة ، وهم على وضعهم من حدود الكنوز والنوبة . ورجالهم يعرفون اللغتين ، ولكن نساءهم لايفقهن سوى العربية .

ولما كانت معيشة النوبة والكنوز وعاداتهم متشابهة ، لذلك سأجمل الكلام عنهما معا بعد ان أصف الطريق الذى سلكته .

وأرباض الدر هامة لاحتوائها على معبد يقوم على منحدر فى تل صخرى وراء القرية ويدل بناء المعبد على أنه موغل فى القدم ، ويلوح أن أهل هذه المنطقة كانوا يعبدون الآلهة المصرية قبل أن تستقر هذه الآلهة بزمن طويل فى معابد الكرنك والقرنة الضخمة التى توحى الظواهر كلها بأنها أقدم المعابد المصرية إطلاقا . ومعبد الدر منحوت كله من الحجر الرملى بما فيه بهو الأعمدة الخارجى والهيكل وقدس الأقداس . ويتألف بهو الأعمدة من ثلاثة صفوف من الأعمدة المربعة ، فى كل صف منها أربعة . والأعمدة القريبة من الهيكل — وكان السقف يصلها بصلب المعبد أصلا — أكبر حجما من سائر الأعمدة ، فربع العمود منها



يقرب من أربع أقدام وارتفاعه أربع عشرة قدماً ، ومازالت أعمدته سليمة فى حين تهدمت أعمدة الصفين الخارجين ولم يبق منها سوى قطع من أبدانها . وأمام كل عمود من الأعمدة الأربعة ساقا تمثال ضخم كالتماثيل التى يراها الزائر لمعبد القرنة بطيبة . وقد سقط جانب من الصخرة المنقورة التى كانت تقوم جداراً من جدران

النهر ، وعلى حطامها نقوش تمثل معركة يظهر فيها البطل راكباً عجلته يطارد عدوه المهزوم وهو يتقهقر إلى الأحراش حاملا جرحاه معه . وفى أسفل هذا الجدار عينه صوِّر الأسرى وقد غلت أيديهم خلف ظهورهم يساقون إلى الجلاد وهو يضرب عنق أحدهم . والنقوش كلها مشوهة ، وعلى الجدار المقابل صور للمعركة أشد تشوها ، ويبدو الأسرى فيها وقد سيقوا أمام الإله أوزيريس (وله رأس صقر) . وعلى جانبي المدخل الرئيسى فى الجدار الأمامى للهيكل صوِّر « برباريوس » يقتله غريمه وقد رفع أوزيريس ذراعه يستوقف الضربة المسدّدة إليه . وهذه المجموعة تراها بعينها مرسومة على كثير من المعابد المصرية ، ولكن لبرباريوس فى هذا المعبد رأسين وأربع أذرع فقط ، فى حين ترى له رؤوساً وأذرعاً عديدة فى معابد مصر الأخرى . وعلى العمد الأربعة القائمة أمام قدس الأقداس صور أشخاص مختلفة أزياؤهم ، وهم يبدون اثنين اثنين ، ويد كل منهم فى يد صاحبه . ومن المناظر المتكررة منظر الكبش المصرى منديس (Priapus) . أما الهيكل فحجرة مربعها ثلاث عشرة خطوة لا يدخلها النور إلا من البوابة الرئيسية ، وحجرة صغرى بجانبها . ويمتد من البوابة إلى قدس الأقداس صفان من الأعمدة المربعة فى كل صف منها ثلاثة . وشكل الأعمدة شاهد بأن مشيديها كانوا مبتدئين فى المعمار ، فما هى إلا كتل مربعة منحوتة من الصخر لا قواعد لها ولا تيجان ، وهى فى قاعها أوسع قليلا منها فى قمتها . وجدران الهيكل الداخلية وأعمدته الستة تغطيها الصور الدينية التى تراها فى سائر المعابد ، ولكن فى صناعتها فجاجة لم أرها فى معابد مصر . وتدل آثار الألوان الحائلة على أن هذه الرسوم كانت فى أصلها ملونة . وعلى جدار جانبي من جدران الهيكل رسم لأشخاص خمسة حليقى الرؤوس طوال الثياب يحملون على أكتافهم قاربا يسنده من وسطه أيضاً رجل يلبس على كتفه جلد أسد . وفى الحائط الخلفى للهيكل باب عليه رسم القرص المجنح ، وهو يؤدى إلى القدس الصغير ، وفيه مقاعد لتماثيل أربعة ، والمقاعد منقورة فى الحائط الخلفى (*)

(*) يرى الزائر هذه التماثيل فى هياكل جميع معابد النوبة القديمة المنحوتة فى الصخر ، وتوزيع الحجرات فى هذه المعابد شبيه بتوزيعها فى هذا المعبد الذى وصفت .

وعلى جانبى القدس حجرات صغيرة لها أبواب خاصة تفتح على الهيكل ، وفى حجرة منها حفرة عميقة يغلب على الظن أنها كانت تستعمل مدفناً .

وعلى جانب الجبل بقرب المعبد مقابر منقورة فى الصخر . وقد نسخت هذين النصين من مقبرتين منهما .

ⲔⲬⲨ ⲠⲀⲎ . ⲎⲤⲞⲚ
ⲦⲰⲚ Ⲧ ⲆⲨⲬⲤⲞⲨ
ⲀⲚⲦⲞⲚⲒⲞⲨ

ⲀⲚⲞⲔ ⲠⲀⲨⲖⲞⲤ ⲈⲒⲤⲨⲀⲒⲚⲀⲒ

ولما كانت الدر أهم بلد فى النوبة ، ومسكناً للحكام حين لا يقومون بجولاتهم ، فقد كانت مقصد الأعراب وسوقاً تقوم فيها بعض التجارة . وتمر الدر وإبريم يلقى تقديراً كثيراً فى مصر ، ويشحن منه تجار إسنا وأسوان شحنات كبيرة من هنا فى الخريف حين يساعد ارتفاع منسوب الماء فى النهر على سرعة الملاحة شمالا . كذلك تنقل من هنا فسائل النخيل إلى مصر ، لأن الأشجار التى تستنبت فى مصر من النوى لا تلبث أن تنحط سلالتها الطيبة . ويؤدون ثمن التمر ذرة وأقمشة خشنة من الكتان وملايات من صنع إسنا وأسيوط . أما إذا كان محصول الذرة فى النوبة وافراً فإن ثمن التمر يؤدى ريالات أسبانية على أن حالة التجارة فى هذا الإقليم يرثى لها ، وأذكر على سبيل المثال أن التمر الذى يشترى من الدر ، ولو نقداً ، يغل بيعه فى القاهرة ربحاً صافياً نسبته ٤٠٠٪ على الأقل . أما الذرة المنقولة من أسوان إلى الدر فتغل ربحاً نسبته ١٠٠ ٪ . والقنطار الإنجليزى من البلح يساوى فى الدر نحو ثمانية شلنات . والعملة المتداولة هى المد أو المكيال الصغير من الذرة تقدر به كل السلع الرخيصة ، أما الريال فسلعة يقايض بها ، لا عملة للبيع والشراء . ولم يعرف القرش والبارة هنا إلا منذ فتح المماليك .

وتقوم قرية الدر وسط حـــــرج من النخيل ، وتتألف من مائتى بيت

أو نحوها ، ولحسن كاشف وأخويه بيوت حسنة بها . وكثرة سكان الدر أتراك انحدروا من جنود البوسنة (البشناق) الذين أرسلهم السلطان سليم للاستيلا على البلاد .

٢ مارس — غادرت الدر بصحبة شيخ من الأعراب يدعى « محمد أبوسعد » من قبيلة القراريش . وبدو القراريش — وهم شعبة بعيدة من العبابدة — ينتجعون شواطىء النهر غير الآهلة وجزائره من الدر حتى المحس ودنقلة جنوباً ، حيث يقال إن عددهم هناك يفوق عددهم فى النوبة . وهم رقاق الحال ، وخيامهم من الحصر المجدول من سعف النخل ، لها فواصل فى وسطها لعزل الحريم ، ولكنهم برغم فقرهم يأبون تزويج بناتهم للنوبيين ، وبذلك احتفظوا بسلالتهم نقية ، وهم يفخرون صادقين بما امتازت به بناتهم من جمال وفتنة . ويشتغل معظم عرب القراريش فى خدمة امراء النوبة حرساً وخبراء يرافقونهم فى رحلاتهم داخل أملاكهم . وفى غياب الأب وكبار الأبناء تبقى الأم وبناتها فى خيمتهن المنعزلة لأنهم يعيشون عادة فى أسر منفصلة لا فى مضارب مجتمعة . ويتلقى هؤلاء البدو بين الحين والحين نفحات من أمراء النوبة ، ويعفى زراع الجزائر منهم من الضرائب وهم على قدر كبير من الأمانة وكرم الضيافة ، وأرق شمائل من سائر من لقيت من سكان النوبة . وغير المشتغلين منهم بخدمة الأمراء يكسبون معاشهم إما بالعمل خبراء ، أو بجمع السنامكى من الجبل الشرقى وبيعها لتجار إسنا بسعر جنيه للحمل (والحمل يعادل من أربعة إلى خمسة قناطير إنجليزية) . ومنهم من يسافر من وادى حلفا الواقعة على النيل مسيرة ثلاثة أيام فى الصحراء الغربية لجمع الشب أو النطرون ، وهم يقايضون عليه هؤلاء التجار بالذرة بواقع مكيالين من الشب لقاء ثلاثة مكاييل من الذرة . ويجدون النطرون إذا حفروا عليه على عمق بوصات قليلة منبسطاً أميالاً . على أنها تجارة محفوفة بالمكاره ، فسكان الكوبانية (وهى قرية تقع على اثنى عشر ميلا شمالى أسوان) يشتغلون بها أيضاً ، وتستغرق رحلتهم إلى آبار النطرون أحد عشر يوماً ، والتقاء الفريقين يعقبه حتما نشوب معركة دامية . وبين وادى حلفا والشب توجد عين ماء تبعد يوماً واحداً عن الشب ،

ويقوم عليها بعض الـكلأ وتنمو بعض أشجار الدوم . وإلى شمال الشب ، على رحلة يوم فى الطريق إلى الواحة الـكبرى ، عين أخرى يسمونها الناري ، وينمو حولها نخل كثير .

ركبنا زهاء نصف ساعة بعد مغادرتنا الدر بحذاء أحراج من النخيل وبيوت للفلاحين حسنة البناء ، ثم ارتقينا الجبل الشرقى ، لأن الطريق الممتد على ضفة النهر تقطعه الصخور . وعلى قمة الجبـل سهل فسيح ، تغطيه شظايا من الحجر الرملى المفـكك ، ويحفه من الشرق على مسـيرة نحو ساعتين سلسلة عالية من الجبال . وواصلنا السير على هذا السهل ميممين غرب الجنوب الغربى ، حتى إذا قطعنا رحلة ساعتين ونصف من الدر هبطنا ضفة النهر ثانية بقرب قرية قته ، وهناك عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النيل . وأنخنـا بعيرينا على جزيرة ، عنـد خيمة دليلى ، فقضيت الليل هناك . ويتكلم القوم العربية والنوبية على السـواء ، ولهم بشرة سوداء ولـكن ليس لهم قسمات الزنوج . والرجال عادة عراة إلا من وزرة يلفونها على الخاصرة ، أما النساء فيلقين على أجسامهن قمصانا من نسيج خشن . ويرسـل الرجال والنساء شعور رؤوسهم ، ويقصونها من فوق العنق ، ويعقصونها ضفائر رفيعة على طريقة عرب سـواكن الذين صورهم مسترسولت فى كتاب «أسفار لورد ڤالنشيا Lord Valentia's Travels» . وشعرهم كث ولـكنه ليس صوفى القوام . ولا يمشط الرجال شعورهم قط ، أما النساء فيمشطنها أحياناً . وتلبس النسـاء فى مؤخرة رؤوسهن عقوصا أو حليا صغيرة من الودع أو الخرز المصنوع من الزجاج البندق . ويدهن الرجال والنسـاء شعورهم بالـكركار إذا تيسر ، ولهذا فائدتان ، ترطيب الجلد الملتهب من القيظ أولاً ، وإقصـاء الحشرات عنه ثانياً ، وصبيانهم عراة ، أما الفتيات اليافعات فيشددن حول خصورهن مناطق من الشراريب الجلدية ، كثيرة الشبه بالريش الذى يلبسه سكان جزائر البحار الجنوبية للغرض نفسه

٣ مارس — رددت الخبير إلى الدر ليشترى مزيداً من الذرة ليقدم بعضه غذاء لبعيرينا فى هـذه الأصقاع التى لا تنمو فيها الأعشاب البرية . واستأنفنا رحلتنـا

بعد رجوعه . وكان طريقنـا يحاذى حرجا من النخيل وصفا من البيوت لم ينقطع مسيرة ساعتين . ثم ألفينا الصخور الرأسية تكتنف النهر حتى تلاصقه . وقد لمحت وأنا فى أسفل الجبل مدخل حجرة منحوتة فى الصخر على ارتفاع ستين قدما أو ثمانين ، ولكنى لم أجد سبيلا لبلوغ هذا المدخل ، فالصخرة هناك رأسية ، وقد رأيت مثل هـذا قبوراً منحوتة فى صخرة وادى موسى فى إقليم البطراء ، لا يمكن بلوغها إلا إذا ارتقى المرء سلما طوله أربعون قدما أو خمسون . وبلغنا حصن إبريم بعد ساعتين ونصف ، وقد أصبح الآن خراباً يبابا ، فقد اعتصم به المماليك فى العام الماضى حين حوصروا ، ثم حاصروا بدورهم جند إبراهيم بك ، وفى غضون هذه العمليات الحربية ضربت الأسوار بالمدافع القليلة التى وجدت فى الحصن ، ودُك كثير من بيوت القرية دكا .

وتقوم إبريم على ربوة صخرية منعزلة تشرف على النهر ، وتحيط بها جبال جرداء لا تصلح لزرع ولا لحرث . وعلى قمة هذه الجبال كثير من مقابر أولياء الأتراك القديمة . والبيوت مبنية بالحجر الرملى ، ومثلها السور الحديث الذى يكتنف المدينة . وعلى الجانب الغربى أطلال تخلفت من السور الأثرى المبنى بأحجار صغيرة منحوتة نحتت بغاية الدقة والعناية ، ويبدو أن السور شيد فى عصر الدولة الحديثة . وفى نطاق المدينة خرائب بنائين من الأبنية العامة ، ولعلهما كنيستان إغريقيتان بنيتا على طراز السور القديم . ويدور المرء حول الحصن فى نحو خمس عشرة دقيقة ، ولم أجد فيه من الآثار القديمة سوى عمود صغير من الجرانيت الأشهب .

وحصن إبريم والإقليم الذى يتبعه ، والذى يبدأ جنوبى الدر بنصف ساعة وينتهى عند توشكى — ملك لأغا إبريم ، وهو مستقل عن أمراء النوبة ، ولما كان الأهالى معفين من دفـع الضرائب سواء لهؤلاء الأمراء أو للأغا نفسه ، فقد استطاعوا بمضى الزمن أن يقتنوا من بيع بلحهم عاماً بعد عام ثروة طائلة من النقود والماشية . ولكن المماليك أتوا فى أسابيع قليلة على كدّ قرن من الزمان ، وذلك فى أثناء تقهقرهم فى العام الماضى . فقد أخذوا من وادى إبريم نحو ألف ومائتى بقرة ، واستولوا على جميع ما فيه من غنم وماعز ، وأودعوا السجن وجوه إبريم وسراتها ، وأخذوا منهم

خبية تجاوزت مائة ألف ريال أسبانى ، ثم أعدموا الأغا قبل مغادرتهم المدينة ، بعد أن أتى جندهم على ما وقع تحت أيديهم من زاد . فلا عجب أن اجتاحت الإقليم فى أعقاب هذا النهب والسلب المجاعة المروعة التى ذكرتها آنفا .

وأهل إبريم لا يفتأون فى حرب مع أمراء النوبة ، وهم على قلة عددهم أكفاء لخصومهم لأنهم جميعاً يقتنون الأسلحة النارية . وهم بيض اللون إذا قيسوا بالنوبيين، مازالوا يحتفظون بملامح أجدادهم البشناق الذين بعثهم سليم الفاتح ليحتلوا إبريم . ولباسهم الجلباب من الكتان الخشن ، وأغلبهم يغطى رأسه بما يشبه العمامة . وهم يقولون «نحن ترك لا نوبيون» . ولما كانوا لا يدينون للأغا بالخضوع المطلق ، وليس لأحد سلطان عليهم ، فقد كثر بينهم التشاحن والتناحر . ولهم قاض يلى وظيفته بالوراثة . ويثأرون من القاتل بقتله ، وإذا أدى العدوان إلى الموت فلا سبيل إلى قبول دية الدم ، أما إذا أدى إلى الأصابة بجراح فهناك غرامات مقررة على كل إصابة تتفاوت بتفاوت الأعضاء المصابة . ومثل هذا القانون منتشر بين بدو الشام . وإذا تزوج تركى من أتراك إبريم أهدى عروسه ثوب العرس وسندا بثلاثمائة قرش أو أربعمائة يؤدى لها نصفها إذا طلقها . على أن حوادث الطلاق بينهم نادرة جداً . وفى العرس ينحر العريس بقرة أو عجلا ، فإذا نحر كبشاً كان ذلك فضيحة الفضائح .

ولست أذكر فى كل ماطفت به من بلاد الشرق بلداً كإبريم يطمئن فيه الناس على مالهم ويأمنون عليه من السرقة . فالأهالى يتركون الذرة ليلا فى الحقول أكواماً بلا حارس ، وماشيتهم ترعى الكلأ على ضفة النهر دون راع يرعاها ، وخير أثاث البيت يبيت الليل كله تحت النخل المحيط بالمنزل . وقد أجمع أهل الإقليم على القول بأن السرقة رذيلة لا يعرفها إقليمهم . ويجدر بى أن أضيف أن النوبيين فى جملتهم لم تلوثهم هذه الرذيلة .

وعبرنا الجبل من إبريم ، وبعد مسيرة ساعة هبطنا ضفة النهر عند وادى الشباك ، وهى القرية التى لجأ إليها أكثر أهل إبريم بعد أن اجتاح المماليك واديهم .

وبتنا ليلتنا هنا فى بيت لأبناء الأغا الذى قتله المماليك . وكنت أينما حططت أرى الفلاحين يجتمعون فى المساء عند البيت ، فكنت أزعم لهم أننى قادم فى مهمة رسمية تتصل بالأميرين النوبيين المقيمين جنوبى سكوت ، ولما كنت فى صحبة رجل معروف بصلته بأسرة كاشف فإن أحداً لم يجرؤ على عرقلة رحلتى . والواقع أنه لاخوف من الفلاحين على المسافرين فى النوبة ، وهم خليقون بأن يطمئنوا إلى نواياهم بوجه عام ، وإذا كان هناك خطر عليهم فمصدره جشع الحكام وشرههم للمال .

٤ مارس — يمتد حرج النخل جنوبى الشباك . وقد وجدت كثيرا من البيوت مهجوراً ، وفى كل خطوة كنت أصادف قبوراً منبثة . ويضع النوبيون بجانب كل قبر إناء من خزف يملؤونه ماء فى اللحظة التى يلحد فيها الميت ويتركونه هناك . أما القبر فيغطونه بحصى صغير مختلف الألوان ، وفى كل طرف من طرفيه يغرسون سعفتين كبيرتين من سعف النخل ، وهكذا أصبح رمزا لانتصار رمزاً الموت عند النوبيين . وتقوم إلى جوار الشباك أكوام من أحجار منحوتة هى أطلال بناء قديم . وبعد ساعة من إبريم بلغنا وادى بستان . والأرض الصالحة للزراعة هنا ضيقة جداً . ويبعد الجبل الشرقى مسيرة ساعة تقريباً ، وبينه وبين السهل ربوة تكسوها الحجارة الرملية المفككة . وشكل الجبال المنعزلة التى يتألف منها هذا القسم من السلسلة يسترعى الأنظار ، فمعظمها شبيه بالمخروط قد استوى عند القمة أو بالهرم الكامل . وإذا رأيتها من بعيد بدت لك منتظمة جدا حتى لتخالها من صنع الإنسان . وبعد مسيرة ساعتين بلغنا قرية توشكى ، وهى الحد الجنوبى لوادى إبريم . وفى السهل الصخرى إلى الشرق من توشكى تقوم صخرة منعزلة مهشمة نحتت فيها عدة قبور تحملها من الداخل أعمدة مربعة قصيرة وفى أحد هذه القبور دهليز مقبب يؤدى إلى مدخل خلفى . وصناعة هذه القبور بدائية خشنة ، وليس على جدرانها من نقوش سوى رسم الصليب . وبقرب الصخرة تلال عديدة من النقارة . ومن عجب أن تكون هذه القبور هى الوحيدة التى يصادفها المسافر فى التلال الشرقية من أسوان إلى

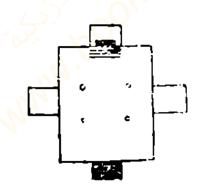
هنا ، فقد كان من السهل نحت القبور فى الحجر الرملى كما نحتت فى أماكن عديدة بمصر . وتتصل توشكى زهاء الساعة . وبعد ثلاث ساعات ونصف عبرنا الجبل ، وبعد أربع ونصف بلغنا أرمنة وهى قرية جميلة تدخل فى أملاك النوبة . وكان طريقنا حتى الآن يتجه إلى الجنوب الغربى تماماً ، أما بعد ذلك فقد انحرف غرباً . وبعد خمس ساعات ونصف عبرنا الجبل المكتنف للنهر مرة أخرى . وبعد ست ساعات بلغنا فرقندى وهى قرية حقيرة تمتد أميالا . ويزرع النوبيون هنا قليلا من القطن . ويرى المسافر حقولا صغيرة من القطن منبثة على طول الطريق من قنا إلى دنقلة . وينسج النساء من القطن قمصاناً خشنة أو يبعنه لتجار الدر لقاء الذرة . وبعد سبع ساعات ونصف مررنا بأطلال كنيسة إغريقية استعملت مسجداً فى عصور حديثة ، وجدرانها إلى النصف مبنية بالحجارة الصغيرة ، أما أعلاها فمن اللبن ، وعلى الملاط الأبيض كتبت أسماء عديدة للزائرين ، والكتابة بخط آخر فترة من حكم الدولة الحديثة . وتكثر التواءات النهر هنا وانحناءاته ، ويروى عن هذا القسم من مجراه أنه مرتع للتماسيح . وقد رأيت بنفسى ستة منها راقدة إلى جوار بعضها البعض على شط رملى . والنوبيون جميعا يأكلون لحم التمساح أنى أتيح لهم صيده ، شأنهم فى ذلك شأن أهل الصعيد ، ولكنهم قلما يوفقون فى اصطياده(*).

وبعد الكنيسة الإغريقية يخترق الطريق الجبل ثانية ، وعلى الجانب الآخر لهذا الجبل يوجد وادى فريق على مسيرة ثمانى ساعات ونصف . وكل واد بما فيه من مجموعة القرى يفصله عن الواديين شماليه وجنوبيه جزء ناتىء من الجبل قريب من النهر يكون بمثابة حد طبيعى له . وترجلنا بعد الغروب عند بيت إحدى زوجات حسن كاشف بعد مسيرة تسع ساعات ونصف ، وهناك قضيت الليل . وإذا قدرنا الساعات التى قطعناها بطول النهار ، فلابد أننا قطعنا فى يومنا هذا

(*) لم أسمع النوبيين يتكلمون قط عن تماسيح ذات حجم هائل ، وأظن أن أكبر ما رأيته منها كان طوله نحو خمسة وعشرين قدماً ، والتماسيح التى بحجم التمساح المحفوظ بالمتحف البريطانى لا يصادفها المرء فى إلا النيل فى عروض شندى وسنار .

عشر ساعات ونصف على الأقل . وكانت ساعتي لسوء الحظ قد تعطلت لتسرب الغبار إليها ، لذلك لا سبيل إلى حساب الوقت في مسيري بالنهار إلا بارتفاع الشمس في الأفق وبطول النهار . وقد أخطىء لهذا السبب في تقدير الزمن الذى قضيته في السفر من قرية إلى قرية ، ولكن مجموع ما قطعت في اليوم كله صحيح في جملته .

٥ مارس — بعد نصف ساعة بلغنا عقبة (*) فريق ، أعني حد الجبل بين وادى فريق والوادى الواقع جنوبيه . وأرسلت دليلى بالبعيرين فوق الجبل ، أما أنا فسلكت طريقاً ضيقاً للمشاة يلتزم الجرف الذى يكاد ينحدر انحداراً رأسياً . وبعد ساعة من ترك فريق وصلت إلى معبد قديم منحوت في جدار الجبل الصخرى . ولا سبيل إلى هذا المعبد سوى هذا الطريق الخطر ، وليس هناك أثر لطريق قديم يؤدى إليه . ودخلت من بوابة ضيقة عالية إلى معبد مصرى صغير منحوت كله في الصخر ، وكان سليما محتفظا برونقه كأن النحاتين قد نزلوا عنه الساعة ؛ ويتكون من هيكل طوله عشر خطوات وعرضه سبع وارتفاعه زهاء الاثنتى



عشرة قدما . وفي داخله أربعة أعمدة ذات تيجان مصرية ، وعلى كل جانب من جانبي الهيكل حجرة لا يصلها النور إلا من الباب الذى يفتح على الهيكل . وعلى طول جدران الهيكل مدت مقاعد حجرية واطئة ، وهى ظاهرة غريبة لم أر لها نظيراً في أى معبد مصرى آخر ، وهناك ثلاث درجات منخفضة تصعد بك من الهيكل إلى قدس الأقداس . وفي القدس حفرة عميقة للدفن ، وفي الهيكل أيضا أخرى شبيهة بها وإن صغرت عنها . وجدران الهيكل والقدس تكسوهما النقوش المألوفة ، ولكن الحجرتين الجانبيتين عاطلتان منهما . وقد حول

(*) لفظ «عقبة» شائع في جغرافية البلاد العربية ، وهو يدل عادة على إقليم جبلي أو مهبط صخرى يقع عليه الطريق .

الإغريق هذا المعبد كنيسة وبيضوا جدرانه ليرسموا عليها صورهم التى لم يزل كثير منها باقياً ، وأظهرها صورة «مار جرجس» وهو يقتل التنين . وتحمل الجدران آثار أسماء كثير من الرحالة الإغريق . وبنـاء المعبد برمته فج لا صنعة فيه ، ونقوشه الهيرغليفية شبيهة بنقوش معبد الدر . وعلى الضفة المقابلة يقوم إلى الشمال قليلا معبد أبو سمبل والتماثيل الضخمة التى سيأتى الكلام عنها فيما بعد .

والتقيت بدليلى بعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة من مغادرتى فريق ، عند سفح تل منعزل قريب من النهر يقوم عليه حصن يشبه حصن إبريم ضخامة وشكلا ، واسمه قلعة أدّا ، وقد هجر من سنوات عديدة لأن الصخور الجرداء تكتنفه من كل صوب . ولا يزال جزء من سوره القديم قائماً ، وهو يشبه فى بنائه سور إبريم . والبيوت مبنية بالحجر والطوب . وعلى قمة القرية توجد ثمانية أو عشرة أعمدة صغيرة من الجرانيت الأشهب ملقاة على الأرض ، وإلى جوارها تيجان إغريقية من الحجر الرملى الأحمر بدائية الصنعة . وصخور هذا التل من أفضل أنواع الجمعات من الظران والمرو والحجر الرملى الأحمر ، وهو فى هـذا فريد بين التلال التى شاهدتها فى النوبة . ويكوّن النهر أمام الحصن جزيرة كبيرة تسمى جزيرة بلانّه ، نسبة إلى القرية القريبة منها على الضفة الغربية . والجبل فيما حول أدّا يتألف من تلال وعرة مشوهة ، ويبدو أن هزة أرضيـة عنيفة قد هشمتها . وإلى الجنوب من هـذا المكان يتجه النهر فى سيره غرب الجنوب الغربى . وبعد ساعتين ونصف من فريق يترامى الجبل الشرقى إلى الشرق البعيد ، ثم يلتقى بالنهر ثانية بعد الشلال الثانى الواقع عند وادى حلفا . ويكثر هنا نمو شجيرات برية تسمى العُشر ويسميها عرب البحر الميت عشيراً . ولهذا النبات ثمرة فى داخلها ألياف حريرية تغلف فولة صغيرة ، وقد وصفه « نوردن » . وهو ينمو فى كل أنحاء الصعيد جنوبى أسيوط على البقاع الرملية المجاورة للنهر ، ولكنه لا يبلغ من الكبر ما يبلغه فى النوبة . ويسميه المصريون الفتنة ، وهو أعم الحشائش البرية التى يصادفها المسافر فى طريقة من السلسلة (جنوبى إدفو) إلى إقليم المحس ، وأوراقه سم زعاف للإبل . كذلك يكثر الحنظل حيث ينمو

العشر ، ويصنع النوبيون منه الصوفان كما يصنعه البدو فى بلاد العرب . وبعد ثلاث ساعات مررنا فى السهل الرملى بعدد من الكيمان المختلفة الأحجام تغطيها الرمال ، وقد أحصيت منهـا قرابة خمسة وعشرين فى نطاق ميل ونصف . وانتظام شكلها الذى يماثل تماماً شكل الكيمان الموجودة فى صحارى الشام وسهل تروادة يكاد يقطع بأنهـا من صنع الإنسان(*) . وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنـا قرية تسمى **قسطل** ، وبعد أربع ساعات بلغنا قرية كبرى هى **أدندان**. وفى الطريق دعتنا أسرة من أقارب الأمراء النوبيين لتناول الطعام فى مأتم رب الأسرة ، وكان قد توفى منذ أيام فى الدر ، فلما سمع ذووه بالخبر نحروا بقرة ووزعو لحمها على الجيران . وعلى مسيرة ساعتين من القرية لقيت نسوة يحملن على رءوسهن أطباقاً حملن فيها نصيبهن من هذا اللحم . ولا ينحر البقر إلا وجوه القوم إذا مات قريب لهم ، أما عامة الناس فيقنعون بذبح شاة أو عنزة يوزعون لحمها بالقسطاس ، وأما الفقراء فلا يوزعون غير الخبز على قبر الميت . وعلى مسيرة أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة مسجد قديم متهدم يقوم على التل فى الطرف الجنوبى لوادى أدندان ، تجاه قرية **فرس** ، على الضفة الغربية للنيل . وبعد خمس ساعات ونصف مررنا بجزيرة فرس الجميلة . والأرض هنا مكشوفة ، ولكن السهل على الضفتين تكسوه الرمال . وعلى

(*) أثبتت حفائر مصلحة الآثار المصرية التى بدأتها عام ١٩٣١ صحة رأى بوركهارت الذى كان أول من فطن إلى أن هذه الكيمان ليست طبيعية ، ولكن هذه الظاهرة ظلت طويلا برغم هذا لا تثير اهتمام المشتغلين بالحفر والتنقيب . والكيمان التى أحصى منها بوركهارت خمسة وعشرين هى جبانة قسطل التى اشتهرت بكيمان جحا ، ومثلها جبانات كلابشة وإبريم وبلانة وأدندان وجماى وفركة وصاى وواو . ومقابرها الكومية للملوك البلميس Blemyes وأشرافهم ، وكانوا يحكمون أكثر النوبة العليا والسفلى فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين . وحضارتهم تالية للحضارة المروية ، وكانو وثنيين يعبدون آلهة مروى ومصر . وقد اشتبكوا فى حروب مع حكام مصر من الرومان على حدود إلفنتين . وفى منتصف القرن السادس قضى عليهم (سلكو) ملك النوباتاى المسيحى ، فهدم بهذا آخر معقل للوثنية فى النوبة ، وسجل نصره باليونانية على معبد كلابشة (أنظر تقرير مصلحة الآثار المصرية) .

(Royal Tombs of Ballana and Qustul.)

(المترجم)

مسيرة سبع ساعات توجد قرية سرة غرب على الضفة الغربية ، وعلى سبع ساعات ونصف أطلال مدينة عربية صغيرة قريبة من الماء يحيط بها سور سميك من الآجر . وبلغنا سرة بعد ثمانى ساعات ، وهى قرية جميلة ، ثم دبيرة بعد ثمانى ساعات ونصف ، وهناك بت ليلتى . وكان دليلى يمضى بى دائما إلى بيت كبير القرية ، وإلا لما نلنا حظاً من الطعام قبل النوم . وكنا حيثما نزلنا يفرش لنا حصير على الأرض أمام باب الدار الذى لا يدخله غير الأهل والأخصاء . وكان العشاء الذى يقدم لنا عادة هو خبز الذرة باللبن ، يضاف إليه الملح أحياناً . ولا يأكل رب البيت مع ضيوفه قط إلا إذا ألحوا عليه فى أن يفعل . ولم يكن مضيفونا يقدمون العلف لبعيرنا دائماً ، وكانوا يعتذرون عن ذلك بنفاد المخزون من سيقان الذرة . وإذا أرادوا الاحتفاء بالغريب هنا قدموا له عند شروق الشمس قبل رحيله فطوراً من اللبن الساخن والخبز ، أما العشاء فبارد فى العادة . ولكن قلما كان الحظ يحالفنا فنظفر بفطور ، وكنا فى العادة نركب اليوم كله دون أن نصيب من الطعام غير التمر القليل نتناوله من جعبتنا ونحن واقفان ببعيرينا عند بقعة ليقضما من أشجار الطرفاء أو السنط .

٦ مارس — كان طريقنا يسلك سهلا خصباً ينتشر فيه النخيل والمساكن إلى إشكيت . وكان النيل منخفضاً جداً فى العام الماضى فلم يغمر فيضانه السهل . ورآنى شيخ من أقارب أمراء النوبة أمر بداره فدعانى للنزول عنده وبالغ فى الحفاوة بى . وكان فى شبابه حاكماً لسكوت ، فطغى وتجبر ، ولكن يبدو أنه تاب وأصبح أول المحسنين فى إشكيت . وقد اغتبط بالهدية التى قدمتها له ، وكانت حفنة من البن المحمص ، فألح علىّ فى المكث عنده يوماً ، واعداً بذبح شاة إن فعلت ، ولكنى لم أجد فى ذلك ما يغرينى إغراء كافياً بتأخير سفرى .

وبينما كنت فى إشكيت مرت على ضفة النيل الغربية قافلة العبيد التى أشرت إليها آنفاً قادمة من المحس . والطريق المألوف لهذه القوافل التى تختلف إلى مصر عادة مرتين كل عام يشق الصحراء من المحس إلى الواحة الكبرى ، وتستغرق الرحلة ثلاثة وعشرين يوما ، ومن ثم إلى أسيوط والقاهرة . ولم يجرؤ تجار

الرقيق على السير على ضفة النيل بقوافلهم — وهو طريق لم يرتادوه من أمد بعيد — إلا هذا العام ، وذلك حين عادوا باستتباب الأمن والنظام فى النوبة والصعيد .

وإلى الجنوب من إشكيت سهل رملى . وبعـد ثلاث ساعات بلغنا **دبروسة** . ويتجه الطريق إلى الجنوب الغربى بانحراف إلى الجنوب . وبعد أربع ساعات بلغنا سقوى ، وبعد خمس ساعات **وادى حلفا** . وإلى الشرق منها ينتهى الجبل الشرقى بتلال منخفضة لا تلبث أن تعلو ثانية وتتألف منها جبال جنوبها بنحو ثلاثين ميلا . وتقوم بعض التجارة فى وادى حلفا ، وكثيراً ما ترسو فيها المراكب القادمة من أسوان لتشحن بالتمر وبالشب الذى يجمعه العرب من الصحراء الغربية على مسيرة ثلاثة أيام من وادى حلفا . والملاحة فى الصيف من الدر إلى وادى حلفا شاقة على المراكب — اللهم إلا الصغيرة منهـا — فى مواضع كثيرة بسبب الشطوط الرملية . ويقيم هنا رجل من أقارب أمراء النوبة يجمع لهم الضرائب .

وبلغنا الطرف الجنوبى لوادى حلفا بعد مسيرة ست ساعات . ويكون النهر هنا عدة جزائر تقوم على إحداها أطلال مدينة قديمة مبنية باللبن لها سور عال من اللبن . وبعد أن سرنا سبع ساعات أصبح السهل وعراً تنتشر فيه مجموعات من الصخور منعزلة لا تبدو غـير أطراف قممها من فوق الرمال . وإلى الغرب يوجد الشلال الثانى . وبعد مسيرة ثمانى ساعات وقفنا للمبيت فى الصحراء إلى جوار إحدى الجزائر التى كونها النهر . وكنا نسمع فى جوف الليل خرير الماء فى الشلال على بعد نصف ساعة . والبقعة رائعة الجمال ، فإذا انحسرت مياه الفيضان تخلفت البحيرات الصغيرة الكثيرة بين الصخور ، وبدت ضفافها المكسوة بأشجار الطرفاء بديعة المنظر وسط الصخور السوداء والخضراء . وتشغل هذه البحيرات والبرك مساحة يزيد عرضها على ميلين . واصطدت ببندقيتى إوزة برية تناولنا منها عشاءنا ، وكنا الآن ثلاثة ، أما ثالثنا ففتاة مسكينة من دبروسة جرت خلفنا وتوسلت إلينا أن نأخذها فى رعايتنا إلى وادى مرشد وراء الشلال . ومن وادى حلفا إلى سكوت برية صخرية تكثر فيها الجنادل فى عرض النهر كما هى الحال

فى أسوان ، وتتعطل الملاحة مسافة تبلغ مائة ميل . تسمى هـذه البقعة الصخرية دار الحجر أو بطن الحجر .

٧ مارس — بعد أن سرنا ساعة التأمت الروابى والآكام المبعثرة ، وتألفت منها سلسلة منخفضة من التلال ، والطريق بينها سهل رملى خالص . وبعد مسيرة ساعة ونصف بلغنا وادى عبكة . وفى بطن الحجر بقاع قليـــلة تصلح للزراعة ، ولـكنها ليست إلا شريطاً ضيقاً جداً من الأرض يمتد إلى جوار النهر ، ولا تستطيع مياه الفيضان أن تغمره لارتفاع ضفتى النهر ارتفاعاً كبيراً ، لذلك لم يكن مندوحة عن رى الأرض بالسواقى . وهذه السهول الضيقة — وتسمى الوديان هنا أيضاً — كانت تزكو فيها الزراعة من قبـــل . ويزعم أكثر سكانها أنهم من أحفاد أشراف مكة ، وأنهم قدموا هذا الإقليم فى فترة الغزوات التى شنتها القبائل العربية . ولهم زعيم يدعى عبد الله بن إمهيد ، وهـو يقطن وادى عطار ، ويلقب « ملـكا » تشريفاً له ، كما يلقب سائر رؤساء القبائل من هذا المكان فصاعداً . وهؤلاء الأشراف (وهم قبيلة أم شريف) يدفعون لملـكهم خراجا قليلا . ويدين الملك بالتبعية لحـكام النوبة الذين يسلبون بدورهم من مال هؤلاء العرب ما وصلت إليه أيديهم كلما اجتازوا ببطن الحجر . على أن معظم الأشراف قد نزحوا الآن عن وطنهم بسبب الغارات التى لا يفتأ يشنها عليهم عرب الشايقية الذين ينزلون ضفاف النهر جنوبى دنقلة على مسيرة ثمانية أيام من سكوت عبر الصحراء ، والذين أوقعوا بالأشراف من الخسائر فى هذه الغارات ما حمل معظمهم على الالتجاء إلى سكوت أو دنقلة . ولا يكاد الذكور فى إقليم بطن الحجر بأسره يبلغون أكثر من مائتين عدداً ، نصفهم من الأشراف ونصفهم من قبيلة القراريش البدوية . ولا يزال بعض العرب مقيمين فى عبكة ، وهناك قرية صغيرة شيدت على جزيرة صخرية ، حيث أطلال برج كبير من الآجر ، ومنها يعبر العرب فرع النهر كل صباح على جـذع نخلة مستخدمين أيديهم مجاذيف ليزرعوا حقولهم الممتدة على الشاطىء ، ثم يعودون فى المساء بنفس الطريقة . وكلما امتد الطريق رأيت الصخور والجزائر تملأ النهر ، وبدت الأرض برية وعرة .

ولم أر شبيهاً لبطن الحجر ووديانه إلا الطريق المحاذى للنيل من أسوان إلى الشلال الأول ، فالساحل الصخرى الذى امتاز به هذا الطريق ، وما تناثر عليه هنا وهناك من شريط الأرض الزراعية الضيق ، تجده بعينه على طول بطن الحجر ، من وادى حلفا إلى سكوت .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف يقع وادى مرشد . وتفصل الوديان المناطق الصخرية التى تكتنف النهر . وفى وادى مرشد يعود ظهور الجزائر العديدة فى النهر ، وعلى جزيرتين منها خرائب من اللبن ، وبرج قديم ، وأكواخ قليلة للعرب . وكان طريقنا من وادى حلفا إلى مرشد يتجه غرب الجنوب الغربى . والنهر بعد مرشد يخلو من الجزائر ، وتقل فيه الصخور ، ولكن مجراه يختنق ، وشطئانه ترتفع . ورميت حجراً فوصل إلى الضفة المقابلة . وبعد أربع ساعات ونصف بلغنا ست الحاجة ، وهى بقعة من الأرض صالحة للزراعة تكتنفها الصخور وفيها مساكن قديمة من اللبن . ولا يسكنها غير أعرابى عجوز يقيم فى كوخ بنى على ضريح الشيخة المدعوة بست الحاجة ، ويعيش على صدقة المسافرين . وقد وجدته ممدداً على حصير وإلى جواره قلة ماء وإناء من الخزف ألقيت فيه حفنات من التمر . والنهر جنوب هذه المنطقة كثير المنعطفات . وترتفع التلال القائمة على الضفة الشرقية ارتفاعاً مطرداً ، حتى إذا بلغنا وادى سرس بعد ثمانى ساعات ونصف عادت فأصبحت سلسلة منتظمة من الجبال ، وعليها يمتد الطريق من وادى ست الحاجة . وقد أسرع بى دليلى الأعرابى الشيخ واستحثنى فى السير خشية أن يهاجمنا اللصوص من عرب الشايقية الذين لا يفتأون يجوسون الأرض ليكمنوا للمسافرين فى طريقهم . ولم نصادف فى الطريق إلا شراذم من الحجاج السودانيين ، أو التكارنه (واحدهم تكرورى) ، لا تزيد الجماعة منهم على خمسة أشخاص أو ستة . وهؤلاء الحجاج البواسل يقصدن دارفور من جميع أنحـــاء السودان [الغربى] ومنها يسيرون إما بطريق كردفان إلى سنار ، وإما رأساً إلى دنقلة . ومن النيل يسلك بعضهم طريق سواكن ويعبرون البحر الأحمر إلى جدة ، ويتبع بعضهم طريق النيـل مخترقين دنقلة والمحس ، ويؤدون فريضة الحج مع الحجاج

المصريين بعد أن يقيموا حيناً بالأزهر الشريف يتلون القرآن ويقرءون الكتب الدينية . وقد علمت بعد التحرى أن معظم هؤلاء الحجاج من أهالى دارفور وبرقو . ولم أجـــد من نيف وأربعين حاجاً تحدثت إليهم بإسنا واحداً قدم من كاتسينا [فى نيجريا] فى أقصى الغرب ، ولكنى وجدت منهم نفراً قدموا من ونقارة . ولعل لفظ « تكرورى » الذى يطلق على الواحد منهم نسبة إلى إقليم تكرور فى السودان . ويعرف الذين يقرءون ويكتبون بينهم « بالفقراء » ، وهو لفظ يطلق بصعيد مصر على العلماء كافة ، ويقصد به حفظة القرآن ، ممن يعرفون كتابة الأحراز والتمائم التى تبطل السحر وعمل الشيطان .

وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا بالجسر الجنوبى لوادى سرس ، عند كوخ لبعض عرب القراريش ، وكانوا يقومون هم وأسرة من الأشراف على زراعة حقول قليلة من القطن والفول . فقدموا لنـا عشاء من اللبن ، وأكدوا لنـا أنهم لا يملكون خبزاً ؛ بل إنهم لم يذوقوا طعمه من شهرين . فوزعت عليهم مكيالاً من الذرة ، مشترطاً ألا يقايضوا عليـه بشىء آخر ، بل يصنعوا منه خبزاً لهم ولنسائهم ، فقلما ينعم النساء بهذا الترف الذى يكاد يختص به الرجال من أزواج وإخوة . وما لبثت النسوة إثر هذه النفحة أن انطلقن جميعاً بطحن الذرة بين حجرين من الجرانيت ، إذ لا يملك الرحى التى تدار باليد والتى يستعملها بدو جزيرة العرب غير سراة القوم . ثم صنعن خبزاً كثيراً ، وظلت الفتيات يأكلن ويغنين طوال الليل ، وكثيراً ما كن يشاركننا حديثنا وسمرنا ، لأنه لم يكن يفصلهن عنـا غير حاجز من أغصان الطرفاء . وغذاء القوم أوراق الفول وبذور الكركدان السوداء ، وهى فى حجم بذور الكزبره . وينمو الكركدان برياً فى بطن الحجر ، ويزرع فى أنحاء من شمال النوبة . ويصنعون من بذوره المحمصة نوعاً من القهوة لا بأس بطعمه ، ولكن العرب يؤثرون أن يصنعوا هذه البذور خبزاً . كذلك تنتشر هنا السمكة ، وهى شجيرة قرنية تصلح غذاء طيباً للإبل ، وثمرها قرون كالبـازلاء تحوى حبوباً وردية مستديرة قد تؤكل خضراء ، ويجمعها العرب ويجففونهـا ، ثم يغلونها جيداً ليستخلصوا منها زيتاً يستعملونه بدل الزبد دهاناً لشعورهم وأجسامهم .

وأشراف بطن الحجر شديدو السمرة ، وقسماتهم جميلة وأجسامهم بديعة . ويمشى رجالهم ونساؤهم عراة ، ولكن النسوة يلبسن تمائم من الجلد حول أعناقهن ، ودمالج وأسوار من نحاس وحلقاناً من فضة ، ويتكلم معظم القوم قليلا من العربية . .

٨ مارس — ارتقينا من سرس جبلا عاليا . وتتغير طبيعة الصخر هنا ، وقد كان حجراً رملياً حتى وادى حلفا ، فأصبح العنصر الغالب عليه الآن هو الحصى الأشهب grauwacke والحجر الأخضر grunstein . وتنتشر هذه الصخور الأولية فى كل أنحاء بطن الحجر . وفى الجبل الواقع خلف سرس صخور جرانيتية وصخور هائلة من المرو (الكوارتز) ، كذلك تجد طبقات من المرو تعترض الصخور الخضراء فى كل مكان . وعلى ثلاث ساعات أو أربع إلى الشرق من طريقنا تمتد سلسلة عالية من الجبال محاذية لمجرى النهر ، ويطلق عليها اسم جبل بلنكو وهى غير مأهولة. وتهطل عليها أمطار الشتاء بانتظام ، وتظل المياه فى الشقوق والأغوار طوال الصيف. وبعد ساعتين ونصف بلغنا سهلاً على قمة الجبل يدعى عقبة البنات وفى هذه البقعة ابتكر الخبراء العرب طريقة فذة يبتزون بها عطاء صغيراً من المسافرين الذين يصحبونهم فى هذه الجبال ، ذلك أنهم يترجلون فى أماكن معلومة فى عقبة البنات يسمونها قبضة أو مقبضة ، ويسألون المسافر عطاء ، فإن أبى جمعوا كومة من الرمل وشكلوها على هيئة قبر صغير ، ووضعوا عند كل طرف من طرفيه حجراً ، ثم قالوا للمسافر إن قبره قد أعد ،وهم يعنون بذلك أنه لن يكون بعد اليوم فى مأمن أثناء سفره فى هذه المفازة الصخرية . ويؤثر معظم المسافرين دفع مبلغ تافه عن أن يروا قبورهم تمهد لهم أمام أعينهم ، ومع ذلك فقد رأيت قبوراً بهذا الوصف مبعثرة فى السهل . ولما كنت راضياً عن دليلى ، فقد نفحته بقرش قنع به وسكت . والصخور الرئيسية على السفح الجنوبى لعقبة البنات من الشست الميكى والكلوريت ، ويصادف المرء عند قاع الجبل ناحية وادى أتيرى صخوراً من الحجر السماقى البديع . ولم أر غير أنواع قليلة من السماقى الأخضر تتخللها

ألواح حمراء من الفلسپار ، ومعظم السماق أحمر أو مختلط بالشست ، وقد احتفظت بنماذج من هذه الصخور كلها . وبعد سرس اتجه طريقنا جنوب الجنوب الغربي وبلغنا وادى أتيرى بعد أربع ساعات ونصف ، وهو أهم قرى بطن الحجر . وهنا تعود الجزائر تنتشر فى النهر ، وعليها خرائب مساكن قديمة من الطوب وأبراج عتيقة . ويبدو أن ضفاف النهر لم تكن مأمونة حتى فى العصور القديمة ، فإننى لم أصادف أى مساكن خربة على الضفة الشرقية لبطن الحجر . ويلوح أن السكان القدامى قد آثروا الجزائر وحدها مسكناً . وهناك جندل آخر فى النهر عند وادى أتيرى ومثله بين هذا الوادى وبين سرس مقابل سمنة ، على الضفة الغربية . وواصلنا سيرنا أكثر من ساعة فى وادى أتيرى ، وينمو بعض النخيل فى هذه الوديان ، ولكن أشجار الدوم أكثر انتشاراً . وبعد خمس ساعات يبدأ ممر وعر يخترق الجبل ، ويدعى عقبة جبل دوشة . وقد استمتعت من قمته بمنظر بديع لمجرى النهر فى الجنوب ، ولكن شطئانه الخضراء الضيقة تكاد تضل فى هذه الفيافى الصخرية الشاسعة التى تمل العين صخورها الجرداء المقفرة فتلتمس مياه النهر الزرقاء ، ولكنها لا تجدها إلا بعد عناء لأن مجرى النهر كثيراً ما تخفيه الجزائر فلا يبدو منه إلا بعضه . وبعد سبع ساعات هبطنا من الجبل إلى وادى أمبقول . وبعد ثمانى ساعات صادفنا جنادل يجرى عندها النهر فى غير هوادة قافزاً فوق الصخور دافعاً مياهه الرغية المزبدة مئات الأقدام . على أنك لن تجد فى هذه الجهة ما يمكن أن تسميه شلالا بمعنى الكلمة . وكل هذه الجنادل شبيهة بجنادل أسوان ، ولكن الصخور تخنق النهر هنا أكثر مما تخنقه فى أسوان . وهو يجرى مجراه كله فى بطن الحجر بسرعة فائقة تتحدر معها اللاحة . وبعد تسع ساعات وقفنا بكوخ من أكواخ عرب أم شريف .

٩ مارس — تقوم جبال عالية إلى الشرق من أمبقول ، وإلى الجنوب منها تنخفض السلسلة الشرقية . ويبدو أن جبال أمبقول هى أعلى قمم بطن الحجر قاطبة . وكان طريقنا يلتزم ضفة النهر تارة ، ويخترق الصخور تارة أخرى . ولم أر فى هذا

الإقليم الوعر أى أثر لدرب قديم . وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادى أم قناصر حيث يوجد برج حراسة صغير من الحجر قائم على تل . ومن هنا سرنا فى طريق جبلى حتى وادى لامولة فبلغناه بعد خمس ساعات . ويعترض النهر هنا بعض الجنادل والجزائر الصخرية ، وقد رأيت عليها التماسيح تصطلى فى الشمس . وبعد خمس ساعات ونصف ارتقينا الجبل ، وبعد ست بلغنا قمة عالية تدعى جبل لامولة تقابلها قمة مثلها على الجانب الغربى . وفى قاع هذا التل يكرر العرب عادتهم التى أشرت إليها آنفاً ، وهى حفرهم قبر المسافر . ولما لم أكن أدرى كم من المرات قد يتذرع دليلى بهذه الحيلة ليطالبنى بعطاء جديد ، فقد أبيت أن أنفحه شيئاً حين طلب ، وما إن بدأ يحفر الرمل على هيئة قبر حتى ترجلت عن بعيرى ، وصنعت قبراً نظيره ، وقلت له إن هذا قبره ، فإن من الإنصاف أن ندفن فى صعيد واحد مادمنا أخوين . فأخذ يضحك ، ثم هدم كلانا ما صنع صاحبه ، وركبنا بعيرينا وهو يتلو الآية الكريمة « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » . وبعد سبع ساعات بلغنا سهلا رمليا فى الجبل المسمى ضورسنك ، وسنك واد واقع أسفل هذا الجبل . ولما كان الطريق المؤدى لبلاد الشايقية يتفرع هنا ، كانت هذه البقعة مطروقة أكثر من سواها فى هذا الإقليم الصخرى ، واشتهرت بالسرقات الكثيرة التى يرتكبها هؤلاء العرب ، وقد أرانى دليلى المكان الذى قتل فيه ابن عمه وهو إلى جواره فى عراك مع عرب الشايقية ، ثم هرول بى حثيثاً فوق السهل . وبطن الحجر كله إقليم خطر على المسافر وحده ، ولكن التوفيق حالفنى فلم يصادفنى قاطع طريق . ويستطيع الأوربى الذى يبغى السفر إلى هذا المكان أن يحصل فى الدر على أى عدد من الخبراء يرافقونه ، على أن يرتب ذلك مع الحكام النوبيين قبل خروجه فى الرحلة .

وخرجنا من الجبال بعد ثمانى ساعات ونصف ، وعبرنا سهلاً منحدراً فوصلنا إلى ضفة النهر بعد انقضاء تسع ساعات ونصف . وهنا تنفرج الأرض ، وتستمر السلسلة الشرقية على مباين من النهر . وبعد عشر ساعات ونصف توقفنا للمبيت

فى حرج كثيف من الطرفاء تجاه جزيرة مستطيلة تقوم عليها خرائب وبرج من الطوب . وعلى الضفة الشرقية أطلال قرية صغيرة ، اسمها وادى أُكمَه . وهنا تبدأ أملاك حاكم سكوت ، وإن يكن الوادى يعد تابعاً لبطن الحجر . وبجانب البقعة التى بتنا فيها ضريح ولىّ هو الشيخ عكاشة ، وله عند النوبيين منزلة كبيرة . وقد انتشرت داخل سور الضريح وحوله هبات من الأوانى الخزفية والحصر وقطع القماش الصغيرة . وأهل سكوت يحجون كثيراً إلى هذا الضريح ، ولم يسمح لى دليلى بأن أضرم ناراً برغم البرد القارس ليـــلاً ، وذلك لشدة خوفه من عرب الشايقية .

١٠ مارس — بعد أن ركبنا ساعتين فوق تلال منخفضة متجهين جنوب الجنوب الغربى وصلنا مقابل جزيرة كواب ، وهى الطرف الشمالى لسكوت ، ومقر حاكم الإقليم (*) وتستغرق الجزيرة مسيرة ساعة طولاً ، وتكتنف الشاطىء على الجانبين جلاميد هائلة من الجرانيت الأشهب . وهنا تبدأ بعض الزراعة المنتظمة ، وكنت أحمل خطاب توصية من حسن كاشف إلى الحاكم ، وهو شيخ يدعى داود كرا ، يمت بصلة القربى البعيدة إلى حكام النوبة الثلاثة الذين يحكم إقليمه تحت إمرتهم . ولما كنت أرغب فى زيارته للحصول منه على معلومات عن الحالة فى الجنوب فقد تركت دليلى يلاحظ البعيرين ، وعبرت النهر على رمث أو طوف مع بعض العرب الذين وجدناهم حيث ترجلنا . ويتألف هذا النوع من « المعدية » من أربع سيقان من النخيل مربوط بعضها إلى بعض رباطاً غير محكم ، ويسير بمجذاف طوله نحو أربع أقدام لطرفه الأعلى شكل الشوكة ، وقد شد إلى الرمث بحبال من الليف ، ويشبه الرمث كل الشبه تلك الأطواف المنقوشة على جدران المعابد المصرية . والذين يطمئنون إلى ركوب هذه الناقلات الواهية لا بد أن يكونوا على دراية بالسباحة . فهؤلاء القوم لا يستعملون المجاذيف الصغيرة العادية ، بل مجذافاً واحداً من النـــوع المذكور للرمث ، يجذفون به مواجهين الريح تارة

(*) ليس هناك قرية باسم سكوت ، إنما هذا اسم الاقليم .

ومتقيئها تارة أخرى بحيث لا يتجه الرمث تجاه الشاطىء رأساً . وقابلنى الحاكم الشيخ فى برود ، ثم قال لى « ليس الجنوب بالإقليم الذى يسلكه مثلك فى غير قافلة » وسألته أن يزودنى بخطاب توصية لولده ، وكان يحكم جنوب سكوت ، فأمر كاتبه(*) أن يخط بضعة سطور على طرف خطاب قديم ، وهو ما تيسر من ورق . وقد سألنى عن مهمتى مراراً فأجبت بأننى أحمــــل خطابات من إسنا لولدى كاشف بالمحس . وبعد أن بقيت معه ساعة من الزمان انصرفت وعبرت النهر عائداً أدراجى واستأنفت رحلتى . وكنا نركب فوق أرض جبلية عاد فيها الحجر الرملى يظهر بين الحصى الأشهب والفلسپار . حتى إذا سرنا ساعتين ونصفا من كولب بلغنا وادى دال الذى يمكن أن نعده الطرف الجنوبى لبطن الحجر . وعند دال تقطع النهر جلاميد ضخمة من الجرانيت فتأخذ عليه مجراه فى غير نظام ، وينشأ عنها جنادل يرغى الماء عندها ويزبد ، ويتكون فيها عدة جزائر صخرية يقوم على إحداها بناء كبير متهدم من الآجر . وهنا انفرجت الأرض أمامنا فسرنا نصف ساعة على شاطىء تربته صالحة للزراعة ، يزخر بنخيل تقوم فى وسطه مدينة خربة تدعى الدابة . وبعد أن سرنا ساعة أخرى على السهل ملتزمين النهر بلغنا قرية سركاماتو وفيها قضينا الليل . ويجلب أهالى سركاماتو الملح الصخرى من [واحة] سليمة التى تبعد يومين ونصفا فى الصحراء الغربية ، وهى محطة لقافلة دارفور فى طريقها لأسيوط . وكلما مرت القافلة بسليمة خف إليها النوبيون ليبيعوا المسافرين التمر وغيره من الزاد . ويوجد الملح الصخرى أيضاً فى كل أجزاء الجبل الشرقى جنوب قنا ، ويجمعه فلاحو مصر والنوبة ؛ ولكن مذاقة كريه لأن فيه حلاوة تمتزج بالمرارة .

(*) يتعلم النوبيون القلائل الملمون بالكتابة والذين يعملون كتابا للحكام على يد فقراء الدامر ، جنوبى القوز [بربر] الواردة فى خريطة بروس ، وهؤلاء كلهم علماء يختلفون إلى القاهرة كما ذكرت ليجاوروا فى الأزهر ، وفى طريقهم إلى مصر ينزلون على بيوت ذوى اليسار من الأهالى ، ويعلمون أبناءهم القراءة والكتابة . كذلك يوفد كثير من أبناء سكوت والمحس لمدرسة عرب الشايقية حيث يظلون عشر سنين أو يزيد يأكلون ويتلقون العلم مجاناً على يد علماء هذه القبيلة

١١ مارس — اتجه طريقنا من الدابة جنوباً بغرب، وكنا نلتزم ضفة النهر ، ويبلغ عرض السهل هنا نحو الميلين ، ولكنه في معظم أنحائه مقفر . ولا يزال النهر غاصاً بالجزائر المنخفضة والصخور . وبعد ساعة ونصف بلغنا مجموعة من النجوع تسمى فركة . وفي السهل كيمان من التراب لا شك في أنهـا من صنع الإنسان كنظائرها التي رأيتها عند قسطل . ويقيم ابن حاكم سكوت ، الذي كنت أحمل إليه خطاب التوصية ، على جزيرة عند فركة . ووقفنا تجاه الجزيرة ليرعى بعيرانا أغصان الطرفاء . ولما كان حسن كاشف قد أنذرني بأن هذا المكان يجب أن يكون نهاية رحلتي في الجنوب ، وأنه أقصى ما يسمح فيه للخبير بمرافقتي ، فقد أصر الخبير على أن يصدع بأمر سيده . على أن وعداً مني بأن أنفحه بقرشين ، وبعلاوة من الصوف تساوي قرشين آخرين ، كان كافياً لحمله على مخالفـة أمره ، فرضي أن يصحبني للمحس قائلا « إن لامني حسن كاشف فسأخبره بأنك أصررت على المضي في طريقك برغم تحذيراتي ، وبأنني لم أر من المروءة أن أتركك تسير وحدك » . وكانت خطتي أن أصل إلى تينارى أهم بلد في المحس ، ومنها أعبر إلى ضفة النهر الغربية ، لأنني علمت أن لولدى كاشف النازلين هناك مركباً تحت تصرفهما . وكنت أنوى في رجوعي أن أزور صاى وكل الأطلال الموجودة على الضفة الغربية .

ولمـا لم يكن لي بحاكم فركة حاجة ، فإنني لم أعرج عليه . ولكن الرجل رآنا راكبين فعدا خلفنا على فرسه مع أحد عبيده ليسألنا من نحن ، وأصر على أن نعود معه لبيته . والامتثال في مثل هذه الحالة أجدى من المقاومة التي لا طائل تحتها . لذلك عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النهر حتى بلغنا الجزيرة ، وهناك وجدنا أهل القرى المجـاورة مجتمعين في بيت الحاكم ليصيبوا حظهم من لحم بقرة ذبحت على روح الميت الذي دعينا لنأكل في مأتمه في أدندان . وكان مع النسوة طبل صغير ، أنشدن على دقاته ورقصن إشادة بذكرى الميت . وكان مضيفنـا يتلهف على سلب بعيريّ ، ولولا خطاب أبيـه لفعل ، ولأعطاني بدلهما بعيرين هزيلين . وقد اعتذرت له عن ركوبي رأسـاً دون أن أمرّ عليه بقولي إنني ظننته

يسكن فى أقصى الجنوب . وألح علينا فى البقاء عنده الليل كله ، ولما كنت أعلم أنه لا يرمى من وراء ذلك إلا لابتزاز هدية منى ، فقد نفحته بقطعة صابون كبيرة، فسمح لنا بالرحيل. والطريق إلى صاى يتجه غرباً بجنوب ، وبعد ساعتين بلغنا عكركة، وبعد أربع ساعات كفيسة . ولا يزرع من السهل هنا إلا أقله ، وتكثر السنامكى الجيدة ، ولكنها لا تبلغ جودة السنا التى تنمو فى الجبل الشرقى . ويجمعها عرب القراريش كلما اشتد عليها الطلب فى إسنا[1] . وحدود النهر الغربية رملية مقفرة . وبعد خمس ساعات وصلنا الشيخ مجدرة وهو نجع مبنى حول ضريح ولى . وفى هذا المكان كغيره من بلاد النوبة يجد المسافر الظمآن ، على مسافات متقاربة ، أزياراً من الماء على جانب الطريق تحت سقيفة منخفضة ، وتدفع كل قرية راتباً شهرياً صغيراً لشخص يملأ هذه الأزيار صباح ومساء . وهى شائعة فى صعيد مصر ، ولكن على نطاق واسع ، وكثيراً ما يجد المرء إلى جوار البئر خاناً صغيراً يزود المسافر بالماء[2] . وبعد خمس ساعات ونصف بلغنا عمارة وهى نهاية إقليم سكوت، ويبدأ جنوبيها إقليم صاى .

وفى سهل عمارة أطلال معبد مصرى جميل ، تخلفت منه أبدان أعمدة ستة كبيرة من أعمدة البهو مصنوعة من الحجر الجيرى ، وهى الوحيدة التى رأيتها من نوعها ، فكل المعابد المصرية هنا مبنى بالحجر الرملى . ونقوش هذه الأعمدة تقليد لنقوش فيلة ، وصناعتها متوسطة الجودة ، ولكنها أفضل كثيراً من

---

(١) يحتكر المسيو روزتى تجارة السنامكى منذ سنوات كثيرة ، وله فى إسنا وأسوان عملاء . ولما كان محمد على قد أجر بالالتزام كل السلع التجارية تقريباً ، الأجنبية منها والوطنية، فقد دفع المسيو روزتى عن احتكاره السنامكى ١٥٠ كيساً فى السنة ، أعنى نحو ٣٥٠٠ جنيه (انجليزى) .

(٢) ذكرت أن مياه الآبار فى الصعيد من أردأ أنواع المياه مع أن الآبار محفورة قرب النهر ، وهو الذى يمدها من غير شك بالماء الذى يتسرب فى جوف الأرض بعد الفيضان ويتجمع على عمق يتراوح بين عشرين قدما وثلاثين .

نقوش معبد الدر ، ويتكرر عليها رسم أبى منجل، وفوق كل طائفة من الرسوم لوحة مربعة فارغة يبدو أنهـا أعدت للنقش عليها . ومثل هذه اللوحة يراه الزائر لمعابد الدكه وكلابشة وفيلة ، ولـكنه لا يرى فى المعابد الموجودة شمال فيلة . والأعمدة خلو من تيجانها ، ولم يتخلف من المعبد سوى تلال من الأنقاض ، باستثناء أسفل الجدران ، وأسسها الحجرية التى ترتكز على قواعد من اللبن . ولعل الجدران كانت مشيدة بمداميك متعاقبة من الطوب والحجر . وحول المعبد سور سميك من اللبن على قرابة خمسين ياردة من الأعمدة . ويلوح أن المعبد شيد فى بدء انحطاط العمارة المصرية . أما أروع نماذج هـذه العمارة ففى فيلة والدكة .

وينفرج من عمارة سهل فسيح ، إذ تلتف سلسلة الجبال الشرقية مكونة دائرة عريضة . أما الجبال الغربية فتنتهى . وعرض الأرض الصـالحة للزراعة على الضفة الشرقيـة ميل ونصف تقريباً ، وتقوم بينها وبين الجبل مفازة جرداء تـكسوها شظايا من الحصى والظران شبيهة بمفازة السويس : وهنـــا تـكثر منعطفات النهر . وبعد سبع سـاعات بلغنا عمرى ، وقضينا ليلتنا فى بيت إحدى زوجات أخى حسن كاشف . ولأمراء النوبة زوجات عديدات موزعات فى كل أملاكهم ليجدوا راحتهم حيث نزلوا أثنـاء طوافهم وأسفارهم التى لا تنتهى . فلحسين كاشف هذا نحو عشرين زوجة ، لـكل منهن بيتها الخاص . وقد وجدنا فى الفناء الداخلى لبيت هذه السيدة التى أقمنا بها بئراً وساقية تديرها الأبقار لرى الحقول المجاورة . وهذه السواقى يجدها المرء أنى سار هنا ، بيد أنى لم أر ساقية غير هذه داخل جدران البيت . وكان بعيرانا يسيران طيلة يومنا سيراً حثيثاً .

١٢ مارس — كان طريقنا يجتاز سهلا من صخور الـكوارتز ، ويتجه جنوبا بشرق . وبعد ساعة بلغنا تلا عاليا يقوم منعزلا فى السهل ، واسمه جبل العمارى ، وهنا تبدأ جزيرة صاى . وبعد ساعة وربع رأيت حصن صاى قائماً على الجزيرة ملاصقا للماء ، وهو مبنى بمداميك متعاقبة من الحجر واللبن ، وله أسوار عالية . وقد انتزع المماليك ما كان فيه من مدافع قليلة . ولصاى وأقاليمها حاكم أو أغا مستقل عن أمراء النوبة ، شأنها فى ذلك شأن إبريم وأسوان ، فقد احتلتها

كما احتلت هاتين المدينتين حامية من العسكر البشناق أرسلها السلطان سليم،ومازال أحفادهم أحياء والجزيرة غنية بالزرع على ساحلها الشرقى . حيث يجرى فرع النيل الرئيسى ، أما ساحلها الغربى فقد لاح أجرد ،قفرا . ويبلغ عرضها ميلين . ، وفى وسطها تل عال أو جبل . وفى جانبها الغربى مخاضة يعبر منها النهر فى هـذا الفصل . وكان فى نيتى أن أعبره عند رجوعى من المحس لأرتاد الجزيرة ، ولـكننى منيت بالفشل كما سيرى القارىء . ذلك أنه لايوجد بالجزيرة رمث أو معدّية ،وإذا اضطر النوبيون للعبور إلى ضفة النهر سبحوا إليها رابطين على رؤوسهم مزاريقهم أو حرابهم . على أن عندى ما يحملنى على الظن بأنه ليس بجزيرة صاى آثار من أى نوع خلا هذا الحصن الذى ذكرت ، ولعله يرجع إلى نفس العهد الذى شيد فيه حصن إبريم .

وبعد ساعتين ونصف من عبرى يتجه الطريق جنوبا بغرب ملتزماً النهر تجاه صاى ويحف بالشاطىء حرج كثيف من النخيل. وبعد ثلاث ساعات بلغنا قوبى . وتغطى السهل هنا قبور الأولياء النوبيين . وبعد أربع ساعات بلغنا وادى حميدة (*) ويقع أمامه الطرف الجنوبى لجزيرة صاى . ولوادى حميدة ملك من قبيلة حميـدة العربية ، وهو تابع لأمراء النوبة . وعلى الضفة الشرقية للنهر رصيف كبير صنع من قطع ضخمة من الحجر الرملى كوّم بعضها فوق بعض بغير نظام . وعلى الجانبين مساكن كثيرة وأحراج من النخيل. ويخيل إلىّ أن وادى حميدة أكثر عمرانا من أى بقعة صادفتها جنوبى إبريم . وبلح سكوت وصاى يفضل البلح الإبريمى ، بل يفضل كل أنواع البلح الذى ينمو على ضفاف النيل من سنّار إلى الاسكندرية شمالا ، وهو كبير الحجم إذ يبلغ طول البلحة منه عادة ثلاث بوصات . ولا يصل من هذا البلح إلى شمال النوبة إلا القليل الذى يرسل على سبيل الهدية ، لأن السفن لاتستطيع أن تمخر النيل فى بطن الحجر إلى الشمال . يباع هذا القليل لعرب الشايقية الذين يأتون هنا فى قوافل كبيرة ويقايضون عليه بالذرة (بواقع كيل من الذرة لقاء

(*) فى الجبال الواقعة إلى الشرق من البحر الميت بدو يسمون بنى حميدة .

كيل من البلح) ، وبالسمن وبالدرق المصنوعة من جلود أفراس النهر ، ولها عند النوبيين قيمة كبيرة . وليس فى إقليم الشايقية إلا نخيل قليل ردىء النوع .
وبعد خمس ساعات بلغنا وادى عبود ، ويقوم تجاهه على السهل الشرقى تل عال منعزل . وهنا يتجه النهر للجنوب الشرقى بانحراف للجنوب ، ويستمر سهل الرمال والمرو ، ويبعد الجبل الشرقى على النهر مسافة تتراوح بين اثنى عشر ميلا وخمسة عشر . وبعد ست ساعات بلغنا إرو ، وكثير من بيوتها مهجور ، والزراعة فيها قليلة ضئيلة ، وهى الحد الجنوبى لإقليم صاى . ولفظ صاى وإن كان علماً على الجزيرة ، إلا أنه يطلق عادة على كل الإقليم الواقع ما بين سكوت والمحس . ومن هنا تبدأ دار المحس جنوباً . ويتجه الطريق الآن جنوبا بغرب . وفى الغرب تأتلف التلال المنخفضة فتكون سلسلة أخرى تعلو كلما سرنا جنوبا . وبعد سبع ساعات بلغنا إسمتر ، وبعد ثمان ونصف بلغنا الواوى ، وهى قرية كبيرة ينعطف النهر عندها غرباً . وعبرنا السهل من أقصر طرقه . وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا عند أكواخ لعرب القراريش لنقضى الليل . وقد انشرحت صدورهم حين وزعت بعض الذرة عليهم ، وجئنا إلى جوارى رجلان منهم وبدءا « تكبيس » جسمى وساقىّ وذراعىّ ، على نحو ما يفعلون فى الحمام التركى ، ليعربا عن شكرهما . وعملية التكبيس هذه تعيد إلى الدم دورته فى جسم المسافر الذى يكاد يشل حركته طول الركوب ، وتمنحه النوم الهادىء المريح بعد ما عانى من وعثاء السفر .

١٣ مارس — تحدق الجبال الشرقية مرة أخرى بالنهر ، وقوامها هنا الصخور النارية الخضراء كما هى الحال عند الشلال الثانى . وقد التزمنا السهل الساحلى الضيق متجهين شرقا ، ومررنا بعدة قرى من إقليم المحس . ولا تصنع الأكواخ إلا من الحصر المجدولة من سعف النخل ، والمشدودة إلى أعمدة عالية ترتفع أطرافها فوق السقف . ووجوه الأهالى لا تنم عن الطيبة التى نجدها فى وجوه النوبيين ، ولونهم أسود خالص ، وشفاههم أشبه بشفاه الزنج ، بعكس أنوفهم وعظام وجناتهم . وكثير من رجالهم عراة ، بل إنى رأيت من الصبايا من

لايستر عوراتهن شيء . ولا شك أن اللغة النوبية هنا قد أقصت العربية التي لم يعد يفقهها أحد من الفلاحين .

ورأيت وأنا أدنو من معسكر الأميرين النوبيين عدة قرى مهجورة ، آثر أهلها ترك حقول القطن التي زرعوها ، وما يرجون من محصولها ، على الرضوخ لطغيان أتباع هؤلاء الحكام الذين رأيت جيادهم وإبلهم ترعى حقول الشعير ، والذين انتزعوا الحصر من البيوت المهجورة وحملوها إلى المعسكر لتستعمل وقوداً . وبعد أربع ساعات بلغنا معسكر محمد كاشف تجاه وادى تيناري ، وهو مجموعة من النجوع تقوم حول حصن تيناري المبني بالطوب ، وهو أهم بقعة في المحس . وكان هذا منتهى رحلتي في الجنوب ، وكنت قد أوصيت دليلي أن يتوخى الحذر في الجواب عن أسئلة محمد كاشف ، فإذا سئل في أمري فليجب بأن حسن كاشف قد أمره بمرافقتي ، ولكنه لا يعلم عن مهمتي شيئاً . وهو قول حق ، لأنني لم أتح له قط رؤيتي أدون مذكراتي في أثناء رحلتي .

كان الأخوان حسين ومحمد كاشف قد قدما المحس ليحاصرا حصن تيناري الذي استولى عليه ثائر من بني عمومة ملك المحس . ولما كان الملك حما حسين كاشف فقد وجبت نجدته على حسين ، فذهب في نحو ستين من رجاله . ووجدتهم جميعاً معسكرين في أكواخهم على ضفة النهر الغربية تحت أسوار الحصن ، بينما احتل أخوه محمد الضفة الشرقية بعدد مماثل من الرجال . وكان الأخوان يحاصران الحصن من أسابيع ، وقد طلبا من الحامية التسليم غير مرة فأبى رجالها مع أنهم لم يعدوا الخمسة عشر رجلا . وأخيرا فكرا في قطع الماء عنهم ، فأرسلا في طلب زورق من أرقو ، ووقف الزورق على ضفة النهر تحت الحصن مباشرة ، وعلى ظهره رجال مسلحون بالبنادق يحميهم من نيران الحامية غطاء صفيق من جذوع النخيل التي صفت على ظهر الزورق . واستطاع هؤلاء الرجال ببنادقهم أن يمنعوا المحاصرين من استقاء الماء من النهر ، فاضطرت الحامية إلى طلب الصلح . وتعهد لهم محاصروهم بالعفو وسلامة الإياب ، وسلم الحصن في الليلة السابقة لوصولي .

ولما وصلت معسكر محمد كاشف لم أجده لأنه كان مشغولا مع أخيه بتسلم الحصن . والتف قومه بى وبالخبير يسألوننى فيم قدمت بلادهم ، ظانين أننى من حاشية المملوكين اللذين علموا بوصولهما إلى الدر . وبعد قليل أقبل محمد بحاشيته من الضفة الأخرى ، فمضيت إليه فوراً لأحييه . وكانت أمه جارية من أهل دارفور ، فكانت لوجهه قسمات السودانيين ، ولكنه خلا تماماً من هذه الرقة التى تتسم بها وجوه الزنج ، بل قرأت فى سحنته الشراسه وحدة الطبع . ودحرج عينيه وهو ينظر ناحيتى نظرة مجنون ، ولم يكن يقوى على الوقوف على قدميه لفرط ما تعاطى فى الحصن من عرقى البلح . واجتمع قومه داخل خصه المفتوح ومن حوله ، وكذلك وفد عليه الثوار المهزومون : وجىء بقربتين كبيرتين من العرقى وقدم الشراب للحاضرين فى أكواب صغيرة مصنوعة من القرع صنعاً متقناً . وكان منهم قلة تتكلم العربية ، أما كاشف فلم يكد يبين . على أنه ظهر لى بجلاء أننى كنت محور حديثهم . ولم يكن كاشف فى سكره قد سألنى بعد من أنا وما مهمتى . وبعد نصف ساعة كان الجميع قد ثملوا بالخمر ، ثم جىء بالبنادق وأطلقت الأعيرة النارية فى الكوخ ابتهاجا بالنصر . وأعترف أننى فى هذه اللحظة ندمت على مجيئى المعسكر ، فقد كان من السهل أن تسدد إلىّ إحدى هذه البنادق أو تصيبنى منها رصاصة طائشة . وقد حاولت النهوض للانصراف غير مرة ، ولكن كاشف كان يحتجزنى وهو يلح على فى الشراب حتى أثمل معه . غير أنى لم أصب من الشراب إلاّ أقله ، فما كان أحوجنى الآن إلى الصحو . وما انتصف النهار حتى كان جميع من بالمعسكر يغطون فى سبات عميق . وبعد ساعات كان كاشف فى حال من الصحو تمكنه من التحدث إلىّ وهو مالك زمام نفسه ، فأخبرته أننى جئت النوبة لأزور حصنى إبريم وصاى الأثريين بوصفهما من آثار دولة السلطان سليم ، وأننى أحمل له ولأخويه توصيات من إسنا ، وقد جئت المحس مسلماً عليه وعلى أخيه ، لأننى لم أر من اللياقة أن أعود أدراجى من صاى دون أن أقوم بواجب التحية لهما . ولكن لسوء الحظ كان حسن كاشف قد احتفظ بخطابات التوصية التى أحملها من إسنا ، والموجهة للأخوة الثلاث ، فقد أبى أن يعيدها إلىّ حين غادرت الدر

قائلا إنه ما دام قد حظر على السفر إلى ما بعد سكوت فلم تعد لى بها حاجة . ذلك لم يصدق محمد قصتى ، وقال لى كاتبه العربى « إنك من جواسيس محمد على ، ولكنا هنا فى المحس نبصق على لحيته ونقطع رأس كل عدو للماليك » . فأكدت له أننى لست عدواً للماليك ، وأننى زرت الأميرين المملوكين بالدر ، وأنهما استقبلانى بمنتهى اللطف . وهكذا انقضت العشية بين أسئلة حادة من طرف ، وإجابات رواغة من الطرف الآخر . وظل كاشف ساهراً مع أخص أصحابه يتشاورون فيما يصنعون بى ، وأنا منتظر ببعيرى تحت سقيفة وراء كوخه . ولم يدر بخلد واحد منهم أننى أوربى . ولم أعلن أنا بالطبع عن هويتى مباهياً أو فخورا ، فقد كنت عازماً على عدم الكشف عنها إلا إذا أحدق بى خطر داهم . وفى الليل أوفد رسول إلى حسين كاشف ، فعبر النهر إليه ليستشيره فى أمرى .

١٤ مارس — فى الصباح الباكر أقبل حسين كاشف فى نفر من أصحابه ليزور أخاه ويلقى على نظرة . وأعيدت على مسمعى الأسئلة التى سمعتها فى الليلة الماضية ، وأجبت عنها بالإجابات عينها ، ولكن حسيناً كان أرق من أخيه معى كان محمد يهدد بإرسال رأسى إلى ابراهيم بك زعيم المماليك ، أما حسين فقد اكتفى بالإذن لى بالإياب ، راجياً منى أن أترك له بعيرى وبندقيتى . أما غدارتاى فقد كنت خبأتهما تحت زعبوطى . وأخيراً صارحت الأخوين بأنه لو أصابنى سوء لكان هذا وبالا على تجارتهما بإسنا ، وأنهما إذا شاءا التحقق من صدق روايتى فما عليهما إلا أن يرسلا للدر ، وأننى حتى لو كنت جاسوساً لمحمد على كما يزعمان ، لما رضى الباشا أن يقتل أحد رجاله غيلة دون أن يثأر له . أما وأننى لست إلا سائحاً ، فلا عذر لهما ألبتة فى حجزى أو الإساءة إلى شخصى . وبعد لأى استطعت بهذه الحجج ونحوها أن أقنع الأخوين بعض الإقناع ، ولكننى فى شك كبير مما كان ينتظرنى على يديهما آخر الأمر لولا أن قيض الله لى شخصين من أبناء أخى حاكم سكوت ، قدما فى زيارة لقريبهما ، فأمنا على ما قلت ، لأنهما كانا قد رأيا التوصية القوية التى كنت أحملها من حسن كاشف لعمهما داود كرا . وهنا تغير أسلوب الأخوين فى الحديث إلىّ ، ولكننى بقيت برغم ذلك موضع ريبة وتوجس شديدين

لأن الزائرين لم يستطيعا أن يملآ وفودى إلى هذه الأصقاع النائية تمايلا مقنعاً . وعاد حسين كاشف إلى الضفة المقابلة واعداً إياى بأن يرسل الزورق ليحملنى ويعبرى إلى الضفة الأخرى . ولكننى ما عتمت أن رأيت الزورق يقلع شمالا ، وأنبئت أن المعسكر سينفض فى الغد ويعود الرجال إلى سكوت على مهل .

ورغم ما شعرت به من أسف بالغ لفشلى فى زيارة الضفة الغربية للنيل ، فقد رأيت من الحق أن أحاول المضى جنوبا إلى أبعد مما ذهبت . وكنت الآن بغير صاحب ولا ولى يحمينى فى إقليم لا يبعد سوى يومين ونصف عن الحدود الشمالية لدنقلة ، وهى المملكة التى فتحها أخيراً المماليك الذين اتهمت بالتجسس عليهم ، والذين كان أمراء المحس يظاهرونهم . وكنت أعلم كذلك أن الأميرين المملوكين اللذين لقيتهما فى الدر يتقدمان حثيثاً نحونا ، وحملنى ما سمعت عنهما على الظن بأنهما قد يعترضان سبيلى فى إيابى . لهذا كله قررت أن أقفل راجعاً إلى الشمال فوراً ؛ لأننى لم أر من الحكمة أن أسافر فى صحبة أتباع محمد كاشف . ولكننى حين مثلت بين يدى هذا الحاكم لأستأذنه فى السفر ، طلب إلىّ فى جفاء أن أمكث إلى الغد وأن أسافر فى صحبته . ولما كنت قد ظفرت بالسلامة — وهى هدفى الأهم — ولم يكن الفضل فى ذلك إلا لتوجس الحاكم من الإساءة إلى والى مصر ؛ فقد فكرت فى أن أغامر بتطلب آخر ، فقلت إننى تواق إلى بلوغ الدر بأسرع ما أستطيع ، وأننى لهذا السبب لا أريد أن أتقيد برحلة جنده البطيئة . ولكنه ألح علىّ فى تأجيل سفرى — ولعله فعل ذلك أملاً فى ابتزاز بعض الهدايا منى فأخبرته فى صراحة أننى أعد نفسى منذ الساعة أسيراً فى معسكره لأننى منعت حرية التصرف . فأجابنى فى فظاظته المعهودة « امش يا .... ! » ، فصدعت بأمره تواً . ولم تمض خمس دقائق حتى كنت قد تواريت عن هذا المعسكر الذى قضيت فيه يوما من أنكد الأيام التى مرت بى فى سنوات أربع من الرحلات . وبت ليلتى فى كوخ مهجور يبعد أربع ساعات من تيفارى قرب معسكر القراريش الذى نزلنا عنده قبل ذلك بيومين .

وقد يتساءل القارىء هنا : لم لم أنتحل صفة التاجر فى أثناء سفرى بالنوبة ؟

وجوابى أن التجار لا يبلغون إلى المحس فى رحــــلاتهم إلا إذا سافروا فى قوافل الرقيق . زد على ذلك أنهم يضطرون للبقاء طويلا فى الأقاليم التى يجتازونها ، وهو عـكس خطتى . كنت أستطيع أن أحمل معى للمحس تجارة تـكفى لشراء عبد أو عبدين ، ولـكن القوم كانوا فى هذه الحالة يقولون إن الصفقة لا تستحق الرحلة إلى المحس ، لأن ما تجلبه من ربح لا يعوض نفقات الرحلة من إسنا وإليها ، وكنت لا أنجو من توجس الناس وظنهم أنى قادم فى مهمة سرية . ولو حملت معى بضاعة تساوى ثمن ستة من العبيد مثلا لفرض الحـكام علىّ الإتاوات واحتجزونى أطول مما أبغى .

ويزعم المحس أنهم من نسل قريش — قبيلة الرسول — وكان رجالها بدواً وزراعاً كما هو معلوم . ويروون أن جماعة كبيرة من قريش استولت على الوادى حين غزا البدوالقادمون من الشرق مصر والنوبة . وزعيمهم ملك المحس ، أو «ملك الدار» ، من عشيرة جامع ، وهو يجبى إيراد مملـكته ، ويدفع كل سنة لأمراء النوبة عن كل قسم من أقسامها الستة خمسة جمال أو ستة ، ومثلها من البقر ، وعبدين ، ونحو أربعين شاة بالإضافة إلى المطالب الاستثنائية . وقد تشرفت برؤية ملك المحس ، فإذا هو أسود دميم ، تحيط به حاشية من ستة عبيد عراة يحملون الدروع والمزاريق . وفى الإقليم الممتد على النيل من هنا إلى سنار — ويستغرق قطعه نحو خمسة وثلاثين يوما — ما يزيد على عشرين ملـكا ومملـكة ، فـكل رئيس مستقل يلقب ملـكا . وسلطة هؤلاء الملوك الصغار مطلقة فى فرض الضرائب على رعاياهم ، ولـكن الملك لا يجرؤ على قتل أحد من رعاياه ، ولو فعل لجلب على أسرته انتقام أسرة القتيل .

والتجـارة مهنة كل رجل محترم فى المحس . وهم يشترون الرقيق من دنقلة وبربر وإقليم الشايقية ويرسلون قافلة للقاهرة مرتين فى العام . والمحس أقرب بقعة فى السودان يسافر منها الجلابة إلى القاهرة ، والمسافة بينهما قرابة ألف ميل ، والعبد فى المحس يساوى من خمسة وعشرين دولاراً إسبانيا إلى ثلاثين، أماالجارية فمن ثلاثين إلى أربعين . ويباع الرقيق فى القاهرة بربح يبلغ مائة وخمسين فى المائة،

وتغل التجارة التى يحملها التجار فى عودتهم ربحا يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ٪ إن لم يكن أكثر فى الظروف الحاضرة بفضل تهافت المماليك على شرائها . والريال هو العملة المتداولة فى السلع الغالية ، أما فى الصفقات الصغيرة فالمد أو كيل الذرة الذى أشرت إليه آنفا ، وذراع القماش من الكتان الذى تحاك منه القمصان ، هما أداة المعاملة ؛ وثوب القماش ثلاثون ذراعا ، وثمنه ريال ، وثمنه فى أسيوط قرشان ، أى سبعما الريال . ولا يتجر النوبيون من الدر إلى دنقلة مع أهل دارفور أو بورنو . وقد أخبرنى عربى فى المحس أن الرحلة إلى بورنو تستغرق من خمسة وعشرين يوما إلى ثلاثين ، ولكنه درب لا يكاد المسافر يجد فيه للماء أثراً .

ويمتد وادى المحس مسيرة يومين بعد تينارى ، وأهم بلاده التى يصادفها المسافر جنوباً هى : ولقو وتبعد عن تينارى من ساعتين إلى ثلاث ، وتقع على ضفة النيل الشرقية ، ثم كوكه على الضفة الغربية ، وعندها آخر جندل فى هـــذه المنطقة . وعلى مسيرة يوم من تينارى تقوم نورى على الضفة الشرقية ، ثم برجه و فربوه على الضفة الغربية ، وعلى يومين من تينارى تقوم حانك وعندها تنتهى الجبال التى تكتنف النيل فى وادى المحس . وعلى مسيرة نصف يوم جنوبى حانك تبدأ جزيرة تــدعى مشو ، وعلى الضفة الغربية قرية بنفس الاسم ، وإلى جانب هذه الجزيرة جزيرة أرقو ويقطعها المرء فى يوم كامل ، وهى من أعمال دنقلة . ويقوم عليها حصن من الطوب لا تجد بناء كبيراً سواه جنوبى المحس . ومشو حد دنقلة الشمالى . وبين أرقو ودنقلة قرية أو مدينة الخندق التى رأيتها على مصورات أفريقيـــا . ولا بد أن منعطفات النهر فى وادى المحس كبيرة ، لأن المرء يستطيع الوصول من تينارى إلى مشو فى يوم ونصف إذا سلك دربا فى الجبل ، وإذا لم تخنى الذاكرة فإنى أعتقــد أن المرسلين اليسوعيين زاروا مشو فى طريقهم من دنقلة إلى الواحة الكبرى .

ووادى دنقلة الذى عنده ينتهى الكلام باللغة النوبية يمتد مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب على جانبى جزيرة أرقو وغيرها من الجزائر الكثيرة التى تتكون فى النهر . وتبدأ جنوبى حانك سهول دنقلة الشاسعة . ولقد علمت عن ثقة أن الإقليم خلو من الصخور ، وأنه فى زمن الفيضان يغمره الماء فى مسطح يبلغ عرضه من اثنى عشر ميلا إلى خمسة عشر . ولا تزكو التجارة فى دنقلة كما تزكو فى الأقاليم الواقعة جنوبيها ، لأن التجار فيها يلقون عنتاً كثيراً من الملوك ومن شيوخ القرى المستقلين تقريباً عن الملوك . وتقدر ثروة الفرد هنا كما فى النوبة بعدد ما يملك من السواقى ، ويجبى الخراج من هذه السواقى . ومنذ استولى عرب الشايقية على شطر من الخراج اعتادوا أن يجبوا على الأرض التى ترويها كل ساقية أربعة مهوريات(*) من الذرة ، وشاتين أو ثلاثاً ، وثوباً من الكتان يساوى ريالين . ويجبى الملوك الوطنيون مثل هذا الخراج . وتشتهر دنقلة بفصيلة من الخيول يستورد أهل المحس العدد الوفير منها ، ومعظمها من الفحول لأن الوطنيين قلما يركبون الأفراس . والفصيلة عربية الأصل ، وهى من أعجب ما رأيت من فصائل الخيل ، فقد اجتمعت لها كل الخصال الرفيعة التى تتسم بها الخيول العربية ، وزادت عليها الحجم الكبير والعظم العريض . وكل الخيول التى رأيتها هنا بيض القوائم إلى الركب ، وقيل لى إن قليلا جداً من خيل هذا الإقليم يخلو من هذه العلامة المميزة . والفحول الأصيلة غالية يتراوح ثمن الواحد منها من خمسة عبيد إلى عشرة . ولا تزكو هذه الخيل فى مناخ العروض الشمالية ، بل ولا فى مناخ القاهرة ، وإن كان محمد على أهدى أخيراً للباب العالى جواداً منها دفع فيه ٧٥٠ دولاراً إسبانياً . وعلف أكثرها هو التبن الخالص عشرة شهور فى السنة ، وفى الربيع الشعير الأخضر . ومنذ أغار المماليك على دنقلة اتخذوا مطاياهم من هذه الخيول .

وليس فى دنقلة فيلة ، ولكن أفراس النهر كثيرة الانتشار فى النيل ، ويسمى الواحد منها بالعربية « البرنيق » أو « فرس البحر » ، وبالنوبية

(*) المهورى مكيال يعادل اثنى عشر مداً (وهو الكيل المستعمل بالقاهرة) أو ثمانية بوشلات تقريباً .

« الإود » ، وهو نكبة كبرى على الإقليم بسبب شراهته ، وعجز الأهالى عن القضاء عليه . وكثيراً ما يسبح فى النيل شمالا حتى سكوت . وقد أخبرنى الفلاحون فى مرورى أن فى النهر بين المحس وسكوت ثلاثة من هذه الأفراس . وقد مر عدد منها فى العام الماضى ببطن الحجر وظهرت فى وادى حلفا والدر ، وهو حدث لم يعهد مثله حتى أكبر شيوخ الإقليم سناً . وقد قتل عربى فرساً مهاراً برصاصة أصابته فوق عينه اليمنى . وأكل الفلاحون لحمه ، وبيع الجلد[1] والأسنان لتاجر أسيوطى . وواصل فرس آخر رحلته فى النوبة شمالا ، وقد شوهد فى دراو وراء الشلال الأول ، على مسيرة يوم شمالى أسوان .

ومدينة دنقلة التى يسميها الأهالى « دنقلة العجوز » ، أو على الأصح « تنكل » ، تعادل الدر مساحة . وتسكن الإقليم قبيلة من البدو تسمى الكبابيش ، ويشن رجالها على دارفور غارات لا تنقطع ، ومنها يجلبون العبيد . كذلك استوطن دنقلة كثيرون من قبيلة العبابدة التى تسكن الجبل الشرقى ، وأصابوا فيها مالا كثيراً ونفوذاً كبيراً ، فلما انبث المماليك فى أنحاء الإقليم كما سأفصل ، ارتدوا إلى مصر مع رئيسهم حى .

ويمر المسافر جنوبى دنقلة بهذه القرى الواقعة على ضفة النيل : أفار قرب دنقلة، و رفار و حيتانى و كنات وأمبقول التى تبعد عن دنقلة ثلاثة أيام وعن أرقو[2] سبعة أيام أو ثمانية . وهنا ينتهى إقليم دنقلة الذى يفصله عن أملاك عرب الشايقية مفازة من جبال وصخور ، تقطع عرضاً فى ساعتين، وتحدق بالنهر مكونة سلسلة جديدة تنتهى عند حانك . وفى جنوب هذه المفازة ، أو على الأصح فى شرقيها — لأن النهر هنا يجرى من الشرق للغرب — يبدأ إقليم الشايقية . وأول بلد أو واد هو قورص الذى تقطنه قبيلة

---

(١) تصنع الكرابيج من جلد فرس النهر ، وهى من السلع التى تحملها قوافل سنار ودارفور .

(٢) تتناقض تقديرات الأهالى للمسافات تناقضاً كبيرا والطريقة الوحيدة عندهم لحسابها هى حساب المراحل ، ولكن مراحل الإبل تتفاوت تفاوتا كبيراً . إذا لم تكن مسافرة فى قوافل .

العونية ، ويليه حائك الزبير الذى تقطنه قبيلة بهذا الاسم ، ثم دار السوارب و كربر ، وقرى ، وأبرضار ، ووسط ، وتنقسى ، والكرو ، وغوشابى ، ومروى ، والعجيب أن يتفق نطقها ونطق «مروى» القديمة ثم البركل ، ونورى ، والساجر ، و الحمراب ، و أولى ، وزوارة ، وولفو ، وعندها ينتهى إقليم الشايقية الذى يقطع طولا فى خمس وثلاثين ساعة إلى أربعين . وأهم هذه البلاد قرى غوشابى ومروى ، ويقع البلدان على النيل يواجه الواحد منهما الآخر . وتعد مروى عاصمة الشايقية أو أهم مقر لهم ، ولها حصن من الآجر . وبين دنقلة ومروى وادى عرب البديرية ، وكان شيوخهم إلى عهد قريب خاضعين للشايقية . وبين دنقلة ومروى درب قصير يخترق الصحراء ويقطع فى يومين ونصف . والطريق الجبلى من المحس إلى مروى يستغرق سبعة أيام إلى ثمانية من السفر الهين ، ولكنه خلو من الماء(*) . وعرض وادى النيل فى إقليم الشايقية لا يتجاوز ثلاثة أميال فى أى جزء منه . وهناك جنادل صغيرة تنتشر فى مواضع كثيرة من النهر تكاد عندها تتعانق الجبال القائمة على الضفتين . وليس فى هذا القسم من النهر إلا تماسيح قليلة ، أما أفراس النهر فلا ترى . والأشجار المنتشرة على ضفاف النهر هى السنط ، أما النخيل فنادر . وأهم الحاصلات الزراعية الذرة والدخن ، وتروى الحقول صيفاً بالسواقى . والإقليم آهل بالسكان كأعمر بقاع مصر .

وعرب الشايقية ، الذين لم أر منهم فى المحس غير رجل واحد ، يثيرون اهتمام الباحث بلا ريب . فهم أقوى الدويلات شمالى سنار ، وتقول رواياتهم إن جدهم كان

(*) تبعد مروى مسيرة سبعة أيام من الدامر (انظر خريطة بروس) . وبين مروى والقوز الواردة فى خريطة بروس يقوم إقليم مقرات ورئيسه قاطع طريق اسمه نعيم ، وكثيراً ما يهاجم القوافل المسافرة من القوز لمصر ، إلا إذا كانت من الكبر بحيث يخشى بأسها . وتبعد مقرات ثلاثة أيام عن القوز ، واسم القوز هذا لا يعرفه الإفريقيون فى المناطق التى مررت بها ، ولكنهم يعرفون « بربر » جيد المعرفة ، وهى على يوم واحد شمالى الدامر ، فهى لذلك تتفق و « القوز » التى ذكرها بروس . وتصل قوافل بربر كل شهر تقريباً إلى الصعيد .

يدعى شايق ، وقد أنجب أربعة أبناء انحدرت منهم القبائل الرئيسية . وهم ينقسمون الآن عشائر كثيرة أقواها عشيرة **العدلاناب** لأنها عشيرة شيخهم الأكبر . أما العشائر الأخرى فهى **الحمداب** و **السليمانى** و **العمراب** ، يضاف إليهما عشائر العونية و **الزبير** (التى يجب التميز بينها وبين الأسرة المالكة فى أرقو ، وهى لا تمت لهم بقرابة) ، وعرب **المناصير** الذين يسكنون وادى المناصير شرقى إقليم الشايقية ، والذين وإن كانوا لا ينتمون للشايقية على وجه الدقة إلا أنه يجوز أن نسلكهم فى عشائرهم لما لهم بهم من صلة وثيقة . وهذه القبائل فى حرب متصلة مع بعضها البعض ، يخرج شبابها فى حملات للنهب والسلب تبلغ دارفور غربا ووادى حلفا شمالا ، وكلهم يحاربون على خيولهم لابسين دروعا يشترونها من تجار سواكن وسنار . وهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، فسلاحهم الوحيد الرمح والدرقة والسيف . ويقذف المقاتل منهم رمحه مسافة بعيدة بمهارة فائقة ، ويحمل دائماً فى يسراه أربعة رماح أو خمسة وهو يكر على العدو ، وكلهم يمتطون خيولا دنقلية ، ويشتهرون بالفروسية كما كان يشتهر بها مماليك مصر ، ويدربون جيادهم على القفز العنيف بقوائمها الخلفية وهى تعدو . وتذكرنى سروجهم بما رأيت من رسوم لسروج الأحباش ، وهم كفرسان الأحباش لا يضعون فى ركاب السرج غير إبهام القدم . وعرب الشايقية هم الذين يزودون المحس بما يحتاجونه من سروج.

والشايقية مستقلون استقلالا تاماً ، ولهم ثروة طائلة من الذرة والماشية ، وهم كبدو جزيرة العرب لا يدفعون ضريبة لشيوخهم الذين لا تبلغ سلطتهم مبلغ سلطة شيوخ دنقلة . وهم مشهورون بكرم الضيافة ، وشخص الضيف أو الرفيق مقدس عندهم . وإذا قطعوا الطريق على مسافر وسلبوه ماله ثم اتضح أن بينهم صديقاً له ، ردوا إليه ماله حتى ولو كان ملكهم هو الذى غنمه . ولا يتكلمون سوى العربية ، وكثيرون منهم يكتبونها ويقرءونها . وعلماؤهم موضع التبجيل والتعظيم ، ولهم مدارس تدرس فيها كل العلوم الإسلامية . باستثناء الرياضة والفلك ، وقد رأيت كتباً منسوخة فى مروى بخط لا يقل جمالا وروعة عما يكتبه خطاطو القاهرة . وكبير

العلماء يوزع الصبيان الوافدين من البلاد المجاورة التماساً للعلم على معارفه فيقيمون ويأكلون فى بيوتهم ماشاءوا .

وينغمس الجند منهم — لاالعلماء — فى شرب عرقى البلح ، ويروى أن نساءهم على جانب من سوء الخلق ، ويسافر التجار منهم إلى دارفور وسنار وسواكن ، وحين يصيب القحط جزيرة العرب يصدرون القمح والذرة إلى سوق جدة بطريق سواكن . وتسافر قافلة من الحجاج كل عام إلى هذين البلدين ، وتبعد سواكن مسيرة اثنى عشر يوما من حدود إقليم الشايقية .

والآن وقد فرغت من هذا الموجز لدنقلة ومايحف بها من أقاليم أود أن أضيف إليه نبذة عن علاقاتها السياسية أثناء غزوة المماليك وعن نتائج هذه الغزوة على قدر ما تكشفت عند زيارتى للمحس . يروى العرب أن أسرتى الزبير والفونج كانتا تحكمان دنقلة من أجيال سحيقة ، فكانت الأولى تحكم الولايات الشمالية والثانية الولايات الجنوبية . ولكن نفوذ هاتين الأسرتين تقلص بعد ذلك لأن السلطة الفعلية استقرت فى يد عرب الشايقية . فقد اعتاد هؤلاء العرب أن يشنوا غارات لا تنقطع على دنقلة ، ويدمروا أحياء بأسرها . وأخيراً ، وبعد أن قتل زعماء الفونج ، اضطر شيوخ دنقلة تحت ضغط رعاياهم ، أن يصطلحوا مع الغزاة ، وتخلوا لهم عن نصف الخرج ثمنا لكفهم عن غاراتهم . وعاش الفريقان بعد ذلك فى صفاء . ولكن زعماء الشايقية كانوا يتنقلون بين دنقلة والخندق وأرقو ليجمعوا نصيبهم من الخراج ، لذلك تيسر لهم بسط نفوذهم على كل أنحاء الإقليم ، وسرعان مابدأت قوتهم ترجح . فلما وصل البكوات المماليك أرقو بعد هروبهم من مصر كما ذكرت آنفا، استقبلهم كبير الشايقية محمود العدلانابى بما هو معهود فى القوم من حسن الضيافة . ولما أعلنوا أن فى نيتهم الإقامة فى سنار أجزل لهم الهدايا من الخيل والإبل والعبيد والزاد . ولكن هؤلاء اللاجئين الغادرين لم يمض عليهم بأرقو شهر من الزمان حتى انقلبوا على ولى نعمتهم متعللين بأتفه العلل ، فقتلوه هو ونفراً من حاشيته . ثم انتشروا فى الأرض ينهبون أموال الشايقية ويستولون على الخراج . وفى هذه الظروف انحاز ملك من

أسرة الزبير إلى المماليك ضد الشايقية ، فى حين قصد مصر أخوه المدعو طبل بن الزبير ملتمساً مدداً من الجند والعتاد ليحارب الغزاة الجدد[1] الذين انضمت إليهم جماعة أخرى من الشايقية يبلغون الثمانين فارساً وكانوا أعداء ألداء لقبيلة محمود العدلانابى . ومنذ ذلك الحين أصبح المماليك وعرب الشايقية فى حرب متصلة ذهب ضحيتها من الفريقين نفر كثير . وفى يناير الماضى خرج المماليك بكامل قوتهم فى حملة قاصدين مروى ، وفيما هم فى طريقهم إلى الجنوب عبرت الجبال جماعة من الشايقية وانقضوا على مؤخرة المماليك وقتلوا الأتباع القلائل الذين خلفوهم فى أرقو والخندق ، ونهبوا ما بقى من ثروتهم . تلك كانت حال البلاد حين بلغت تبنارى . وكان الشايقية لايزالون فى أرقو ، ونتيجة الحملة على مروى مجهولة ، وأنصار الفريقين يذيعون عنها أشد الروايات تناقضاً . وكان واضحاً أن المملوكين اللذين رأيتهما فى الدر لايستطيعان فى هذه الظروف أن يلحقا برفاقهما ، وكان الرأى أنهما سينتظران ما تسفر عنه المعركة فى قلعة جانك بالمحس ، وهى حصن حصين[2] .

ويبدو لى أنه ليس أمام المماليك فى الحالة الراهنة إلا إحدى اثنتين ، فإما أن يوجهوا للصعيد ضربة يائسة أخيرة إذا واتتهم أقل فرصة — واحتمال نجاحهم فى هذا ضعيف نظراً ليقظة محمد على وسهره ، وإما أن يحاولوا الاستيلاء على ميناء من موانىء البحر الأحمر ، وهناك يعززون قواتهم بأمداد جديدة من رقيق جورجيا — لأنهم لا يقبلون بين صفوفهم غير هؤلاء . ومصوع خير مكان يصلح لمثل هذا المشروع ، وهى تبعد عن مقرهم الحالى مسيرة اثنين وعشرين يوما ، أربعة منها عبر الصحراء إلى شندى ، وثمانيه عشر من شندى إلى مصوع أكثرها على ضفاف العطبرة المزروعة . وأعتقد أن المماليك يبيتون فتح الحبشة ، ولو حاولوا تنفيذ المشروع وأفلحوا فيه لانفتح منفذ تجارى جديد على جانب كبير من الأهمية أمام شركة الهند الشرقية .

---

(١) رأيت هذا الزعيم فى أسيوط ، فإذا هو أسود عارى الجسد ليس عليه من مظاهر الملوك شىء .

(٢) حين عدت لإسنا فى شهر يونيو لقيت أشخاصاً من دنقلة أنبأونى أن المماليك فشلوا فى هجومهم على مروى وارتدوا إلى دنقلة .

ولكن يا ويل بلد بحتله هؤلاء العبيد العتاة المستبيحون ! صحيح إنهم الآن مملقون ، ولكن لهم من العبيد العدد الموفور ، وبهم يستطيعون أن يشتروا ما يشاءون ؛ فالعبد ضرب من العملة فى أصقاع الجنوب . وفى الصيف الماضى مات كثير من المماليك بحمى عفنة تنتشر دائماً فى دنقلة صيفاً وتقضى على كثير من الأهالى . ولما لم يطق المماليك الحر وهم فى ثيابهم الصوفية السميكة التى أبوا أن يغيروها ، صنعوا أطوافاً قضوا عليها الصيف كله متقين الشمس بسقوف من الحصر يرشها عبيدهم بالماء بلا انقطاع لتحتفظ برطوبتها .

العودة من دار المحس إلى أسوان

١٥ مارس — يلوح أن دليلي تلقى أمراً سرياً بعرقلة سفرى، فقد طلعت علينا الشمس ولما يزل يغط فى نومه ، وليس هذا من عادة النوبيين الذين ألفوا أن يستيقظوا مع الفجر . وما إن بدأنا السير حتى زعم لى أن ببعيره عرجا يعجزه عن المشى الحثيث ، وتبينت أنه يرمى من وراء هذا الإبطاء إلى أن يتيح لجند محمد كاشف أن يلحقوا بنا ، فقلت له إن فى وسعه أن يترجل عن بعيره إن شاء لأننى خبير بالطريق إلى الدر ، ولأننى معتزم أن أنطلق إليها بأسرع ما أستطيع . فلما سمع منى هـذا ظل راكباً بعيره ، ولكنه كان غير مرة يتخلف مسافة ميل ظاناً بذلك أنه يلزمنى بانتظاره .

ومضينا إلى الوادى بحذاء النيل بدل أن نعبر الصحراء ، وبعد ساعة ونصف وصلنا تجاه صلب، وهى قرية جميلة على الضفة الغربية، رأيت فيها أطلال معبد كبير كان فى نيتى أن أزوره بعد عبورى النهر عند تينارى، ورأيت بعض الفلاحين يروون الأرض فى جزيرة مقابلة لصلب ، فطلبت إليهم أن ينقلونى إلى الضفـة الأخرى ويعيدونى ثانية ، وعرضت عليهم أجراً هو كل ما أحمل من ذرة ، وهو أجر باهظ يعدله ،فى تقديرى ، أن تنقد ملاحاً لندنيا جنيها على قيامه بمثل هذه المهمة . ولكننى لم أجـــد طوفاً ، بل ولا قربة من هذه القرب التى يمكن أن يعبر عليها المرء النيل إذا نفخت . ولم أر من الحكمة أن أركن إلى ذراعىّ وحدهما فى السباحة إلى الضفة الأخرى ، فلم أجد بداً من استئناف رحلتى دون أن أشبع فضولى . وقد لاح لى المعبد فى ضخامة أكبر المعابد فى مصر ، كاملا لم يتهدم من جسمه شىء ، وفى بهوه من الأعمدة الضخمة عشرة أو اثنا عشر . ولعل الحظ يحالف غيرى من الرحالة فيوفق إلى فحص هذا الأثر الذى أعتقد أنه أقصى ما يوجد جنوباً من أمثلة العمارة المصرية ، فقد أنبئت عن ثقة بأنه ليس فى جنوب المحسّ ولا فى دنقلة أبنية أثرية . ولعلى كنت موفقاً كل التوفيق فى عدم عبورى النهر عند تينارى وسيرى شمالا على الضفة الغربية ، ولو فعلت لالتقيت بالملوكين اللذين كانا منطلقين حثيثاً إلى الجنوب ، ولعل لقاءنا فى هـذه البقعة كان يختلف عن لقائنا الودّى يوم زرتهما فى الدر من قبل .

وبلغنا **الواوى** بعد ساعتين و **إشمة** بعد ساعتين ونصف ، ووادى **عبور** بعد أربع ونصف، **ودار حميدة** بعد ست ، **وفوبو** بعد سبع . ويتجه من الواوى صوب الشمال الشرقى بانحراف إلى الشمال جبل منفرد يسمى جبل **علاقى**. أما الجبل الغربى الذى قد تمد نهايته التلال الرملية المنخفضة القائمة فى أقصى جنوب بطن الحجر فيبدأ من جديد غرب جزيرة صاى ، ومنها يدور فى قوس كبير إلى الغرب ، ثم يلتقى بالنهر ثانية قرب صاب . ومن قويق عبرنا السهل الصخرى الذى تغطيه أحجار من الجزع والمرو والعقيق ، وخلفنا النهر وقرية عبرى إلى أقصى اليسار ، سالكين دربا مستقيما حتى وصلنا قرية الشيخ بجدرة من أعمال وادى عمارة ، وهناك بتنا ليلة عند رجل كان أبوه دمشقى الأصل ولكنه تزوج من هذه النواحى .

وتفسيراً للتفاوت بين المسافات المدونة فى يوميتى عن الرحلة جنوباً ، ونظائرها فى العودة شمالا ، ألفت نظر القارىء إلى أننى كنت أسير حثيثاً طوال رحلتى من أسوان إلى الدر (باستثناء المناطق التى كانت تعوق سيرى فيها طبيعة الأرض الصخرية) ، وكان معدل سرعتى فيها أربعة أميال فى الساعة على الأقل . أما من الدر إلى وادى حلفا فيخيل إلىّ أننى كنت أسير بسرعة ثلاثة أميال ونصف فى الساعة ، وهبطت السرعة إلى ثلاثة أميال فى بطن الحجر . وعادت إلى أربعة من سكوت إلى المحس . وأما فى رجوعى من المحس إلى سكوت فكانت سرعتى ثلاثة أميال فى أثناء عبورى البقاع الرملية فى الضفة الغربية من سكوت إلى الدر ، أما من الدر إلى أسوان فلم تزد سرعتى على ميلين فى الساعة ، خشية منى على البعيرين أن تؤذيهما مشقة الرحلة وعناء السير الحثيث .

١٦ مارس — ركبنا اليوم من شروق الشمس إلى غروبها ، ولم نصب من الراحة غير ساعة واحدة قضيناها تجاه جزيرة فركه ، مستظلين بخيمة من خيام عرب القراريش ، وقد سبق لى وصف هذا الطريق . وشاطىء النيل الغربى من دال إلى البقعة المقابلة لعمارة صحراء رملية تكاد تقفر من كل شىء . وتعلأ الصخور النهر حتى عمارة ، حيث يوجد جندل صغير ، ومن ثم إلى الجنوب يخلو النهر من

الصخور . وإلى الشرق من فرقة وسركامتو يقوم جبل عال يدعى جبل ماما، وفى سفحه تلك الـكيمان التى سبق أن ذكرتها ، ويمكن أن يعتبر هذا الجبل نهاية بطن الحجر على الضفة الشرقية . أما على الضفة الغربية المقابلة ، فإن جبال هذا الإقليم تنتهى بتلال منخفضة تسمى قتفقو . وعبرنا الجبال ثانية من الدابة إلى كولب متجهين إلى الشمال الشرقى بانحراف إلى الشرق . فوصلنا تجاه جزيرة كولب عند الغروب . وأهم الصخور التى يصادفها المسافر فى هذا الجبل هو الفلسبار ، وقرب النهر يرى الجرانيت والشست الجرانيتى . وأردت أن أعبر النهر عند كولب ولـكنى وجدت الوقت قد تأخر بى، والليل قد هبط ، فأوفدت دليلى إلى داود كرا ليبلغه تحيتى ورجائى أن يبعث إلى بمشاء ، وأن يرسل إلىّ فى الغد رجلين ليساعدانى فى نقل بعيرىّ ومتاعى القليل إلى ضفة النهر الغربية . وسرعان ماعاد الدليل يبلغنى استجابة الرجل لـمـا طلبت . وفى الليل وصل عبد يحمل إلينا حساء الشعير . وبتنا بين الصخور إلى جوار المـاء . وكان دليلى الأعرابى قد أنبىء أن الأميرين المملوكين قد اجتازا كولب من يومين قاصدين المحس ، فاغتبطت للنبأ أيما اغتباط .

١٧ مارس — برّ داود كرا بوعده ، فأرسل إلينا عبدين ليساعدانا فى عبور النيل . ووضعنا على الطوف الرجلين والغرارتين ، وجلس أحد العبدين فى مقدمته ليجذف ، فى حين قبض زميله بإحدى يديه على القودين وبالأخرى على مؤخرة الطوف ، وشدت إلى عنق كل بعير قربة منفوخة لتعينه على السباحة ، ولـكننا لم نستطع إغراءها بنزول المـاء إلا بشق الأنفس ، لأن الإبل المصرية لم تألف عبور النهر على هذا النحو . وتجرد دليلى من ثيابه ، وقبض بإحدى يديه على ذيل بعيره ، وبالأخرى على عصا يستحثه بها على السباحة . وأشاروا على بالجلوس على الطوف ، ولـكنى وجدته على وهنه مثقلا بما يحمل ، فحذوت حذو دليلى ، ووضعت ثيابى فوق الطوف ، ثم سبحت ببعيرى إلى الضفة الأخرى بالطريقة نفسها . ويخشى الناس فى المحس عبور النهر بهذه الطريقة لوجود التماسيح ، لذلك لا تجد اتصالا منتظما بين الضفتين . ولم يكن بالمركب الذى جلبه ولدا كاشف إلى تينارى ملاح يعرف كيف يسحبه من برّ لبرّ . فإذا كانت الريح مواتية نشر عليه شراع من قطع مهلهلة يكفى

لدفع المركب إلى البر ، واذا كانت الريح مضادة شد إلى المركب جوادان بالحبال ، ثم دفعا فى الماء فجذبا المركب خلفهما وهما يسبحان .

وكان حاكم سكوت قد غادر كولب فى الصباح الباكر سعياً وراء بقرة كان من حقه أن يقتضيها خراجاً من شيوخ عرب أم شريف ببطن الحجر ، فتناولت الفطور مع عبيده ثم واصلت رحلتى . ويلوح أن كولب جزيرة لم تصنعها يد الطبيعة ، فى غربيها تجرى قناة عميقة لا يمكن أن تكون من عمل الطبيعة لشدة انتظامها ، وتجف القناة فى الربيع ، لذلك استطعنا أن نخوضها . وعلى الجانب الغربى من القناة فرجة فى الجبل ، تنبسط سهلا تخلفت فيه آثار زراعة ماضية . وعلى الجزيرة قرية صغيرة ، وأطلال أبنية من الآجر ، دخلت بناء فيها فراعنى أن أجده كنيسة إغريقية صورت على جدرانها رسوم القديسين وطليت بألوان زاهية وكتبت عليها أسماء كثير من الزوار والحجاج . والألوان محتفظة برونقها تمام الاحتفاظ ، ولعل ذلك راجع إلى ما يمتاز به جو النوبة من جفاف شديد . وكثرة الأبنية الأثرية من الآجر التى يراها المرء فى جزائر بطن الحجر دليل على أن مشيديها لم يقووا على قطع الحجر من الجبال المجاورة لهم لشدة صلابته . وسرت إلى الحدود الشمالية للجزيرة فوجدت بئراً عميقة واسعة أحيطت من داخلها بجدار من الحجر الكبير يصل إلى قمة البئر . والصخور السائدة على هذه الضفة صخور جرانيتية تتخللها طبقات من المرو سمكها ثلاث بوصات أو أربع .

وركبنا من كولب ساعتين ونصفاً حتى بلغنا وادى أكمه إلى الشمال الشرقى بانحراف إلى الشمال ، وفى بطن الحجر يطلقون إسما واحداً على الواديين الواقعين على ضفتى النهر . وواصلنا السير فى الوادى أربع ساعات لم نر فيها سوى بضعة منازل خربة . ثم يخترق الطريق تلالاً رملية عالية ، وبعد ست ساعات ونصف بلغنا وادى سنكى وهنا وجدنا الرمال تنثال إلى النهر كأنها السيول ، وكانت ريح الشمال تسفى الرمل فى وجوهنا فتضايقنا أشد المضايقة . وفى وادى سنكى تعشينا فى كوخ أعرابية فقيرة كان زوجها قد انطلق إلى الدر ليبيع عنزات ويشترى بثمنها ذرة لبيته . ويزرع فى هذه الناحية وفى نواح أخرى من بطن الحجر نبات الخروع

الذى ينمو فى صعيد مصر أيضاً ، ويعلو إلى أربع أقدام أو خمس ، ومن ثماره يستخرجون زيتاً طيباً يدهنون به شعورهم . وموقع أكثر هذه الوديان التى تقوم وسط الصخور وبين أشجار الطرفاء رائع لاسيما حيث يكون الماء بركا صغيرة ، ولكن البعوض يفد على هذه البرك زرافات لم تدعنا نهنأ بشىء من الراحة ، فغادرنا مكاننا حين طلع القمر ، وحططنا بعد نصف ساعة على رمال السهل الأعلى عند سفح جبل لاموله ، وكنا نسمع من موضعنا هذا خرير النهر وهو يندفع فوق الصخور عند سفح لامولة الغربى .

١٨ مارس — سرنا فوق سهل رملى عال متجهين شرقا بشمال . وتقوم وسط السهل تلال صخرية منعزلة تتألف منها سلسلة أشد انخفاضاً من السلسلة الشرقية . وبعد مسيرة ساعتين بدأ وادى فرمكه على ضفة النهر إلى يميننا ، وكان يبعد عنا أميالا . وبعد ثلاث ساعات وصلنا وادى أم قناصر ، وعلى جزيرة صخرية فيه تقوم أطلال بيوت وبرج متوسط الارتفاع وكلها من الآجر . ويسكن هذا الوادى عرب قلائل من قبيلة أم شريف يزرعون بضعة أفدنة . وقد رجونى أن أعطيهم شيئاً من البارود ليقتلوا به الغزلان التى تأكل محصولهم . ذلك أن الجبل الغربى تقطنه قطعان كبيرة من الغزلان ألفت أن تهبط ليلاً إلى ضفاف النهر انتجاعاً للكلأ الذى ينمو هناك . وكنت أرى رمال الشاطىء كل صباح تغطيها آثار أقدام نحيلة تركها هذا الحيوان الجميل . ولا يجد العرب سبيلا إلى حماية حقولهم منه إلا بنصب أشكال تروّعه ، وكثيراً ما رأيت ضبعاً قبيحاً صنعوه من قش وركبوه فوق أرجل من خشب . ويسكن الضبع الجبال على الضفتين ، وهو ألد أعداء الغزال . ولم أسمع بوجود وحوش كاسرة غيره فى هذه النواحى . وبعد خمس ساعات وصلنا وادى أمبقول ، وتقبعه جزائر كبيرة فى النهر . ويتصل السهل الرملى العالى الذى تتخلله التلال المنعزلة على هذا الجانب من النهر ، وتكثر المنعطفات فى النيل ، وكنا عادة نختصر الطريق بسلوك الجبل من أقصر دروبه . وسرنا من أمبقول متجهين شرق الشمال الشرقى ، حتى طوينا الوادى بعد ثمانى ساعات ونصف ، ورأيت جبل دوشر يقوم على الضفة الشرقية . وأكثر الطريق يخترق سهلا يغطيه ما يسمى بالحصى المصرى . وتتألف التلال

والآكام على جانبي الطريق طوال ثلاثة أميال من السماق الأحمر . وبعـــد عشر ساعات وصلنا وادى أتيرى ، ومررنا ببيت من الحجر للملك أم شريف . وقد أغار عرب الشايقية فى العام الماضى على هذا الملك وغيره من الأهالى وسلبوهم ما يملكون، فغارات الشايقية لا تقتصر على الضفة الشرقية ، وكثيراً ما يعبرون النيل وينهبون الأهالى على البر الغربى . وبعد عشر ساعات ونصف حططنا لقضاء الليل تجاه كوخ لأسرة من عرب القراريش تسكن إحدى الجزائر ، فجاءونا بزبد ولبن ، وأخذوا منا ذرة عوضاً عنهما . وجاءتنا فى الليل صبية تسألنا قليلا من الذرة لها ولأمها ، لأن الرجال كانوا يختصون أنفسهم بالخبز دونهما ، فأعطيتها بسخاء لم تحلم به ، وعادت إلينا فى الصباح الباكر تحمل قدراً من اللبن هدية من أمها . ويجدر بى أن أذكر أن دليلى كان من معارف هذه الأسرة ، وإلا لما اطمأنت الفتاة إلى الحضور بمفردها لزيارة أغراب لا تعرفهم . وتنتشر فى هذه الناحية شجيرات شوكية عالية تسمى الواحدة منها سيالة ، وتثمر ثماراً حمراء يأكلها العرب .

١٩ مارس — بدأنا السير على درب ضيق يخترق صخوراً من الجرانيت المرو والفلسبار ، وكانت وجهتنا الشمال . وعدنا إلى ضفاف النهر بعد ساعة ونصف ، قرب الطرف الشمالى لوادى أتيرى تجاه عقبة البنات على الضفة الشرقية . ولا يجد السائر فى بطن الحجر سوى قليل من النخيل مبعثر على البر الغربى ، بعكس الحال فى البر الشرق . ويستطيع المسافر أن يجمع التمر من هذا النخيل لأنه بغير صاحب يدعى ملكيته . ثم عبرنا الرمال ثانية من وادى أتيرى ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادى سمنه ، وبقربه جندل فى النهر ، ترى النيل عنـــده يقتحم طريقه وسط خانق لا يتجاوز عرضه خمسين خطوة ، كونته صخرتان ماثلتان من الضفتين . ويرى المسافر أطلالا من الآجر على تل قائم فوق الجندل على البر الشرق ، تقابلها على البر الغربى أطلال شبيهة بها ومعبد قديم شيّد فوق قمة التل . والمعبد مشيد بالحجر الرملى ، ويختلف شكلا عن سائر المعابد المصرية وإن كان هنالك بعض الشبه بين تصميمه وتصميم معبد إلفنتين الصغير . ويتألف المعبد من مبنى رئيسى طوله اثنتا عشرة خطوة ، وعرضه لا يزيد على ثلاث . وكانت تقوم

فى كل جانب من جانبيه أربعة أعمدة صغار بقى منها اثنان فى جانب وثلاثة فى الجانب الآخر . وأحد العمودين مضلع البدن ، أما سائر الأعمدة فربع ، وجميعها

ملأى بالنقوش . وتربط الأعمدة بالبناء الرئيسى كتل من الحجر تؤلف سقف المدخل . وللمعبد بوابتان صغيرتان ، وجدرانه الداخلية تكسوها النقوش الهيروغليفية والصور الدينية التى تمثل عبادة الآلهة . وعلى الجانبين رسم مركب طويل بداخله أوزيريس ، ويتكرر رسم الأشخاص أزواجاً أزواجاً ، وكل شخص منهم يضع يديه على كتفى صاحبه . والسقف مطلىّ باللون الأزرق ، وعلى كثير من رسوم الأشخاص بقايا ألوان قديمة . ورأيت تمثالاً ملقى على الأرض بجوار الحائط الخلفى تجاه المدخل الرئيسى ، ورأس التمثال مقطوع ، وارتفاعه حوالى خمس أقدام ، وتتقاطع ذراعاه على صدره ، وفى إحدى يديه سوط وفى الأخرى صولجان . وقد تبينت على حائط المعبد الخارجى رسوماً للكبش منديس (پرياپوس المصرى) . والنقوش كلها لخة الصناعة ، وفى بعض السطور التى خطت عليها النقوش الهيروغليفية اعوجاج كأنها من عمل صغار لم يحذقوا فنهم بعد . وقد تركت بعض نقوش الأعمدة ناقصة نقصاً ظاهراً ، وما كل منها كان خشن الصنعة رديئها . وفى الجدار قسم يبدو أنه بنى فى عهد غير العهد الذى بنى فيه سائره ، فأحجاره أكبر حجماً وأدق نحتاً . ويلوح أنه كان يقوم إلى جوار هذا المعبد معبد آخر نظيره ، فقد رأيت على الأرض تيجاناً لأعمدة وكتلة ضخمة من الجرانيت تملؤها النقوش الهيروغليفية . وحول المعبد أكوام من الأنقاض ومبان خربة من الآجر لاشك عندى فى قدمها السحيق، وتنتشر المبانى فوق قمة التل المشرفة على الضفة يحيط بها سور مزدوج ، أو على الأصح سور داخل متراس .

والسور من الآجر سمكه من ثمانى أقـدام إلى اثنتى عشرة ، ويتجاوز ارتفاعه فى أجزائه الكاملة ثلاثين قدماً . أما المتراس فمن الحجر ، وعرضه عشرون قدماً ، وجوانبه تميل صوب منحدر التل . وأحجاره مكومة بعضها فوق بعض بغير نظام وبلا ملاط ، ولكن أحجار الجوانب المائلة إما منحوتة أو موضوعة بمهارة ، بحيث تجعل السطح أملس مصقولا لايمكن تسلقه يوم كان هذا البناء يلقى رعاية واهتماماً . وأمثال هذه الأبنية الحصينة دليل على وجود الأعداء الأقوياء فى ذلك العهد ، ولكنا لا نستطيع أن نعرف على التحقيق من هم هؤلاء الأعداء. فهل كان أجداد **البلميس** مصدر قلق لحكام مصر كما كان أحفـادهم للولاة الرومان ؟

وصلنا بعد أربع ساعات تجاه أطلال برج من الآجر ، أو حصن صغير ، قائم على جزيرة صخرية . وهنا بداية وادى سرس . وكنا نسير شمالا بشرق ، فوق رمال كثيفة مستوية لا تعترضها سوى بضعة تلال واطئة منعزلة . وبعد خمس ساعات وجدنا السهل ينفرج غرباً والنهر يدور منعطفاً إلى الشرق . وسرنا متجهين شرق الشمال الشرقى ، وبعد سبع سـاعات عدنا ثانية إلى جوار النهر ؛ ووصلنا بعد ثمانى سـاعات إلى الحد الشمالى لوادى سرس . ورأينا قلعة عتيقة من الآجر تسمى إسكمر ، تقوم على جزيرة ، وحططنا بعد تسع ساعات على شاطىء النهر المرتفع أمام جزيرة صغيرة رأينا عليها كوخا للعرب . وناديناً من به ، فسبح أحدهم إلينا ، ونفحناه بشىء من الذرة صنعت منه النسوة خبزاً لنا . وتكثر أشجار الدوم هنـا ، وقد تم نضج ثمارها ، وكذلك تنتشر أشجار الطرفاء والسنط .

٢٠ مارس — مضينا فوق سهل رملى متجهين شرق الشمال الشرقى ، وبعد ساعتين ونصف عدنا إلى النهر عند وادى **جمى**. وسطح الأرض هنا أقل وعورة ، ويخلو النهر أميالا من الصخور والجزائر ، ويحف بالشاطىء شريط ضيق من

الأرض الصالحة للزراعة . ورأينا أعرابيا يحفر فى التلال الغربية ليستخرج الملح . ويوجد الملح قطعاً بيضاء صغيرة تشوبها الرمال والحجارة ، ويغلى العرب هذه القطع فإذا ذاب الملح صفوه بقمصانهم واحتفظوا به فى قدور كبيرة من الفخار يصبون منها على طعامهم كلما أرادوا تمليحه . ومن هنا اتجه الطريق المحاذى للنهر شمال الشمال الشرقى . والصخر هنا كله من الحجر الأخضر . وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنا وادى مرشد . ويقوم بناءان منفصلان من الآجر على البر الغربى تجاه الجزيرة التى أشرت إليها فى رحلتى جنوبا ، أحدهما دير إغريقى صغير، والآخر كنيسة ، وعليهما بعض رسوم للقديسين لا تزال ظاهرة على الجدران . والسهل هنا أعرض منه فى أى بقعة من بقـاع بطن الحجر ، وبه آثار زراعة قديمة ، ولكنه اليوم مهجور ، وإن كان به نخل كثير . وكلما اتجه المسافر شمالا خفت وعورة الأرض وانخفضت السلسلة الشرقية انخفاضاً محسوساً . وبعد أربع ساعات بلغنا ثلاثاً أو أربعاً من الكنائس الصغيرة أو الأديرة ، وهى متقاربة ، ولكن كلا منها قائم بذاته . ولعلها كانت مسكناً لرهبان طموحين أقصاهم التعصب الحزبى أو الطائفى عن القسطنطينية وقذف بهم إلى صحارى النوبة . وبعد خمس ساعات ونصف يختنق مجرى النهر ثانية بالصخور والجزائر ، ويظل على هذه الحال حتى شلال وادى حلفا . وهنا يبدأ وادى سوله ، ويصعد الدرب التلال الرملية التى تكتنف السهل الساحلى الضيق . وفوق قمة هذه التلال ينبسط سهل فسيح تنبث فيه آكام منعزلة لبعضها أشكال منتظمة حتى ليحسبها الرائى من صنع البشر . وبعـد ست ساعات بلغنا حدود السهل الأعلى . وتشرف على النهر خرائب سور كبير سميك من الآجر مساحته ثلاثمائة قدم مربعة ، ولعله كان برجاً للحراسة ، وليس بداخل السور آثار أبنية من أى نوع . ويستطيع الواقف فى هذا الموضع أن يرى ببصره بعيداً فيحيط بمنظر النهر وجزائره . وعلى إحدى هذه الجزائر ، تحت الماء مباشرة ، أطـلال من الآجر . وعدنا إلى النهر بعد سبع ساعات ونصف متجهين شرق الشمال الشرقى . وبعد

ثمانى ساعات مررنا بشلال وادى حلفا ، وهو الشلال الثانى المشهور، والذى تراه على مصورات النوبة تحت اسم The Cataract of Jan Adel ،[١] وقد كونه جزء من النهر فقط عرضه عشرون ياردة على الأكثر . وينحدر الماء فوقه فى سرعة وهدير ورغاء لا تجـــدها فى أى بقعة أخرى من بقاع بطن الحجر حتى ولا فى شلال أسوان . على أنه غير جدير باسم الشلال[٢] ، فليس فيه سوى ثلاثة مساقط أو صخور منحدرة يسقط منها المـاء بسرعة كبيرة . وينشر العرب الذين يسكنون الجزائر القريبة منه شباكهم على المساقط فيصيبون سمكا كثيراً . والتل العالى القائم على البر الغربى قرب الشلال هو نهاية الصخور الأولية فى بطن الحجر . ومن ثم إلى الشمال لا يجد المرء غير الحجر الرملى حتى يبلغ الشلال الأول .

كانت الشمس توشك أن تغرب بعـد أن رأيت الشلال ، وكان ما معى من زاد قد نفد فيما خلا الذرة ، فأردت أن أبلغ مكاناً آهلا بالسكان قبل هبوط الليل . لذلك سرت حثيثاً ، ومررنا فى طريقنا فوق التلال الرملية بالبقعة المواجهة لوادى حلفا ، وبعد عشر ساعات وصلنا ضفاف النيـل أمام سقوى ، ورأيت هناك آثار معبد متهدم جداً . والبناء كله مدفون تحت تلال من الرمل والأنقاض ، ولا تبدو منه غير قطع من أطراف الأعمدة . وأعمدة الأركان الأربعة مربعة الشكل ، وكذلك عمودان من الأعمدة الجانبية . أما سائر الأعمدة فستدير ، وقطرها يقرب من قدمين

---

(١) أطلق مؤرخو العرب وجغرافيوهم على شلالات النيل اسم « الجنادل » أو الشلالات وقد أخذ الأوربيون اللفظ الأول وكونوا منه اسم علم هو Jan Adel قصروه فى مصوراتهم على شلال وادى حلفا دون غيره .

(٢) روى لى دليلى وغيره من الروايات ما شوقنى لرؤية هذا الشلال الثانى الذى قيل لى إن ماءه « ينحدر كأنه ساقط من السماء! » ولما رأيته على حقيقته ووبخت دليلى على غلوه فى وصفه ، قال لى « وهل رأيت أروع منه من القاهرة إلى المحس ؟ » على أن المرء يجب أن يتشكك فى روايات هؤلاء القوم تشككه فى روايات عرب الشام، بل أكثر . فقد أخبرنى كثير من أهل النوبة أن المسافة من الدر إلى المحس يطويها المسافر فى ستة عشر نهارا وليلا ، ولـكنها لم تستغرق منى غير عشرة . كذلك كانوا يحاولون مراراً تضليلى كلما وجهت إليهم أسئلة تبدو لهم خارجة عن موضوع أحاديثهم المألوفة ،والتى لا تدور إلا حول أثمان البلح والذرة ، والمكوس المفروضة على السواقى ،والشكوى من جور الحكام وعسفهم .

ونصف ، ولا يبدو عليها نقش ولا كتابة هيروغليفية ، والأحجار بالية مهشمة. وكان يحيط بالمعبد سور عال من الآجر بقيت بعض أجزاء منه . ومضينا حثيثاً حتى

بلغنا النهر ثانية تجاه دروسه بعد إحدى عشرة ساعة ونصف ، وعبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النهر ميممين شطر جزيره ضرب بعض عرب القراريش عليها خيامهم ، فحططنا عندهم فى الليل بعد مسيرة اثنتى عشرة ساعة . واحتفلت بعودتى سالماً إلى شمال النوبة ، فابتعت من العرب حملا بثلاث كيلات من الذرة ، وأصبت منه عشائى مشوياً . وبالجزيرة أشجار كثيفة من الطرفاء ، تنمو برياً فيها وفى أشباهها من الجزائر التى تكسو تربتها الرواسب الغرينية لا الرمال . وعلمت فى أثناء وجودى تلك الليلة أن قافلة قوامها ستون جملا من جمال عرب الشايقية وصلت وادى حلفا طالباً للتمر . وتجار الشايقية الذين يفدون على قرى النوبيين بوصفهم أصدقاء لا يلقون منهم أى أذى أو إهانة ، وذلك على الرغم من المقت الذى لا يفتأ يلقاه النوبيون من غارات المغيرين من عرب هذه القبيلة .

٢١ مارس — كنا نعبر الماء من الجزيرة إلى البر ، فتردى بعيرى فى الوحل ، ولم أستطع إنقاذه إلا بشق الأنفس . وفى استطاعة هذه الإبل أن تسير بخطى ثابتة وسط رمال تعلو إلى ركبها ، ولكن قليلا من الوحل يعثرها . وبعد نصف ساعة مررنا بقرية أرقين والبر الغربى من الشلال إلى هذه القرية وإلى الشمال منها أجرد قاحل تغطى السهل فيه رمال كثيفة . وبعد ساعة ونصف جزنا أمام إشكيت . وبعد ساعتين ونصف رأينا قرية دبيرة على البر الشرقى ، وبينها وبين سرة على ذلك البر حرج متصل من النخل . واتجه طريقنا للشمال الشرقى ، وبلغنا سره بعد أربع ساعات ونصف . وهى تكاد تواجه القرية المسماة بهذا الاسم على البر الشرقى . وبعد خمس ساعات مررت بأطلال معبد صغير ، يقوم غير بعيد عن

النهر وسط تلال رملية منخفضة ، ومبناه الرئيسي يبلغ أربعا وعشرين قدما ، وقد سقط سقفه ولم يبق من الجدران الأصلية سوى أسفلها ، وفوقها شاد الإغريق جدراناً من اللبن وحولوا المعبد المتهدم إلى كنيسة ، وحولت الكنيسة هي الأخرى إلى مسجد . وليست هناك آثار لأعمدة في المعبد ، وما رأيت على الجدران من نقوش هيروغليفية فاق في رداءة صنعه كل ما رأيت حتى في معبد سمنة الذي وصفته من قبل . وفي وسع الناظر أن يتبين على الجدار آثار صورة لموقعة حربية ، ومجموعة لبرياريوس تمتاز بالرشاقة برغم رداءة صنعها ، وتمثله وقد ظفر غريمه بناصيته وشهر عليه سكينه ولكن ذراع أوزريس المبسوطة تحميه . ويختلف الرسم عن نظائره من الرسوم التي تراها معادة مكرورة على جدران المعابد المصرية ، فبرياريوس هنا ليس وحشاً متعدد الرءوس ولكنه آدمي الوجه يمسك في ذراعيه صديقاً يعالج سكرات الموت ، وكلاهما يلبس في أذنيه قرطاً ، وشعر رأسه محلوق على طريقة عرب هذا الجزء من إفريقيا بشكل اختلط على بعض السياح — ممن وصفوا الطاقية التي رأوها مرسومة على المعابد المصرية — فظنوا هذا أيضاً طاقية .

وتجاه هذا المعبد في الشرق قرية صغيرة تدعى أرتينوه تقع إلى الشمال من سره الشرقية . وبعد خمس ساعات ونصف بلغنا فرس ، وتقع تجاه الجزيرة الخصيبة التي تحمل هذا الاسم نفسه . وتستمر تلال سره الرملية حتى تواجه أدندان ، وينبسط إلى الغرب منها سهل فسيح تقوم وسطه تلال صخرية منعزلة . وعلى مسيرة سبع ساعات يرى المسافر كنيسة إغريقية متهدمة بنيت جدرانها إلى النصف بالحجر ثم بالآجر . ومررنا بعد سبع ساعات ونصف بثلاث مقابر منحوتة في الحجر الرملي الذي تتألف منه سلسلة منخفضة من التلال . والمقابر خشنة الصنع ، وبداخلها نقوش إغريقية من عهد متأخر . وسرنا الآن متجهين شرق الشمال الشرقي . وتنتهي سلسلة الجبال الغربية تجاه أدندان ، وتستمر إلى الشمال تلال واطئة يفصلها عن النهر أرض رملية مرتفعة . وبعد تسع ساعات بلغنا البر تجاه قسطل ، وبعد تسع ساعات ونصف عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النهر فبلغنا جزيرة بلانه ، وحططنا عند كوخ من أكواخ عرب القراريش في طرفها الشمالي أمام قلعة أده ،

بعد أن سرنا إحدى عشرة ساعة فى يومنا هـذا . وأشباه هذه الجزيرة يهجرها الناس إبان الفيضان .

٢٢ مارس — عدنا إلى البر سيراً فوق الرمال التى تتخلف عند انحسار الماء ، ومررنا بقرية بلانة . وبعد ساعة ونصف ارتقينا جبلا رمليا قائم المنحدر . والنهر فى هذه البقعة يكتنفه الجبلان على ضفتيه . وفى الشرق وادى فوبق ، ويسمى الجبل الغربى إبسمبل [أبو سمبل] ، ولعلها كلمة يونانية مقطعهـا الأخير « بل » تحوير لـكلمة Polis أى مدينة . وحين أدركنا قمة الجبل تركت دليلى بالبعيرين وهبطت شقاً قائماً مفعماً بالرمال ، لأتطلع إلى معبد أبو سمبل الذى طالما سمعت بأوصافه الرائعة . وليس هناك درب يسلـكه اليوم قصاد هذا المعبد الذى يقوم فوق ضفة النهر تماماً ، ولعل تغيراً طرأ على مجرى النهر ، ولعله كان هناك درب قديم محاذٍ للنهر يسلـكه الراغبون فى الوصول إليه . ويرتفع المعبد نحو عشرين قدماً فوق سطح الماء ، وهو منحوت بأكمله فى حائط الجبل الوعر ويحتفظ برواثه تمام الاحتفاظ . وأمام المدخل ستة تماثيل ضخمة لشبان واقفين ، على كل جانب ثلاثة ، وهى موضوعة فى كوى ضيقة وجهتها النهر ، وكلها من حجم واحد ، وترى التمثال منها يقدم رجلا على رجل ، وبصحبتها تماثيل صغيرة سيأتى وصفها . وارتفاع التمثال من الأرض إلى الركبة ست أقدام ونصف ، وهى على الترتيب كما يلى :

(١) أوزيريس الشاب ، وله لحية صغيرة وعلى رأسه تاج وعلى كل جانب منه تمثال صغير قائم ارتفاعه زهاء أربع أقدام (٢) إيزيس تحمل بين ذراعيها هورس ، وعلى كل جانب من جانبيها تمثال صغير أيضا . وعلى وجه إيزيس — برغم خشونة الصنعة — سيماء الجلال والسماحة (٣) شاب يلبس على رأسه اللبدة العالية المعروفة ، وقد تدلت ذراعاه ، وعلى جانبيه تمثالان صغيران كالتماثيل السابقة . هذه التماثيل كلها تقوم على أحد جانبى الباب ، أما على الجانب الآخر فثمة (٤) تمثال للشاب نفسه (٥) تمثال لإيزيس وعلى رأسها القرص تحيط به الحيتان (٦) تمثال

ثالث للشاب ذاته . وكل تمثال من هذه المجموعة يرافقه أيضا تمثالان صغيران . وبعض التماثيل الصغيرة على هذا الجانب من الباب يختلف عن سائرها ، إذ ترى شعر رؤوسها ينسدل من اليمين فى خصلة كثيفة على الكتف اليمنى ، فى حين ترى شعر الجانب الأيسر محلوقاً . وتملأ النقوش الهيروغليفية الفراغ المتخلف بين كوى التماثيل الكبيرة . وللمعبد باب صغير يؤدى إلى بهو الأعمدة الذى تسنده ست أعمدة مربعة ، مربع كل منها أقدام ثلاث ، وطول البهو ثلاث عشرة خطوة وعرضه سبع . وتمثل تيجان الأعمدة رءوس إيزيس كما ترى فى أعمدة معبد دندرة ، إلا أن الحفر هنا أعمق ، وأسلوبها شبيه بأسلوب النقوش التى على جدران المعبد . وحلية هذه الرءوس على شكل معبد ، وينسدل الشعر فى غديرتين كثيفتين ، وهو فى هذا أيضا يختلف عن رؤوس معبد دندرة. وتدخل من البهو إلى الهيكل الضيق من باب كبير وبابين صغيرين . وعمق الهيكل لا يتجاوز خطوات ثلاث ، وعلى كل جانب منه حجرة مظلمة . أما قدس الأقداس فربعه سبع أقدام ، وعلى الجدار الخلفى بقايا تمثال منحوت من الصخر ، وفى الأرض مقبرة عميقة . وجدران الحجرات الثلاث تكسوها النقوش الهيروغليفية والرسوم المقدسة التى تراها عادة فى المعابد المصرية . ويلوح أن رسوم الأشخاص كانت كلها مدهونة بالأصفر فيما عدا شعر رؤوسها ، فهو يبدو فى كثير منها أسود ، أما شعر إيزيس فقد وخطه الشيب ، ومن المناظر المتكررة منظر القرابين من اللوتس وسعف الدوم تقدم إلى أوزيريس ، وكذلك المنظر الذى تراه على جميع المعابد النوبية ، أعنى بريابوس ومن فوقه يد قاهره ، وهو هنا أيضا آدمى الوجه ، ويلوح أن معبد أبو سمبل كان المثال الذى على غراره بنى معبد الدر ، وهو فى رأيى أقدم منه كثيراً . ولا شك فى أنه كان مكرساً لعبادة إيزيس ، وينبىء أسلوب نقوشه بمراقته فى القدم . وعلى خطوات إلى الشمال من المدخل ترى على الصخرة القائمة فوقه رسماً غائراً لأوزيريس جالساً ، وقد جثا أمامه أحد عباده رافعاً ذراعيه أمام الإله ، وتحيط النقوش الهيروغليفيه بالعابد والمعبود. وقد قيل لى بعد ذلك فى الدر إن على شاطىء النهر قرب المعبد تمثالا لرجل يزيد قليلا على الحجم الطبيعى ، وقد حمل تحت إبطه مكيال القمح المصرى ، وإن التمثال يغمره الماء تماما زمن الفيضان .

وبعد أن خلقتني شاهدت كل آثار أبو سمبل كدت أهبط السطح الرملي من حيث ارتقيته ، وإذا أنا أعثر — بعد أن أوغلت جنوبا لحسن الحظ — على أربعة تماثيل ضخمة ، أوقل على مابقي ظاهراً غير مطمور من هذه التماثيل الهائلة المنحوتة في الصخر على مائتي ياردة من المعبد . والتماثيل في فجوة عميقة منقورة في الجبل ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن الرمال التي تسفيها الرياح هنا كأنها السيول الدافقة قد طمرتها أو كادت . ويظهر اليوم فوق الرمال رأس تمثال منها وجزء من صدره وذراعيه ، أما جاره فلا تكاد تتبين منه شيئاً لأن الرأس مكسور والجسم تغمره الرمال إلى مافوق الكتفين . وأما التمثالان الباقيان فلا يبدو منهما غير اللبدتين . ويصعب الحكم على وضع هذه التماثيل ، أهي جالسة أم واقفة ، فظهورها ملتصقة بقطعة ناتئة من الصخر قد تكون جزءاً من مقعد وقد تكون مجرد عمود تستند إليه . والتماثيل لا تواجه النهر كتماثيل المعبد التي وصفتها من قبل ، ولكنها تتلفت إلى الشمال صوب أصقاع مصر الخصيبة ، فيكوّن الخط الذي تنتظم فيه زاوية مع مجرى النهر . ورأس التمثال الظاهر فوق الرمال قوى التعبير بادي الفتوة ، وهو أقرب إلى مثل الجمال الإغريقية من أي تمثال مصري قديم وقع عليه بصري ، ولولا لحيته المستطيلة الرقيقة لظنه الناظر رأسا لپالاس* . ويلبس صاحب التمثال اللبدة العالية التي تسمى عادة بالمكيال ، وفي مقدمتها نتوء رسم عليه مقياس النيل ، وتجد مثل هذا في لبدتي التمثالين الآخرين . وعلى الذراعين نقوش هيرغليفية حفرت في الحجر الرملي حفراً عميقاً دقيقاً . وعرض التمثال فيما بين الكتفين سبع ياردات ، فلا يمكن إذن أن يقل ارتفاعه واقفاً عن خمسن وستين قدما إلى سبعين . وطول أذنه ياردة وأربع بوصات . وعلى جدار الصخرة في وسط التماثيل الأربعة رسم لأوزيريس ، وله رأس صقر يعلوه قرص الشمس . وفي ظني أنه لو أمكن إزاحة الرمال عن المكان لتكشفت عن معبد كبير حلّي مدخله — على الأرجح — بهذه التماثيل الضخمة كما حلّي معبد إيزيس المجاور له بالتماثيل الستة . ويحملني وجود رسم أوزيريس الصقري الرأس على الظن بأن

* Pallas

المعبد كان مكرساً لأوزيريس . وتكسو النقوش الهيرغليفية جدار الصخرة الذى سوى من خلف التماثيل ، وعليه صف من أشخاص جلوس يزيدون على العشرين نحتوا كالباقين من الصخرة ولكن معالمهم طمست فلم أستطع وأنا فى موضعى تحتهم أن أفهم الحكمة فى وجودهم . وارتفاع الواحد منهم زهاء ست أقدام . وفى وسعى أن أحكم — استناداً إلى ملامح التمثال الذى ظل رأسه ظاهراً فوق الرمال — بأن هذه التماثيل صنعت فى أرقى عصور النحت المصرى ، ولكن النقوش الهيرغليفية التى على سطح الصخرة خشنة الصناعة ، ولعلها ترجع إلى العهد الذى حفرت فيه نقوش معبد الدر . وعلى بضع خطوات إلى الجنوب من التماثيل الضخمة الأربعة فجوة منقورة فى الصخر يرقى إليها الزائر بدرجات صاعدة من شاطىء النهر ، وتملأ جدرانها النقوش الهيرغليفية ورسوم إيزيس وأوزيريس الصقرى الرأس. وأهل بلانة وجيرانهم من العرب يعتصمون بمعبد أبوسمبل من الغارات التى تشنها قبيلة من بدو المغرب على هذه النواحى بانتظام كل عام ، وهؤلاء ينتمون إلى القبائل المقيمة بين الواحة الكبرى وأسيوط . وحين يبدءون غاراتهم يقصدون أولا أرقو ، ومنها يخرجون فى رحلتهم ينهبون ويسلبون القرى الواقعة على ضفة النيل الغربية . ثم يمضون إلى المحس وسكوت وبطن الحجر ووادى حلفا والقرى المواجهة للدر ، وأخيراً إلى الدكة ، ومن ثم يرتقون الجبل ويعبرون الصحراء ميممين صوب أسيوط . وتتألف الجماعة منهم عادة من نحو مائة وخمسين فارساً ، ومثلهم على ظهور الإبل . وليس فى النوبة من يجرؤ على الوقوف فى وجههم ، لا بل إن الحكام يزورونهم ويقدمون إليهم الهدايا حين يصلون تجاه الدر . وغارات هذه القبيلة من الأسباب الهامة التى جعلت الناس يهجرون معظم الضفة الغربية للنيل ، وأهالى بلانه يعتصمون بمعبد أبو سمبل هم وماشيتهم كلما زحف صوبها هؤلاء المغاربة ، وقد حاول المغاربة فى العام الماضى أن يقتحموا هذا الحصن عنوة ، ولكنهم ارتدوا عنه خائبين بعد أن مات منهم كثيرون .

وسرنا من أبوسمبل على شاطىء رملى قاحل متجهين شرق الشمال الشرقى . ومضت ثلاث ساعات ونصف على بداية رحلتنا فى الصباح ، فمررنا بأطلال كنائس إغريقية صغيرة .

ثم وصلنا أمام فرقندى (الواقعة على البر الشرقى) بعد ست ساعات ونصف ، فأنخنا بميرينا عند كوخ من أكواخ العرب ، وجدنا به شابا وفتاة جميلة هى ابنة عمه. ، وكان أهلهما يسكنون البر الشرقى ، وقد أوفدوهما ليلاحظا زرعاً لهم . فسألت الفتاة ألا تخشى البقاء وحدها مع ابن عمها فأجابت « ليش أخاف ، ما هو ابن عمى » . وأبناء العم عند البدو يعدون فى مقام الأخوة والأخوات تقريباً .

٢٣ مارس — يستمر الشاطىء رمليا مرتفعاً . وقد خلفنا النهر إلى يميننا واختصرنا المسافة بشق طريق قصير فى السهل يتجه شرق الشمال الشرقى . وبعد ساعتين ونصف مررنا بقرية توشكه الواقعة على ضفتى النيل ، وكانت تبعد عنا مسيرة ساعة إلى اليمين ، وبعد خمس ساعات وصلنا **مصمص** على الضفة الغربية أمام وادى البستان ، وبعد ست وادى الشباك على الضفة الشرقية . ومن ثم سرنا للشمال الشرقى منحرفين شرقاً فوق سهل فسيح محصور بين الجبال الغربية والنهر . ورأينا إلى يميننا قرية قتـه بعد تسع ساعات . ويقوم على ميلين من النهر تل منعزل من الحجر الرملى نحتت فيه حجرة دفن صغـيرة طولها سبع خطوات ، وعرضها ثلاث ، وارتفاعها خمس أقدام ونصف ، وفى وسطها حفرة القبرة ، وألحقت بها حجرة صغيرة فى أسفلها تمثال نصفى قائم بين مقعدين لعلها أعدا لوضع الجثث المحنطة عليهما . وعلى جوانب الحجرة الرئيسية رسوم احتفظت بألوانها كما احتفظت بها مقابر الملوك بطيبة وإن لم تضارعها فنا ، وأهم هذه الرسوم يمثل تقديم القرابين لأوزريس وأبيس وعبادتهما . ورأيت على ناحية صورة تمثل قرداً بوجه كلب Cynocephalus يحنط جثة مدت على منضدة أمامه ، وعلى الناحية الأخرى رأيت القرد نفسه ممسكا بميزان فى يده وقد وقف أمامه أبو الهول . وعلى جدران الحجرة الصغيرة رسوم تمثل موضوعات زراعية كالحرث وبذر الحب والعزق الخ . . وليس بالمكان مقابر غير هذه ، ومما يثير العجب ألا يجد المرء فى جبال النوبة الكثير من أشباه هذه القبرة مع كثرة ما فى جبال مصر منها بجوار جميع المدن القديمة . وعدنا إلى النهر عند قرية تدعى عافية بعد إحدى عشرة ساعة ، ثم سرنا نصف ساعة أخرى فبلغنا **توماس** ، وفيها حططنا عند بيت من بيوت حسن كاشف .

وتوماس قرية كبيرة ، وجل سكانها من سلالة عرب الغربيـة الذين احتلوا النوبة قديما .

٢٤ مارس — بعد مسيرة ساعة ونصف من توماس وصلنا تجاه الدر ، وفيها « معدية » لنقل الناس من بر إلى بر ، وانتظرت المركب برهبة ، وكان على البر الآخر ، ثم رأيت حسن كاشف نفسه يركبه ليعبر النهر ، فلما بلغ الشاطىء لقينى بفتور شديد ، وقال لى « ما كان لك بالحس شأن ، فلم لم تعد بعد بلوغك سكوت؟ » ثم سألنى عما قدمت من هدايا لأخويه ، فأجبته إننى لم أقدم لهما شيئاً لأننى لا أملك شيئاً . قال « إنى لأعجب إذن كيف أخليا سبيلك وأنت لا تحمل لهما خطابات توصية » . قلت إنهما أكرما مثواى ، لا بل ذبحا لى شاة . ولم يكن هذا صحيحاً ، وإنما قصدت به التعريض بحسن كاشف لأنى لم أذق اللحم فى أثناء مكثى ببيته ، ثم دخلت المركب ، وجره عبيد الحاكم على البر إلى توماس حيث أراد كاشف التفتيش على بعض الحقول ، وهنا شهدت مثلا قاسياً من أمثلة الطغيان والاستبداد المألوفة فى بلاد الشرق ، ذلك أن حسن كاشف كان يطوف بحقل كبير فى نحو ثلاثين من أتباعه وعبيده : فأخبر صاحب الحقل أنه أخطأ بزرع حقله شعيراً ، لأن البطيخ كان يزكو أكثر منه . ثم أخذ من جيبه شيئاً من بذور البطيخ وأعطاها للرجل وهو يقول « خير لك أن تقلع الشعير وتزرع هذه البذور عوضاً عنه » . ولـكن الشعير كان قد قارب النضج ، فاعتذر الرجل بطبيعة الحال عن عدم تنفيذ ما أمر به كاشف . وهنا قال كاشف « إذن فسأزرع أنا الحقل بطيخا نيابة عنك » ، ثم أمر رجاله فوراً بتقليع الشعير وتمهيد الحقل لزرعه بطيخاً . وحمّل المركب بعد ذلك بالشعير المقلوع . وهكذا نـكب الرجل وأفراد أسرته ليوفروا لجياد الحاكم وجماله عليقاً من سيقان الشعير يكفيها ثلاثة أيام .

وعدت إلى الدر مع حسن كاشف ، ولـكنى لم أقم فيها غير ساعات . وصرفت دليلى القراريشى الأمين محمد سعد ، بعـد أن نفحته بعلاية صوفية طالما تلهف عليها . وكان رجلا طيباً ، لولا أن فيه عيباً واحداً ، ولـكنه فى الدليل يعد عيباً كبيراً . ذلك أننى ما كنت أستطيع حمـله على إخبارى بطول المسافات التى

حنقطعها أو بذكر الأماكن التي يجب أن نحط فيها للمبيت . وكنت إذا سألته عن ذلك أجابني بقوله « الله يسهل علينا ! » فإذا ألححت عليه طالباً منه جواباً صريحاً قال « الله أكبر ! إن الله قادر على أن يطيل المسافات أو يقصرها » . فهو يظن أن من التطاول على قدرته تعالى أن يتحدث عن المستقبل في شيء من الجزم واليقين ، وأن هذا قد يكون مجلبة للشؤم على الرحلة ، وهو اعتقاد كثيرين من العرب ، لذلك قل منهم من يتحدث إليك في ما ينبغي عمله دون أن يضيف إلى حديثه عبارة « إن شاء الله » . ولكن دليلي الشيخ لا يرضى بالتورط ولو إلى هذا الحد ، وكان دأبه التهرب من الحديث عما نحن مقبلون عليه . قلت له وهو يسألني اللاية الموعودة قبيل افتراقنا « الله يسهل لك » ،وهي عبارة تقال عادة للسائل إذا أريد صرفه في رفق . قال « لا ، إني أسألك أنت هذه المرة أن تسهل لي » . فنفحته باللاية وبشيء من النقود ، وأنا واثق أن أبا سعد لن ينساني قط . وقدمت غدارتي هدية لحسن كاشف وأنا استأذنه في الرحيل ، لأنني وجدتني على الجملة راضياً عن مسلكه معي . ولكنه كان معكر المزاج ، فأخبرني أنهما لا تليقان برجل من آل كاشف ، وأنه يريد غدارتين طويلتين مما يحمله المماليك في سروجهم . فوعدته بزوجهما ، وافترقنا على هذا الوعد. وقد كتبت إلى القاهرة منذ قليل في طلب الغدارتين ، وسيدهش كاشف حين يتلقاهما، فليس من المألوف في بلاد الشرق أن يذكر الناس فضلا لامرىء أصبحوا في غنى عن خدماته(*) .

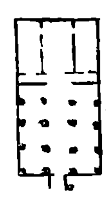
ويستطيع السائحون في النوبة أن يسافروا مطمئنين حتى وادى حلفا على الأقل مادامت مصر تتمتع بحكومة مستقرة يحترمها حكام النوبة . ولو أن في مصر حكومة لا يخشاها أبناء كاشف لما استطاع المسافر أن يتجاوز الدر ، ولجردوه هناك من ماله وردوه على عقبيه . ومهما يكن من أمر ، فلا غنى للمسافر عن التزود قبل سفره بالهدايا لا سيما إذا اتفق وجود الإخوة الثلاثة في الدر،

(*) وفي أكثر بلاد الدنيا ، بل ربما كان من أهل الشرق من هو أكثر وفاء من غيره (غربال) .

فهم شديدو الغيرة والتحاسد ، ولو أنه اختص أحدهم بهدية دون أخوية لمنعاه حتما من مواصلة سفره فى النوبة .

واستخدمت خبيراً جديداً يصحبنى إلى أسوان ، ثم عبرت النهر ثانية ، وبت على مسيرة ساعة ونصف من الدر أمام الدرئوان تقريباً ، فى كوخ بناه بعض العمال قرب ساقية .

٢٥ مارس — على مسيرة ساعة ونصف من مبيتى توجد بقعة على مقربة من النهر تسمى الحصاية كانت تقوم عليها فيما مضى قرية . وهنا توجد خرائب معبد صغير ، طول بهو أعمدته ست عشر خطوة ، وفيه ثلاثة صفوف من الأعمدة



المربعة ، وفى كل صف أربعة أعمدة مربع كل منها قدمان . وثمة صف آخر من أربعة أعمدة مستديرة ملاصقة للهيكل . وجميع الأعمدة بغير تيجان ، ونقوشها الهيرغليفية رديئة ، ورسم الدبور أكثر رسومها تكراراً . ويحيط بالبهو سور يملأ ما بين الأعمدة الخارجية من مسافات . ومن البهو يدخل الزائر الهيكل ماراً بحجرة صغيرة ، وعلى كل جانب من جانبى الهيكل حجرة فى طول الحجرة السابقة ولكنها أضيق . وليس للهيكل قدس أقداس . وجدران الهيكل مكسوة بطبقة كثيفة من الملاط رسمت عليها صور القديسين الإغريق . وقيمة المعبد فى سلامته ، إذ أنه لا يكاد ينقص شيئاً ، ولكن الرمال تراكمت حول جدرانه وأعمدته . وعلى سقف الهيكل شرفة مبلطة ، وقد بنى الإغريق قبة على البهو . وفى رأيى أن هذا هو المعبد الذى ذكره نوردن Norden وقال إنه يقع قرب عمدا . وعلى عشرين ياردة منه تجاه النهر ترى أساس بناء آخر من الحجر .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف قرية الريقة تجاه شقة على البر الشرقى .

ويستطيع المسافر أن يسلك درباً قصيراً فى الجبل من الدر إلى أسوان ، ولكننى آثرت السير مع النهر ، ورأيت الشاطىء لا يزال رمليا جداً . وكان الفلاحون قد حفروا فيه حفرة بحثاً عن كنز ، فظهرت تحت الرمال طبقة غرينية خصبة يصل سطحها إلى علو لا ترقى إليه المياه اليوم حتى فى أعلى الفيضانات . وقد أتيح لى أن ألاحظ هذه الظاهرة نفسها فى أماكن أخرى ، مما يدل على إحدى اثنتين : فإما أن قاع النهر ، أو فيضانه ، كان فيما مضى أعلى بكثير منه اليوم فى النوبة ؛ لأنه من الواضح أن هذه التربة من رواسب النهر . والشاطىء من الريقة إلى الشمال أجرد قاحل . وبعد أربع ساعات مررنا تجاه سنقارى ، وبعد خمس وصلنا قرية صغيرة تسمى المالكى ، وهى تقابل الطرف الشمالى لوادى سنقارى ، وبعد ست ونصف وصلنا أمام الطرف الجنوبى لوادى العرب ، وشاطىء النهر هنا أجرد لا ترى فيه غير نجم صغير . وبلغنا البر تجاه وادى السبوع بعد عشر ساعات ، وهنا تقوم أطلال المعبد الجميل الذى أشرت إليه فى وصف رحلتى جنوبا . وتقوم هذه الأطلال على سفح تلال منخفضة يفصلها عن النهر سهل ضيق . وأمام المعبد بوابة شبيهة ببوابة معبد القرنة بطيبة ، وطولها ثمان وعشرون خطوة ، وبين جناحيها الهرميين باب صغير يؤدى بك إلى فناء بهو الأعمدة الذى طمرت الرمال ثلثيه . وللبهو خمسة أعمدة بغير تيجان فى كل جانب من جانبيه الطويلين . وترى أمام كل عمود تمثالا ضخماً ملتصقاً به كتماثيل معبد القرنة ، ويبلغ ارتفاعه ست عشرة قدما ويشتبك ذراعاه على صدره ، ويحمل فى يد سوطاً وفى الأخرى يحمل صولجاناً . وكل

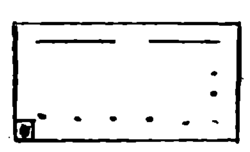
هذه التماثيل مشوه . ولما كانت جدران البوابة وبهو الأعمدة مبنية بالكتل الصغيرة من الحجر الرملى الهش فقد عفا عليها الزمن حتى لا تكاد تتبين شيئاً من الرسوم التى كانت تغطيها أصلا . على أنك تستطيع أن تميز على حائط البوابة الخارجى

رسماً لبراريوس ومعه جثتان . وأمام المدخل ألقى على الأرض تمثال ضخم لإنسان طمر رأسه وصدره فى الرمل ، ولعله كان فى الأصل يقوم على جانب البوابة كتماثيل الأقصر الضخمة . والتمثال لرجل يقف فى نفس الموضع الذى تقف فيه التماثيل القائمة أمام معبد إيزيس بأبوسمبل . ويقوم أمام البوابة ، وعلى ثلاثين ياردة منها ، تمثالان علو الواحد منها عشر أقدام ، ويبعد الواحد عن أخيه سبع خطوات ، ووجهاها إلى النهر ، ويتصل ظهراها بعمود من الحجر بالارتفاع نفسه . وليس فى التمثالين دقة ولا إتقان ، والدليل على عدم مراعاة النسب فيهما أن طول الأذن يبلغ نصف طول الوجه . ويلبس كل منهما اللبدة العالية ، ويمثل ذكراً غير ملتح . وبين النهر والمعبد طريق من تماثيل أبى الهول ، ولكن أكثرها مطمور ، وقد بقى منها أربعة إلى جوار التمثالين سالفى الذكر ، ولها — على اختلافها حجماً وشكلا — أجسام السباع ورءوس الشبان فضلا عن اللحى الصغيرة التقليدية . ولاحظت أن فى قمة رءوسها المستوية ثقباً لعل الغرض منه تهيئة مكان لتمثال صغير . وعلى مقربة من المعبد تلال من الأنقاض والشقف ، ويلوح لى أن المعبد كله موغل فى القدم ، وأن المهندسين المصريين المتأخرين شادوا المعابد المصرية على غراره ، وآية ذلك أنك تجد نظير هذه البوابة التى وصفت ، ونظير هذا البهو — بتماثيله الضخمة — فى القرنة ولكن بحجم أكبر . أما التمثالان القائمان أمام البوابة فهما مصغر تمثالى ممنون . أما تماثيل أبى الهول فترى أشباهها فى الكرنك. ولم أستطع الفراغ من زيارة هذا المعبد إلا بعد الغروب بكثير ، لذلك لم نواصل السير بعد ذلك غـــير نصف ساعة ، ثم حططنا عند كوخ رجل من عرب العليقات .

٢٦ مارس — بعد ساعة ونصف جئنا وادى المضيق ، ويقوم على ضفتى النهر . ويكثر نمو السنامكى هنا . ولم يعد بعد كثير من أهالى المضيق الذين لجأوا إلى إسنا بعد مرور المماليك بهذه الأنحاء ، وكثير منهم مات هنالك بالجدرى (*) . وبعد ساعتين ونصف مررنا تجاه وادى النصرلاب .

(*) من الحقائق الغريبة التى أكدها لى كثيرون أن الجدرى لم يفد قط على وادى الكنوز أو السهل الساحلى الضيق من الشلال إلى كرسكو . والمرض معروف فى الدر حيث يخشاه الناس كثيراً .

وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنا النوابأب ، وهى قرية خربة تواجه سيالة الواقعة على البر الشرقى . وشاطىء النيل فى هذه البقعة شقة شديدة الضيق ، والتلال الغربية واطئة رملية . وبعد خمس ساعات ونصف رأينا على التلال أطلال عدة كنائس إغريقية . وبعد سبع ساعات بلغنا المحرقة الواقعة على البرين . وتقوم على التل الصخرى المشرف على النهر مدينة صغيرة خربة بنيت بيوتها بالحجر الصغير وباللبن ، وهى أبنية عربية . وبلغنا الطرف الشمالى لوادى المحرقة بعد ثمانى ساعات ونصف ، وانبسط السهل انبساطاً ملحوظا ، فهو فى هذه البقعة أعرض منه فى أى بقعة شمالى الدر ، وإن اقتصرت الزراعة اليوم على أجزائه اللاصقة للنهر . وقد رأيت هنا أطلال معبد يتألف من رواق به أربعة عشر عموداً ضخما ذات تيجان تنوعت حجما وشكلا بتنوع الذوق فى العمارة المصرية القديمة . ويحيط بالأعمدة سور يرتبط بالدعائم المرتكزة على الأعمدة فيؤلف بذلك بهواً مسقوفا . وقد سقط الجدار القبلى بفعل هزة فجائية عنيفة فيما يبدو ، لأن الأحجار ملقاة على الأرض مداميك كما رصت على الجدار وقت بنائه ، مما يدل على أنها انهارت فجأة . ورأيت نقوشاً هيرغليفية على أحجار متناثرة . ويصل الأعمدة فى الجانب القبلى — فيما عدا عمودى الوسط — حائط منخفض لا يعدو ارتفاعه نصف ارتفاع الأعمدة ، وهذا يشبه ما تراه فى أعمدة معبد أوزيريس الصقرى الرأس



فى فيلة . وللمعبد مدخل كبير ومدخلان صغيران ودرجات ترقى بك إلى القمة . وعلى الجدران كثير من رسوم القديسين الإغريق ، ولكنك لا ترى عليها آثارا لنقوش هيرغليفية أو لرسوم كائنة ما كانت ، بل ولا قرص الشمس الذى لا يخلو منه معبد مصرى . وكذلك عطلت الأعمدة من النقوش . وقد بلغ بناء الجدران غاية الإتقان ، وعليها الكثير من النصوص الإغريقية المكتوبة بالمداد الأحمر ولكنى لم أتبين منها سوى النص التالى :

ΓΕΜΙΝΙΟϹ ΦΡΟΝΤΩΝ . . .
ΠΡΟϹΕΚΥΝΗϹΑΤΗΝ . . .
ΡΙΩΝΥΜΟΝΕΙϹΙΝ ΚΑΙΤΟ .
ΗΛΙΟΝϹΑΡΑΠΙΝ ΚΑΙΤΟΠΡΟ .
ΚΥΝΗΜΑΕΠΟΙΗϹΑΤΩΝΕΜΩ
ΠΑΝΤΩΝ ΚΑΙΤΟΥΑΝΑΓΩ
ΝΩϹ ΚΟΝΤΟϹϹΗΜΕΡΟΝ
ΕΠ-Α ΘΩ

كذلك نسخت النص التالى من على الجدار ، ولكنى أجهل كنه الحروف التى كتب بها ، ولا تتيح لى ظروفى الحالية فرصة التحقق من أمرها .

كذلك شاهدت نصوصاً عديدة بالخط الشعبى الذى تراه على البرديات المصرية .

ويقوم الرواق كله على شرفة من الأحجار الضخمة ترتفع ثمانى أقدام صوب النهر . وعلى هذا الجانب البوابة الكبرى ، ولما لم يكن هناك سلم يؤدى إليها فإنى أرجح أنها لم تكن تستعمل إلا زمن الفيضان حين تستطيع السفن أن ترسو تحتها ، أما اليوم فلا يبلغ الماء المعبد فى موسم الفيضان . وطول الرواق خمس عشرة خطوة وعرضه تسع ، وليس فى بنائه ما يشعرك بعصريته سوى بعض النخل المنقوش على تيجان الأعمدة ، ومع ذلك فإن فيه بساطة تروع الناظر ، وهو فى ظنى يرجع لأخريات عهود العمارة المصرية . وثمة أطلال بناء آخر بجوار سور الرواق ، ولعل هذا البناء معبد آخر شبيه بالأول لا جزء منه ، لأنى لم أجد تطابقا فى أجزاء البنائين ، ولم يبق من هذا المعبد الثانى سوى جدار وأساس البناء الرئيسى ، وعلى الجدار عدة نقوش ترى فى واحد منها إيزيس جالسة تحت شجرة تتقبل القرابين . والنقوش بارزة لم أر لها نظيراً فى معابد مصر ، وهى إلى النقوش الإغريقية أقرب . وهذا الاعتبار — بالإضافة إلى البساطة الإغريقية التى تطالعك فى شكل الرواق —

يحملنى على الظن بأن البنائين من صنع البطالة الذين شادوا المعابد للآلهة المصريين في بقاع كثيرة من مصر مقلدين فيها المعار المخصص لعبادتهم . ولم أر على الجدار المذكور أى نقوش هيرغليفية .

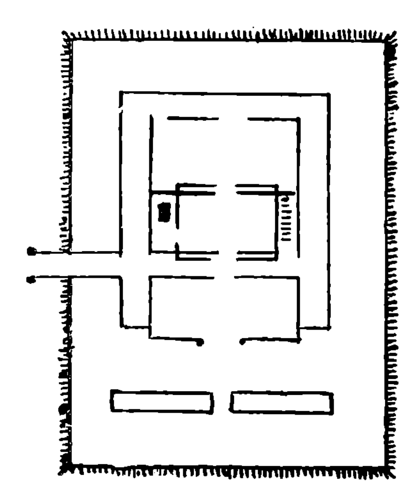
ورأيت بالمكان تلالا كبيرة من الأنقاض والشقف . ويدهش كثير من السائحين حين يرون هذه الأكوام الهائلة من الأنقاض التي يكثر فيها الفخار منتشرة في خرائب المدن المصرية القديمة . وهى في الحق مثار للدهشة لو أنها عللت بتكدس حطام الأوانى الفخارية التي يستعملها السكان في بيوتهم ، ولكنى أعزو وجودها لسبب آخر ، ذلك أن بيوت الفلاحين في صعيد مصر كثيراً ما تبنى أجزاء منها بالقواديس من الفخار يصف بعضها فوق بعض وتملط بالطين ، لجدران الحظائر ونحوها مما لا يحتاج لسقف ثقيل تبنى أجزاؤها العليا عادة بهذه الأوانى الفخارية . كذلك تجد مدماكين أو ثلاثة منها مبنية حول سطح البيت كأنها جدار واطىء يخفى الحريم حين يمشين عليه . وهم يؤثرون الفخار على اللبن لأن الجدران المبنية بالفخار أخف ولأنها أسرع بناء ، وأجمل مظهراً . زد على ذلك أنه ليس في الإمكان نقبها ليلا دون أن يحدث تساقط الفخار ضجة توقظ أهل الدار ، على حين يستطيع لصوص الليل أن ينزعوا اللبن واحدة واحدة دون إحداث ضوضاء. فإذا فرضنا إذن أن جدران الفخار كانت شائعة عند المصريين القدماء أمكننا أن نعلل وجود هذه التلال الهائلة من الفخار المحطم تعليلا معقولا . أما الحجر فكان فيما يبدو قليل الاستعمال في بناء المساكن عندهم كما هو شأنه اليوم .

وتبدأ جزيرة ضرار قرب وادى المحرقة ، وعلى ثمانى ساعات وثلاثة أرباع الساعة قرية قورتة ، ويقوم على مائتى ياردة من النهر معبد خرب هو أصغر ما رأيت من المعابد المصرية ، وتستطيع أن تسميه نموذجا مصغراً لمعبد مصرى ، فطوله لا يتجاوز عشر خطوات ، وبدن المعبد قائم وحجرة رئيس الكهنة باقية ، ولكن البهو مدفون تحت الرمل فيما يبدو . ويتبين الناظر بين النقوش أشكالا قليلة لم تبل بعد ، وقرص الشمس المجنح قائم فوق البوابة ، وفيما عدا ذلك فالمعبد في حالة

عطاب شديد . وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا ببيت شيخ فى الطرف الشمالى لوادى الدكة .

٢٧ مارس — سرنا ساعة ثم رأينا أطلال معبد من أروع ما يرى السائح من آثار وادى النيل . فى الواجهة بوابة كبيرة طولها ثلاثون خطوة ، فى وسطها باب كالذى تجده فى بوابة معبد إدفو ، وأمام الباب قطعة تحطمت من جسم أبى الهول . وليس على حائط البوابة الخارجى نقوش هيرغليفية ولا رسوم أيا كانت ، وعلى جناحيها درجات ترقى إلى القمة ، وهى شديدة الشبه فى بنائها بدرجات بوابة معبد فيلة . وتصـــل الجناحين شرفة تمتد فوق الباب ، وفى كل جناح عدد وافر من الحجر الصغيرة يقع بعضها فوق بعض من القاع إلى القمة ، وهناك رسوم ونقوش هيرغليفية على الجدار المواجه لباب المعبد وعلى جانبى المدخل.

وعلى ست عشرة خطوة من البوابة يدخل الزائر إلى البهو الخارجى ، ومدخله بين عمودين مرتبطين بجدار يعلو إلى نصف ارتفاعهما . وللعمودين تاجان شبيهان



بتيجان معبد فيلة المكشوف التى لا نظير لها فى غير هذه البقعة من مصر ، والتى وصفها « دينون » فى رحلاته وذكر أنها تدانى التيجان الإغريقية رشاقة وجمالا .
وعلى أعمدة معبد الدكة رسوم عديدة لفت نظرى من بينها رسم لعازف على القيثار .

وطول البهو عشر خطوات وعرضه سبع ، وسقفه من الكتل الحجرية الضخمة التى لا يقل طول الكتلة منها عن خمس عشرة قدما ، وثمة باب يؤدى من البهو إلى حجرة ضيقة لا يزيد عرضها على أربع خطوات(*) ويصلها بقدس الأقداس باب آخر حافل بالزخرف . وعلى أحد جانبى القدس حجرة صغيرة مظلمة فيها مقبرة عميقة رسم على الجدار من فوقها مباشرة أسد كبير ، وعلى جانبه الآخر من خلف جداره دهليز يتصل بالبهو الخارجى ، وفيه درجات ترقى إلى قمة البناء . ويبلغ مربع قدس الأقداس ست خطوات ، ومن خلفه حجرة أخرى أكبر منه قليلا، وتصلها بوابة صغيرة بدهليز ضيق يقع بين حائط المعبد وحائط حجرى سميك كان يحيط بالبناء من نواح ثلاث ، ولكن لم يبق منه اليوم سوى أساسه . ورأيت على أرض هذه الحجرة كتلة ضخمة من الجرانيت ، وهذه من الحالات القليلة التى تجد فيها الجرانيت فى معابد النوبة ، وعلى قاع الجدران ترى رسوم اللوتس المزدهر والقرابين المقدمة أمامه .

وليس فى المعبد نقوش تاريخية، ولكن جدرانه الخارجية وغرفه الداخلية كلها حافلة بالرسوم الدينية، وبعض رسوم الجدران الخارجية يرتفع إلى أربع أقدام. ورسوم الحجرات جميعها متقنة تضارع فى فنها أروع ما يستهوى السياح هرمونتيس [أرمنت] وفيلة بل إننى لأفضل رسوم الحجرة الواقعة خلف قدس الأقداس على أى رسوم فى معابد هاتين البقعتين ، فدقة الرسم وجمال التصميم لا نظير لهما فى المعابد المصرية قاطبة، وما أجدر بعض هذه الرسوم بأن يزين جدران بناء يونانى. وعلى كل جانب من جانبى الحجرة الضيقة الواقعة خلف البهو الخارجى بوابة صغيرة تفتح على الدهليز المذكور، وأمام بوابة منهما طريق يفضى إلى النهر ، وعلى ظاهر البوابة الثانية خط سطران طويلان أحدهما بالهيرغليفية ، والآخر بالخط المصرى الدارج الذى تقرؤه على أوراق البردى ، ويقع هذا أسفل ذاك مباشرة ، ويبدو أن كاتب الخطين واحد ، وفى ظنى أن السطر الثانى ترجمة للأول ، فإذا صدق هذا فلعل للنص بعض القيمة .

(*) اختصت بعض معابد النوبة بهذه الحجرة الضيقة الواقعة خلف البهو ، والتى لم أر لها نظيراً فى معابد مصر ، ولست أدرى أصواب أم خطأ اعتبارها هيكلا للمعبد .

ويلوح أن البوابة وسائر المعبد كان يحيط بهما سور من الآجر ما زالت أجزاء منه ظاهرة ، ويستطيع الناظر أن يتبين آثار الأجزاء الباقية من تحت أكوام الرمال ، وقد اتخذ المسيحيون الإغريق من هـذا المعبد كنيسة لهم ، وآية ذلك رسوم القديسين التي ما زالت ظاهرة على جدرانه . وعلى البوابة وعلى حائط المدخل يرى النصوص الكثيرة إغريقية ومصرية ، وهى نصوص كتبها زوار دفعهم حب الاستطلاع إلى زيارة المكان . وقد نسخت من النصوص الإغريقية مايلى :

ΚΑΛΛΙΜΑΧΟΣ ΕΡΜΩΝΟΣ ΣΥΝΗΛΘΟΝ
ΚΑΙΠΡΟΣ ΕΚΥΝ ΗΣΑΤΟΝ ΑΥΤΟΝΘΕΟΝ
ΕΤΟΥΣ $\overline{\text{ΛΒ}}$ ΚΑΙΣΑΡΟΣ ΦΑΟΦΙ
ΑΠΟΛΛΩΝΙΟCΑΠΟΛΛΩΝ
CΤΡΑΤΗΓΟCΟΜΒΕΙΤΟΥΚΑΙ
ΠΕΡΙΕΛΕΦΑΝΤΙΝΗΝΚΑΙΦΙΛ
ΗΛΘΟΝΚΑΙΠΡΟCΕΚΥΝΗCΑΘ
ΕΡΜΗΝΜΕΓΙCΤ

ΔΟΜΙΕΙΟCΑΡΡΙΑΝΟC
CΤΡΑΤΙCΠΕΙΡΗΒΙΤΟΥΡΑΝ
ΦΗΛΙΚΟCΚΑΙΔΟΜΙΤΙ..
ΟΥΙΟCΜΟΥCΥΝΤΩΠΑΝΤΑ
ΟΙΚΩΠΡΟCΕΚΥΝΗΟΛ
ΘΕΟΝ ΜΕΓΙCΤΟΝΕΡΜΗ
$\overline{\text{ΙΚ}}$ ΑΔΡΙΑΝΟΥΚΑΙCΑΡΟC
ΤΟΥΚΥΡΙΟΥΤΥΒΙ $\overline{\text{ΙΗ}}$

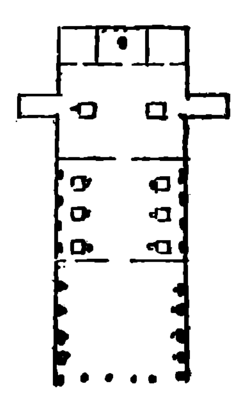
وفى ظنى أن معبد الدكة مبنى على غرار معبد فيلة ، بل إن بناءه يبدو لى أدق من بناء فيلة وإن يكن أصغر ، وهو على جانب عظيم من الأهمية لاحتفاظه بجميع تفاصيله كاملة . ولعل الدكة هى Pselcis القديمة ، أمام معبد كوبان الصغير الواقع شرقى النهر فأمامه

Contra-Pselcis . وقد احتفظ معبد قورته باسمه القديم Corti .ولابد إذن أن رواق معبد المحرقة قائم على الموضع الذى كانت تشغله Hiercsycaminon . وعلى ذلك لانجد ذكرا لمابد السبوع والحصاية وأبو سمبل وبلادها فى دليل المسافرين لأنطونينوس Antoninus .

وفى شمال المعبد ترى خرائب مدينة عربية تبينت من بينها شواهد قبور كتبت بالخط الكوفى كتلك التى رأيتها فى مقابر أسوان . وتكسو السهل تلال كبيرة من الأنقاض. وبين الدكة و بنبان — وهى قرية تقع أمام دراو على خمسة وعشرين ميلا شمالى أسوان — درب يخترق الجبل الغربى ويقطعه المسافر فى ثلاثة أيام من السفر الهين . وعلى الدرب بئر يسمونها كركر ، وينمو النخيل على مقربةمنها .

بلغنا وادى كشتمنة الواقع على الضفتين بعد قيامنا فى الصباح بثلاث ساعات .

وبلغنا وادى قرشة بعد خمس . وفى أقصى شمال هذه القرية معبد منقور فى الصخر هو نقيض واضح لمعبد الدكة الذى يجاوره ، فمعبد قرشة يرجع إلى طفولة فن العمارة حين كان الفنان يتذرع بالضخامة لا بالجمال للتأثير على الناظرين . والمعبد قائم على قمة تل تغطى سفحه العريض أنقاض وقطع تناثرت من تماثيل ضخمة . وفى واجهة المعبد رواق على كل جانب من جانبيه خمسة أعمدة مربعة قدت من الصخر ، وأمامها صف من الأعمدة المستديرة المبنية من الكتل العديدة،



وكانت فى الأصل تحمل فوقها دعامة مرتكزة عليها . ولم يبق اليوم من هـــذه الأعمدة سوى اثنان . وأمام كل عمود من الأعمدة المربعة تمثال ضخم من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعه ثمانى عشرة قدما ، ويمسك صاحب التمثال سوطاً بإحدى يديه ويرسل الأخرى إلى جانبه . والتماثيل كلها لذكور لكل منهم لحيته الصغيرة ولبدته العالية ، وعلى أكتافهم نقوش هيرغليفية . وعلى كل جانب من جانبى الرواق ممر مكشوف نحت من الصخر ، ولعل أحجار الأعمدة الأمامية قد اقتطعت منه . ويبلغ مربع بهو الأعمدة ثمانى عشرة خطوة ، وبينه وبين الرواق بوابة كبيرة وبه صفان من الأعمدة الضخمة — أو الدعائم بتعبير أصح ، لأنها بغير تيجان — وفى كل صنف ثلاثة منها ، ومساحة العمود فى الأصل خمس أقدام فى سبع . وأمام كل عمود تمثال ضخم يزيد ارتفاعه على عشرين قدماً ، ويمثل الشاب الذى تراه عادة فى هذه التماثيل وعلى رأسه اللبدة ويداه تتقاطعان على صدره وقد حمل فى إحداهما السوط وفى الأخرى الصولجان ، ورغم مافى صناعة هـــذه التماثيل من خشونة وعدم تناسب (إذ فيها من الأخطاء فى تصميم الجسم ما يفوق حتى أخطاء تماثيل معبد السبوع ، وسيقانها ليست إلا كتلا غليظة مستديرة) فإنها تروع المتأمل لها فى هذا البهو الصغير نسبياً . والحق أننى برغم ما ألفت من جلال المعابد المصرية — وقد سبق لى أن رأيت منها الكثير مما لا يضارع روعة وجلالا — فقد تملكنى شعور الإعجاب حين دخلت هذا البهو المظلم وأبصرت هذه التماثيل الماثلة واقفة أمامى فى صمتها الرهيب ، وقد ذكرتنى من فورى بما رأيت من رسوم الكهوف المجاورة لسوراط ، وبغيرها من المعابد الهندية التى كشفت عنها الحفائر ، فهى من وجوه عديدة شديدة الشبه بمعابد النوبة . وفى الجدارين الجانبيين للبهو أربع طاقات أو كوى فى كل منها ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعى للذكور والأناث الرمزيين الذين تراهم على جدران المعابد المصرية . والتماثيل الوسطى تكتسى أثواباً طويلة ، أما الباقية فعارية . وهذه وتلك يعلوها غشاء صفيق من الجص ، وكانت فى الأصل ملونة ، فلا بد أن منظرها يومئذ كان فخما رهيباً . وثمة باب يؤدى بك من البهو إلى الهيكل ، وفى وسط الهيكل عمودان ضخمان ، وعلى كل جانب من جانبيه حجرة صغيرة

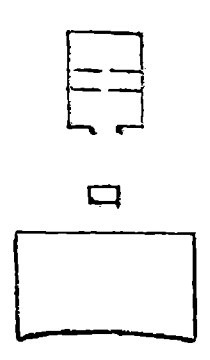
لعلها كانت حجرة الدفن . وعلى أرض كل من الحجرتين مقاعد حجرية عالية ربما كانت توضع عليها جثث الموتى ، أو لعلها كانت مناضد لتحنيط الجثث المودعة فى المعبد ، وقد حطم اللصوص أرض الحجرات بحثاً عن النفائس فأصبحت اليوم تكسوها الأنقاض . وخلف الهيكل يقع قدس الأقداس ، ويصلها بعضهما ببعض باب ، وعلى كل جانب من جانبى القدس حجرة صغيرة لها باب يصلها أيضا بالهيكل شأن حجرات معبد الدر . وفى حائط القدس الخلفى تماثيل أربعة لأشخاص جلوس بحجم يزيد على الحجم الطبيعى ، ورأيت وسط أرض القدس حجراً مخروطياً كبير الحجم لا أعرف الحكمة فى وجوده ، وجوانبه ملساء ناعمة لا أثر فيها لنقش أو كتابة ، ولعله كان قاعدة لتمثال ، أو لعله تابوت مقلوب . وقد امحى أكثر الرسوم والنقوش الهيرغليفية التى كانت تغطى جدران هذا المعبد فلم تعد العين تتبين منها إلا القليل ، وذلك لأن الحجر الرملى هش سريع البلى ، زد على ذلك ما كسا الجدران من سواد بفعل الدخان المتصاعد من النيران التى يشعلها الرعاة المجاورون للمعبد ، والذين يبيتون فيه أحياناً هم ومواشيهم . على أن فى القليل الباقى من هذه النقوش ما يحكم برداءة صنعتها . والتماثيل الضخمة سليمة ، خصوصاً ما كان منها فى بهو الأعمدة ، أما تماثيل الرواق فمشوهة .

وبينما كنت أفحص الحجر الداخلية فى المعبد على ضوء شمعة — لأن الضوء لا يصلها إلا من الباب الخارجى — لحق بى شيخ قرشة فى حجرة رئيس الكهنة ، وكان قد أسرع خلفنا حين رآنا ميممين شطر المعبد . وسألنى أن أقاسمه الكنز الذى عثرت عليه ، أو على الأقل أن أعطيه حفنة منه ، ولكنه قنع بشمعة نفحته بها . وأرانى المكان الذى زعم أن الإنجليزيين (مستر لى ومستر سملت) قد عثرا فيه على كنز عظيم نقلاه على مركبهما ، وأكد لى أن أحد الفلاحين قد رأى الذهب بعينه! ومثل هذا يروى ويذاع ، ويقسم على صدقه كل فلاح . والعجيب أن المصريين ، على الرغم من طول مكث الفرنسيين فى بلادهم ومرور السائحين بهم باستمرار ، ما زالوا يعتقدون أن المعابد القديمة لا يقصدها الزائرون إلا بحثاً عن الكنوز الدفينة فيها .

ولست أدرى هل قرشة ، أو دررور التى تقع شمالها ، هى Tutzis القديمة ويسمى الأهالى البقعة التى يقوم عليها المعبد المذكور جرف حسين .

وإلى الشمال من قرشة يضيق الشاطىء كثيراً ، وقد ركبنا فوق الجبل الصخرى الذى يكتنف النهر فبلغنا مارية بعد ست ساعات من الدكة ، وهنا قضينا ليلتنا . وليس فى مارية غرب سوى بضع أسر ، أما قرشة غرب فآهلة بالسكان .

٢٨ مارس — بعد أن ركبنا ساعة ونصفاً على الشاطىء الضيق جئنا وادى غربى دندور وقد أدهشنى أن أرى فيه أطلال معبد آخر ، لأن الشاطىء هنا من الضيق بحيث لا يحتمل قيام مدينة ذات شأن، فعرضه من سطح التلال الصخرية إلى حافة النهر لا يعدو ثلاثين خطوة .



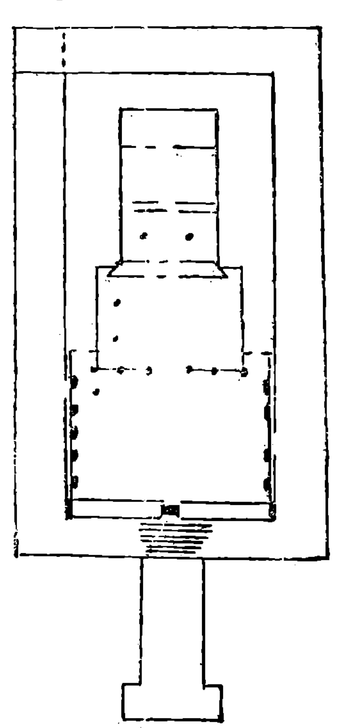
وأمام هذا المعبد بوابة صغيرة ذات إفريز عال بارز شبيه بما ترى فى معبد دندرة . ووراء البوابة بهو الأعمدة ، وبواجهته عمودان كعمودى معبد الدكة ، وطوله سبع خطوات ، ثم يدخل الزائر إلى الهيكل ومنه إلى قدس الأقداس ، وعلى جدران القدس نقوش قليلة . وقد لفت نظرى بين نقوش جدران البهو رسم نبات اللوتس المزدهر — الذى تراه على معبد الدكة — وأشخاص يقدمون أمامه القرابين . وعلى جدار المعبد الخارجى رسوم شبيهة برسوم معبد دندرة ، وقد أعجبنى منها رسم جميل لهورس وقد وضع أصبعه على شفتيه . وبناء هذا المعبد فى جملته فى غاية الإتقان وإن تأخر عهده فى ظنى عن العهد الذى بنى فيه معبد فيلة ، لأن فى عمارته ونقوشه قصوراً ظاهراً عن عمارة معبد فيلة ونقوشه . وأمام البوابة صوب النهر

فناء ذو سور حجري طوله خمس وثلاثون خطوة وعرضه خمس عشرة ، وأحجاره خشنة من الظاهر مصقولة من الداخل. وارتفاع الحائط المواجه للنهر خمس عشرة قدماً ، ويمتد بانحناء خفيف . وأرض الفناء التي تغطيها اليوم الأحجار والأنقاض أكثر انخفاضاً من المستوى الذي بنيت عليه البوابة والمعبد . ولست أدري أكان هذا الفناء مخصصاً للمواكب الدينية أم لأشغال النحت ، فإنني لم أر له نظيراً في جميع المعابد المصرية . ووجود الأحجار والأنقاض فيه يحمل على الظن بأنه كان في الأصل مسقوفاً . وخلف المعبد مباشرة ترى مغارة منقورة في الصخر .

وبعد ساعتين وصلنا مرواو، ولا يتجاوز عرض الشاطىء في أي جزء من من أجزاء هذا الوادي خمسين ياردة ، ولكنه زكي الزرع . ومرواو يتبع وادي غربي دندور .وبعد أربع ساعات ونصف وصلنا أبو هور وقد قطع في الصخر جنوبي هذه البقعة بقليل خزان له مخرج ينحدر منه الماء إلى حوض منخفض صغير . ويحار المرء في الغرض المقصود منهما مع أن النهر قريب جداً إليهما . ويرى السائر أرصفة كثيرة تمتد في النهر ، وهي دليل على حرص السكان الأقدمين على المحافظة على الأرض الصالحة للزراعة وزيادتها في هذه البقعة . وفي النهر هنا جزائر صخرية ، وفي سفوح التلال الغربية اللاصقة لمرواو وأبو هور محاجر صغيرة وأسس أبنية حجرية أثرية . ويبني النوبيون اليوم أكواخهم الحجرية ، كما كان يفعل أجدادهم الأقدمون ، على سفوح الجبال إذا ضاق الشاطىء خشية أن يجوروا على الأرض الزراعية . أما في البقاع التي ينبسط فيها السهل فإنهم يبنون مساكنهم من اللبن ويقيمونها وسط السهل . وتنمو على طول الشاطىء أشجار النخيل والسنط بشتى أنواعه . وهو يثمر في الربيـــع ثماراً مرة تشبه الخروب في شكلها ، يجمعها العرب ويبيعونها للتجار المصريين الذين يستعملونها في دبغ الجلود ، واسمها القرض . وينمو الكثير منها في أرباض أسيوط ، وهو من نوع أجود ، ومن أجله اشتهرت مدابغها شهرة كبيرة

ركبنا وئيداً ست ساعات فبلغنا كلابشة ، وهي أكبر القرى الغربية بين أسوان والدر . وفي أسفل التل القائم وسط القرية أطلال معبدها تمتد إلى النهر . وتتألف واجهة المدخل من بوابة كبيرة هي في غاية الجمـــال والبساطة ، وفي

وسطها باب ينفذ منه الزائر إلى الرواق ، وكان على طول حائطه الجانبي صف من الأعمدة لم يبق منه غير عمود واحد قطره ثلاث أقدام وثلاث بوصات ، أما الأعمدة الأخرى فبقاياها ملقاة على الأرض ، وعلى كل جانب من جانبي الرواق دهليز مظلم ضيق متصل بالرواق ، وله باب يفتح على المنطقة المحيطة بالمعبد ، وهو يواجه بوابة كبيرة في حائط السور الخارجي . أما واجهة بهو الأعمدة فتحليها أربعة أعمدة جميلة ودعامتان ، ويصل الأعمدة بعضها ببعض حائط يعلو إلى نصف ارتفاعها على نحو ما ترى في معابد المحرقة والدكة ودندور وقرتاس ودبود ، ويبدو أن هذا الطراز من العمارة كان فاشياً وقت بناء معبدى دندرة وفيلة . وقد سقط سقف البهو ، وأحجاره اليوم منتشرة على أرضه ، ولم يبق من الأعمدة التي كان يرتكز عليها سوى اثنين ، ولم أر على البوابة ولا على بهو الأعمدة نقوشاً أيا كانت ، اللهم إلا على حائط البهو الخلفي ، أو قل حائط الهيكل الأمامي ، وأهمها عليه رسم لبرياريوس ذى الرأسين ، ومن فوقه يد خصمه الظافر ، وأوزيريس يحميه .



وطول الهيكل خمس عشرة خطوة وعرضه تسع ، وعقد أقداماً في البهو مكونا

ما يشبه الحجرة القائمة بذاتها في وسط المعبد ، وهو أسلوب في العمارة لحظته في معبد الدكة ثم في معبد فيلة . وفي داخل الهيكل عمودان واطئان . ورأيت في قدس الأقداس حطام أعمدة ملقاة على الأرض ، ولم أر مثل هذا في قدس أي معبد مصري . وفي جدران القدس فجوات مظلمة واطئة ، ونوافذ أو كوى كتلك التي تراها في معبد دندرة ، وسقفه من كتل حجرية تمتد بعرضه ، وسمكها يزيد على ثلاث أقدام . وخلف القدس حجرة شبيهة بما في معبد الدكة ، ويصلها به بابان . وقد سقط سقف الحجرة ، ولكن الزائر يستطيع الحكم بأن هذه الحجرة كانت أوطأ من القدس ، وأن حجرة أخرى كانت مبنية فوقها . وفي جدران هذه الحجرة فجوات عديدة تؤلف الفجوة منها خلوتين واحدة وراء الأخرى ، ويفصلها باب ضيق ، ولا تتسع الخلوة إلا لشخص واحد ، والخلوتان تنغلقان من أمام بحجر يمكن رفعه عند الحاجة . ولعل هذه الحجر الصغيرة كانت زنزانات يحبس فيها المتمردون من القساوسة ، أو صوامع يوضع فيها الراغبون في احتراف الكهانة تحت الاختبار . وشاغل الحجرة فيها كان رهين محبسها بكل معنى الكلمة ، فإنك لن تجد فيها ــ بعد أن تثبت الحجر الخارجي في موضعه منها ــ ما يشعر بوجود فجوة خلف الحجر . وقد لحظت داخل حجرة منها حجراً مجوفاً لعله تابوت ، ولكنني لست واثقاً من هذا .

وجدران الهيكل وقدس الأقداس تكسوها الرسوم التي ما زالت ألوانها محتفظة برونقها أكثر من رسوم معبد فيلة ، والفضل في هذا راجع إلى طبقة الملاط التي كسا الاغريق بها الجدران ليرسموا عليها صور قديسيهم ، ولكن أكثر هذه الطبقة تساقط . والألوان الغالبة في رسوم المعبد هي الأحمر والأزرق والأخضر والأسود . وقد لون أوزريس الصقرى الرأس ، الحامل العكاز في إحدى يديه ، بلون أخضر قاتم ، وطليت نسوة ممسكات بأزهار اللوتس بلون أسود ، أما الثياب المخططة الملونة التي يرتديها أوزريس ذو التاج فزاهية براقة . والشعر في كل هذه الرسوم أسود اللون وإن يكن في بعضها أزرق . وتملأ النقوش الهيرغليفية الحمراء اللون ما بين هذه الرسوم من فراغ . وفي أسفل جدران القدس الجانبية رسوم لأفراد بجانب كل منهم حيوان ، وهو إما ثور أو غزال أو إوزة . وعلى جدران المعبد

الخارجية رسوم لأشخاص بالحجم الكبير ، وهي شبيهة برسوم دندرة وإدفو وإن لم تبلغ ضخامتها ، وصنعتها خشنة لا تتناسب مع جمال النقوش التي تراها في داخل الحجر وتبرز رءوس أبي الهول من جدران المعبد على نحو ما ترى في معبد دندرة ، ولعل الكهنة كانوا يذيعون منها نبوءاتهم على الناس .

هذا وقد مدّت جدران الرواق بطول المعبد كله ، ويقطعها جدار مستعرض في مؤخر الحجرة الواقعة خلف قدس الأقداس ، فقام بذلك سور عال يحيط بالمعبد ، وعلى نحو عشرين قدم منه سور خارجي يحتوى البناء كله بين جدرانه ، ويصل هذا السور الخارجي إلى سفح التل الذى نحت نحتاً رأسياً ليكون الحائط الخلفي للسور . وفي الزاوية الجنوبية الغربية من المنطقة التي تخلفت حول المعبد بهذه الطريقة مربع تؤلف ضلعاً من أضلاعه ثلاثة أعمدة ، ويؤلف الضلع الداخلي المجاور لهذا جداراً قصيرا يقطع المنطقة عرضاً . وهنا نحتت في الصخر العمودي مغارة أو مقبرة ـ على نحو ما رأيت خلف معبد دندور — هي حجرة واحدة لا يحليها من النقوش غير رسم الشمس المجنحة على بابها . ويهبط الزائر من البوابة بضع درجات إلى شرفة مبلطة تمتد إلى أساس بناء مستطيل يقع فوق النهر مباشرة ، وترى فيه بقايا أعمدة . ولعل زوار المعبد زمن الفيضان كانوا ينتقلون من سفنهم إلى هذا البناء مباشرة .

وهذا المعبد ، هو ومعبد الدكة ، من أثمن آثار مصر القديمة . ومعبد كلابشة . شبيه وبعدّ في موقعه بمعبدى دندرة وأدفو ، وقد بني في أزهى عهود العمارة المصرية ، وإن كان ببعض أجزائه آثار إهمال وعجلة لا نجدها في المعبدين المذكورين . وبناء الجدران في غاية الإتقان ، وتحمل العمد المتخلفة تيجاناً كتيجان معبد فيلة ، لكنها دونها أناقة ودقة .

وقد حول الإغريق هذا المعبد كنيسة ، ولا تزال الجدران تحتفظ بصور كثيرين من قديسيهم . وقد نسخت النص التالي من رواق المعبد .

وعلى ربع ساعة من المعبد يقوم في شماليه الغربي معبد صغير منحوت في الصخر . والطريق إليه وسط أطلال المدينة القديمة وبين تل من الأنقاض والحجارة

ΕΠΑΓΑΘΩ ΚΥΡΙΕ
ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜ. ΟΔΕ
ΓΑΙΟΥ ΚΑΣΙΟΥ ΚΕΛΕΡ
ΟΣΙΠΠΕΟΣ ΧΩΡΤΗΣΑ
ΘΗΒΑΙΩΝ ΠΠ ΠΚΗΣ
ΤΥΡΜΗΣ ΚΑΛΛΙΣΤΙΛΟΥ
ΚΑΙ ΤΟΥ ΠΑΙΔΙΟΥ ΑΥΤΟΥ
ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΒΑΣΚΑΝΤΩΝ
ΑΔΕΧΦΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΥΤΟΥ
ΠΑΝΤΩΝ ΠΑΡΑ ΤΩ ΚΥΡΙΩ Α.Ν
ΔΟΥΛΙ ΚΑΙ ΤΟΥ ΠΠΟΥ ΑΥΤΟΥ
ΣΥΜΕΡΟΝ.

يمتد ميلا وربع الميل على شاطىء النهر . وأمام المعبد ساحة مكشوفة — نحتت هى أيضاً من الصخر — ومنها تدخل إلى الهيكل ، وطوله ثلاث عشرة خطوة وعرضه ست ، ويرتكز سقفه على عمودين مضلعين ، وفى جدرانه طاقتان صغيرتان فى كل منهما ثلاثة تماثيل . وبجانب الهيكل قدس الأقداس ، وهو حجرة صغيرة محيطها ثمانى أقدام . والرسوم والنقوش الهيرغليفية الجدارية شبيهة بنقوش معبد الدر فى خشونتها . وتتكرر مجموعة برياريوس على جانبى المدخل(*) . وعلى جدران الساحة الأمامية المكشوفة نقوش تصور موضوعات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية ، فترى على جانب الجدار معركة تدور رحاها ، وترى القائد الظافر يركب عجلة يجرها جوادان مطهمان ينهبان الأرض نهباً — وهو المنظر الذى تراه فى معبد الكرنك — وهو يسوق أمامه أعداءه المدحورين الهاربين إلى بلد يزخر

(*) يلاحظ أن شعر برياريوس — فى رسومه الموجودة على معابد النوبة — محلوق على طريقة العرب والنوبا ، وأنه يلبس قرطاً فى أذنيه كما يفعل النوبا والمحس تماماً . ولعل الأصل فى برياريوس هذا شيخ كبير من شيوخ القبائل الصحراوية أوقع به فرعون الهزيمة ثم صوره الكهنة وحشاً متعدد الرؤوس ، وهذا يطابق قولا يردده الشرقيون فى معرض الكلام على لصوص البدو ، وهو « اقطع راس الواحد تطلع مابة عوضه » .

بأشجار الفاكهة مختلفة الأشكال والحجوم ، ولبعض هذه الأشجار أوراق كبيرة مستديرة ، وتتدلى فيها عناقيد الفاكهة وتقفز القردة بين أغصانها ، وخلف عجلة القائد المظفر عجلتان على غرارها ولكنهما أصغر ، يجر كلا منهما جوادان منطلقان كالريح ، وفيها امرأة واقفة منتصبة القامة وأمامها سائق ممسك بأعنة الجياد ، وفى جانب آخر من هذا الحائط موكب النصر يمر أمام أوزيريس الجالس على العرش ، فترى أولا رجالاً عراة الأجساد يحملون على مناكبهم كتلا كبيرة من خشب لعله الأبنوس(*)، ويسوق أحدهم تيساً برياً ، ويحمل ثان نعامة ، ويمسك ثالث درعاً كبيرة فى يد وغزالا فى الأخرى ، ويأتى رابع بقرد أمام الحضرة الملكية . ثم يلى هؤلاء رجل يحمل كتلة من الخشب الثمين كالكتل السابقة ، ويسوق أمامه جاموستين كبيرتين . ويختتم الموكب بزرافة طويلة معها سائقها ومن خلفهما أسيران عاريان إلا من جلد وحش يلفانه على الخاصرة . وفوق هذا القسم مباشرة قسم آخر من الحائط ترى عليه رسم أسد كبير وحارسه ، وترى حيواناً آخر فى حجم التيس الكبير وله قرنان مستقيمان طويلان ، ثم زوجاً من الجاموس . وتجاه هذين القسمين ترى الملك وبين يديه أكوام من الكنانات والسهام وأسنان الفيلة وجلود الوحوش وفرائها ، وصف من القرع لعله كان يحتوى على دهن وعطور ثمينة . وعلى شطر من الحائط المقابل رسم الملك جالساً ، وقد جىء بين يديه بأسرى ملتحين مغلولى الأيدى ، وتستطيع أن تميز بينهم صفاً من الجوارى لابسات أردية طويلة وغطاء عالياً للرأس كهذا يطرحن الرداء من فوقه . وفى جانب آخر من الحائط ملاصق لهذا ترى أسيراً يضحى به ، وعلى مسافة منه لوحة لمعركة صور فيها الهجوم على قلعة العدو والاستيلاء عليها ، فترى رجلا ممسكا ببلطة يحاول أن يفتح ثغرة فى الأسوار ، وترى بعض جنود الحامية يلقى بهم من فوق الأسوار ، بينما يؤتى بالباقين أسرى . وقد نقشت كل هذه الموضوعات نقشاً غائراً دقيقاً لم أر له ضريباً بين النقوش التاريخية التى شهدتها فى معابد وادى النيل ، بل

(*) رأيت فى إحدى الحجرات الصغيرة بمقبرة من مقابر الملوك بطيبة ، بين رسوم الأثاث المصورة على الجدران ، كومة من الكتل الخشبية شبيهة فى شكلها بهذه ، مما يدل على أنها كانت تستعمل فى صناعة أفخر الأثاث .

إنها تبدو أكثر حيوية من نقوش طيبة ، وتتميز صور الحيوان على الأخص بالأمانة والدقة ، وتتضح أهمية هـذه النقوش حين يتأمل المرء الموضوعات التى صورتها ، فهى سجل لحقيقة تاريخية لم يرد ذكرها فى أى معبد مصرى آخر ؛ فقد حمـل فرعون ألويته إلى بلد تسكنه الأسد والزراف والقردة والفيلة ، وهى حيوانات لا تعيش فى النوبة أو دنقلة ، فالفيل والزراف يسكنان ضفاف النيل عند سنار والغابات الواقعة على حدود الحبشة وضفاف عطبرة[1] والنيل الأزرق[2] التى تجلب منها اليوم أيضاً لمصر أجمل الجوارى وأغلاهن ثمناً ، فهذه الغنائم كلها تشير إلى أن المعارك لا بد قد دارت فى البـــلاد الواقعة جنوبى إقليم مروى القديم المتحضر ، لأن الأسرى اللابسين جلود الوحوش دليل على أن العدو أمة متوحشة . أما مناظر المعـــارك التى تراها على معابد طيبة ـ سواء فى الأقصر أو الكرنك ـ فيبدو أنها تشير إلى ميادين حربية أقرب من تلك . أفلا يجوز أن تكون القلاع المرسومة على هذا المعبد ذات صلة بجزائر بطن الحجر التى كان بها حصون ترى من مخلفاتها الأطلال الكثيرة من الآجر ؟ ومظهر رءوس المحاربين (التى اختلطت على البعض فحسبوا شعورها المحلوقة طواقى) ، ولحاهم القصيرة الرقيقة المرسلة تحت ذقونهم .. كل هذه سمات يتميز بها أهل نوبا الذين لم تبلغ سمرتهم درجـــة السواد ، إنما هى سمرة نحاسية قاتمة يؤثر الرسام الذى لم يحذق مزج ألوانه أن يعبر عنها بالحمرة الداكنة لا بالسواد . وليس من العسير أن يتصور المرء أن سكان المناطق الجدباء فى النوبة وبطن الحجر كانوا يتطلعون إلى خيرات مصر وثرائها بعين الحسد ، فكانوا يغيرون الفينة بعد الفينة من حصونهم على أقاليم مصر المجاورة جالبين عليهم بذلك سخط ملوك طيبه ونقمتهم .

والمعبد الصغير الذى أوردت وصفه يسميه الأهالى بيت الوالى ، ويتعذر على المسافر فى النيل أن يراه إلا إذا استفسر عنه . وفى التل المجاور له المحاجر التى اقتطعت منها الأحجار لبناء المدينة ومعبدى كلابشه . ولا ريب فى أن هذه المدينة هى تلميس

---

(١) Astaboras

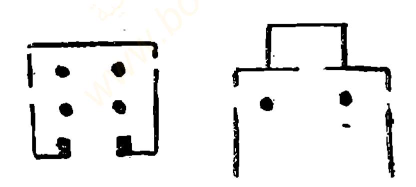
(٢) Astabus

Talmis القديمة ، وتدل تلال الأنقاض القائمة على البر الشرقي على آثار المدينة القديمة المواجهة لها Contra-Talmis ، ولا بد أن تلميس هذه قد أثرت من التجارة لا من الزراعة ؛ فالوادي بقربها لا يتجاوز عرضه الأربعين ياردة ، ولعل تجارة البلح كانت في القدم — كما هي اليوم — مورد رزق هام يعتمد عليه النوبيون الساكنون وادي النيل من حلفا إلى فيلة . كذلك كان من اليسير جنى أرباح طائلة من مرور السفن المحملة بالبضائع من مروى ، ولعل أصحاب هذه البضائع كانوا يفرغونها في سكوت ويحملونها على ظهور الإبل في بطن الحجر ، على أن الراجح أن الجانب الأكبر من البضائع التي كانت تحمل من هذه المدينة القديمة إلى مصر كان ينقل براً بالطريق الذي تسلكه اليوم قوافل سنار . ولو أنه كان ينقل بالنيل لوجدنا في ظني بقايا مدن تجارية عند طرفي بطن الحجر لتفريغ البضائع وشحنها ثانية ، وذلك لاستحالة الملاحة في هذا الإقليم الوعر . وإذا ذكرنا الجنادل التي تعترض النهر في بلاد الشايقية ، وفي جنوبي دنقلة ، وفي كوكا والمحس ، وفي وادي دال وبطن الحجر ، وذكرنا أن المسافة من القوز إلى الدر ، بطريق دنقلة سيراً مع النهر يستغرق قطعها خمسة وعشرين يوماً في حين لا يستغرق الطريق الذي تسلكه قوافل العبيد عبر الجبل سوى ثمانية أيام ، لظهر لنا أن القوافل القادمة من الجنوب كانت على الأرجح تهبط وادي النيل تجاه أبو سمبل ، حيث يمكن استئناف الملاحة في النيل شمالا (*) .

وقفنا بعد بيت الوالي بقليل لنقضي الليل في قرية تابعة لكلابشه ، تجاه جزيرة دارموت ، واسمها فرطوم ، بعد أن ركبنا في يومنا ست ساعات ونصف . وأمطرت السماء وابلا في الليل ، فأصابني أنا ودليلي برد شديد ، واشتد علينا قيظ النهار بعد أن كان الجو معتدلا جدا في رحلتي صوب الجنوب ، وأثرت فينا تلك الطفرة التي أحدثها هطول المطر في الجو ، فنقلتنا فجأة من وقدة الصيف إلى زمهرير الشتاء .

(*) النقل البري رخيص رخص النقل البحري في البلاد التي تكثر فيها تربية الإبل. فنقل حمل من البضائع وزنه من سبعمائة رطل انجليزي إلى سبعمائة ، من بغداد إلى حلب — وهي مسافة تبلغ ستمائة ميل — يكلف أربعة جنيهات إنجليزية . فكم يكلف شحن سبعة قناطير بحراً ، من لندن إلى حلب ؟

٢٩ مارس — ارتقينا الجبل الذى يقطع الطريق المحاذى للنهر . ورأيت على قمته حطام أعمدة وتيجان مصرية صغيرة جداً على مقربة من بعض المبانى العربية ، ولم أر بجوارها أى بناء أثرى . والصخور فى السفح الجنوبى للجبل من الجرانيت والفلسبار ، أما فى السفح الشمالى فمن الحجر الرملى . وبعد ساعتين عدنا إلى النهر ثانية عند قرية طافية ، قرب البقعة التى عندها يبرز الصخر عمودياً فى الماء . وهنا توجد أطلال معبدين صغيرين . ويتألف أحدهما من حجرة مربعها عشر خطوات تهدم سقفها وأحد جوانبها ، وما زال بالحجرة عمودان قائمان قطر كل منهما قدمان ، ولهما تاجان يمثلان سعف النخل . وكان يجاور هذه الحجرة قدس الأقداس الذى تهدم فلم يبق منه غير أساسه ، وترى على مدخله قرص الشمس المجنح الذى لم أر سواه من رسوم أو نقوش هيرغليفية . وقد رسم الإغريق قديسيهم على جدران هذا المعبد كغيره من المعابد ، كذلك ترى عليها نقوعاً إغريقية ، نصوصاً رديئة الخط .



أما المعبد الثانى فحجرة مربعة صغيرة ، وهى سليمة لم تهدم ، وبها ستة أعمدة شبيهة فى حجمها وشكلها بعمودى المعبد السابق . وليس بالمعبد نقوش سوى قرص الشمس المجنح . وإلى جوار المعبدين انتشرت أطلال بيوت السكان الأقدمين ، وجدرانها سميكة مبنية بالحجر بناء جيدا . وقد أكثر النوبيون من استعمال الحجر فى بنائهم عوضاً عن الآجر لأنه كان فى متناولهم .

ويزعم فلاحو طافية (ولا بد أنها Taphis القديمة) أنهم سلالة المسيحيين القلائل الذين كانوا يسكنون المدينة ، والذين اعتنقوا الإسلام حين فتح المسلمون البلاد ،

أما معظم إخوانهم فقد لاذوا بالفرار أو قتلوا . وما زالوا يدعون « أولاد النصارى » إلى اليوم وعلى الضفة الشرقية أطلال تخلفت من طافية شرق Contra Taqhis

ومن طافية إلى دهميت شمالا يطلق على الوادى اسم وادى أمبركاب . وعرب أمبركاب عشيرة من الكنوز . وتغزر السنامكى فى الحقول غير المزروعة فى هذا الوادى . ومررنا بمرواو بعد ثلاث ساعات ، وبقرتاض بعد أربع . وهنا يرى المسافر بجوار النيل سوراً حجرياً كبيراً يبلغ طوله مائة وثلاثين خطوة وعرضه مائة . وتنتشر فى نطاقه أكوام من البيوت الحجرية المتهدمة . ويدخل المرء إلى هذا الفناء من بوابة كبيرة شبيهة بالبوابة التى تقوم على واجهة المعبد القريب من مرواو . ويبلغ سمك الأسوار نحو عشر أقدام ، وعلى سطحها من الجانبين أحجار منحوتة ، أما وسطها فقد حشى خليطاً من النقارة لا يمسكه ملاط ، ولا شك أن هذه الأسوار بنيت دفاعاً عن البلاد ، ولعل هذه كانت محطة من محطات الرومان التى أقاموها ليدفعوا هجمات البليميس . وقد حاولت عبثاً أن أجد عليها آثار رسوم أو نقوش هيرغليفية . وعلى نحو ميل إلى الشمال نرى على قمة تل أنقاض معبد شبيه فى بنائه بمعبد أوزيريس الصقرى الرأس فى فيله . ولم يبق من المعبد إلا الرواق ، وكان يتألف أصلا من ثمانية أعمدة بقى منها ستة ، وهناك حائط ربط هذه الأعمدة بعضها ببعض ربطاً جزئياً ، وارتفاع الحائط نصف ارتفاع الأعمدة ، وهو يحيط بها جميعاً . ولم يبق من أحجار السقف غير حجر واحد لا يقل طوله عن ست عشرة قدما ، ويمتد بعرض المعبد كله ، ويرى الزائر أربعة من هذه الأعمدة ما زالت محتفظة بمتبها من فوقها ، وتاجا العمودين الباقيين عبارة عن أربعة وجوه لإيزيس وعلى رأسها الغطاء الذى تراه فى دندرة بذاته ، ولكنها تبدو هنا أصغر سناً وأقل وجوما ، ولها آذان غريبة المنظر هذا شكلها ، وهناك رسم محفور على عمود واحد فقط . أما الأعمدة الباقية فتحمل آثار نقوش هيرغليفية حائلة .

وهناك محاجر واسعة للحجر الرملى إلى الجنوب الغربى من التل الذى شيد عليه المعبد المذكور ، وهى ملاصقة للنهر ، ولعل هذه المحاجر هى التى اقتطعت منها الأحجار التى بنيت بها معابد فيلة ودبود Parembole المشيدة بالحجر الرملى ،

فالصخور فى هاتين المنطقتين جرانيت خالص ، وفيما أنا أنتقل بين المحاجر لقيت موضماً اقتطعت فيه من جانب الصخر المسوى كوة فيها مقعد حجرى لعله كان قاعدة لتمثال ، ومن فوق الكوة نقشت أقراص الشمس المجنحة ، ويبدو أن الكوة قد استخدمها المصريون الأقدمون أولا ، ومن بعدهم الإغريق الوثنيون ، ثم الإغريق المسيحيون ، مزاراً يؤمونه لرفع صلواتهم لله ليحافظ عليهم وعلى أصدقائهم. وعلى جانبي الكوة نقشت رءوس القديسين الإغريق على الصخر. كذلك رأيت رسوم أشخاص كاملة ، ورءوساً لأبي الهول لا يزيد طولها على ثلاث بوصات أو أربع ، ولعلها تمثل رءوسا من الذهب أو الفضة كانت تقدم قربانا للآلهة الوثنيين . والصخرة المجاورة للكوة تحفل بالنصوص المصرية والإغريقية . وقد اخترت من بين النصوص الإغريقية – وهي أكثر من المصرية – هذه النصوص التالية لأهمية مضمونها عما عداها:

ΕΤΟΥC ΙΓ ΤΩΝΚΥΡΙΩΝ
ΑΥΤΟΚΡΑΤΟΡΩΝCΕΟΥΗΡΟΥ
ΚΑΙΑΝΤΩΝΙΝΟΥΕΥCΕΒΩΝ
CΕΒΑCΤΩΝ

ΤΟ ΠΡΟCΚΥΝΗΜΑ CΗΝΕΠΡΟ
ΤΑΙΟΥΔΙΟCΚΟΡΟΥΜΑΚΡΕΙΝΟΥ
ΙΕΡΕΥCΤΟΜΟΥΗΕΤΑΤΗC
CΥΜΒΙΟΥΚΑΙ ΤΩΝ ΤΕΚ
ΝΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΦΙΛΟΥΝ
ΤΩΝ ΚΑΙ ΠΕΤΕ ΤΑΙCΙCΗ
ΧΥΑΚΙ — ΕΠΑΓΑΘΩ

ΤΟ ΠΡΟC ΚΥΝΙ ΜΑ ΑΥ
ΡΗΛΙΟΥCΩΤΗΡΟCΤΟΥ
ΚΑΙ ΤΟΥC ΤΟΥCΥΕΡΓΕ
ΤΗ ΔΕΙC ΥΠΟ ΤΗCΚΥ
ΡΙΑC ΜΗΡΟΝ ΗΜΟΥ
ΙCΙΔΟC ΘΕΑC ΜΕΓΙ
CΤΗC ΚΑΙ ΙΕΡΕΥCΤΟΜΟΥ ΕΤΟΥC
ΚΒ ΦΑΡΜΟΥΘΙ Γ ΕΠΑΓΑΘΩ

ΕΤΟΥϹ Α // ΑΝΤΩΝΙΝΟΥ
ΤΟ ΠΡΟϹΚΥΝΙΜΑ ΑΠΟΛΛΩΝΙΟΥϹΩ
ΤΗΡΟϹ ΒΟΥΛΕΥ ΤΟΥΚΑΙ ΤΗϹΜΗΤΡΟϹ
ΚΑΙ ΤΗϹϹΥΝΒΙΟΥΚΑΙ ΤΩΝ ΤΕΚΝΩΝ
ΚΑΙ ϹΩΤΗΡΟϹΥΙΟΥ ΙΕΡΩϹΓΕΝΟΜ
ΕΠΕΜΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΔΕΛΦΩΝ ΚΑΙΤ-
ΚΤΗΝΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΕΡΓΟΝ ΜΟΥ ΠΑΝ
ΤΩΝ ΑΓΑΘΩϹ ΚΑΙ ΠΑΜΕΧΗΜΙΟϹ
ΠΡΟϹ ΤΑΓϹΗΓΟΜΟΥΚΑΙΤΙΘΟΗΓΟϹ
ΦΟΙΒΗΤΟΥ ΦΙΛΟΥ. . ΦΑΜΕΝΩΘ ΚΖ

ΕΤΟΥϹϹ // ΤΩΝ ΚΥΡΙΩΝ
ΗΜΩΝ ΦΙΛΙΠΠΩΝ ϹΕΒΑϹΤΩΝ
ΠΑΧΩΝ ΚϹ ΤΟ ΠΡΟϹΚΥΝΗ
ΜΑ † ΕΝ ΤΟΥ ΑΖΙΟϹ ΤΟΥ ΚΑΙ
ΠΑΝΟΥΡΙΟϹ ΑΙ ΙΕΡΕΩϹ ΓΟΥ
ΤΟΜΟΥ ΚΑΙ ΤΗϹ ϹΥΜΒΙΟΥ ΚΑΙ
ΤΩΝ ΥΙΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΠΟ ΤΟΥ
ΤΟΜΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΦΙΛΟΥΝΤΩΝ
ΑΥΤΟΝ ΓΩ ΠΡΩ ΤΩ ϹΟΜΩ
ΕΙΚΟϹΙ ΧΡΥϹΑ ΤΩ Β ΧΡΥϹΑ
ΤΡΙΑΚΟΝΤΑ

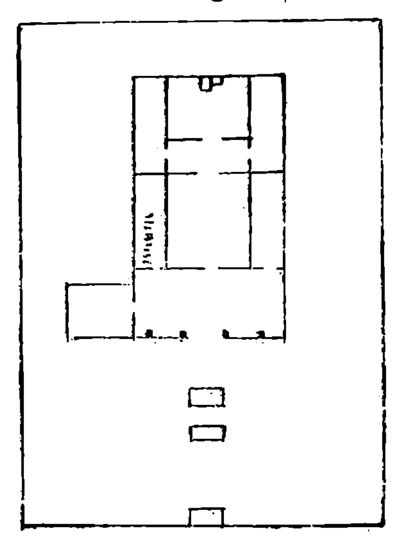
ΕΤΟΥϹ Β // ΓΟΡΔΙΑΝΟΥ
† ΕΝΘΑΔΕ ΗΚΕΙ ϹΓΑΙ ΩΝΑ
ΤΟϹ ΛΕΓΟ ΠΕΜΑΟΥΤΟϹ
ΤΟ ΠΡΟϹΚΥΝΗΜΑ ΑΥ
ΤΟΥϹ ΗΜΕΡΩΝ ΜΕΤΑ
ΤΗϹ ϹΗΜΒΙΟΥ ΚΑΙ ΤΕΚΝ
ΗϹ ΙΕΡΕΥϹ ΓΟΜΟΥ

كذلك رأيت نصاً لاتينياًلم أستطعأن أتبين منه غير كامتين هما. FABIO. CVM وهناك كوى صغرى فى أجزاء أخرى من صخور هذا المحجر ، وعليها رسم القرص المجنح ، ولكنى لم أر نصوصاً إلا على الكوة السابقة .

وبعد أربع ساعات ونصف مررنا بوادى ممبر ، ويقع تجاهـه على البر الشرقى وادى سهراب وهنا يقوم على تل صخرى عمود منفرد ، تخلف وحده من معبد صغير انتشرت خرائبه فى المكان . وقد نحتت فى سفح الفيل مقابر صغيرة عديدة تشير أكوام الأنقاض إلى موضع مدينة قديمة . وبعد خمس ساعات وصلنا جعرة ، والوادى منها إلى طافية جيد الزرع . وبعدخمس ساعات ونصف وصلنادهميت حيث ينتهى وادى أمبركاب . ودهميت شرق أزكى زرعاً من دهميت غرب . وهنا يجد المرء أساس بناء مربع صغير مشيد بالأحجار الضخمة ، وحائطا سميكا من اللبن يمتد موازيا للتلال ويجرى النيل مسافة خمسين ياردة ، ولعله أقيم حاجزاً بصد رمال الصحراء وبعد ست ساعات ونصف وصلنا مريس ، وتقع تجاههاعلى البرالشرقى قرية السيالة . وفى النهر هنا جزيرة عليها أطلال أبنية من الآجر . والصخور هنا من الجرانيت ، وتظل كذلك طوال الطريق إلى أسوان . ويقع الطريق من السيالة على سهل رملى فيه تلال منعزلة من الجرانيت تفصله عن النهر . وعلى الضفةالشرقية إلى الشمال من السياله تقع قرية عبرون . وعلى سبع ساعات ونصف تقوم دبود ، وتتألف من عدة قرى قائمة على ضفتى النهر . وعلى سبع ساعات وثلاثة أرباع الساعة يقوم تل مشرف على الشاطىء ، هو جزء من وادى دبود ، وعليه أطلال مدينـة غربية بيوتها من الآجر ، ويبدو أنها كانت نيوتارخبة حسنة البناء . وفى النهر عدة جسور جرانيتية كبيرة . وحططنا عند نجع لنقضى الليل بعد أن سرنا ثمانى ساعات فى يومنا هذا . وقد مكث المماليك فى هذه النواحى شهوراً حتى أكرههم زحف إبراهيم بك على التقهقر ، وقد عزّ العلف فى أثناء إقامتهم فاضطروا إلى إطعام جمالهم بسعف النخل ، فجردوا النخل كله من سعفه ، من هـذه البقعة حتى وادى حلفا جنوبا ، وهكذا حرم النوبيون محصول نخلهم سنة كاملة .

٣٠ مارس ـ ركبنا نصف ساعة فوق سهل جيد الزرع ، ثم جئنا معبد دبود الذى يقوم على مدينة Parembole الأثرية .

وللمعبد ثلاث بوابات منفصلة عالية ذات أفاريز كالمعبد القريب من مرواو . وبين البوابة الأولى والثانية ، عشرون خطوة ، وبين الثانية والثالثة عشر ، وبين الثالثة والبهو الخارجى للمعبد خمس عشرة . وأمام البهو أربعة أعمدة يربط بعضها البعض جدار يعلو إلى نصف ارتفاعها . وفى وسط ثلاثة من جدران البهو الداخلية يمتد إفريز من النقوش ، وفيما عدا هذا ترى الجدران عاطلة من النقوش ، وهى ظاهرة لم أرها فى غير هذا المعبد . وإلى يسار البهو حجرة مربعة تبرز جدرانها متجاوزة جانب المعبد فتشوه بذلك تناسقه . ولم أر على جدران هذه الحجرة نقوشاً أياً كانت .



أما الهيكل فحجرة مستطيلة تملأ جدرانها الرسوم والنقوش الهيرغليفية ، وعلى أحد جانبيها حجرة مظلمة لها باب يصلها بالبهو ، وفى الآخر سلّم يصعد إلى قمة المعبد ، وتحت السلم عدة غرف صغيرة . أما قدس الأقداس الذى ندخل إليه من غرفة ضيقة عرضها ثلاث خطوات ؛ فطوله عشر أقدام وعرضه تسع ، وعلى جداره الخلفى معبدان بديعان كلاهما من قطعة جرانيتية واحدة ، وارتفاع أكبرهما ثمانى أقدام وعرضه ثلاث ، وعلى كليهما رسم قرص الشمس المجنح . وربما كانا مستودعين لبعض الحيوانات الصغيرة (ولعلها الخنافس) ، وترى مواضع المفصلات التى يدور

عليها باب المستودع . ويشبه هـذان المبدان من الجرانيت نظيرين لهما فى فيلة ، ولـكنهما يختلفان عن معبد قاو Antaeopolis الذى يكبرهما كثيراً (*) كذلك ليس فى داخل المبدين نقوش هيرغليفية ، أما معبد قاو فداخله حافل بالرسوم والنقوش وبعض هذه النقوش يمثل الجمارين . وعلى كل جانب من جانبى القدس فى معبد دبود غرفة صغيرة تتصل بالحجرة الضيقة الواقعة خلف الهيكل . وجدران الغرفتين عاطلة من النقوش ، ولـكنها تحتوى على كوى خفية كتلك التى تجدها فى معبد كلابشة ، ولعل الغرض منها هو نفس الغرض المقصود من كوى معبد كلابشة . وكان لإحدى الغرفتين طابق علوى كحجرة معبد كلابشة ، ولـكن هذا الطابق تهدم . أما سائر حجرات المعبد فسليم ، ونقوش الجدران الداخلية مشوهة ، ولـكنك تستطيع أن تتبين آثاراً ضئيلة من ألوانها الحائلة ، أما الجدران الخارجية فقد خلت من النقوش . وكان يحيط بالمعبد كله ــ بما فيه البوابات الثـلاث التى تقوم على واجهته — سور هو اليوم متهدم . ولحظت فى أرض البهو المحطمة أسساً حجرية عميقة بنى عليها المعبد ، ولن أستغرب إذا أسفرت الـكشوف فى هـذا المعبد وفى غيره من المعابد المصرية عن حجرات تحت الأرض ، فهذا يستقيم تماما مع الروح التى اتسم بها الـكهنوت المصرى القديم .

ويخيل إلىّ أن معبد دبود قد بنى فى بدء اضمحلال الفن المصرى ، فأعمدته ونقوشه تحكى أعمدة فيله ونقوشها ، ولـكن شتان بين جمال الأصل والتقليد . ويبدو أن معبد مرواو الصغير يرجع إلى هذا العهد نفسه وإن كانت صنعته أدق . وهكذا تقدم لنا أرض النوبة نماذج من شتى عصور العمارة المصرية ، والحق أنك لا تستطيع تقصى تاريخ هـذه العمارة إلا فى النوبة ، إذ يبدو أن ما تخلف من معابد فى أرض مصر (فيما خلا معبد القرنة) قد بنى كله فى عهد بلغ فيه فن العمارة الغاية أو ما يقرب من الغاية . ولو طلب إلىّ أن أرتب المعابد النوبية حسب عصور بنائها لرتبتها كما يلى .

(١) أبو سمبل ، (٢) قرشة . (٣) الدر (٤) سمنة . (٥) بلانة (٦) الحصاية . (٧) السبوع . (٨) العمارة وكلابشة . (٩) الدكة والمحرقة

(*) بالقرب من طريق الـكباش الغربى بالـكرنك معبد من كتلة حجرية واحدة ماثل على الأرض ، وهو شبيه بمعبد قاو ولـكنه أصغر .

(١٠) قرتاس . (١١) مرواو (١٢) دبود . (١٣) قورتة . (١٤) طافية .

وارتقينا الجبل الرملي بعد قليل ، وبعدمسيرة ساعة عدنا إلى النهر ثانية عند وادى شيمة الواح . وهنا معدية صغيرة أردت أن أعبر عليها إلى البر الشرقى لرغبتى فى زيارة جزيرة فيلة ، فليس على البر الغربى طريق صالح لسير الإبل ، والطريق المعروف من دبود يخترق الجبل حتى يبلغ البر المواجه لأسوان . ولما لم يكن لدينا قرب منفوخة نشدإليهاعنق البعيرين ، فقدشددناحبالاً حول جسميهما ، وقطرناهما للبر الشرقى إلى جوار القارب . ولكن القارب كان مثقوباً ، ولم يكن به غير صبيين يجذفان ، فأنفقنا أكثر من ربع ساعة فى العبور ، ووصل أحد البعيرين إلى البر وقد أشرف على الهلاك . وليس هناك أكثر من ستة قوارب للعبور فى المسافة بين فيلة والدر ، وتجدها عند دبود وكلابشة ودهميت وقرشه والدكة والسبوع . أما فى جنوب الدر فلن تجد قارباً واحداً حتى تبلغ حدود دنقلة . ويدفع كل فلاح للمعداوى حفنة مما يحمل من زاد ، أو ملء ذراعه تبناً أو نحوه ، أما النسوة فيعبرن مجاناً . ورسونا عند ساق الجمل ، وهى القرية التى بت فيها ليلة رحيلى عن أسوان ، ومن ثم عبرنا الجبل ثانية قاصدين فيلة من نفس الطريق الذى سلكناه من قبل.

كان الوقت ظهراً حين زرت هذه الجزيرة المشهورة . ولأهالى البربا (وهى قرية صغيرة على البر الشرق) قارب ينقلون به زوارها الكثيرين ، فقلّ من يعود من التجار المصريين ، الذين يقصدون أسوان فى تجارة ، دون أن يزور الشلال وفيلة . ولما لم يكن فى هذه الناحية حكومة منتظمة ، فقداستغل أهالى البربااضطرار الأغراب من الزوار لاستخدام قاربهم ، فاشتطوا فى الأجر الذى يتقاضونه منهم . فما إن يدنو الزائر من القارب حتى يطبق عليه ستة منهم يزعمون له أنهم أصحاب القارب ، ويطلبون أجرة عبوره فيه ، فى حين يطالبه ستة آخرون ، يزعمون أنهم سادة الجزيرة ، بمبلغ آخر نظير سماحهم له بزيارتها .ودخلت القارب ، وكان الأهالى يحسبوننى رسول الباشا فى طريقى إلى الدر ، فتكاثروا علىّ ، وطلبوا منى ستة قروش لقاء عبورى للبر والسماح لى بزيارة الجزيرة ، وهو بلا ريب أجر زهيد لمشاهدة أثمن أطلال مصر القديمة. ولكنى صممت هذه المرة على ألا يغرر بى هؤلاء اللصوص،

فلم أقدم لهم سوى قرش واحد يتقاسمونه فيما بينهم(*) . ولما أبوا أن يقبلوه ، خلعت ثيابى وسلمتها للدليل ، ووضعت محفظتى فى عمامتى ، ثم سبحت إلى الجزيرة . وما إن وطئتها قدماى حتى أسرع القارب خلفى . وما كان أشد اغتباطهم بعد ذلك بأن يعيدونى بالقرش . ولما زرت الجزيرة ثانية بعد يومين ، وجدتهم أقل شططاً فى مطالبهم . وقد أنبئت بحالات ابتزوا فيها من الزوار أكثر من عشرين قرشاً ، وذلك بتهديدهم إياهم بالعودة إلى البر وتركهم وحدهم على الجزيرة . والبربا خاضعة لحكام النوبة ، أما زمام أسوان الخاضعة لمصر فيبدأ شمال فيلة .

وليس فى نيتى أن أعلق بشىء على زيارتى فيلة أو جزيرة البجة المجاورة لها ، فقد تناول هذه الآثار كلها الكتاب الفرنسى العظيم « وصف مصر » تناولا لا يترك زيادة لمستزيد .

وعدت إلى أسوان فى العشية ، فوجدت خادمى وقد تطرق إليه اليأس من رجوعى . ولم أكن أصبت من الراحة فى رحلتى التى غبت فيها خمسة وثلاثين يوما سوى يوم واحد قضيته بالدر حين بلغتها أول مرة . وكان طوال السفر أضنانى وأضنى بعيرى ، فعزمت على الاستجمام أياما ، واستأجرت غرفة فى الوكالة ، ومكثت خمسة أيام زرت فى أثنائها أرباض المدينة على مهل ، وكان مجرى النهر بين أسوان وجزيرة إلفنتين ، التى كنت أقضى فيها صباحى ، جافاً تقريباً . وسوف يعيى السائحين طول البحث عن مقياس إلفنتين ما دامت الأنقاض تغطى ضفاف النيل العالية . أما المقياس الذى بناه معاوية فما زال موجوداً ، وهو كوة منخفضة فى مستوى النهر فى قاعها درجات ، كانت تقاس بها زيادة الماء بسهولة ، وتقع قرب طرف الرصيف الذى يكوّن مرفأ أسوان . وليس هذا الرصيف جسراً رومانيا كما خاله بعض الرحالة ، وإنما هو بناء عربى .

وعلى الضفة الغربية إلى الشمال قليلا من أسوان دير قديم يقوم على سفح التل الرملى الذى بنيت على قمته مقبرة القديس المشهورة باسم « قبة الهواء » . وفى الصخور الواقعة تحت الدير عدة معابد ومقابر أثرية منحوتة فى الصخر لم يشر إليها أحد من الرحالة . وهى طريفة لمراقتها فى القدم ، ويتألف المعبد منها من حجرة

(*) أجرة المعدية فى مصر هى عادة بارة واحدة .

مربعة تكسوها النقوش الهيرغليفية ، وتقوم بها أعمدة مربعة لا تيجان لها ، ومحيط أكبرها قدمان ونصف ، وعلوها خمس عشرة قدماً ، وصناعتها كلها فجة . وفى بعض المعابد أربعة أعمدة ، وفى غيرها ستة أو ثمانية ، وقد قلب الإغريق معظم هذه المعابد إلى كنائس ، ولا تزال فى كثير منها حفر الدفن الواسعة .

ومعبد القديس لورنس المتهدم على البر الغربى ، تجاه أسوان ، غير جدير فى رأيى بالوصف البليغ الذى أغدقه عليه دينون . وقد قرأت النص التالى على شاهد قبر ملقى على أرض حجرة من حجره نسخته لرداءة حروفه وغرابة مظهرها .

IC + XC
ΠΕΕΟΟ Ν
ΜΠΡ. ΠΜΕΕΥΕ
ΜΠΜΑΚΑΡS
Ϊ·ΩΑΝΝΟΝ
ΠΑΝΟΡΑΕΥ
ΪΝΔΙΚΙSΙΙΪΕΝ
ΜΕΧΕΙΡΙΙ S.ΙΙ·

وفى التاسع من إبريل قفلت راجعا إلى إسنا ، وإلى القارىء ملاحظات عامة على النوبيين وتاريخهم (*) أضيفها إلى ماسبق . وكانت إقامتى بينهم من القصر بحيث لا تتيح لى تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا ، وكان فى مشاهداتى قصور سببه جهلى باللغة النوبية التى كان يستخدمها النوبيون فى حديثهم فى أثناء وجودى بينهم .

قلت إن النوبة قسمان ، وادى الكنوز ووادى النوبة (وكثيراً ما يطلق على الأخير وحده اسم الصعيد) ويمتد الأول من أسوان إلى وادى السبوع ، ويشتمل الثانى على الأصقاع المحصورة بين السبوع والحد الشمالى لدنقلة . وسكان القسمين تفصلهم اللغة ، ولكنهم فى عاداتهم وطباعهم متماثلون .

(*) أخبرنى أمين الحاكم « حسن كاشف » بالدر أن هناك أخباراً عن تاريخ النوبة وردت فى تاريخ مدينة البهنسا ، وهذا الكتاب من المخطوطات العربية التى أرسلتها لإنجلترة من حلب. وأفضل من كتب عن النوبة من مؤرخى العرب هو « ابن سليم الأسوانى فى أخبار النوبة » ولكنى لم أر كتابه لا فى الشام ولا فى مصر .

ويقول رواتهم إن النوبيين الحاليين أصلهم من بدو جزيرة العرب[1] الذين غزوا هذا القطر بعد انتشار الإسلام أما معظم الأهالى المسيحيين الذين رأيت كنائسهم منتشرة فى النوبة حتى سكوت ، فقد هربوا من وجههم أو قتلوا[2] وقليل منهم من اعتنق دين الغزاة كما ذكرت آنفا ، وترى اليوم أحفادهم فى تيفة ونمرة شمالى وادى حلفا . واستولت قبيلتا الجوابرة والغربية (وهى تخذمن أنخاذ زناتة) على الإقليم من أسوان إلى وادى حلفا ، ونشر عرب القبيلتين بعد ذلك سلطانهم على كثير من العشائر الصغيرة التى سكنت ضفاف النيل أيام الفتح ، ومن بين هـذه العشائر الكنوز ، وأصلهم من نجد والعراق . واحتلت قبيلة الجعافرة الكبيرة ضفاف النيل من إسنا إلى أسوان ، وسكنت بطن الحجر أسر قليلة من الأشراف ، واستولت عشيرة من عشائر قريش على المحس . وظل هؤلاء العرب يحتلون النوبة قروناً لاتنقطع فيها حروبهم ومناوشاتهم . وفى غضون ذلك استطاع ملوك دنقلة أن يفرضوا عليهم سلطانهم وأن يكرهوهم فى النهاية على دفع الجزية .وكان الجوابرة قد أوشكوا على هزيمة الغربية وإخضاعهم ، فاستغاث هؤلاء بالسلطان سليم الأول فى القسطنطينية ، فأرسل إليهم بضع مئات من الجنود البشناق تحت إمرة قائد يدعى حسن ،قوسى واستطاع هؤلاء أن يكرهوا الجوابره والدناقلة على الجلاء عن النوبة والارتداد إلى دنقلة . ومما هو جدير بالذكر أن سراة دنقلة اليوم أصلهم من قبيلة الجوابرة . على أن بعض أسر الجوابرة ظلت فى موطنها تعيش مسالمة ، ومازال أسلافهم الذين يسكنون الدر ووادى حلفا يعرفون بهذا الاسم إلى اليوم .

وقد بنى الجنود البشناق القلاع الثلاثة ، أو على الأصح أصلحوا هذه الأبنية الثلاثة الموجودة فى أسوان وإبريم وصاى . وحصلت حاميات هـذه القلاع على امتيازات لهم ولأبنائهم وأحفادهم الذين احتلوا بعدهم القلاع والأراضى الملحقة بها . ومن بين هذه الامتيازات إعفاؤهم من شتى ضرائب الأرض التى فرضها السلطان سليم على أملاكه كلها . كذلك رؤى أن البلد لايستطيع أن ينتج ما يكفيهم من

(١) كذلك ينحدر معظم فلاحى مصر — إلى الشمال من بنى سويف — من قبائل مغربية أو عربية . بل إننى لقيت فى مصر قوما أصلهم من بدو الشام .

(٢) ينقض هذا الزعم ماثبت فى كتابات الباحثين المحدثين من الأوربيين من أن انتشار الإسلام والعروبة حدث بفضل استيطان العشائر العربية بين الجماعات النوبية وقيام المصاهرات بين القادمين وأصحاب البلاد الأصلية (غربال)

طعام ، فأجرى عليهم معاش سنوى من خزينة السلطان بالقاهرة . وكان يدفع لحامية إبريم أربعة أكياس ، تعادل اليوم مائة جنيه فقط ، ولعلها كانت تساوى فى ذلك الوقت أربعة أمثال هـذا المبلغ . كذلك جعلت هذه الحاميات مستقلة عن ولاة مصر . وكان معاشها يدفع لها ما دام للولاة سلطان على مصر ، إلا أن المماليك كانوا يحبسونه عادة . وقد حكم حسن قوسى النوبة بجنده ، ومعظمهم من الفرسان ، وكان دائم الحركة فى أرجائها ، وكان يدفع لوالى مصر « الميرى » كل سنة ، ولكنه كان فيما خلا ذلك مستقلا عنه . وما زال أحفاد هؤلاء الجند البشناق الذين صاهروا عرب الغربية والجوابرة يحتلون الأرض التى منحت لأجدادهم فى أسوان وإبريم وصاى ، وما زالوا يتمتعون بالإعفاء من شتى الضرائب والالتزامات ، وهم يسمون أنفسهم « قلعتجية » أو أهل القلاع ، أما النوبيون فيسمونهم « العثمانلية » . وقد طال نسيانهم للغتهم القومية ، ولكن قسمات وجوههم تنبىء بأصلهم الشمالى ، ولون بشرتهم أسمر فاتح ، أما بشرة النوبيين فأقرب إلى السواد وهم مستقلون عن حكام النوبة الذين يحسدونهم أشد الحسد ، وكثيرا ما يشتبكون معهم فى حرب سافرة . ويحكمهم أغواتهم الذين يعتزون إلى اليوم بالفرمانات التى لم تجعل لهم سيداً سوى السلطان .

وحدث قبل خمسين عاماً أن شيخ عرب الهوارة ، واسمه همام بسط سلطانه على الإقليم من أسيوط إلى أسوان ، ثم مد نفوذه على النوبة التى زارها مرات ، وبلغ نفوذه المحس . أما اليوم فحالة البلاد السياسية يمكن أن تشبه ، من الناحية الشكلية على الأقل ، بحالتها يوم بسط حسن قوسى سلطانه عليها . والحكام الثلاثة الحاليون (*) — حسين وحسن ومحمد — هم أحفاده ، وكان أبوهم يدعى سليمان ، وقد اشتهر أمره لحزمه وسطوة حكومته . ولقب كاشف الذى اتخذه الإخوة الثلاث يمنح فى مصر لحكام الأقاليم . ويدفع الإخوة ضريبة سنوية قدرها ١٢٠ جنيها لوالى مصر ، وهو ما قدر به ميرى النوبة الذى يحاسب عنه الباشا أمام الباب العالى . وقلما كانت تدفع هذه الضريبة فى عهد المماليك ، ولكن محمد على يتسلمها بانتظام منذ ثلاث

(*) حين احتلت العساكر التركية التى يعودها إبراهيم بك النوبة حتى وادى حلفا ، بعد أن طردت المماليك إلى الجبال الشرقية ، تقهقر الحكام الثلاثة هم وأتباعهم إلى دنقلة وظلوا بها حتى انسحب الترك إلى أسوان ، فعاد الحكام إلى الدر .

سنوات ، ويستخدم الإخوة الثلاث نحو مائة وعشرين فارساً معظمهم من ذوى قرباهم أو من العبيد . ولا يتقاضى هؤلاء الجنود مرتبات ثابتة ، ولـكنهم يتلقون الأعطية بين الحين والحين ، ولا يلتزمون بأعمال وظيفتهم إلا حين يطوف سادتهم بالبلاد . ومقر حكام النوبة هو الدر ، ولـكنهم دائبو الحركة والتنقل فى أرجاء البلاد لجمع الضرائب من رعاياهم الذين لا يدفعونها إلا حين تـكرههم على ذلك قوة قاهرة . ويرتـكب الإخوة الثلاث فى طوافهم بالبـلاد أبشع أعمال الجور والطغيان حيثما كانت المقاومة معدومـــــة ، وكثيراً ما تنعدم . ويقتسم الثلاثة إيراد البلاد بالتساوى ، ولـكن كلهم جشع يحسد أخاه ويختلس لنفسه ما وسعه من مال . وإيرادهم السنوى ، حسب تقديرى ، يبلغ ٣٠٠٠ جنيه لـكل منهم ، أو من ٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ جنيه للثلاثة معاً . ولا تتجاوز نفقات الواحد منهم ٣٠٠ جنيه فى العام . ومعظم ثروتهم من الريالات والعبيد . وهم يصطنعون فى طباعهم ومسلـكهم غطرسة كبار الأتراك وعجرفتهم ، وهو تـكلف يفضحه ما يرتدون من لباس زرى يأنف من ارتدائه حتى صغار الجند من الترك .

وفى النوبة لا يقدر الإيراد على مساحة الأرض أو عدد الأفدنة كما يفعلون فى مصر والشام ، وإنما يكون التقدير على السواقى التى يستخدمها الأهالى للرى بعد الفيضان وفى أثناء الصيف . وهذه الطريقة منتشرة على ضفاف النيل حتى سنار . وفى القرى الفقيرة تجد الساقية الواحدة يمتلـكها ستة من الفلاحين أو ثمانية ، أما المزارعون فيملـكون سواقى عديدة . ويتراوح عدد السواقى المنبثة من أسوان إلى وادى حلفا ، أى من الشلال الأول إلى الثانى ، بين ستمائة وسبعمائة ، وتروى الساقية الواحدة من ثلاثة أفدنة إلى خمسة ، وتحتاج إلى تشغيل ثمانى أبقار أو عشر بالتناوب . وحين يزكو الزرع تغل الساقية من قمح الشتاء أو شعيره من ثمانين إلى مائة أردب . ونسبة ما يزرع من هذين المحصولين هى الربع قمحاً ، والثلاثة الأرباع شعيراً(*) . وتتفاوت الضريبة فى الجهات المختلفة ، ففى وادى حلفا

(*) فى شهر نوفمبر ١٨١٣ وصل إسنا محمد كاشف فى طريقه إلى أسيوط ليزور إبراهيم باشا حاكم الصعيد ، وهو الذى يضمر للنوبة نوايا سيئة كما هو معلوم . وكان شديد الرغبة فى استرضاء الباشا ، فجاب معه هدايا من العبيد والجمال والخيل الدنقلية . ولـكن قصده الأهم من هذه الرحلة كان =

مثلا ، يدفع سنوياً عن كل ساقية ستة أغنام سمان وستة مدات من الذرة ، وفى المحس يجبى الملك عن كل ساقية ستة أغنام وأردبين من الذرة وثوباً من الكتان[١] كذلك يجبى الحكام عن كل نخلة مهما كان محصولها ، سباطتين من البلح ويتقاضون مكوساً عن المراكب المحملة بلحاً فى الدر[٢] . على أن نظام الضرائب فى جملته فى غاية التعسف والفوضى ، وهو مجلبة للخراب العاجل على القرى الفقيرة التى تعجز عن دفع المطالب الجائرة التى تفرض عليها ، فى حين يخف عبء هذه الضرائب على القرى الغنية التى يخشى الحكام إثارة أهلها واستفزازهم . كذلك يقوم أبناء كاشف بوظائف القضاء فى النوبة فتغل عليهم إيراداً كبيراً ، لأن القضاء عندهم لا يعدو أن يكون تجارة .

وإذا قتل نوبى آخر أكره على دفع دية لأسرة القتيل وغرامة للحكام قوامها ستة جمال وبقرة وسبعة أغنام . فإذا أبى اقتضاها الحكام قسراً من أسرته . ولكل

= الشكوى من أخيه الأكبر حسن الذى منح أخيراً والديه الكبيرين ، داود وخليل ، نصيباً فى حكم النوبة وأكره أخويه على قسمة الإيراد بالتساوى مع والديه ، فجعل للنوبة بذلك خمسة حكام وفى إسنا لقى محمد كاشف جيشاً قوامه مائة جندى جرده ابراهيم على النوبة . ورأى محمد أن من العبث المضى فى رحلته لأسيوط . فعاد لوطنه مع الجنود الترك . وما إن اقترب الجنود حتى هرب أخواه إلى جزيرة أكمه ، بعد شلال وادى حلفا ، على الرغم مما وعدا به من أمان . ومضى الترك فى طريقهم إلى وادى حلفا ، يجمعون باسم إبراهيم باشا ضريبة من كل ساقية . وقد منحوا محمد كاشف جزءاً من اثنى عشر من جملة الإيراد لماشه . وواضح أن هذه الحملة كانت تستهدف القبض على الحكام جميعاً ، ولكنها لم تحقق هدفها . وبعد أن مكث أفرادها زهاء العام فى النوبة يجبون ضريبة الأرض من محصول الزراعة الصيفية أيضاً عادوا إلى صعيد مصر . وفى عام ١٨١٥ رجع الجنود الترك إلى النوبة ثانية ، وأكرهوا الفلاحين على دفع الضرائب جملا بدلا من الغلال . وما إن رحلوا عن البلاد حتى عاد أبناء كاشف للدر ، وجمعوا الخراج ثم الآخرون من الأهالى الذين أصبحوا نهباً لجشع الترك والحكام على السواء ، وكلا الفريقين لا يعرف شفقة ولا رحمة لأنه لا يعلم على التحقيق كم من الزمن يحتفظ بسلطانه على البلاد .

(١) بلغت الضريبة التى جبيت عن كل ساقية عام ١٨١٣ ثمانية أرادب ، يضاف إليها ضريبة إضافية من أربعة أغنام وأردب من الغلال تدفع إذا ذهب الحاكم بشخصه للقرية للجباية ، وذلك لإطعام أتباعه وجياده .

(٢) يختلف مقدار البلح الذى تستورده مصر من النوبة بطريق أسوان بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ أردب كل عام حسب حالة المحصول . وأجرة الشحن من أسوان إلى القاهرة خمسة قروش للاردب يحصل حاكم أسوان لنفسه نصف قرش منها ضريبة مرور . وقد وضعت الحكومة يدها على معظم هذه التجارة الرابحة .

جرح غرامة مقررة تدفع غنماً أو ذرة ، ولكنها تتفاوت باختلاف العضو المصاب من الجسم ، وهي عادة بدوية قديمة تجدها منتشرة كذلك بين أهالي إبريم مع هذا الفارق ، وهو أن الغرامة يأخذها المجني عليه لا الأغا . وإذا قتل نوبي أحداً من قبيلة الحاكم ، أو من الغز (وهو لقب المماليك في مصر والنوبة) أو من أهل إبريم ، فإنه لا يدفع لأسرة القتيل دية لأنه يعد جندياً لا عربياً ، ولكن الحاكم يقتضي غرامته رغم ذلك . وبين الكنوز والنوبيين ، جيرانهم الجنوبيين ، عداء شديد . ويرى النوبيون الكنوز بالبخل والحرص والغدر ، أما الكنوز فيدعونهم عبيداً قذرين لا يفضلون الزنوج في معيشتهم . وكثيراً ما تلتحم القرى المتجاورة في معارك دموية نتيجة لهذا العداء ، فإذا قتل أحد من الفريقين كان لأسرته أن تقتضي الغرامة المقررة في مثل هذه الحالات ، أو تثأر للقتيل من أسرة القاتل . وأهل إبريم يثأرون لقتلاهم عادة ، ولكنهم لا يقنعون كما يقنع بدو جزيرة العرب بالثأر من أي قريب من عصب القاتل ، في حدود المرتبة الخامسة من القرابة . فلن يقوم مقام القاتل في عرفهم غير أخيه أو ولده أو ابن عمه ، لذلك كثيراً ما تكون النتيجة أن تلوذ الأسرة كلها بالفرار .

ويبتز حكام النوبة الأموال الطائلة بأساليب مختلفة كما قلت ، ولكن جورهم يقتصر على أملاك رعاياهم دون حياتهم ، فهم لا يضربونهم ولا يقتلونهم إلا إذا شقوا عصا الطاعة وجهروا بالثورة عليهم ، وكثيراً ما يفعلون(*) . وإذا هرب نوبي يريدون ابتزاز ماله حبسوا زوجته أو أبناءه الصغار حتى يعود ، وهو إجراء يضج الأهالي بالشكوى منه ، ولا يلجأ إليه حتى القضاة من ولاة مصر والشام ، فهؤلاء يحترمون نساء ألد أعدائهم وأبناءهم . وثمة طريقة فذة ابتدعها حكام النوبة لابتزاز أموال رعاياهم ، ذلك أنهم إذا عرفوا أن لأحد سراتهم فتاة بلغت سن الزواج طلبها الحاكم لنفسه عروساً ، وقلما يجرؤ أبوها على رده ، بل إنه ليزهو أحياناً بهذا الشرف . ولكن هذه المصاهرة سرعان ما تجر عليه الخراب والإفلاس ، لأن صهره القوي يسلبه كل ما يقتنيه بحجة أنه يقدمه هدية لابنته . وهكذا تجد للحكام

(*) اشتهر عن القبيلة العربية التي يسميها النوبيون أمنلاب [عون اللاب] — ولعلها أمة الأب ، لأن نطقهم للعربية ردىء — والتي تسكن القرى المجاورة لقرشة ، مقاومتها للحكام وخروجها عليهم ورجالها أكثر عرب الكنوز استقلالا ، وهم يأبون تزويج بناتهم لأتباع الحكام .

جميعهم أزواجا منبثات فى معظم القرى الكبيرة. ولحسين كاشف أربعون ولد تقريبا، عشرون منهم تزوجوا بهذه الطريقة.

ولا يحرث سكان وادى النيل من الشلال الأول إلى حدود دنقلة حقولهم بعد انحسار مياه الفيضان كما يفعل أهل مصر. لأن المياه بعد الشلال لا ترتفع إلى علو يغمر الوادى. وفى الجهات القليلة التى تبلغ الأرض الزراعية فيها بعض الاتساع — كما هو الحال فى قستمنة وقرشة ووادى حلفا الخ. شقت قنوات تحمل الماء إلى الحقول المجاورة للجبل. ولكن الماء فى هذه القنوات لا يبلغ ما يبلغه ماء القنوات فى مصر من ارتفاع يتيح رى الأراضى الواطئة المجاورة للتلال. لذلك كان الرى فى النوبه يقوم كله على السواقى والنواعير. فما إن يهبط منسوب الماء فى النهر حتى تروى الحقول بالسواقى. وتزرع الزرعة الأولى ذرة، وتحصد فى ديسمبر ويناير. ثم تروى الأرض ثانية وتزرع شعيراً. وقد تزرع الأرض بعد حصاده مرة ثالثة محصولا صيفياً. ويباع الشعير بالذرة، أو يؤكل فريكا مسلوقا. ويصيب المحصول أذى بالغ من أسراب العصافير الدورية التى تغير عليه أفواجا لا تقوى على دفعها جهود صبيان القرى مجتمعة. ومن الآفات الزراعية دودة صغيرة تتسلق ساق النبات، وكثيراً ماتفتك بمحصول الذرة والشعير فى حقول بأسرها. وزراعة التبغ منتشرة فى أنحاء النوبة وهو يحتفظ بلونه الأخضر حين يجف، ويشبه تماماً تبغ الجبال الواقعة إلى الشرق من البحر الميت. وهو أهم ترف يستمتع به الناس هنا من شتى الطبقات، وهم إما يدخنونه أو يستحلبونه، مخلوطا بالنطرون، بين اللثة السفلى والشفة.

وبيوت النوبيين من اللبن أو الحجارة. وقد قلت إن البيوت الحجرية تقوم عادة على سفوح التلال، وهى تتألف من بناءين مستديرين منفصلين، أحدهما للرجال والآخر للحريم. وبيوت اللبن منخفضة حتى ليشق على المرء أن يقف فيها بقامته منتصبة. ويسقف السقف بسيقان الذرة التى تبقى حتى تأتى عليها الماشية، وعندئذ يوضع بدلها جريد النخل. ومنازل الدر، وبيوت الأثرياء من سكان القرى الكبيرة، حسنة البناء، فلها حوش كبير فى وسطها تحيط به الحجرات من حوله، وبين حجرات الرجال والحريم فاصل. أما الأوانى والأدوات التى

تستعمل فى بيوت النوبيين فهى نحو ست قدور من الفخار الخشن ، قطر الواحدة منها قدم أو قدمان وارتفاعها خمس أقدام ، يحفظ فيها زاد الأسرة وطعامها كله . ثم يضع صحاف من الفخار ، وطاحونة يد ، وبلطة صغيرة ، وعصىّ مستديرة يمدّ عليها النول .

ويلبس الأهالى شمال الدر جلباباً من الكتان لا أكثر ، ولونه أزرق عند سراتهم ، أو الزعبوط الصوفى الذى يرتديه أهل الصعيد . أما لباس الرأس فطاقية من القماش بيضاء صغيرة يلفون عليها أحياناً خرقا تعطيها شكل العمامة . وأولادهم وبناتهم عراة ، وتلتف النسوة بقطع من القماش أو بُرَد صوفية سوداء ، ويلبسن أقراطاً وأساور من زجاج ، وفقراؤهن يصنعن أساورهن من السعف . أما شعورهن فيرسلنها غدائر فوق أعناقهن ، ويلبسن على رءوسهن من الخلف شراريب قصيرة مزركشة من الزجاج أو الحجر تقوم مقام الحلية والتميمة معاً . ونساء الأعيان يتحلين بالخلاخيل من النحاس أو الفضة . وإلى الجنوب من الدر ، ولا سيما فى سكوت والمحس ، يمشى الرجال عراة إلا من وزرة تستر العورة ، هى شبيهة بما يرى على جدران المعابد المصرية . ولأهل المحس شعور كثة ولكنها ليست صوفية القوام . ويلبس جميع الشبان قرطاً واحداً فى الأذن اليمنى فقط ، أما الرجال فيحملون فى أعناقهم مسبحة لا تفارقهم . كذلك يربطون على إحدى الذراعين فوق المرفق عدداً من التمائم يكسوها جلد عرضه ثلاث بوصات أو أربع ، وهى أحجبة وأدعية يبيعها إياهم الفقراء .

وقلما يعطل النوبيون من السلاح . فما إن يشب الغلام عن الطوق حتى يغدو همه الأول شراء مدية معقوفة صغيرة يلبسها الرجال مشدودة إلى المرفق الأيسر تحت ثيابهم ، ويستلونها فى أتفه المشاجرات . وإذا انتقل نوبى من قرية لأخرى حمل معه إما « نبّوته » المكسو طرفه بالحديد ، أو رمحه ودرقته . وطول الرمح خمس أقدام بما فيها سنّه الحديدى ، أما الدرق فتتفاوت أحجامها ، فمنها المستدير ذو السرة فى وسطه ، ومنها ما يشبه الدروع المقدونية القديمة ، فهو مستطيل يبلغ طوله أربع أقدام ، وله طرفان مقوسان يكادان يغطيان البدن كله . وتصنع هذه

الدرقات التى يبيعها عرب الشايقية من جلود أفراس البحر ، ولا تؤثر فيها رمية رمح أو ضربة سيف . كذلك يقتنى السيوف القادرون على شرائها ، وهى شبيهة بسيوف الفرسان فى القرون الوسطى لها نصل طويل مستقيم عرضه بوصتان ، ومقبض على شكل صليب ، وقرابها من الطراز الذى يعرض أسفله ويدق رأسه . وهذه السيوف ألمانية الصنع ، ويبيعها تجار مصر النوبيين بأسعار تتراوح بين أربعة ريالات وثمانية للسيف . أما الأسلحة النارية فنادرة ، وعلك الأغنياء بنادق من نوع بدائى ، وليس عند حسن كاشف نفسه غدارة . وذخيرة هذه الأسلحة النارية نادرة غالية الثمن ، لذلك يجدر بالسائحين فى النوبة أن يحملوا معهم من الرصاص ما يقدمونه هدايا تلقى من النوبيين أحسن القبول . وأذكر أننى بعد أن رحلت عن معسكر محمد كاشف فى تينارى جرى ابن أخيه خلفى ميلين على الأقل ليلحق بى ويسألنى رصاصة قائلا إنه أطلق فى حفلة بالأمس الرصاصة الوحيدة التى كانت معه .

ذكرت للقارىء شيئاً عن طعام النوبيين المألوف . فهناك خبز الذرة ، وهو فى غاية الخشونة ، ويصنع بغير ملح(*) ويخبزونه على الصاج كبدو جزيرة العرب ولما كانت عملية الطحن والعجن والخبز لا تستغرق كلها أكثر من عشر دقائق ، فإنك تستطيع أن تحكم مطمئنا بأن هذا الخبز لا يمكن أن يكون ناضجاً . ويطحن النسوة زاد كل يوم فى الصباح ، فالنوبيون لا يخزنون الدقيق . وفى سكوت والمحس يصنعون الخبز رقاقا مستديراً يوضع بعضه فوق بعض حين يقدم على المائدة . وقلما يذوق النوبيون اللحم ، بل إن الحكام لا يتناولونه كل يوم . وشراب البلح [الشربوت] شائع الاستعمال فى القرى الكبيرة ، ولا بأس بطعمه وإن كان فيه حلاوة وغلظ لا يستطيع الشارب معهما أن يصيب منه كثيراً . وطريقة صنعه أنهم ينقعون البلح بعد نضجه فى قدور كبيرة من الفخار ملئت ماء ، ثم يغلونه على النار يومين كاملين بلا انقطاع ، ثم يصفى الشراب ويحفظ الرائق منه فى زلع من الفخار تسد وتدفن تحت الأرض

(*) يستخرج الأهالى المجاورون للتلال الكفرية والمبانى القديمة مادة يسمونها «مازوق» يضعونها فى الخبز عوضاً عن الملح .

عشرة أيام أو اثنى عشر حتى يختمر الشراب فيكشف عنه ويمكن عندها تعاطيه . ولكن أجله لا يطول عن الحول ، ولا يتعدى محصول البلح التالى ، وإلا شابت طعمه حموضة ، كذلك يصنع النوبيون شرابا يسمى البوظة ، وهو شديد الشبه بالجعة أو البيرة ، ويستخرجونه من الذرة أو الشعير . وأفضله من الشعير ، ولونه كدر ، وهو عظيم القيمة الغذائية . وفى القاهرة وسائر المدن والقرى الكبيرة فى الصعيد دكاكين لبيع البوظة أصحابها من النوبيين وحدهم . وتستهلك فى الدر مقادير كبيرة من الشربوت وعرق البلح المقطر : ويباع الخمر فى مشارب خاصة ويتعاطاه أفراد الطبقة العليا ويثملون به كل مساء ، وتصنع خمور البلح وتباع علانية فى كل أرجاء الصعيد من أسيوط فصاعداً ، ويفرض الباشا ضريبة على تجارها . ويستخرج من البلح أيضاً ضرب من المادة الهلامية كالعسل يأكله الأغنياء كالحلوى . وليس فى النوبة فاكهة غير البلح وقليل من العنب رأيته فى الدر .

ومناخ النوبة صحى جداً على شدة قيظه فى الصيف ، لا سيما فى البقاع الصخرية الضيقة ، ولعل السر فى ذلك جفاف الهواء . ولست أذكر أننى رأيت فرداً واحداً فى الأسابيع الخمسة التى أنفقتها هناك يشكو مرضاً من الأمراض . وقد يفد الجدرى أحياناً على النوبة فيفتك بالناس فتكا ذريعاً فى كل أرجائها عدا وادى الكنوز . ولا يعرف الناس التطعيم ، أو قل إنهم لا يمارسونه ، سواء فى النوبة أو فى صعيد مصر ، وقد فشلت المحاولات العديدة التى بذلت لإدخال نظام التطعيم فى الصعيد ، أو على الأصح لتثبيته ، وزعم بعض الرحالة أن هذا الوباء يفد على مصر من الجنوب ، وهو زعم خاطىء لأنه لا يبلغ فى انتشاره فى النوبة الشلال الثانى ، ولا يعرف فى دنقلة ولا على طول الطريق إلى سنار .

والرجال فى النوبة على العموم ذوو أجسام قوية مفتولة وتقاطيع وسيمة ، وهم أقصر قليلا من المصريين ، لا شوارب لهم ، ولحاهم صغيرة لا تجاوز أسفل ذقونهم ، كلحى الأسرى الذين ترى صورهم على لوحات المعارك المرسومة على المعابد المصرية . وكثيراً ما لحظت فى أثناء رحلتى فى قرى النوبة أن هناك على العموم تناسباً بين قامة الأهالى وبين عرض الأرض الزراعية ، فأينما كان الوادى

عريضاً والزراعة ميسورة والأهالى على شيء من سعة الرزق وجدتهم أطول قامات وأصح أبداناً . أما فى البقاع الصخرية التى لا يتجاوز عرض الوادى فيها عشرين ياردة أو ثلاثين فترى أجسام الناس قميئة هزيلة ، يكاد الرجل منهم فى بعض القرى أن يكون هيكلا يخطو أو شبحاً يتراءى .

أما النساء فلهن قامات بديعة ، ووجوه طلقة حلوة وإن لم تكن جميلة،وطباع لطيفة غاية اللطف ، بل إننى رأيت بينهن حساناً بارعات الجمال ، ولست أشك فى أن دينون قد غمطهن حقهن . ولكن العمل الشاق الذى يقمن به منذ طفولتهن يضنيهن ، فشئون البيت كلها موكولة إليهن ، أما الرجال فنقطعون للزراعة . ونساء النوبة أعف نساء الشرق قاطبة ، وعفتهن أجدر بالإشادة لما كان ينتظر من تأثرهن بجيرة صعيدمصر الذىيشتد فيه تأثير الغريزةالجنسية . وفى أثناءمكثى بإسنا كان الفتيات يأتين إلى مسكنى كل صباح ليبعننى اللبن ، فكانت المصريات منهن تقتحمن فناء الدار فى جرأة وتسفرن عن وجوههن ، وهو مسلك يفهم منه هذا أنهن يعرضن أنفسهن ، أما النوبيات — وكثيرات منهن يقمن مع أسرهن فى إسنا — فكن يقفن بعتبة البيت متأدبات لا يتجاوزنها بحال من الأحوال ، ويأخذن ثمن ما بعن من لبن وهن مقنعات .

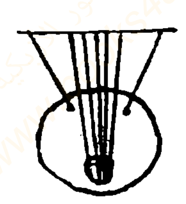
ويبتاع النوبيون نساءهم من والديهن ، ويدفع الكنزى عادة اثنى عشر محبوباً ثمناً لعروسه ، وهو ما يعادل ستة وثلاثين قرشاً ، وكثيراً ما يتزاوجون مع عرب العبابدة ، وبعض هؤلاء زراع مثلهم . ومهر الفتاة من العبابدة ستة جمال تعطى لأبيها ، فيرد منها ثلاثة لابنته تكون ملكاً لها ولزوجها ، فإذا طلقت أخذ الزوج ثمن نصفها . وإذا أصرت امرأة فى الصعيد على أن تطلق من زوجها كان له أن يستولى على جهازها وأن يحلق رأسها ، فلا يتزوجها غيره حتى يطول شعرها . والنوبى شديد الغيرة على عرض امرأته ، فإذا خامرته أدنى ريبة فى وفائها له حملها ليلا إلى شاطىء النهر وأغمد مديته فى صدرها ، ثم قذف بها إلى النهر طعاماً للتماسيح على حد قوله . وقد حدث فى أسوان أخيراً حادث من هذا القبيل .

والبغاء غير مباح فى النوبة ، فلن تلقى فيها العاهرات اللاتى تجد عدداً كبيراً

سهن فى كل أرجاء مصر ، وذلك باستثناء من يوجد منهن فى الدر ، وهؤلاء لسن من الأهالى ، بل هن إماء معتوقات دفعتهن الفاقة إلى احتراف الفحشاء . ويستهجن النوبيون أشد الاستهجان تلك الرذائل والشهوات البغيضة التى نشرها المماليك فى مصر وأذاعوها حتى بين فقراء الفلاحين ، ولا يستثنى من أهل النوبة فى هذا غير أفراد أسرة كاشف الذين يحاولون جهدهم أن يحكوا المماليك فى كل شىء حتى فى أبغض ما يقارفون من آثام .

والأنوال الصغيرة شائعة فى بيوت النوبيين ، ويغزل عليها النساء عباءات من الصوف خشنة ، وقماشاً من القطن يصنعون منه القمصان . كذلك يصنعن من سعف النخل الحصر وكئوس الشراب ، والصحاف الكبيرة التى يقدم فيها الخبز على المائدة — وكلها مصنوعة باليد ، ولكن فى صناعتها أناقة وإتقاناً يوهمان بأنها مصنوعة بالآلات . ولا تنتج النوبة سوى هذه المصنوعات ، أما ما عداها فيستورد من مصر .

ولم أر من الآلات الموسيقية فى النوبة سوى ضرب من «الطمبورة» المصرية ذات أوتار خمسة وغطاء من جلد الغزال هذا رسمها :



وللفتيات غرام بالغناء ، وألحان النوبيين عذبة شجية .

ولعبة المنقلة شائعة فى الدر ، كذلك يلعب النوبيون اللعبة التى يسمونها « بياض » والتى وصفتها فى يومياتى عن البطراء فى معرض الحديث عن عرب كرك .

وقد رأيت فى معظم النوبيين رقة ولطفاً وعزوفاً عن السرقة ، وهى رذيلة معروفة فى مصر ، أو على الأقل فى الأقاليم الواقعة إلى الشمال من أسيوط . والحق أن السرقة تكاد تكون معدومة بينهم ، فإذا ثبت أن منهم من اقترف هذا الجرم طرد من قريته بالإجماع . ولم يضع فى أثناء رحلتى فى النوبة شىء مما أحمل مهما تفه ، مع أننى كنت أنام فى العراء أمام البيت الذى أحط عنده . وفى النوبيين عموماً كرم وحسن ضيافة للطارق ، وأقلهم فى ذلك السكنوز وأهل سكوت . ويغلب على طباعهم الفضول ، فهم يمطرون الغريب وابلاً من الأسئلة عن البلد الذى قدم منه والمهمة التى أتى النوبة فيها .

ولولا طغيان الحكومة واستبدادها لكان النوبيون جيراناً خطرين على مصر فهم يمتازون عن المصريين بالجرأة وحب الاستقلال وشدة التعلق بأرضهم . ويفد على القاهرة منهم كثيرون كل عام ، فيشتغل معظمهم بوابين ، وهم فى ذلك مفضلون على المصريين لأمانتهم ، وبعد أن يقيموا بها ست سنوات أو ثمانية يعودون إلى مسقط رءوسهم بما أصابوا من مال قليل ، مع علمهم بأنهم لن يظفروا فى وطنهم بغير خبز الذرة وجلباب الكتان عوضاً عما ينعمون به من أطايب القاهرة . والذين لا يهاجرون منهم لمصر قلما يتجاوزون حدود قراهم ، فعامة النوبيين زاهدون فى المغامرات التجارية . وقد لقيت فى إبريم شيخين أكدا لى أنهما لم يريا الدرقط مع أنها لا تبعد عنهما غير مسيرة خمس ساعات . والذين أقاموا منهم فى مصر وتعلموا العربية تجدهم فى الغالب مسلمين أتقياء يؤدون الصلوات كل يوم ، أما من يجهلون العربية فلا يعرفون من الصلاة إلا التهليل والتكبير . ويحج بعضهم إلى مكة بطريق سواكن .

وسكان النوبة من أسوان إلى حدود المحس الجنوبية — وهو إقليم طوله نحو خمسمائة ميل ومتوسط عرضه نصف ميل — يبلغ عددهم ، حسب تقديرى ، مائة ألف نسمة .

* * *

وإلى القارىء نبذة أضيفها عن البدو الذين يقطنون الجبال الواقعة بين النوبة والبحر الأحمر . هؤلاء البدو قبيلتان رئيسيتان ، العبابدة والبشارية . أما العبابدة فيسكنون الإقليم الواقع جنوبى القصير حتى عرض الدر تقريباً ، وأما البشارية فيحتلون الجبال من ثمّ إلى الجنوب حتى سواكن ، وهناك يجدون لإبلهم وماشيتهم الكلأ الذى ينمو فى مجارى السيول الشتوية . ويقيم كثير من العبابدة فى صعيد مصر على ضفة النيل الشرقية من قنا إلى أسوان ، ومن أسوان إلى الدر ، ولكن أغلبهم ما زال يعيش عيشة البداوة ، ويشتغلون خبراء أو أدلاء لقوافل سنار التى تقوم من دراو ، وكانوا من قبل أدلاء أيضاً للقوافل المسافرة من القصير إلى قنا ، ولكن أعداءهم

من عرب المعازة والعطوانى الذين يسكنون شمالى القصير أفلحوا فى حرمانهم من الأرباح التى يغلها هـــذا العمل ، والتزموا به من والى مصر . والعبابدة أثرياء ولـكنهم سيئو السمعة يرميهم كل من اتصل بهم بالخيانة والغدر ، فهم غير جديرين بالانتساب إلى الأصل العربى الذى يعتزون به . ولا يتورع الرجل منهم عن الحنث بأى يمين أو قسم ، بيد أنى علمت أنهم يخشون الحنث بوعودهم إذا شفعوها بقولهم « وحياة العافية » . ويشتهرون فى الصعيد بما يقتنون من كرام الإبل ، ومن الهجن الخفاف على الأخص ، ولهم تجارة واسعة فى السنامكى وفحم السنط ، وكلاهما مستخرج من الأشجار المنتشرة فى جبالهم ، ويصدرون الفحم حتى القاهرة شمالا .

ولا يقتنى العبابدة من الخيل إلا القليل ، فهم إذا التحموا مع غيرهم من القبائل العربية حاربوا على ظهور جمالهم مسلحين بالدرق والرماح والسيوف . وأهم عشائرهم الفقراء ، والعشاباب ، والمليكاب . وقلما ينزل عرب العشاباب من الجبل إلى ضفاف النيل ، ولـكن كثيرين منهم استوطنوا ضفاف النهر قرب مقرات والدامر عـلى طريق سنار ، وتزاوجوا مع الأهالى هناك . والذين يخيمون منهم مع البشارية يتكلمون لغتهم .

أما البشارية ، الذين قلما ينزلون من جبالهم ، فقوم أبعد ما يكونون عن العمران الحضرى ، وهم أسوأ سمعة من العبابدة . ولا يقتنون غير الإبل والغنم ، وطعامهم الوحيد اللحم واللبن ، ويأكلون أكثر اللحم نيئاً . وقد روي لى كثير من النوبيين أن هؤلاء البشارية شديدو الغرام بشرب دم الخراف المذبوحة ساخنا ، ويقال إن أحب شيء إليهم وأشهاه أكل نخاع الجمل نيئاً . ومنهم من يذهب أحيانا إلى الدر أو أسوان ليبيع السنا والغنم وريش النعام ، فالنعام شائع فى جبالهم ، والسنا التى تنتجها جبالهم من أفضل الأنواع . وهم يقايضون على هـذه البضائع بأثواب الـكتان وبالذرة التى يلتهمون حباتها نيئة لم تدخل النار ويعدونها طعاماً شهياً ، وهم لا يصنعون منها خبزاً قط . ولا يطول مكث هؤلاء التجار فى الوادى ، إذ سرعان ما يروعهم الجدرى فيفزعون إلى خيامهم . وعرب البشارية لصوص عريقون ، لا يتورعون حتى عن سرقة مضيفهم . ويخرج فتيانهم فى غارات للنهب والسلب

فيبلغون دنقلة وطريق سنار ، ومن تحتهم إبل لا تضارعها فى صلابتها إبل من شواطىء البحر المتوسط إلى بلاد الحبشة . ولا يتكلم العربية من البشارية إلا القليلون . ولا يخشون من أعدائهم غير العبابدة الذين يعرفون منتجعاتهم من الجبال ويأخذونهم فى مضاربهم على غرة . ويستطيع المرء أن يعبر جبال البشارية فى صحبة عبادى إذا صفا الجو بين القبيلتين كما هى الحال اليوم ، ولكن يجب ألا يركن إلى هذا العبادى إلا إذا حجز فرد من أخص أقربائه رهينة . وقد وقع كثير من المماليك المشردين فريسة لغدر هؤلاء العرب ، ولم ينج غيرهم إلا بسفرهم فى جماعات كبيرة .

ويضرب البشارية خيامهم على حدود الحبشة الشمالية وساحل البحر من سواكن إلى مصوع آهل بعشائرهم ، وأهمها : الحمداب ، وبطران ، والعلياب وعمراب ، وغمهناب ، وحمدوراب ، وأرباب ، والخلسة ، والمدوراب ، والسمبلاب ، والأمرار ، وكلهم يعيشون فى مضارب منفصلة ، وبينهم خصام وعراك كثير . ولا يقتنى البشارية الأسلحة النارية . وتستعمل بعض القبائل الضاربة إلى جوار حدود الحبشة السهام والقسى ، ويتكلمون الحبشية أو قل يفهمونها على ما علمت ، فالأحباش يجدون مشقة كبرى فى فهم لغة البشارية . ولعل اللغتين مشتقتان من أصل واحد ، شأنهما فى ذلك شأن غيرهما من اللهجات الكثيرة السائدة عند الحدود الشمالية للحبشة .

وبين أفراد البشارية تراحم وجود وأمانة . ونساؤهم لا يحتجبن ، ويقال إنهن جميلات كالحبشيات ، وإنهن سيئات الخلق . وقد عثرت بعد بحث طويل شاق على شاب بشارى قدم إسنا ليبيع سيور الجلد التى اشتهر قومه بصنعها . وأغريته بالذهاب إلى مسكنى ، وذلك بمساومته على بضاعته ، وحملته على الإفطار معى ، وما إن بدأت بسؤاله عن لغته حتى أبى أن يمكث ، مع أننى أهديته قميصاً . فقد توهم أننى أشتغل بالتعاويذ والرقى ، وأننى أبغى استعمال لغته للإضرار بقومه ، فانطلق مقتحما فناء الدار لا يلوى ، ولم تجد معه كل المحاولات التى بذلتها بعد ذلك لحمله على الرجوع .

الرحلة من صعيد مصر إلى بربر وسواكن
عبر صحارى النوبة
ومن ثم الى جدة ببلاد العرب
(في سنة ١٨١٤)

فى ربيع عام ١٨١٣ عدت من رحلتى التى سافرت فيها على ضفاف النيل حتى دنقلة، فأقمت بصعيد مصر أرتقب الفرصة للخروج مع قافلة للرقيق فى رحلة إلى مناطق النوبة الداخلية مشرقاً عن رحلتى السابقة . وآخر القوافل التى خرجت فى هذه الرحلة سنة ١٨١٣ قافلة كبيرة قامت من أرباض أسوان قبل عودتى إليها بأيام قلائل .

فى هذه الفترة بدأ قاطع طريق يدعى نعيماً « شيخ عرب الرباطاب (*) المقيمين فى بلاد مقرات ، ومقرات هذه على ضفاف النيل ، وتبعد رحلة ثلاثة أيام إلى الشمال الغربى من القوز » بدأ نعيم هذا يقطع الطريق على القوافل ، وكان قد سلب جماعات من التجار بضاعتهم ، وحل بالقافلة المذكورة ما حل بهؤلاء فى عودتها لمصر فى أكتوبر ١٨١٣ . وفى شهر ديسمبر استطاعت قافلة كبيرة مسلحة من سنار أن تقتل نعيماً ، فغدت الطرق مأمونة بعد موته . ولكن التجار مع ذلك أجلوا سفرهم للنوبة ، فقد نمى إليهم أن سكان الأقاليم الجنوبية المشرفة على النيل يتضورون جوعاً لما طرأ على محصول الذرة من هبوط سببه الفيضان الشحيح ، وروى أن الزنوج التعساء برحت بهم المجاعة تبريحاً ، فكان الواحد منهم يقتل صاحبه من أجل حفنات من الذرة . ورأى تجار الرقيق أن تكاليف إطعام العبيد ستأتى على كل ما يرجون من وراء الرحلة من ربح ، فأرجأوها إلى المحصول التالى .

وكنت فى أثناء ذلك قد اتخذت إسنا مستقراً ، وهى تبعد ثلاثة أيام من دراو محطة قيام القافلة . ولما كنت أوثر ألا يعرف الناس من أمرى كثيراً ، لذلك لم أكن أخالطهم إلا فى الضرورة القصوى ، وارتديت أحقر ما يرتديه أهل مصر من ثياب ، ولم أنفق من المال إلا أقله ؛ فنفقتى اليومية على نفسى وعلى خادمى وبعيرى وحمارى لم تزد على شلن وستة بنسات ، أما جوادى فكان يكلفنى ستة عشر بنساً فى الشهر . ولكنى برغم كل هذه الحيطة لم أقو على دفع الظنون والشبهات ، فخالنى بعضهم ذا ثراء عريض ، وحسبنى غيرهم رجلا محظوظا هداه حسن الطالع إلى كنز دفين . وكنت أخشى الاشتغال بالتجارة لئلا يلجئنى ذلك إلى الاختلاط بالتجار فيشتهر أمرى بين الناس . ولكن القوم فى مصر لم يألفوا أن يروا رجلا

(*) لم يكن نعيم شيخا للرباطاب بل قاطع طريق من هذه القبيلة التى تسكن مقرات ، وقد حنق عليه العبابدة لسطوه على قوافل العطمور التى كانت تحت سلطانهم وقتلوه عام ١٨١٢ وحملوا رأسه إلى مصر وأرسلت أذناه إلى والى مصر فى الحجاز . (المترجم)

يعيش من دخله دون أن يكون له عمل أو مهنة ، فهو إما زارع أو تاجر أو موظف حكومة . فإذا استطاع إنسان أن يعيش دون أن يكون أحد أولئك ، أو دون أن يستجدى ، كان ذلك فى نظرهم مبعثاً للدهشة والعجب ومثاراً للشبهة فى أن الرجل يخفى صناديق من الريالات المكدّسة .

وألممت مرات بدراو أستطلع أمر القافلة وأتعرف إلى وجوه القوم . وفى منتصف فبراير تقريبا بعث مراسلى بدراو رسولا إلى بإسنا ينبئنى بأن القافلة على أهبة الرحيل ، فانطلقت إلى دراو ، ولكنى وجدت التجار يسوفون ويؤجلون . وانقضى أسبوعان قبل أن يصدر الأمر بقيام القافلة .

ودراو قرية كبيرة على ضفة النيل الشرقية تبعد عشر ساعات إلى الشمال من أسوان ، وأهلها من فلاحى مصر ومن عرب العبابدة الذين نزل كثير منهم القرى المصرية ، جنوب قفط حتى أسوان وبقى بعضهم بالجبل . وهم يعيشون فى الجبل عيشة البداوة طوال الفصل الذى لا تقتضى فيه الزراعة بقاءهم على ضفاف النيل ، أما فيما بقى من شهور السنة فهم يسكنون القرى شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين المصريين .

وللقبيلة شيخان يقيم أحدهما فى إدفو الواقعة على ضفة النيل الشرقية على نحو أربع ساعات من دراو شمالا ، ويقيم الثانى فى دراو .

وقد اشتغل العبابدة من عصور سحيقة خبراء للقوافل التى تعبر صحراء النوبة ، وفيهم كثيرون من كبار تجار الرقيق . ويتقاضى شيوخهم ضريبة على كل رقيق وكل جمل محمل يجتاز الصحراء ما لم يكن ملكا لبدوى من قبيلتهم .

أما غير العرب من أهل دراو فهم فلاحون تزوجوا نساء من العبابدة ، وجلهم يشتغل كذلك بتجارة الرقيق . وقد ألفيتهم بعد خبرة مؤسفة صعاليك مملقين يعيشون فى ضنك وفاقة على كثرة ما تدره عليهم تجارتهم من ربح يبددونه فى السكر والفجور .

وكنت قد أخذت عدتى للرحلة وأنا بإسنا . ولكنى ما وصلت دراو حتى

وجدتنى مضطراً لتغيير خططى . كنت قد جلبت معى بعيراً وحمارا لأحمل أولهما المتاع والزاد والماء ، ولأمتطى ثانيهما جريا على عادة التجار النوبيين الذين يسافرون إلى بلاد الزنج على حمير يبيعونها فيها ثم يعودون راكبين جمالهم . ولم أصطحب معى خادماً هذه المرة ، فقد بعثت بالفلاح الذى كان يخدمنى أصدق خدمة طوال إقامتى بالصعيد إلى القاهرة وأنا مغادر إسنا وحملته طائفة من الخطابات ، لأننى عقدت العزم على أن أجرب حظى فى هذه البلاد وحيداً بغير خادم . ولقد تعلمت بالتجربة أن الأجراء الذين لا يحفزهم للخروج فى الرحلات الشاقة الخطرة إلا ما يصيبون من أجر شهرى ، يكرهون فى العادة ركوب الخطر ويجفلون من المشقات مهما هانت ، فيصبحون كَلًّا على سادتهم لا عوناً لهم ، بل إن منهم من يعرض حياة سيده للخطر بجهله أو غدره . ولما كنت موفور العافية فإنى لم أحجم عن تحمل العبء الإضافى الذى كان يحمله عنى خادمى لو أنه رافقنى فى الرحلة . وفى دراو أتيح لى أن أرى ما أعده المسافرون من عدة للرحلة ، وأن أتبين أنى لم أتوخ ما توخوا من اقتصاد شديد . ذلك أن متاعى وزادى كانا يزنان زهاء قنطارين ، فى حين يطيق جملى حمل ستة قناطير . أما مئونتى من الماء فكنت سأحملها فى قربتين صغيرتين أعلقهما على بردعة حمارى . وعلى ذلك يستطيع جملى أن يحمل أربعة قناطير أخر يبلغ أجر نقلها عشرين ريالا بواقع خمسة ريالات للقنطار . فلو أننى استهنت بهذا المبلغ لتعرضت لنقد رفاقى ، ولحملتهم على الظن بأنى ثرى أمثل . وسرعان ما عرض على بعضهم أن أنقل لهم أربعة قناطير عبر الصحراء إلى القوز لقاء الأجر المذكور ، ولكنى رأيت أن تحميل الجمل بهذا الحمل ثم إنزاله عنه سيجشمنى عناء كبيرا ، لذلك استصوبت أن أبيع الجمل ، وما لبثت أن وجدت له مشتريا نقدنى فيه خمسة وعشرين ريالا لأن الإبل كانت عزيزة بصعيد مصر فى ذلك الحين ، وتكفل الرجل فى هذه الصفقة بنقل متاعى عبر الصحراء .

ذهبت إلى دراو متنكراً فى زى تاجر فقير ، وهو المظهر الوحيد الذى أحسبنى كنت أوفق فيه . ولست أرى بأساً من أن أسوق إلى القارىء هنا بيانا مفصلا بما كنت أحمل من متاع وزاد ، فأنا شخصياً كنت إذا قرأت كتب الرحلات أتوق إلى جمع هذه المعلومات للإفادة منها .

كنت أرتدى « الزعبوط » الذى يرتديه أهل الصعيد ، وهو عباءة صوفية فضفاضة بنية اللون ، وأرتدى معه قميصاً وسراويل من الكتان الأبيض الخشن ، وعلى رأسى لبدة من الصوف الأبيض ألفها بمنديل عادى لتتخذ شكل العمامة ، وفى قدمى خفان . وكنت أحمل فى جيب زعبوطى يومية صغيرة وقلما وبوصلة جيب ومبراة وكيسا للتبغ وزناداً من الصلب أقدح به النار . أما زادى فكان أربعين رطلا من الدقيق ، وعشرين من الكعك ، وخمسة عشر من البلح ، وعشرة من العدس ، وستة من السمن ، وخمسة من الملح ، وثلاثة من الأرز ، ورطلين من البن ، وأربعة من التبغ ، ورطل فلفل وبعض البصل ، يضاف إلى ذلك ثمانون رطل ذرة عليقاً للحمار . وكان معى حلة وصحن من نحاس ومحمصة للبن ، وهاون من الفخار لصحن البن ، وفنجانان للقهوة ، وسكين وملعقة ، وسلطانية من الخشب للشرب وللملء قربتى ، وبلطة وعشر ياردات من الحبال ، وإبر وخيط ومسلة ، وقميص احتياطى ، ومشط ، وإ كليم ، وحرام مغربى للغطاء ليلا ، وحزمة صغيرة من الأدوية ، وثلاث قرب احتياطية .

كذلك كنت أحمل بين متاعى مصحفاً صغيراً للجيب ابتعته فى دمشق (ولكنى فقدته فيما بعد يوم حججت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨١٤ وأنا بين جموع المصلين فى عرفات) ، ويومية احتياطية ومحبرة وأفرخ ورق أ كتب عليها التعاويذ للزنوج . أما ساعتى فقد كسرت وأنا بصعيد مصر ولم أستطع الحصول على سواها . ومن ثم فساعات السير التى سجلتها فى يوميتى هى نتيجة تقديرى وملاحظتى لسير الشمس .

وأما ما حملت من بضاعة قليلة فعشرون رطل سكر ، وخمسة عشر رطل صابون ، ورطلان من جوزة الطيب ، واثنتا عشرة شفرة للحلاقة ، واثناعشر زناداً ، وطربوشان أحمران ، وعشرات من السبح الخشبية التى يمكن التعامل بها بسهولة فى أقاليم الجنوب بدلا من النقود . وكنت أحمل إلى ذلك بندقية معها ثلاث دست من الرصاص وبعض الرش الصغير ، ومسدساً ونبوتا صفح طرفاه بالحديد فأصبح سلاحاً للقتال ومدقا للبن على السواء ، وكنت أحمله معى أنى سرت جرياً على عادة

أهل البلاد . أما كيس نقودى الذى حملته فى حزام أمنطق به تحت الزعبوط ، فكان يحتوى على خمسين ريالا إسبانياً تدخل فيها الخمسة والعشرون التى قبضتها ثمنا لبعيرى ، يضاف إلى هذا المبلغ جنيهان بندقيان (*) دسستهما فى حجاب جلدى صغير شددته إلى مرفقى لأنى رأيت هذا خير وسيلة لإخفائهما . ولولا أنى تعطلت طويلا فى بدء رحلتى من مصر لحملت معى من النقود أكثر من هذا ، ولكنى — وقد بلوت من أمر الرحلة بعد ذلك ما بلوت — أقول إننى فى شك كبير مما كنت أكسبه من وراء هذه الزيادة من نفع . وكنت فى بداية الأمر قد رصدت لهذه الرحلة مائتى ريال حملتهما معى من أسيوط إلى إسنا فى سبتمبر من عام ١٨١٣ ظنا منى بأنى مستطيع القيام مع القافلة دون إبطاء . ولكنى بعد ذلك وجدتنى مضطراً إلى أن أجور على هذا المبلغ ، أقتطع منه مصروفى اليومى ، وأشترى منه بعيرى ، إلى غير ذلك من مطالب . وكنت قد أرسلت فى طلب مبلغ آخر من المال ، ولكنه لم يسعفنى بالوصول قبل قيام القافلة .

ولما كان انتظارى للقافلة قد طال ، فقد كرهت أن أفوت هذه الفرصة التى واتتنى — فرصة الخروج معها فى الرحلة — لا لشىء إلا لضيق يدى . ثم إن الأنباء التى جمعتها عن الحالة فى بلاد الزنج حملتنى على الظن بأنى قد أوفق فى رحلتى إليها ولو بهذا المبلغ الزهيد مادام مكثى بها لن يطول . زد على ذلك أننى كنت على استعداد للتعويض عن قلة المال بالتقشف وبذل الجهد ، واجتنابهما هو أهم دواعى الإسراف فى مثل هذه الأسفار .

وحزمت متاعى وزادى كله فى خمس غرائر أو « جربان » من الجلد درج على استعمالها تجار الرقيق ، أما ما كنت فى حاجة دائمة إليه من الأدوات فقد أودعته حقيبة صغيرة شددتها إلى ظهر حمارى .

لم يكن الزاد الذى يحمله أغنى تجار القافلة يختلف عما أحمله ، ولم يزد بعضهم من الأطايب إلا السمك المجفف والشهد والجبن . والجبن طعام يطيب المسافرين من غير شك ، ولكنه لا يناسب المسافرين فى الصحراء حيث يجدر بالمرء أن يجتنب من الطعام ما يثير ظمأه . وكان لدى بعض المسافرين فى القافلة نوق مرضعات كانوا يحلبون منها كل يوم مقداراً من اللبن اللذيذ .

(*) Sequins

وفى أول مارس اجتمع شمل التجار فى دراو ، وفى فجر الغد حملت البضائع المختلفة التى ستنقلها القافلة إلى ميدان مواجه للقرية يدعى برزة الجلابة .

ولما انتصف النهار سقيت الجمال(*)وأنيخ كل بعير إلى جوار حمله . وقبيل التحميل أقبلت نسوة العبابدة يحملن أوعية من الفخار ملئت جمراً فوضعنها أمام كل حمل ورششن الملح على الجمر ، فلما تصاعدت منه اللهب الزرقاء عند احتراق الملح طلبن للرجال السلامة ودعون لهم بالتوفيق فى الحل والترحال . وهن يزعمن أنهن يطردن بذلك الشيطان وكل روح شرير .

ورافقتنا نساء القرية وأطفالها زهاء نصف الساعة بعد خروجنا من القرية . وكان أخص أصدقائى فى دراو — وهو رجل يدعى الحاج حسين العلوان أقمت فى بيته وأغدقت عليه الهدايا الكثيرة اعتقاداً منى بأنه ينوى السفر معى بشخصه ، مما يجعله رفيقاً عظيم النفع — كان هذا الرجل قد أعلن فى اليوم السابق لرحيلنا أنه باق بدراو . ولكن أخاه وابنه علياً انضما إلى القافلة ، وكانت جماعتهما أكبر جماعات التجار المصريين بيننا وأغناها .وتبعنا الشيخ ونساؤه مسافة بعد القرية ، وأخذ يوصى قريبيه بى خيراً ونحن نفارقه ، وكان يقول لابنه وهو يفتح صدريته ويضع يده على قلبه « إنه أخوك ، فليكن هذا مكانه منك » . وهذه العادة شائعة فى صحراء العرب كذلك ، ولها هنـــاك مغزى ودلالة ، أما بين هؤلاء المصريين فليست سوى عبارة جوفاء تلوكها ألسنتهم . ثم سرنا فى سهل رملى فى شىء كثير من الفوضى التى تنتشر عادة فى بداية الرحلات . وكان كثير من الإبل محمــلا أسوأ تحميل ، وألقت بعض الإبل أحمالها عنها لطول ما ألفت من البطالة ، واضطررنا أن نبيت ليلتنا فى واد معشوشب يبعد عن دراو ساعتين ونصفا إلى الجنوب الشرقى ، وهناك نعمنا بأكل ما أعدته نساء دراو من طعام شهى طيب ، وأشعل المسافرون نيراناً كبيرة وأنفقوا الليل فى الغناء والضجيج .

٣ مارس — غادرنا الوادى مبكرين ودخلنا وادى أم ركبة ،وهو وادعريض

(*) قبل أن يقوم التجار برحلتهم يعطون إبلهم ثلاثة أضعاف عليقها اليومى من الذرة ويحشون حلوقها أياماً متوالية ، وإذا بدأت الإبل الرحلة اخذت تجتر هذا الطعام المختزن أياماً .

طيب المرعى سرنا فيه أكثر من ساعتين ، ثم ارتقينا تلا قائماً ، وهبطنا وصعدنا مرات قبل أن نحط رحالنا فى واد قريب من عين ماء اسمها **أبو كبير** ، ولم نقطع فى يومنا غير ست ساعات كان سيرنا فيها بطيئاً جداً .

وفى الوادى بعض الشجر ، وقد تجد الماء فى أى أرجائه إن حفرت عليه فى الرمل . واجتذبت عين أبو كبير الشحيحة بعض البدو من العبابدة فأقاموا حولها ، وقد اشترينا منهم بعض غنمهم . وصخور الجبال التى اخترقناها اليوم كلها من الظران .

٤ مارس ـ سلكنا هذا الصباح أودية رملية زهاء أربع ساعات ، ثم بلغنا عقبة تنتهى عندها الرمال وتلال الظران . وعبرنا العقبة ـ وهى من الجرانيت والشست ـ وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا مكاناً اسمه **أبو عجاج** ، فيه مستودع طيب لمياه الأمطار هيأته الطبيعة بين الصخور الجرانيتية ، وكانت طريقنا تيمم جنوب الجنوب الغربى . والمسافة من هذا المكان إلى أسوان ست ساعات . ويبدأ خلف مستودع المياه المذكور مباشرة درب ضيق بين الصخور لا تمر فيه الجمال المحملة إلا بشق الأنفس . وفى منعطف من منعطفات الجبل فى هذا الدرب وجدنا طلائع القافلة مشتبكة فى شجار صاخب مع جماعة قوية من البدو المسلحين ، وقبل أن أعلم تفاصيل النزاع رأيت عبابدة قافلتنا يتقلدون سلاحهم ويتقدمون لمهاجمة خصومهم . وكان هؤلاء من العبابدة كذلك ولكنهم من عشيرة أخرى ، وقد ترامى إليهم أننا رحلنا عن دراو فخرجوا من بيوتهم فى **الخطارة** ـ وهى قرية قريبة من أسوان ـ ليكمنوا لنا فى هذا الدرب الضيق ويتقاضوا منا ضريبة المرور . وكانت عدتهم ثلاثين رجلا ، وكذلك كان أصحابنا العبابدة ، ونضا الجميع ثيابهم لأن من أصول القتال عندهم أن يتخففوا فيه من الثياب إلا من وزرة يلفها الرجل منهم على خاصرته(*) . وكان سلاحهم السيوف الطويلة ذات الحدين ، والرماح القصيرة والدرق التى استخدموها على الأخص فى اتقاء وابل الأحجار التى قذفهم بها الخصوم فى بداية المعركة . ولما رأيتهم يحملون على بعضهم البعض ثم يلتحمون بالسيوف وهم يتصايحون تصايحاً منكراً

(*) يقاتل النوبيون عراة على الصورة نفسها

ظننت الهاجين من اللصوص ، فتهيأت للانضمام إلى أصحابنا العبابدة . وما إن صوبت بندقيتى إلى شيخ الهاجين حتى صاح بى رجـل من جماعتنا يستحلفنى بالله ألا أطلق النار أملا منه فى حقن الدماء . ورحب التجار المصريون بالوقوف فى المؤخرة ليدافعوا عن أمتعتنا عملا بنصيحة الخبراء . وكان القوم يحملون سيوفهم ، ولم يكن غيرى يحمل بندقية ، وقل منهم من كان يحمل غدارة ، وكان العبابدة يتوقون إلى تسوية النزاع بحد السيف . وانقضت عشرون دقيقة وهم يقاتلون قتالا يخالطه الإحجام والتردد ، ثم أمسك الجميع بعد تدخل الشيوخ من الفريقين ، وزعم كل فريق أنه المنتصر . ولم تزد الخسائر فى المعركة على جرح ثلاثة منهم بجراح طفيفة وفلق درقة من درقاتهم نصفين . على أن أصحابنا ظفروا بما أرادوا ، فقد مررنا دون أن نؤدى ضريبة مرور . ولقد طابت نفسى بما رأيت من إمكان الاعتماد على رفاقنا العرب إذا تعرضنا لهجوم آخر فى أثناء رحلتنا . أما من كان فى القافلة من التجار المصريين فقد ظهر إحجامهم واضحاً جلياً رغم تشدقهم وجعجعتهم . ولبعض شيوخ العبابدة حق فى إتاوة يجبونها من القوافل ، ولـكن غير هؤلاء كثيرون ينتحلون لأنفسهم هذا الحق الذى ليس لهم ، وواجب الخبراء أن يحموا القافلة من هذا الابتزاز . وليس فى استطاعة قافلة من القوافل أن تعبر الصحراء آمنة مطمئنة دون أن يرافقها بعض العبابدة ، ولا يقدم التجار المصريون على هذه المغامرة وحدهم مع أن كثيرين منهم عليمون بمسالك الصحراء .

وانسحب الهاجون بعد أخذ ورد مستفيضين عقب المعركة . وكنا ننوى المبيت أول الأمر فى أبو عجاج ، ولـكن الخبراء استصوبوا الآن السير قدما خشية أن يرسل الخصوم ليلا فى طلب المــــدد من قريتهم . لذلك سرنا ثلاث ساعات أخر فوق أرض صخرية حتى وصلنـا واديا عريضاً يدعى وادى هود وعنده حططنا . وقد رأينا أرجالا كبيرة من الجراد بين الأحجار الجرانيتية الجرداء طوال مسيرنا بعد ظهر اليوم .

٥ مارس — ووادى هود واد عريض يحفل بالشجيرات والأعشاب ، وتحف به من الجانبين صخور جرانيتية بديعة شبيهة بصخور أسوان والشلال . ومضينا نضرب

فى الوادى ساعتين ، وبعد أن أكملنا مسيرة ثلاث ساعات بلغنا صخوراً رملية تقطعها طبقات من المرو . ثم صعدنا سهلا هيناً ، وبعد أربع ساعات جئنا وادياً رملياً فسيحاً سلكناه ساعات ووجهتنا جنوب الجنوب الغربى ، حتى إذا أتممنا مسيرة سبع ساعات بلغنا وادياً ضيقا يدعى أم الجبال (وسمى كذلك لكثرة ما به من منعطفات)، وهناك حططنا بعد أن سرنا فى يومنا هذا نحو سبع ساعات ونصف.

ويحفل هذا الوادى بالأشجار الشوكية من فصيلة السنط ،وتنسجم أوراقها الخضراء الداكنة انسجاماً رائماً مع الصخور الجرانيتية المحيطة بها ، وسطح الصخور مصقول براق ولونها أسود فاحم . وفى مواضع قليلة يتجاوز عرض الوادى ستين ياردة ، وقد يبلغ ارتفاع أعلى قمم صخوره ـ وكلهـــا ربى قائمة ـ مائتى قدم أو ثلاثمائة فوق الأرض المستوية . واستخدمنا وقوداً للنار التى أشعلناها هذا المساء الروث الجاف الذى خلفته جمال بركت من قبل فى هذا الموضع . والحق أننا قل أن حططنا مساء بموضع دون أن نجد هذا الوقود ، وذلك لأن التجار قلما يشذّون عن الدرب المطروق ، وهم لا يحطون فى موضع اعتباطاً ، إنما هم مقيدون بالمواضع التى يجدون فيها مرعى من الكلأ أو الشجيرات ،أو على الأقل من السنط تقضم إبلهم أوراقه وغصونه ساعات فى المساء . ولم أجد فى مضارب هذه القافلة من النظام ما وجدت عند بعض القوافل التى تجتاز الصحراء الشرقية .كانت عدتنا تسعة وثلاثين بعيراً محملاً ، وخمسة وثلاثين حماراً ، ونحو الثمانين رجلا ، وكنا مقسمين إلى اثنتى عشرة أسرة ، يؤلف كل منها جماعة منعزلة قائمة بذاتها . وكان بيننا رجلان من أسوان ، أما الباقون فمن دراو وإقليت وإسنا ، وقليل منهم من قوص وفرشوط . وأهل أسيوط قلما يتخذون هذا الطريق فى رحلاتهم . وكان شيخ العبابدة رئيساً للقافلة يرضى الجميع ، بيد أن التجار المصريين كانوا فى الغالب يحطون ويرحلون وفق هواهم وكما يطيب لهم(*)،فكانت لا تخلو عشية من شجار حول الموضع الذى نحط فيه .

(*) يعامل العبابدة التجار المصريين بشىء من الاحترام ويكرهون أن يغضبوهم لأنهم يطمعون فى عطاياهم . ولكن العبابدة يحظون فى كل مكان بما لا يحظى به الفلاحون [أى المصريون] من ثقة ، ولا بد أن ينقاد هؤلاء لرأى العبابدة فى جميع المسائل الخطيرة .

ولم يكن التجار يحملون خياماً ، فكان مبيتنا جميعاً فى العراء ، ولكن أحداً منا لم يكن يغمض له جفن قبل أن يضع متاعه فى وضع يتعذر فيه على اللصوص السطو عليه دون أن يتنبه لهم. ولم نكن نخشى لصوصاً من الخارج، بل كنا على يقين من أن فى نفر من أصحابنا جنوحاً إلى السرقة ، وقد سطا هؤلاء على متاع بعضنا المرة بعد المرة خلال الرحلة برغم كل ما اتخذنا من حيطة وحذر .

٦ مارس — طفقنا نضرب فى وادى أم الحبال ثلاث ساعات حتى وقفنا عند فج فى سلسلة التلال الغربية ، وهنا ألفينا بين الصخور مستودعاً طبيعياً كبيراً لمياه المطر ، وكان ماؤه صافياً عذباً زلالاً . واسم المكان **دحيت** ، ويطريه العرب كثيراً لأن ماءه قلما ينضب ، وموقعه فى شق من الجبل يبدو أنه من فعل زلزال عنيف . ويجد الداخل إليه أكواماً من الكتل الجرانيتية الكبيرة ، تتزايد كلما ارتقى التل إلى ارتفاع كبير ، وهناك مستودعان آخران للماء فى سمة الخزان السفلى وإن كان المرتقى إليهما عسيراً . أما الوادى نفسه فلا يخلو من جمال وروعة أضفتهما عليه الطبيعة ، وعرضه أربعون ياردة ، وهو حافل بشجر السنط ، وتحفه على الجانبين جروف قائمة من كتل الجرانيت المهشمة ذات الأشكال الغريبة . وحين يهطل المطر الغزير — وما أكثر ما يهطل فى هذه الأرجاء — تتجمع المياه المنحدرة من سلسلة التلال الغربية فتؤلف سيلا كبيراً قيل لى إنه يصب فى النيل قرب قرية دهميت على ثمانى ساعات من أسوان صوب الجنوب ، وعلى نحو أربع ساعات من دحيت ناحية الجنوب الغربى نبع ماء صاف يدعى **المويلح** ، وترتاده القوافل الخارجة من أسوان . ومكثنا هنا اليوم كله ، فقد درجت القوافل فى الصحراء الشرقية على أن تسير هوناً فى الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى من الرحلات الطويلة حتى تألف الإبل مشقة الرحلة شيئاً فشيئاً بعد شهور الراحة التى نعمت بها ، وهم يبطئون على الأخص حيث الكلأ الطيب والمرعى الجيد . وليس للوقت وتضييعه على هذا النحو أهمية عند تجار الشرق عموماً وعند العرب خصوصاً ، وقد روى لى فى دمشق أن القوافل الخارجة منها إلى بغداد قد تستغرق فى طى البادية ثلاثة شهور فى الربيع . وصادفنا هنا أيضاً أرجالا كبيرة من الجراد .

وقد استفحل أمر هــــذه الأرجال الشرهة فكانت تنتشر فى الجبال أحياناً انتشاراً واسعاً فتأتى على كل أخضر مورق ، وكثيراً ما تصل ماشية البدو إلى حالة رثى لها إذا نكبت بغارات الجراد .

٧ مارس — خرجنا من الوادى بعد ساعتين ولقينا بعض العرب البشارين وهؤلاء البدو الذين ذكرتهم من قبل فى معرض الحديث عن رحلتى لدنقلة يقضون الشتاء فى الجبال القريبة من البحر الأحمر ، وهى جبال تحفل بالكلأ عند سقوط الأمطار الشتوية ، فإذا أقبل الصيف اضطرتهم قلة الآبار والعيون إلى الهجرة إلى قرب النيل حيث الآبار موفورة. وكنا الآن نضرب فى سهل رملى مكشوف أجرد تقوم إلى شرقيه الجبال الشاهقة وعلى كثب منه إلى الغرب تلال منخفضة. ووادى أم الحبال كله من الجرانيت . ولكنى لقيت فى هذا السهل الحجر الرملى والمرو مرة أخرى . وقضينا زهاء خمس ساعات فى عبور هذا السهل المسمى **بركة وهانه** . وبعد رحلة سبع ساعات من السير الوئيد صوب الجنوب الشرقى وقفنا عند مدخل سلسلة من الجبال الواطئة وجدنا فيها مرعى طيباً وفيراً . ويكثر فى هذا المكان نمو أعشاب تدعى الطويلة ، وهى طعام جيد للإبل ، ومذ رحلت عن دراو لم ينقطع الخلاف بينى وبين الرجل الذى ابتاع جملى وحمل عليه بضاعتى . ذلك أنه أخذ على عاتقه نقل بضاعة أخرى لم يكن للجمل بحملها طاقة ، فكان يريد التخفيف عنه بمحاولة وضع بضاعتى على حمارى مع أنه تسلم ثمن نقلها . وأعيا الجمل عن السير هذا المساء ، فرمانى الرجل بأنى غششته وبعته بعيراً مهزولا ، وأصر على أن أرد إليه نقوده، ولكنه ما لبث أن عدل عن هذا الطلب . وكان العدل، والعرف السائد حتى بين التجار أنفسهم ، يقضيان بأن يتحمل الرجل أجر نقل بضاعتى من هذه اللحظة ، ولكنه راح يحلف ويندب حظه على مسمع من الجميع،وزعم أن الخراب والإفلاس قد حلا به،وأخذ يحثو التراب على وجهه حزناً وتفجعاً حتى رقت له قلوب شيوخ القافلة فانحازوا لصفه ، واضطررت آخر الأمر للاتفاق مع أحد العرب العبابدة على حمل بضاعتى من جديد ، ولما كنا قد سلخنا من سفرتنا ستة أيام فقد خف ثقل الزاد وخفت معه حمل الجمل يوماً بعد يوم ، وهذا ما يعتمد عليه التجار دائماً فلا

يأخذون معهم إبلا احتياطية من مصر كما جرت عادة القوافل الأخرى ، فإذا أعيت بعض الإبل وخارت قواها وزعت أثقالها على غيرها لقاء أجر عادل ، ولا يستطيع رجل فى القافلة أن يرفض تحميل جمله بحصة من هذه الأثقال ما دامت الضرورة تدعو إلى هذا الإجراء وما دام جمله يطيق هذا الحمل الجديد . ثم استأنفنا السير بعد الغروب ، وقضينا ثلاث ساعات أخر نضرب فى الوديان حتى جئنا جبالا واطئة تدعى **أم حريذل** فحططنا عندها .

٨ مارس — وجبال أم حريذل من الجرانيت الأشهب الداكن ، وبعد أن جزناها اخترقنا سهلا رمليا عميقاً لا أثر فيه لعشب أو شجر ، وكنا نتجه إلى الجنوب الشرقى ، ورأينا أشلاء الجمال وعظامها مبعثرة على الطريق ، ذلك أنه قلّ أن تقوم قافلة بهذه الرحلة دون أن تلقى بعض جمالها حتفها فى الطريق ، وعلى الأخص فى المناطق المحجرة التى يشق فيها السير ، أو على مقربة من الآبار حيث تهرع الجمال المنهوكة القوى إلى الماء تعبّ منه عبا يضعف من قدرتها على مقاومة التعب واحتمال أثقالها . ومررنا فى الطريق بكثير من التلال الجرانيتية الصغيرة المنعزلة ، ورأينا كثيراً من الكتل الجرانيتية القائمة وسط الرمال . وحططنا قرب الظهيرة عند مدخل سلسلة من الجبال تمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، واسمها جبل **هزربة** . وقد درجت القوافل على الراحة فى ساعات الظهر لتناول الغذاء وللقيلولة ساعتين ، فإذا كانت القافلة عائدة من السودان ، وكانت الإبل فيها موفورة وكل مسافر فيها راكباً ، فإنها تطيل المراحل وتسرع السير . أما فى حالتنا هذه فقد كان ثلثا القوم راجلين . واستأنفنا السير حوالى الساعة الثانية ، ثم وقفنا قبيل الغروب . وفى عصر هذا اليوم جزنا هزربة وسرنا فى نفس الاتجاه حتى أدركنا صخوراً تدعى **بيبان** ، وبذلك أكملنا مسيرة تسع ساعات لم يقع بصرى فيها على عشب أو شجر . والصخور التى حططنا إلى جوارها جرانيتية اختلطت بها كتل كبيرة من الفلسبار .

٩ مارس — اضطرتنا حاجتنا إلى المياه للرحيل بعد منتصف الليل بقليل ،

فسرنا خمس ساعات وصلنا بعدها وادى نقيب وبه آبار لها هذا الاسم ، وهو حافل بأشجار السنط ، وعند طرفه بئران عميقتان لابأس بمائهما .

كانت معاملة رفاقى لى منذ رحلنا عن دراو تنطوى على الإغفال بل قل على الامتهان والازدراء . ولست أشك فى أنه لم يدر بخلدهم قط أننى أوربى ، بل حسبونى تركى الأصل — من تركية أوربا أو من الأناضول — وهو رأى يكفى فى ذاته لحمل العرب على الإساءة إلىّ وتحقيرى ، لأنهم يكنون للعثمانيين أشد ضروب البغض والكراهية . وكنت أحمل معى فرماناً من حاكم الصعيد إبراهيم باشا بن محمد على باشا ، مشفوعا بخطاب توصية وجهه إلى كل ملوك السودان فى طريق سنار ، وقد سميت فى الفرمان والخطاب بالحاج أو الشيخ إبراهيم الشامى . على أننى لم أطلع رفاقى على شىء من هذا كله لأسباب لاتخفى ، وكل ما فهموه عنى هو أننى حلبىّ المولد ، وكانوا يعلمون أننى صديق حميم لحسن بك والى إسنا الذى تدخل دراو وفى نطاق ولايته ، وصديق لآل حباتر الإسناويين ذوى التجارة العريضة ، وهم الذين أوصوا بى مراسل الوالى فى دراو . ورأى رفاقى أننى لم أجلب من البضاعة إلا أقلها فحسبونى هارباً من مصر بسبب ديونى . ولكنى زعمت لهم أننى أبحث عن ابن عم لى مفقود كان قد غادر أسيوط من سنوات قاصداً دارفور وسنار فى تجارة أودعت فيها كل مالى . وكانت هذه الحجة التى بررت بها رحلتى تلائم عقلية القوم كل الملاءمة ، فإن ما كنت أحمل من بضاعة ضئيلة لم يكن ليبرر خروج رجل يتمتع بقواه العقلية فى رحلة كهذه لا يبغى منها غير الكسب ، فقصارى ما يرجوه من ورائها مهما فسح أمله وعظم تفاؤله هو أن يعود برأس ماله سليما بعد أن يؤدى كل نفقات الرحلة ، لذلك وجدتنى مضطراً إلى اختلاق عذر أبرر به خروجى فيها ، فرحت أردد على مسمع رفاقى أننى كبير الأمل فى العثور على ابن عمى المفقود ، أو على الأقل فى القصد فى النفقة قصداً يجنبنى الخروج من الرحلة خاسراً . ولعل أصحابى لم يكذبوا قصتى ، ولعلهم كذلك لم يستبعدوا أننى خرجت من مصر هروباً من الدائنين ، على أننى تبينت فى الوقت نفسه أنهم لم

يستطيعوا أن يخلوا أنفسهم من الغيرة والحسد ، ولعلهم رأوا أننى إن عدت من هذه الرحلة مقتنعاً بما تدره التجارة من ربح فقد لا أعدم وسيلة لرحلة ثانية أخرج فيها للسودان برأس مال كبير . وأحسب أن هذا هو الذى حملهم على إساءة معاملتى حتى أعدل عن أية محاولة أخرى من هذا القبيل . ولقد حاول أتراك كثيرون من الأناضول أو من تركية أوربا — فى السنين العشر الأخيرة — أن يشتغلوا بهذه التجارة، ولكن أهل دراو ما فتئوا يجدون الوسائل لتنفيرهم تنفيراً يزهدهم فى إعادة الكرة من جديد . كان لدى التجار إذن من الدوافع ما يحملهم على الإساءة إلىّ ، ولما تبينوا فىّ فوق هذا كل مظاهر الإملاق ، ورأونى أقطع الخشب وأطهو طعامى وأملأ قربى بيدى ، لم أفضل فى نظرهم أجيراً من الأجراء الذين يستخدمهم التجار لقاء عشرة ريالات ينقدونها الواحد منهم فى الرحلة من دراو إلى القوز أو شندى ثم إلى دراو ثانية . وكنت حريصاً على الإبقاء على العلاقات الطيبة بينى وبين آل علوان وكانوا وجوه التجار المصريين فى القافلة ، وخيل إلىّ أن وساطتهم قد تنفعنى فى بلاد الزنج . ولكنهم حين رأونى بالغاً فى الإملاق مبلغاً لا يطمعون معه فى الحصول على أى عطاء منى ، نسوا كل ما أغدقت عليهم قبل رحيل القافلة ، وخلت معاملتهم لى من كل أدب واحترام . فبدأوا يغتابون حسن بك والى إسنا ويسبونه بأقذع الألفاظ وراحوا يقولون : أما وقد صرنا الآن فى البادية، فإن جميع البكوات والباشوات لا يساوون فى نظرنا قلامة ظفر . فلما لم أبال كثيراً بما يقولون راحوا يخاطبوننى بعبارات ملؤها الزراية والتحقير ، وكانوا لا ينادوننى إلا بـ «الولد» . وكانت إهاناتهم لى تزداد يوما بعد يوم، ولكنى كظمت غيظى ولم أرد على الإهانة بمثلها ، فغاية ما كانوا يشتهون هو استفزازى حتى إذا رددت على شتائمهم وجدوا تكأة تبرر اعتداءهم علىّ بالضرب ، وكنت فى بداية الرحلة أنضم إلى آل علوان حين تحط القافلة مساء ، وإن كنت أطهو طعامى مستقلا عنهم . على أنهم سرعان ما أقصونى عن جماعتهم ، واضطررت إلى اعتزال الجميع بعد أن أذاع الدراويون أن أشياء سرقت من متاعهم وأنهم يشتبهون فىّ . لست أريد أن أسرد كل ما أتاه القوم ، ويكفى أن أقول إنه لم تكن تمضى علىّ ساعة دون أن ألقى

الإهانة منهم بل من أحقر خدمهم ، فقد نهج الخدم نهج سادتهم، بل بزوهم في هذا المضمار . ولما وصلنا بئر النقيب ومضت الإبل والحمير لتشرب وحملنا القرب لنملأها نزل بعض رجال القافلة إلى البئر جرياً على عادتهم ليملأوا الدلاء ، في حين ظل البعض فوقها لسحب الدلاء . ولما لم يكن لي صاحب ينزل البئر ليستقي لي فقد اضطررت للبقاء عند البئر طوال العصر حتى جنحت الشمس إلى الغروب ، مما كان باعث سرور وتسلية لرفاق ، ولولا أن أحد الخبراء أعانني أخيراً وسحب دلوى بعد أن ملأته من البئر لما استطعت التزود بحظي من الماء .

وانضمت إلينا في النقيب جماعة صغيرة من التجار كانوا قد تعجلوا الرحيل من دراو فغادروها قبلنا بثلاثة أيام ، ولكنهم رأوا من الخرق أن يعبروا الصحراء وحدهم ، فانتظروا أياماً في هذا المكان حتى لحقنا بهم .

١٠ مارس — بلغنا وادي حيمور بعد أن سرنا ثلاث ساعات في إقليم صخري وعر سلكنا فيه طريقاً يحفل بالحجارة المتفتتة . ووادي حيمور مجموعة آبار ذات شهرة دائمة في هذه الصحراء . وقبيل بلوغنا هذا المكان مررنا بقبر ميت من وجوه المماليك لقي حتفه هناك فأودع أصحابه جثته العارية بين جدران واطئة بنوها بالأحجار الصغيرة ، ثم غطوا القبر بحجر كبير . وساعد جفاف الجو على حفظ الجثة من العطب ، وتطلعت إليها من خلال شقوق الحجارة المحيطة بها فبدت لي أسلم من أي مومياء رأيتها في مصر . ورأيت الميت فاغراً فاه ، وروى الخبير أنه مات ظمأ مع أن مورد المياه كان قاب قوسين منه أو أدنى . وتفصيل ذلك أن البقية الباقية من المماليك — يقودهم ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن — كانوا قد رحلوا عن ضفاف النيل قرب إبريم سنة ١٨١٠ فراراً من جنود الباشا الذين كانوا يتعقبونهم أينما حلوا ، فاعتصموا بهذه الجبال وحلوا على عرب العبابدة ضيوفاً فأنزلوهم مضاربهم ولكنهم لم يتركوا وسيلة إلا التجأوا إليها ليبتزوا منهم كل ما يحملون من مال . فباعوهم الزاد بأفحش الأثمان ، ولما نضبت الآبار لكثرة ما استقت منها جماعة المماليك الكبيرة ، اضطروا لأن يركنوا إلى أدلائهم العبابدة في التنقل بهم من بئر

إلى بئر . وكثيراً ما كان العبابدة فى هذه الجولات يطوفون بضيوفهم فى طرق دائرة ليخلقوا أزمة ماء مؤقتة ، فيبيعوتهم قرب الماء بأبهظ الأثمان بعد أن يملأوها سراً من نبع قريب. وفى أزمة من هذه الأزمات المفتعلة قضى المملوك المذكور نحبه، وقضى معه آخرون دفنوا بقربه. أما سائر الجماعة فقد ظلت أسابيع بوادى حيمور ثم أمروا خدمهم وحشمهم الذين لم يكن لهم بهم حاجة بالرحيل ، وكان من هؤلاء راقصات مصريات بارعات الجمال ، وكان ثمن مفاتنهن قد ارتفع فى الجبل بنسبة ارتفاع كافة السلع ، فأصبن بذلك حظاً موفوراً من المال فى أمد وجيز . وألف هؤلاء الأتباع والخدم الذين صرفهم سادتهم قافلة ، وأخذت القافلة سمتها إلى أسوان بإرشاد خبراء من العبابدة ، وإذا الخبراء يختفون ليلاقبل أن يبلغ الركب النيل بيوم ، حتى إذا انبلج الصباح هاجمتهم فئة كبيرة من العبابدة ، فسلبتهم ما يملكون وجردتهم من ثيابهم ثم أذنت لهم بمواصلة رحلتهم إلى مصر . ويبرر العبابدة غدرهم فى هذا الحادث وفى غيره من الحوادث التى سطوا فيها على كثير من المماليك الضالين وفتكوا بهم بأن المماليك كانوا البادئين بالعدوان ، وبأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلا للثقة ولا للرعاية التى هى حق من حقوق الضيف ؛ فقد ذبحوا ماشية البدو واستباحوا نساءهم . ولعل بعض هذا قارفه المماليك ، ولكنه لا يبرىء العبابدة الذين يعلم القاصى والدانى ما فى طبعهم من غدر وخيانة. وتنبع آبار وادى حيمور وسط سهل رملى صغير يقوم بين التلال الصخرية . والماء فى بئر منها أو بئرين لا بأس بمذاقه ، ولكنه فى معظمها زعاق كريه وإن كان يتدفق مدرارا . وعلى حواف الآبار طبقة من النطرون، وقد رأينا الأرض حول الآبار مغطاة بروث الإبل والخيل المتخلف منذ عسكر المماليك بهذا المكان ، وانتشرت فيه النعال العتيقة وقطع الخيام وخرق الثياب القديمة وسهل حيمور تؤمه جماعات البدو البشارين انتجاعا للكلأ ، ولكنهم يلتزمون بدفع ضريبة سنوية لرؤساء العبابدة لأن الآبار تدخل فى نطاق أملاكهم . وكثيراً ما يلتحم الفريقان لهذا السبب ، ولكن العبابدة أصبحوا اليوم أقوى من خصومهم وأشد خطراً ، وهم كذلك أوفر مالا لما بينهم وبين مصر من تجارة . ولا

يحتك العبابدة إلا بالشماليين من البشاريين . ولم نجد بوادى حيمور من الأسر البشارية إلا القليل ، ومررنا بالسهل مرور الكرام لأننا كنا ملأنا قربنا من ماء النقيب وهى أعذب بالقياس إلى ماء حيمور . ويبدأ بعد وادى حيمور إقليم صخرى وعر لقيت الإبل فى اجتيازه كل مشقة . فصعدنا فى صخور الجرانيت والحجر الرملى زهاء الساعة ، ثم هبطنا إلى السهل ثانية بعد أن سرنا فى يومنا خمس ساعات ونصفا ، وكان اتجاه سيرنا جنوبا بشرق . وتدعى الجبال التى عبرناها عقبة حيمور ، ويراها المسافر مشرفة من بعيد ، والسهل الواقع خلف العقبة سهل رملى يتخلله الكثير من الصخور الجرانيتية المنعزلة . ولم أتبين فى صخوره طبقات منتظمة؛ فقد كانت الصخور مهشمة مدببة الأطراف تحمل طابع هزة عنيفة انتابت الأرض فى هذا المكان . وبعد ساعة دخلنا واديا طيبا يدعى وادى نحدير أو غمرير (ويشق على التحقق من اسمه الصحيح لأن خطى فى اليومية غير واضح) .والوادى حافل بأشجار السنط، وكنا نأمل أن نعثر فيه على ماء متخلف من الأمطار التى يحتفظ بها خزان كبير صنعته يد الطبيعة هنا ، ولكنا وجدنا الماء قد نضب ، ودلنا روث الإبل المنتشر حول الخزان على أن جماعة من العرب قد نزحوه قبلنا . وعلى ذلك مضينا قدما ، وبعد أن أكملنا مسيرة ثمانى ساعات ونصف حططنا عند طرف الوادى .

١١ مارس — سرنا ثلاث ساعات فوق تلال محجرة ودروب صخرية حتى بلغنا بئر المرة ، والبئر جديرة باسمها حين يقارن ماؤها بماء النيل العذب ، ولكن عرب الصحراء الشرقية قلما يبالون بمرارتها لكثرة ما ألفوا من مياه مرة لم يعتدها النوبيون والمصريون . وبئر المرة واسعة يتجاوز عمقها أربعين قدما ، وقيل لى إن ماءها لا ينضب قط . وينبسط وادى المرة مسيرة ساعتين أو ثلاث صوب الشرق. وبعد أن تزودنا بقليل من الماء استأنفنا السير من فورنا حتى وصلنا وادى علاقى

بعد خمس ساعات . ووادى علاقى واد طيب يمتد من الشرق إلى الغرب ، وينتهى أحد طرفيه قرب البحر الأحمر فيما روى لى وطرفه الثانى قرب النيل . وفى موسم الأمطار تتجمع السيول الغزيرة فيه وتصب مياهها فى النيل ، والوادى عامر بالكلأ النضر والشجر الكثير ، وهذه المزايا النادرة تجعل له فى نفوس البدو منزلة أى منزلة . وقد حياه الخبراء حين دنوا منه تحية إكبار وإجلال ، وحمدوا الله على أن بلغوه سالمين « السلام عليك ياوادى علاقى الحمد لله الذى جيناك بالسلامة » . وفيما كنا نعبر الوادى — وعرضه زهاء مائة وخمسين ياردة — أخذ كل منهم حفنة من الذرة وبذرها على الأرض قربانا للروح الطيب الذى يظل الوادى فى اعتقادهم.

وبعد ست ساعات دخلنا وادى أم قات وبه خزان لماء المطر تستريح عنده القوافل ولكننا وجدناه جافاً . ولم نمر للآن بواد حفل بأشجار السنط كما حفل بها هذا الوادى، ورأينا أرجال الجراد وقد تكاثرت على الأوراق والأغصان الغضة تلتهمها التهاما. أما الأرض فكسوة بالحنظل ، وهو نبات شائع فى كل أرجاء هذه الصحراء . وأخذ المسافرون يتلهون بقذف كرات الحنظل وصدها بدرقاتهم فى مهارة عجيبة . أما أنا فلم أكن لسوء الحظ أملك درقة فظل أصحابى الدراويون يصوبون كراتهم إلى رأسى فى إسراف اضطرنى آخر الأمر إلى أن أستجير برئيس القافلة ليحمينى ، وقد أنقذ هذا الإجراء أننى من إصابة لا ريب فيها، ولكن القوم لقبونى بعده «بالواد الخواف» وعلق بى اللقب أياماً حتى خلعوا علىَّ شر آمنه . وكانت وجهتنا اليوم جنوباً بغرب. وتربة وادى أم قات رملية خالصة ، أما التلال فبزول عنها مظهرها الوعر الشائه وتتخذ شكل السلاسل المنتظمة . ورأيت معظم الأشجار جافا لأن الأمطار لم تهطل عليه ثلاث سنين تقريبا ، وقد أدهشنى ألا أرى فى الرمل آثار أقدام حيوانات متوحشة ولا فى الجو طيوراً خلا بعض الغربان . وصادفنا كثيراً من البشاريين ومعهم جمالهم المحملة بالسنمكى يقصدون بها الدر ليبيعوها أو يستبدلوا بها ذرة . ولبثنا العشية كلها نضرب فى الوادى ثم حططنا بعد مسيرة تسع ساعات .

١٢ مارس — قمنا قبل الشروق ، فبلغنا نهاية وادى أم قات بعد ثلاث ساعات وتلال هذا الوادى كلها من الجرانيت ، ودخلنا هنا سهلا رملياً فسيحاً ، ثم سرنا

ساعتين من بعده مخترقين سلسلة من الجبال صخورها من الحجر الأخضر . وبعد ست ساعات وصلنا وادى الطواشى ، وهو منسوب لأحد هؤلاء الخصيان من سدنة الكعبة الشريفة ، وقد قتل هنا وسرقت منه العطايا التى منحها إياه ملوك دارفور وسنار (*). ولم أستطع أن أعلم على التحقيق فى أية سنة لقى هذا الرجل حتفه ، ولكن أحد الخبراء ذكر لى أن أباه يذكر هذه السنة جيداً . لذلك لست أشك فى أن هذا الخصى هو الذى ورد ذكره فى رحلة بروس تحت اسم محمد طواش ، وهو الذى وجد هذا الرحالة جثته فى هذه البقعة ذاتها بعد أن أسر بدويا من البشاريين القتلة بثلاثة أيام .. وقارىء القصة قد يلحظ التلفيق فى تفاصيلها ، ولكنها صحيحة فى جوهرها . على أن قتلة الرجل لم يكونوا من البشاريين ، بل كانوا الخبراء الذين رافقوه ، وهم جماعة من العبابدة ينتمون لعشيرة حميداب ، وهى إحدى عشائر عشاباب ، ومقرهم بحيرة القريبة من أدفو على الضفة الشرقية للنيل . وقد لامهم أصحابهم أشد اللوم على ما اقترفت أيديهم ، ومنذ ذلك العهد سقطت عشيرة حميداب من عيون الناس وذهبت ريحها . وقبر الطواشى يقوم على سفح الجبل فى البقعة التى سقط فيها صريعاً ، وله عندهم مقام أضرحة الأوليـــاء والشهداء . والضريح مبنى بالحجر بيد قبيلة أخرى من العرب . وقد وجدناه مغطى بقليل من الحصر ، وقصدته الجماعة كلها وصلى كثير منهم ركعتين إلى جواره . وفيما هم يرحلون عنه نثروا عليه قربانا من الذرة وغيرها ، وملأوا جرة ماء كان قد تركها عند القبر مسافر قبلنا ، وقامت إلى جوار الضريح عيدان علقت عليها خرق ملونة جرياً على عادة العرب ، ورأيت على الأرض رحالا للجمال كان قد وهبها بعض المسافرين إكراماً للولى . وأنفقنا ساعات الظهيرة فى الوادى الفسيح إلى جوار الضريح الذى سمى الوادى باسم صاحبه ، ثم استأنفنا السير فوق أرض وعرة من الحجارة والرمال . وكان اتجاهنا طوال اليوم إلى الجنوب بانحراف قليل للشرق . وحططنا

(*) كان خصيان مكة والمدينة إلى عهد قريب يخرجون إلى السودان فى رحلات لاستجداء المحسنين . من ذلك أن أحدهم خرج إليه فى رحلة عام ١٨١١ فلقى من الإجلال والاحترام — بسبب صلته بالأراضى المقدسة — ما أتاح له جمع الأتباع وتأليف طائفة قوية استطاع بفضلها الاستيلاء على إقليم يحكمه اليوم بوصفه ملكا عليه .

رحالنا بوادى أبو بروش بعد مسيرة عشر ساعات . وتقوم هنا سلسلة جبال تمتد صوب الشمال الغربى . وفى رمال هذا الوادى الجرداء تنمو بعض أشجار السلم، وهى ضرب من السنط يطربه العرب، لشدة صلابته فيصنعون منه القنا ، ومن أغصانه الرفيعة عصياً فى غلظ إبهام اليد، طول العصا منها ثلاث أقدام ،وهم يثنون طرفها فى النار وخشبها ما يزال أخضر ، ثم يدعكونها مراراً بالشحم حتى تغدو قوية ثقيلة ، ويحمل الرجل منهم عصا من هذه العصى التى يسمونها سلمة(*) . ويؤثر البشاريون فى صنع هذه العصى شجراً آخر غير السلم يدعونه الدّضه ، وينمو على مقربة من البحر الأحمر . وفى وادى أبو بروش لقينا أول فوج من الغزلان مذ بارحنا دراو ، ولا يتوقع المرء أن يكثر الحيوان البرى حيث لا يكون الماء إلا فى الآبار العميقة .

١٣ مارس — استأنفنا المسير قبل شروق الشمس ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادى أم برد ، وهو واد فسيح طيب يزخر بالشجر . وحلقت فوق رءوسنا أسراب كبيرة من طيور بيض ، فى حجم الإوز كانت تتجه صوب الشمال . ويسمى العرب هذا الوادى «أم برد » لأن الهواء فيه يهب بارداً حتى فى الصيف ، وهو مفتوح صوب النيل ، ومنه تهب الريح عادة فى هذا الفصل . ووجدنا الوادى حين مررنا عليه فى الصباح الباكر قارس البرد حتى اضطررنا عند وقوفنا به هنيهة أن نستدفىء بنار أشعلناها فى بعض الأشجار الجافة التى تنتشر فى الوادى . قضينا فيه ساعتين ، ، وعبرنا سلسلة من التلال ، ثم وقفنا بواد آخر لنستريح ساعة الظهيرة . وكانت هذه الوقفات مثار النزاع والشجار طوال الرحلة ، ذلك أن فتيان القافلة كانوا إذا علموا أن شيوخها يزمعون الوقوف بواد ساروا إليه حثيثا ليسبقوا غيرهم إلى أكبر شجرة أو صخرة معلقة يتفيأون ظلها هم وجماعتهم . وكانوا كل يوم يختلفون فيما بينهم أيهم سبق صاحبه إلى الشجرة ؟ أما أنا فطالما أقصونى عن الظل الوارف لأصلى نار الشمس المحرقة ، وكنت فى العادة أقضى ساعات الظهيرة فى كرب شديد وألم ممض : ففضلا عن تعرضى للقيظ كان علىّ أن أطهو طعامى ،

(*) السلمة معروفة فى كافة أرجاء النوبة والتاكة وسواكن ، وقل أن تجد رجلا لا يحمل سلمه إن لم يحمل رمحاً .

وهى مهمة لم أفلح فى إقناع أحد الرفاق – حتى أفقر الخدم – فى أن يتولاها عنى ولو لقاء إشراكه فى طعامى البسيط ، فإذا أتى المساء رأيتنى مضطراً لإعادة الكرة وأداء هذه المهمة الشاقة من جديد وأنا مضنى بعد رحلة اليوم ، وهى رحلة كنت أسير فيها على قدمى أربع ساعات أو خمسا لأخفف العبء عن حمارى ، وما كان أحوجنى بعدها للراحة والاستجمام . ولكن الجوع كان أشدّ من التعب وأقوى ، لذلك لم يكن لى مندوحة عن البحث عن الخشب وقطعه ، وإيقاد النار ، وطهو طعامى، وإطعام حمارى ثم تجهيز قهوتى التى لم يكن لى من سبيل لاسترضاء رفاقى الدراويين إلا تقديم فنجان منها لهم وهم أشوق الناس إلى ارتشافه. على أن راحةالليل كانت كفيلة بردّ قواى ، ولم أعرف من قبل رحلة كهذه كنت فيها موفور العافية جم النشاط على ما تكبدت فيها من مشقات فاقت ما كنت أنتظر . وكان غذاء المسافرين جميعا الفطيرة ، وهى دقيق يمزج بالماء ويعجن ثم يخبز على الصاج ، ويصب عليه السمن أو الشهد أو المرق المطبوخ من السمن والبامية المجففـــة . أما العشاء فعدس مطبوخ أو خبز بملح يخبز على الصاج أو الرماد ، ثم مرق من البامية أو البصل يصب على العدس أو الخبز بعد تفتيته . وفى الصباح الباكر يفطر الكل على كعكة ببصلة نيئة أو ببعض التمر . وفى العصر عبرنا أرضاً جبلية ثم سهلارملياً ينتهى بواد انتشرت فيـــه أشجار الدوم فأشاع منظرها البهجة فى أفئدة المسافرين . ونزلنا بالوادى بعد مسيرة تسع ساعات ، وحططنا قرب آبار نابه ، وفيما كنا نعبر السهل التقينا بقافلة صغيرة قوامها ثمانية من العبابدة كانوا عائدين من بربر إلى دراو ، وكان معهم زهاء ثلاثين عبداً وعدد من الجمال المحملة ، وهم ينوون بيع بضاعتهم فى صعيد مصر . وحمل إلينا هؤلاء العبابدة أنباء لا تسر ، فقد ذكروا أنهم لم يجدوا ماء يذكر فى بئرين على طريقنا ، فأما بئر شقرة – إحدى البئرين – فقد نجد فيها بعض الماء ، وأما بئر النجيم البعيدة فالأمل فى مائها ضعيف . وقد روعت هذه الأنباء بعض القوم ففكروا فى العودة مع قافلة العبابدة ، ولكن الباقين ثنوهم عن هـــذا العزم . واشترى الدراويون بعيراً قوياً من القافلة الأخرى ليحملوه ماء ، وأنفقنا الليل كله نتشاور فيما ينبغى أن نعمل . وبوادى نابه آبار خمس أو ست قريبة من بعضها البعض ، والماء

فى ثلاث منها ضارب إلى الملوحة ، وماء بئرين منها لا بأس به ولكنه شحيح ، وقد استنفدناه حين ملأنا القرب . وفى الصباح اشتجر القوم حول الماء الذى فاض من البئرين فى أثناء الليل ، فكانت كل جماعة تريده لنفسها .

١٤ مارس — إن الظل الوارف الذى تبسطه أشجار الدوم على وادى نابه ، وما بالوادى من آبار فياضة الماء ، قد جعلاه أهم موقع على الطريق بعد حيمور وشقرة . وقد درجت القوافل الصغيرة على أن تنزل بهذا الوادى أياما وهى فى طريقها إلى بربر لتسترد الإبل قوتها ، وهم يزعمون أن مياه الوادى تنعش الإبل وتشددها ، وهى من غير شك ذات خواص مسهلة . أما القوافل الكبيرة فيستحيل عليها المكث بالوادى أكثر من ليلة واحدة لقلة مائه المستساغ . وظل شيوخنا طوال الصباح يتشاورون ، فقد كان أمامنا مسيرة يومين إلى شقرة ، ومنها رحلة خمسة أيام لبربر على النيل . وكان تحميل الجمال بمئونة من الماء تكفى الرحلة كلها أمراً مستحيلاً ، ولم يكن يرجى العثور على ماء جنوب شقرة ، وما نرجوه فى شقرة نفسها ضئيل قليل . وهناك مورد آخر للماء يدعى نواريك ينبع فى الجبال صوب الجنوب الشرقى على مسيرة أربعة أيام ونصف من نابه وأمثالها من بربر ، وكان الأصوب أن نتخذ هذا الطريق لولا جهل القوم به ، اللهم إلا بشاريا كرهوا أن يركنوا إليه فى إرشادهم . وذكروا لى أن هناك طريقا ثالثا يخرج من نابه متجهاً للجنوب الغربى بانحراف للجنوب وينتهى إلى النيل بعد رحلة حثيثة تستغرق ثلاثة أيام ونصفاً ، ولكن هذا الجزء من النيل يسكنه عرب مقرات ، وهم خصوم لقومنا ، وقد قتل زعيمهم نعيم مؤخراً بيد أحد شيوخ العبابدة . وقد درج المسافرون فى ظرف كهذا على أن يدلى كل منهم برأيه . وكان رأيى أن نقتل حميرنا الخمسة والثلاثين التى كانت تستنفد من مائنا كل يوم خمس عشرة قربة على الأقل ، وأن نحمل الإبل أقصى ما تطيق من الماء ، ثم نشق لنا طريقاً مستقيمة إلى بربر دون أن نميل على شقرة ، وقد نستطيع بهذه الوسيلة أن نتم رحلتنا فى خمس مراحل طوال . ولكنك لن تستطيع أن تحمل العرب فى مناسبات كهذه على اتخاذ قرار جرىء حاسم ، فهم لا يفتأون يملون النفس بعبارتهم المألوفة « الله كريم » . وعلى ذلك فقد قرر القوم أن

يسلكوا الطريق العادى ، وأصلح كل منا قربه وخفّيه ، واغتسلنا بماء الآبار البارد فانتعشنا ، ثم استأنفنا الرحلة من جـــديد والهواجس تعبث برأسى ، فلم تكن دوابنا تحمل من الماء أكثر من مثونة ثلاثة أيام أوأربعة ، ولاسبيل بعدهاللهروب من العواقب الوخيمة التى يجرها الظمأ . ورفعت عن حمارى القربتين الصغيرتين تخفيفاً عنه ، ونقدت أحد العبابدة أربعة ريالات ليحمل لى أربع قرب صغيرة إلى بربر ، وقلت فى نفسى لو استطاع الحمار حملى لتحملت العطش يومين على الأقل ، أما إذا خارت قواه وسقط إعياء فسأعجز حتما عن السير يوماً كاملا دون أن أشرب فى هذاالجو القائظ . وأنفقنا هذا المساء ساعة سلكنا فيها الوادى، وساعتين عبرنا فيهما أرضاً صخرية ووجهتنا الجنوب الشرقى ، ثم نزلنا لنبيت فى واد ضيق. وكان الإعياء قد بلغ منى مبلغه ، وكنت أشكو التهابا فى عينى منذ بضعة أيام ، وأرقنى التفكير فى موقفنا الأليم . وقد سقط هذا المساء جمل محمل بقرب الماء فانكسرت ساقه وتمزقت القرب وانسكب ماؤها ، ونحر القوم الجمل بالطريقة الشرعية فوجهوا رأسه صوب القبلة وقطعوا حلقومه . وتخلف بعضهم ثم لحقوا بنا ليلا وهم يحملون شرائح من لحم الجمل المذبوح .

١٥ مارس — قمنا قبيل الفجر وأنفقناساعة ونصفا سيراً فوق إقليم صخرى، ثم بلغنا سهلا رملياً فسيحاً يدعى قب الخيل ، وفى السهل كثير من الصخور الجرانيتية المنعزلة ، وهى شبيهة فى شكلها بالصخور التى وصفتها فى ٦ مارس . وبعد مسيرة أربع ساعات حططنا عند مدخل وادى طرفاوى ،وهومنسوب لأشجار الطرفاء التى تنمو به . ورأينا الأرض مكسوة بشجيرات السنامكى الجميلة التى بدت لنا فى خضرتها ونضارتها منظراً طريفاًلاعهد لنا به، ورأينا ثمر السنامكى قد أينع واكتمل نضجه فانهالت عليه أسراب الجراد تلتهمه . كذلك ينمو بالوادى كثير من الطرفاء الشوكية وبعض أشجار الدوم ، مما يجعله ألطف وديان هذا الطريق وأشرحها للصدر .

ولقد وجدت بالخبرة أن الصحارى النوبية التى يخشى الناس ارتيادها هى على العموم أقل وحشة من بادية الشام ، ومن صحراء السويس والتيه على الأخص ،

وذلك حكمى عليها حتى شقرة على الأقل . فقل أن مر بنا يوم لم نصادف فيه شجراً وماء قبل شقرة ، والشجر فى هذا الطريق أوفر منه فى طريق القوافل من حلب إلى بغداد أو من دمشق إلى المدينة المنورة . وقد لا يبعث انبساط بادية الشام فى النفس من الرهبة ما تبعثه صخور الصحراء النوبية الجرداء الوعرة ، ولكن لصحراء النوبة ميزة التنوع على الأقل . ولما كنا قد بكرنا فى الوصول إلى محطنا بوادى طرفاوى ، فقد أرسلنا الجمال إلى واد جانبى يقع على مسيرة ساعة ونصف لاستقاء بعض الماء من بركة بالمكان ، وماء البركة ضارب إلى الملوحة ، ولعله لم يتخلف عن المطر فحسب بل نبع من عين فى قاعها . وعادت إلينا الإبل بعد الظهر بقليل . وذبح القوم اليوم بعيراً آخر أيقنوا أنه عاجز عن متابعة السير ، وسرعان ما تكاثرت حول جثته النسور التى يسمونها الرخم لتصيب حظاً من لحمه . واشتجر اليوم خبراؤنا العبابدة مع الدراويين طمعاً فى ابتزاز مزيد من المال منهم ، ولم يسؤنى هذا الشجار ، ورجوت من ورائه توطيداً للعلاقات بينى وبين العبابدة ، وعللت نفسى بأننا قد نتحالف معاً على هذا الخصم المشترك . واستأنفت القافلة السير حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وفيما نحن نرحل عن المكان أقبل الأعرابى الذى يحمل قربى الأربعة، وسلمنى أكبرها وهو يزعم لى أن جمله عاجز عن حملها فوق ما حمل . فأعددت قربتين صغيرتين أفرغت فيهما ماء القربة الكبرى وربطتهما بالحبال ثم وضعتهما على ظهر الحمار . وما إن فرغت من هذا كله حتى كانت القافلة قد سبقتنى شوطاً بعيداً ، فاقتفيت آثارها فى الرمال ، ولم أستطع اللحاق بها إلا بعد الغروب. فى مأزق كهذا تمس الحاجة لخادم أو رفيق ، لأن الجلابة قوم لا يعرفون العطف على رفيق يعانى ضيقاً أو شدة . وسرنا فى المساء ست ساعات فوق أرض محجرة ، ثم نزلنا ليلا بواد معشوشب يدعى وادى كورع ، وكان سيرنا جنوبا بشرق .

١٦ مارس — استرحنا بالوادى ساعات ثم عاودنا السير فوق سهل رملى ، وكانت الجبال الشاهقة تتراءى فى أقصى الشرق . وبعد ثلاث ساعات نزلنا بوادى صفيح ، ولا تستطيع أن تسميه وادياً إلا تجوزاً ، فما هو إلا شريط من أرض منخفضة تمتد فى عرض السهل حيث يتجمع ماء المطر ، فيقوم فيها بعض الشجر ولا

والعشب . ومثل هذا يدعى غديراً فى الصحارى العربية . ومضينا فى السهل بعد الظهر ، وكانت تحيط بنا من كل صوب طوال يومنا بحيرات السراب ، وكان لون السراب أزرق خالصاً ، وبلغ من صفاء لونه أن انعكست عليـــه ظلال الجبال التى تحف بالأفق انعكاساً دقيقاً غاية الدقة ، حتى ليخيل للرائى أنه صفحة الماء ما فى ذلك شك .ولقد طالما شهدت السراب فى الشام ومصر ، ولـكنه كان يضرب إلى البياض كأنه ضباب الصبح ، وكان دائم التذبذب والاهتزاز لا يستقر له على السهل قرار . أما السراب هنا فيختلف عن هذا كل الاختلاف ، وهو شبيه كل الشبه بالماء ، ولعل الخلاف راجع إلى شدة جفاف الهواء والتربةفى النوبة . كذلك لحظت أن السراب هنا يبدو أقرب للناظر مما يبدو سراب الشام ومصر ، فهو لا يتجاوز المائتى خطوة بعداً ، ولم أره قبل ذلك على مسافة تقل عن نصف الميل. وعددت مرة نحو اثنى عشر سراباً حولنا ، كل منها قائم بذاته ، وجلها فى المنخفضات . وبعد مسيرة ثمانى ساعات وقفنا بوادى **أم دوم** . واسم الوادى يدل على وجود شجر الدوم به ، ولـكنى لم أعثر فيه على دوم ولا على غيره . وقد لحظت أن الوديان جنوبى أم قات تمتد فى الغالب من الشرق إلى الغرب ، فى حين تمتد الوديان الشمالية موازية لطريقنا . وكان اتجاهنا لا يزال جنوبيا شرقيا .

١٧ مارس — بارحنا الوادى فى الصباح ودنونا من جبال شقرة الشامخة ، وهى الجبال التى تراءت لنا من بعيد طوال الأمس .وبعد مسيرة ساعتين دخلناها ، ثم ملنا شرقاً فجئنا وادياً طيباً يزخر بأشجار الدوم وتحفه على الجانبين صخور قائمة لا سبيل إلى ارتقائها . ومشينا مع الوادى تسلك منعطفاته أربع ساعات حتى جئنا عين شقرة فحططنا عندها رحالنا . والجبال المحيطة بنا كلها من الجرانيت ، وتتألف من كتل مختلفة الحجوم مكدس بعضها فوق بعض فى فوضى عجيبة . وتأملت الصخر قرب مدخل الجبل ، حيث ينبع الماء ، وعلى مسافة تحت أعلى القمم ، فوجدته من السماق الضارب إلى الحمرة ، دقيق الحبيبات ذا عروق صغيرة من الفلسبار ، وهو شديد الشبه بالسماق الذى شهدته فى العام الماضى بوادى لامولة بعد الشلال الثانى . والطريق إلى العين شاق لأنه فى نهاية درب ضيق جدا فى فلقة

من الصخر وجدنا فيها فضلا عن العين خزاناً لماء المطر . والماء عذب زلال ، ولكنه للأسف ليس غزيراً . على أى حال لم نجد نحن إلا النزر اليسير منه . وكان يحوم حول العين بعض الحمائم . وعين شقرة ذات صيت ذائع فى هذه الصحراء كلها ، وكثيرا ما يضرب البشاريون خيامهم فى الوديان القريبة منها ، ولأحد أوليائهم ضريح بجانب العين ، ويقدم المسافرون العطايا والذبائح عند الضريح ، فإذا وجدوا بدوا ضاربين بقربه ابتاعوا منهم الخراف وذبحوها إكراما للولى . وقد عثر أحد جماعتنا خلف صخرة بقرب الضريح على صندوق فارغ جديد من صنع مصر ، ولعل تاجراً أودعه هذا المخبأ بعد أن عجز بعيره عن حمله مؤملا أن يأخذه معه فى إيابه . وقد طالب الخبراء العبابدة بالصندوق زاعمين أنهم سادة الصحراء ، وأن كل ما يعثر عليه فيها فهو لهم . ونزلنا على نصف ميل من العين ، وكان همنا أن نملأ قربنا أولا . وتلطف العبابدة فسمحوا للتجار المصريين بملء قربهم قبلهم ، ولكن المصريين استغلوا هذا اللطف فسقوا إبلهم أيضا ، فلما بارحوا البئر كان قد نضب الماء أوكاد ، فأعلن العبابدة أنهم مضطرون إلى البقاء حتى تمتلىء البئر ثانية ، وعلى ذلك بتنا الليل كله والعبابدة نيام على فم البئر ليحولوا دون سرقة الماء ليلا .

وفى صباح ١٨ مارس ملأ العبابدة عشرين قربة ولكنهم لم يقنعوا بها ، فآثر التجار أن ينزلوا عن بعض قربهم بشرط الرحيل فوراً عن أن يطيلوا المكث بالمكان ويروا مئونتهم من الماء تتناقص ساعة بعد ساعة . أما أنا فقد استطعت بعد لأى أن أملأ قربتين كبيرتين ، وكنت ما أزال محتفظاً بصُبابة من الماء فى قربى ، فقدّرت أن نصيبى من الماء سيكون على الأقل مساويا لنصيب أى فرد فى القافلة . بيد أن هذا الذى قدرت لم يتحقق ، فقد حملت إحدى القربتين على كتفى إلى مضربنا وتركت الأخرى بقرب البئر على أن أعود بالحمار لآخذها . فلما عدت ألفيتها فارغة ، فقد صبها رفاقى الدراويون فى إحدى قربهم ، واعتذروا بأنهم فعلوا ذلك خطأ ولكنهم أبوا أن يملأوا قربتى من البئر ، والواقع أن ما تخلف الآن فى البئر من الماء كان كدرا عكراً لا يصلح للشرب بسبب ما يكسو القاع من طبقات الطفل الأزرق . وقد عرضت عليهم ريالين ثمنا لقربة ملأى بالماء ، ولكنهم لم

يحفلوا بى وضحكوا منى قائلين إن هذا الثمن الذى عرضته باهظ حقاً ، ولكن أحداً منهم لن يفرط فى مائه ، وأنهم لم يألفوا هذا التفريط من قبل . فلم يكن لى مندوحة عن مبارحة البئر والأسى يملأ قلبى ، لأن مئونتى من الماء لن تكفينى أنا وحمارى إلا يومين على أكثر تقدير . ويجدر بى أن أذكر بهذه المناسبة أنه لا يجدى المسافر فى الصحراء أن يحمل من الماء القدر الموفور ، لأن رفاقه سيأخذونه منه عنوة واقتداراً إذا نفد ماؤهم، فالقاعدة التى يجرون عليها هى أن الخبز والماء مشاعان للجميع ، أى أن القوى ينصبهما من الضعيف . وعرب الصحارى الشرقية يسمحون للفقراء من المسافرين أن يقاسموهم ماءهم مهما كان قليلا ، ولكنك لا تجد هذا الكرم عند الإفريقيين ، وقصارى مايستطيع المسافر معهم أن يفعله هو أن يتزوّد من الماء بما يكفيه الفترة التى يكفى كبار التجار فيها ماؤهم ، فإن أحداً منهم لن يُسعفه بالماء ، أما هو فمضطر للنزول عن كل مايفضل عن حاجته منه ، بل أحياناً عن كل مئونته ليسدّ حاجة رفاقه الأشداء . وتطلعت حول البئر علّى أجد معالم بناء قديم ظنا منى بأن هذا الموضع كان معروفا مطروقا أيام ازدهار تجارة مروى كما هو شأنه اليوم ، ولكنى لم أجد أثراً لبناء ، ومع ذلك فإن الموقع كان يصلح لأن تشاد عليه قلعة . والطريق المؤدى للكهف الذى فيه البئر تكاد تسده الكتل الضخمة من الحجر ، وعلى مقربة منه عين أخرى سقط فوقها مؤخراً نتوء فى الجبل فطمرها .

ولما علم رئيس القافلة — وهو شيخ من العبابدة — بما أصابنى من ضر أرسل إلىّ ونحن نهم بالرحيل ،وبعد أن أنحى باللائمة على قسوة المصريين فى معاملتى أهدانى قدراً من الماء يملأ قربة من القرب الصغيرة . وقد شكرت له بالطبع صنيعه وأثنيت عليه ثناء صادقاً ، وإن تبينت أن رغبته فى الزراية بالمصريين كانت أشد من غيرته على مصلحتى . وبارحنا شقرة فى الضحى ، وقضينا أربع ساعات نطوى سلسلة جبال شقرة وقد بدت لى أعلى جبال النوبة القريبة ، على أن أعلى قممها لا يزيد ارتفاعها عن السهل على ثمانمائة قدم أو ألف . والجبال كلها من الجرانيت ، وهى فى كل أرجائها وعرة مهشمة كالجبال المحيطة بالمين . وبعد أربع

ساعات خرجنا من الجبل وسرنا فوق منحدر هين فبلغنا سهلا رمليا تكسوه الصخور الدببة . وكان اتجاهنا إلى الجنوب بانحراف قليل للغرب . وبعد خمس ساعات مررنا بوادى قبقبة ، وبعد سبع بوادى زيناتيب ، ويندر نمو الشجر فى هذه الوديان ، وهى لا تعدو أن تكون منخفضات من الأرض تنتشر فيها بعض الشجيرات . ومضينا نضرب فى السهل حتى أوغلنا فى الليل ، ثم حططنا بعد إحدى عشرة ساعة تقريبا . والأرض التى جزناها بعد جبال شقرة سهل رملى كبير تتخلله فى بعض أرجائه بقاع فيها الحصباء والحصى من المرو ، وفى بعض أنحائه كثبان رملية متنقلة . وكانت طريقنا منذ خرجنا من دراو حتى بلغنا شقرة طريقا عريضة مطروقة لا يمكن أن يضل عنها من خرج فى هذه الرحلة من قبل . وقل أن تغير الطريق اتجاهها ، كذلك يستطيع المسافر أن يهتدى بمعالم الجبال الواضحة على الجانبين فى المواضع القليلة التى لا تطمر فيها الرمال على آثار القوافل التى سلكتها من قبل . أما إلى الجنوب من شقرة فلم نجد درباً مطروقاولاجبالا يهتدى بها ، لذلك لا تستغنى القافلة فى سيرها هنا — لاسيما فى أثناء النهار — عن بصر البدوى الحديد وخبرته الطويلة .

١٩ مارس — سرنا صوب الجنوب الغربى فوق سهل فسيح تحفه التلال الواطئة فى الأفق البعيد ، وبلغنا بعد ساعة وادى دمبولايب (وهو اسم بشارى)، والوادى حافل بالشجيرات الجافة . وكان النهار شديد القيظ ، وخيل إلى أننى تبينت تغيراً ملحوظاً فى المناخ جنوب شقرة، فالجنوب أدفأ كثيراً من الشمال . وبعد ثمانى ساعات ونصف مررنا بوادى أبوضىّ ، وكل هذه الوديان تمتدمن الشرق إلى الغرب . وبعد إحدى عشرة ساعة بلغنا آبار النجيم ، ومررنا فى طريقنا إليها بعد العشاء بعدة قبور تدعى قبور أجواد الأرياب ، وذكر لنا أحد شيوخ القافلة إن هـذه البقعة مدفن أبطال الأرياب، يحمل رفاقهم جثثهم إليها رحلة أيام ليدفنوهم فى ظل الآبار الظليل ، وليذكر فعالهم كل عابر بالطريق ويستمطر عليهم شآبيب الرحمة والرضوان. والأرياب قبيلة بشارية . وكنا قد أوفدنا رحالا سبقونا إلى الآبار

في الصباح الباكر ليطهروها من الرمال ، لأن القوم لم ييأسوا من إمكان الحصول على بعض المياه منها برغم الأنباء التي أتتنا بها القافلة التي لقيناها في نابه . فلما جئناهم ألفيناهم جالسين إلى جوار البئر وأمارات الحزن والكآبة مرتسمة على وجوههم ، فقد ظلوا يحفرون الساعات الطوال دون أن يوفقوا لشيء سوى الرمل المبلل . وريع القوم حتى البدو منهم لهذا النبأ ، ولم يبق أمامنا من سبيل إلا محاولة الوصول إلى النيل في مراحل حثيثة مضنية ، وكان لدى كل منا صُبابة من ماء ولكنها لا تكفيه أكثر من يوم واحد . والنجيم مجموعة من الآبار عددها ثلاث أو أربع ، يرشح ماؤها من الأرض ويتجمع في حفر رملية عمق الواحدة منها عشرون قدما أو ثلاثون . وكثيراً ما تسفي الريح الرمال فتسد هذه الحفر ، فتضطر كل قافلة تقريباً إلى تطهيرها من الرمال . ولم نستطع أن نقرب من الآبار إلا واحدة ، أما الأخر فكانت غاصة بالرمل إلى حوافها . وتغيض مياه هذه الآبار إذا شح المطر كما شح هذا العام ، أما حين يسقط المطر غزيراً فإنها تخرج ماء عذبا يكفي تدفقه لتزويد قافلة متوسطة . وصخور التلال المنعزلة الواطئة التي تحدق بالنجيم من الكلوريت والصوان .

٢٠ مارس — بات بعض القوم يحفرون البئر الليل كله ، واستطاعوا في النهاية أن يملأوا القرب بشق الأنفس . وبارحنا المكان بعد منتصف الليل ، فخرجنا من التلال المحيطة بالآبار ، وتنكبنا الطريق المستقيم إلى بربر سالكين بدله سهلا أجرد تكسوه الرمال المتنقلة ، وكانت وجهتنا الجنوب الغربي .

وبعد أربع ساعات مررنا بوادي ملهب . وكل هذه الوديان الواقعة جنوب شقرة تصب مياهها في النيل سيولا متدفقة كلما هطل المطر على جبال السلسلة الشرقية . وغدت الأرض الآن محصبة تكسوها القطع الصغيرة من الصوان الأسود والصوان الصخري ، وانبسطت الصحراء داكنة اللون كبيرة الشبه ببعض أجزاء صحراء التيه . ولا ترى هنا أثراً لجبال أو تلال ، وقصارى ما تجده صخور صغيرة من الجرانيت أو الرو أو السيانيت تتبعثر في السهل هنا وهناك

فتغير قليلا من رتابته المملة الموحشة . وحالفنا الحظ فهبت علينا ريح الشمال ، ولكنا برغم ذلك كنا نعانى شدة القيظ . ولم نشرب اليوم إلا مرتين ، ولم نسق الحمير إلا نصف نصيبها المقرر من الماء . ونزلنا وادياً بعد إحدى عشرة ساعة . وقد نشب اليوم شجار بينى وبين رجل من دراو اتهمنى بأنى فتحت قربته ليلا لأسقى منها حمارى ، ثم سبنى بأقذع الألفاظ وحصبنى بالحجارة ، وبدا لى أنه أفلح فى إقناع رجال القافلة كلهم بأننى قارفت هذا الجرم حقاً .

٢١ مارس — قمنا بعد منتصف الليل وسرنا فوق أرض رملية حتى جئنا وادى عامور بعد ثلاث ساعات . وكانت الليلة قارسة البرد ، وزاد من تأثرنا ببردها ما عانينا من هجير الأمس . ووادى عامور حافل بأشجار السلم والسنط ، وكثير منها جاف يابس ، وقد أخذ القوم بعضها فأوقدوه التماساً للدفء . وانتشرت اللهب على الوادى وسطعت على وجوه المسافرين والدواب الوجلة فكان المنظر رائعاً أخاذاً . وبعد أن خرجنا من الوادى جزنا سهلا محصباً وأرضاً مستوية ، وبعد مسيرة سبع ساعات مررنا بواد زاخر بأشجار السنط ، وكان القيظ شديداً والريح جنوبية ، وسقط ستة من الحمير إعياء فاضطر راكبوها للسير فوق السهل المحرق . وأمسكت عن شرب الماء طوال اليوم ، ولكنى كنت أعطى حمارى الجرعة بعد الجرعة إبقاء على قوته ، وبعد مسيرة تسع ساعات صوب الجنوب الغربى بانحراف للجنوب وصلنا وادى أبو سلم الحافل بأشجار السلم ، فنزلنا عن دوابنا لأن الإعياء كان قد أخذ منها كل مأخذ ، وكان بعض الركب متخلفين ، ولو مضينا قدماً لضلوا سبيلهم . وكنت منذ غادرنا شقرة لم أذق طعاماً مطبوخاً ، وإنما كان جل اعتمادى على الكعك إبقاء على ما عندى من ماء . ولكنى جهزت الآن طبخة تناولتها ثم أطفأت ظمأى بجرعة كبيرة من الماء ، وبقيت لى بعد ذلك بقية منه تكفينى جرعة أخرى فى الغد . وخيمت الكآبة علينا جميعاً لأنا أيقنا أن الحمير ستنفق كلها غداً إن لم تنل حظها من الماء ، ولم يزد ما عند التجار على جرعات يحتفظ الواحد منهم بها لنفسه . وأخذ التجار يتشاورون فى الأمر طويلا ثم استقروا أخيراً على الرأى الوحيد الذى يرجى

من ورائه خلاصنا والذى كان الرئيس العبادى قدأوصاهم به قبل ذلك بأيام. فاختاروا من أشد الجمال عشرة أو اثنى عشر ركبها من الرجال عدد مماثل ، ومضوا بها حثيثاً ليجلبوا لنا ماء من أقرب ضفاف النيل ، ولم تكن تفصلنا عنه سوى خمس ساعات أو ست ، ولكن القافلة لم تكن لتجرؤ على اتخاذ هذا الطريق لأن ضفاف النيل هنا يقطنها عرب من أعداء التجار ، وكان قيام الإبل فى الساعة الرابعة عصراً ، وقدرنا لها أن تبلغ النهر ليلا ، وصدر الأمر إلى راكبيها أن يتخيروا من النيل بقعة غير آهلة بالناس، فيملأوا القرب ويقفلوا راجعين من فورهم. وأنفقنا نحن العشية نهباً للقلق والهواجس ، فلو أن الإبل لم تعد لضاع أملنا فى النجاة من الموت ظمأ أو قتلا بسيف العدو الذى سيقتفى خطى الإبل فى الصحراء إن رآها ويظفر بنا لا محالة .ولحق بنا بعد الغروب بعض من تخلفوا إلا اثنين ، ثم وصل أحد هذين فى صباح الغد ، أما ثانيهما فقد انقطعت أخباره ، وكان خادما لأحد تجار دراو ، ولم يأبه سيده لما أصابه . وجاء فى أثناء العشية كثير من الرفاق يسألوننى جرعة من الماء ، ولكنى أحسنت إخفاء كنزى ، فكنت أريهم قربى الفارغة جواباً . وبتنا أكثر الليل نترقب نتيجة البعثة اليائسة التى أوفدناها ، وقد رانت على صدورنا الكآبة والصمت . وأخيراً طرق أسماعنا فى الساعة الثالثة صباحا هتاف رجالنا الذين استقوا لنا الماء ، وسرعان ماأطفأ كل منا غلته بجرعات موفورة من ماء النيل العذب ، وتغيرت حال القافلة فجأة ، وحل التهليل والفرح محل الكرب والترح. وأعد القوم عشاء وفيراً وبات العرب يغنون أغانيهم حتى الفجر دون أن يلقوا بالا إلى مصير ذلك البائس الذى تخلف عن القافلة . وموت المسافرين ظمأ بهذا الطريق أمر نادر الحدوث ، ويبعد أن تقع مثل هذه الكارثة إذا كان بآبار النجيم ماء . على أن حادثا من هذا القبيل وقع فى العام الماضى ، وقد روى لى تفاصيله رجل ذاق عذاب العطش ورأى الموت رأى العين . ذلك أنه فى شهر أغسطس أعدت قافلة صغيرة عدتها للسفر من بربر إلى دراو ، وكان قوامها خمسة تجار وزهاء الثلاثين عبداً ومعهم عدد مناسب من الإبل . وقرر التجار أن يسلكوا طريقا شرقية تمر ببئر أواريك خشية أن يسطو عليهم قاطع الطريق نعيم ، وكان فى

تلك الفترة يكمن للمسافرين حول آبار النجيم ، وكانت الأنباء تصله بانتظام عندقيام كل قافلة من بربر . واستأجروا دليلا من العبابدة قادهم سالمين إلى البئر ، ولكنه ضل الطريق حين اتجهت القافلة شمالا لأنهم كانوا يسلكون درباً غير مطروق . ونفدت مئونتهم من الماء بعد أن ساروا خمسة أيام فى الجبل على غير هدى ، فصح عزمهم على أن ييمموا غربا أملا فى بلوغ النيل . وبعد أن انقضى عليهم يومان بغير ماء هلك منهم تاجر وخمسة عشر عبداً . وخيل إلى أحدهم — وكان من العبابدة ، ومعه من الإبل ثمانية — أن الإبل قد تفطن إلى موارد الماء خيراً من راكبيها ، فطلب إلى رفاقه أن يشدوا وثاقه إلى رحل أقوى جماله لئلا يسقط عن ظهره إعياءً ، وهكذا فارقهم ووكل أمره إلى جماله تسير به أنى شاءت . ولكن أخباره هو وجماله انقطعت . وبعد أن غادرت القافلة أواريك بثمانية أيام ، رأى من ظل من رجالها على قيد الحياة جبال شقرة من بعيد فعرفوها لتوهم ، ولكنهم كانوا خائرى القوى لا علك الرجال ولا الدواب أن يسيروا خطوة واحدة . فتوسد الرجال الثرى تحت صخرة من الصخور وبعثوا خادمين بركبان جملين كانا أشد ما بقى من جمال ليبحثا عن الماء . ولكن قبل أن يبلغ الرجلان الجبل سقط أحدهما عن ظهر مطيته فاقد النطق لا يستطيع إلاّ أن يومىء لصاحبه أن يمضى ويدعه يلقى مصيره . ومضى الثانى فى طريقه ، ولكن الظمأ كان قد أعشى بصره فضل طريقه على تمام خبرته به وكثرة سفره فيه . وظل يضرب فى الأرض على غير هدى ، ثم نزل عن بعيره تحت ظل شجرة شده إلى غصن فيها . ولكن البعير شم الماء كما يقول العرب ، فقطع مقوده على ما به من خور وضعف ، ثم انطلق كالمجنون صوب العين ، ولم تكن تبعد إلا مسيرة نصف ساعة كما اتضح فيما بعد . وفهم الرجل السر فى مسلك البعير فحاول أن يقتفى آثاره ، ولكنه لم يخط بضع خطوات حتى تهاوى إعياء وقد أشرف على الهلاك ، ولكن العناية الإلهية قيضت له بدويا من البشاريين المخيمين قرب العين عبر الطريق . فلما وجده رش على وجهه الماء فأفاق من غشيته . وهرول كلاهما صوب العين فملآ القرب وعادا إلى القافلة فوجدا أهلها المعذبين لا يزالون على قيد الحياة لحسن الحظ ،

وكوفىء البشارى بعبد من العبيد جزاء ما قدم . وكان الراوى — وهو من أهل ينبع بجزيرة العرب — هو الرجل الذى كشف جمله العين ، وقد ذكر لى فيما ذكر أمراً عجيباً ، وهو أن أصغر العبيد سناً كانوا أقوام على احتمال الظمأ ، وأن الغلمان الكبار ماتوا جميعاً فى حين وصل الصغار إلى مصر سالمين .

وفى عام ١٨١٣ وصلت إلى أسيوط قافلة كبيرة قادمة من دارفور ، وكانت رحلة التجار فى أواخر الصيف ، فهلك الكثير من إبلهم فى الطريق وأكرهتهم الضرورة على ترك جزء كبير من بضاعتهم ، وعدد وافر من صغار العبيد العاجزين عن السير ، عند بئر الشب ، وتركوا معهم ما استطاعوا اقتطاعه من زادهم . ثم استأجروا مئات الجمال وقفلوا راجعين إلى الشب ، ولكن العبيد قصار النظر أسرفوا خلال ذلك فى استهلاك زادهم حتى فرغ ، فمات الكثير منهم جوعاً .

مثل هذه الحوادث قد يقع أحياناً ، وهو ينجم إما عن عدم وجود الأدلاء الخبيرين ، أو عن اضطرار المسافرين إلى اتخاذ طرق دائرة ، أو عن قلة الجمال المحملة بالماء ، ولكن منشأها فى الغالب هو قلة التيقظ والحيطة . وأرانى مضطرا إلى القول إن الرحالة بروس قد غالى كثيراً فى وصف ماوقع له من حوادث فى هذه الصحراء . وواجبى يدعونى إلى تقرير هذه الملاحظة ، ولكننى فى الوقت نفسه أقرر هنا أننى وأنا الخبير بخلق النوبيين لا يسعنى إلا التنويه بإعجابى الصادق بما كان عليه بروس من دراية عجيبة بأخلاق الناس وما أوتى من ثبات وحزم وسرعة خاطر ، وكلها صفات يسرت له السياحة أوربياً سافراً بين شعوب متوحشة لا ترحب بالأغراب . نعم إن لسفرك كأحد الوطنيين متاعبه ومشاقه ، ولكن المتاعب التى عاناها بروس أعقد كثيراً من هذه وأخطر ، وهى متاعب لا يذللها إلا عقل راجح وقلب جرىء صبور وحيلة واسعة .

٢٢ مارس — تناولنا فطوراً شهياً ، ثم مضينا فى الضحى فوق سهل فسيح خصب تقطعه الوديان المتجهة صوب النهر ، والتى نبت فيها الشجر القليل ، وكانت وجهتنا الجنوب الغربى . وبعد خمس ساعات نزلنا بواد يدعى نفيرة . وكانت أوراق السنط

التى تظللنا بها فى الظهيرة من الضآلة بحيث لا تنشر ظلا يذكر ، وما أصدق العرب حين يشبهون الثقة العمياء التى يضعها المغفلون فى وعود كبار القوم بتلك المحاولات التى يبذلها المسافر لاتقاء الشمس المحرقة بالاستظلال بشجرة سنط ، فهم يقولون « كلامه مثل ظل السنط ». وينتشر النعام فى كثير من أرجاء هذا السهل، وقد رأينا هذا الصباح حطاماً من بيض أنثاه ، كذلك رأيت عظايا كبيرة الحجم يبلغ طولها على الأقل قدماً من الرأس إلى الذيل . وظلت الريح تهب جنوبية . وسألت أصحابى غير مرة هل لهم عهد بريح السموم (وهذه الريح برغم اسمها هذا لا تعدو أن تكون ريحا جنوبية شرقية هوجاء)، فأجابوا نعم ، ولكن أحداً منهم لا يذكر أن هذه الريح كانت فتاكة قتالة ، وأسوأ آثارها أنها تجفف الماء فى القرب فيتعرض المسافر لخطر العطش . على أن القرب فى هذه الأقطار الجنوبية تصنع من جلد البقر الغليظ الذى لا تكاد تقوى السموم على تخلله . أما فى شبه جزيرة العرب وفى مصر فيستعملون جلود الغنم والماعز فى صنع القرب، وقد تبينت ما تفعله بها السموم وأنا فى رحلة برية من الطور إلى السويس فى يونيو ١٨١٥، حين رأيت ثلث الماء فى قربة ملأى قد تبخر فى الضحى . ولقد تعرضت مراراً للحَرور ببادية الشام وصحراء العرب وبصعيد مصر والنوبة ، ولقيت أعنفها وأشدها أواراً فى سواكن ، ولكنى برغم تعرضى لعصفها فى السهل المكشوف لم أضار بها كثيراً. وفى اعتقادى أن المسافرين وأهل مصر وسوريا يغالون فيما يروون عن فعل السموم، ولم أسمع قط — من مصدر موثوق به — بحادث واحد فتكت فيه هذه الريح بإنسان أو دابة . أما حقيقة الأمر فهى أن البدو يروّعون الحضر بقصصهم عن فتك هذه الريح بالناس بل عن قضائها على قوافل برمتها ، ولكنك تستطيع أن تستخلص منهم الحق إذا ضيقت عليهم السؤال و توسموا فيك بعض الخبرة بالصحراء. ولم أر السموم تهب قريبة من الأرض قط كما يظن أغلب الناس ، وكنت إذا هبت أحس بالجو كله متقــداً ، وتسفى الريح الغبار والرمال عالياً فى الهواء الضارب لونه إلى الحمرة أو الزرقة أو الصفرة حسب طبيعة الأرض التى يثور منها الغبار ، على أن الصفرة هى الغالبة عليه . وتستطيع أن تكوّن فكرة صحيحة عن منظر

الهواء كما رأيته في عاصفة سموم بإسنا (مايو ١٨١٣) إذا نظرت للجو من وراء نظارة صفراء قاتمة . وليس حتما أن تكون السموم مصحوبة بالهبوب ، والمعتدل منها قد يظل الساعات يهب هيناً وإن رافقه حر مرهق يزهق الأنفاس ، فإذا أثار الهبوب الغبار ارتفعت الحرارة درجات . وقد سجل الترمومتر درجة ١٢١° في الظل أثناء هبوب ريح السموم بإسنا ، ولكن قل أن يظل الهواء على هـذه الحال أكثر من ربع ساعة ، أو أن تستمر حرارته عالية بعـد انتهاء الهبوب . وشر ما يبتلى به المرء إذا تعرض للسموم هو احتباس العرق وجفاف الحلق وشعور الإعياء والضيق ، ولم أر أحداً ينبطح على وجهه اتقاء لفحاتها المؤذية كما زعم بروس أنه فعل وهو يعبر هذه الصحراء . على أن العرب كثيراً ما يغطون وجوههم بعباءاتهم في أثناء الهبوب ، وهم يركعون إلى جوار إبلهم خشية أن يدخل الرمل أو الغبار عيونهم فيؤذيهم . وتضيق الإبل بهذه الريح أشد الضيق لا لما تجلبه من حر بل لما تسفيه من رمال في عيونها الكبيرة الجاحظة ، وهي تدير وجوهها وتحاول إتقاء الريح بخفض رءوسها ، ولكني لم أرها تفعل هذا إلا في الهبوب ، وهي فيما خلا ذلك لا تبالي بحرارة الجو مهما اشتدت . وقد وقع لي وأنا مسافر من إسنا إلى أسيوط عام ١٨١٣ أن هبت علي سموم عاتية في السهل الواقع بين فرشوط و برديس ، وكنت أمتطي هجيناً خفيفاً وأنا وحيد لا رفيق لي . وهبت الهبوب فحجبت عن ناظري كل شيء ، فلم أعد أرى بيوتاً ولا أشجاراً ، وفيما أنا أحاول إخفاء وجهي عندئذ جن جنون الهجين لكثرة ما دخل في عينيه من تراب وما وقر في أذنيه من عصف الهبوب وضجيجها ، فأطلق قوائمه للريح ، وأفلت زمامه من يدي فسقطت سقطة مؤلمة ، ورأيتني عاجزا عن تبين الطريق ولو إلى خطوات ، فلزمت مكاني وأنا مدثر بعباءتي حتى هدأت الريح ، فقمت أتأثر خطوات البعير . وما لبثت أن وجدته على بعد كبير واقفاً في هدوء إلى جوار شجيرة واطئة وجد في أغصانها بعض الوقاية لعينية من الريح .

وقد ذكر بروس ما بهذه الصحراء من قيزان الرمل المتنقلة ، وأنا لم أرها بنفسي في رحلتي ولكني لا أعني التشكك في صحة ما زعم عنها . وقد أخبرني

العرب أن الأعاصير الرملية كثيرة الهبوب ، وأنا نفسى مررت ببقاع فيها رمال متنقلة تحركها أهون الرياح . وأذكر أننى رأيت قيزانا من الرمال تتحرك فى الصحراء (على ضفاف الفرات) كأنها ميازيب الماء. وفى يافا رأيت ما نجم من أضرار بالغة سببتها ريح لجائية . لذلك يسهل علىّ أن أصدق أن هـذه القيزان قدتثور فى صحراء النوبة ، وإن كنت فى ريب من أنها تعرض حياة المسافرين للخطر .

وكانت تغطى أرجاء السهل الذى عبرناه هذا الصباح صخور الجرانيت والكتل الضخمة من النيس . وسرنا جنوبا بغرب ملتزمين النيل تقريباً ، ولم يكن يبعد عن عيننا سوى أربع ساعات . ورأينا بعض التلال الرملية الواطئة على ضفاف النيل الغربية، وبعد مسيرة ثمانى ساعات بلغنا واديا قليل الشجر هو وادى الحمار فنزلنا به ، ويروى أن حمر الوحش ترى أحيانا بالصحراء القريبة من هذا الوادى، والتى يطلق عليها اسم حمار الوحش .

٢٣ مارس — مضينا جنوباً بغرب فى هذه الأرض المنبسطة التى لا يرى فيها للجبال أثر . والسهل مكسو بالحجارة السوداء والحصى المصرى والمرو . ولم أصادف فى هذه الرحلة ضروباً من حجر الدم أو اليشب مذ خرجت من دراو . ومررنا بعدة وديان ولقينا بعض الأرانب البرية، وبعد أربع ساعات نزلنا بواد زاخر بالشجر يدعى وادى بلم (أو سلم ؟) . وهنا أجبر الخبراء العبابدة تجار القافلة على دفع نصف أجرتهم (*) ثم سبقنا بعض القوم إلى بربر يحملون أنباء وصولنا ، واستأنفنا السير عصراً ، وكان السهل رملياً ينحدر انحداراً هيناً نحو النيل ، ولقينا ونحن ندنو من النهر أسراباً كبيرة من القطا ، وأشعرنا الهواء الرطب البليل بقربنا من النيل قبل أن نصله بساعتين، وهلل العرب وكبروا حين شموا رائحة ماء النيل من جديد. وأخيراً وصلنا حوالى الساعة العاشرة مساء إلى قرية النخيرة ، وهى أهم قرية فى إقليم بربر بعد مسيرة تسع ساعات . وقد جرت القوافل على أن تجىء هـذا الموضع دائماً فى

(*) يتقاضى العبابدة من كل رجل خمسة ريالات ، ومثلها عن كل جمل . وفى العودة يتقاضون ريالين عن كل عبد وخمسة ريالات عن كل حمل مجلوب من السودان .

الليل ستراً لبضاعتها عن العيون ، ومخافلةً لموظفى الجمرك عسى أن يستطيع التجار تهريب بضائع طفيفة دون أن يؤدوا عنها ما يجب من رسوم .

والطريق الذى سلكناه هو الوحيد بين بربر ومصر ، وهو الطريق الذى تسلكه عادة قوافل شندى و سنار . وثمت طريق أخرى مقربة عن هذه من بربر إلى السبوع ، وهى قرية على النيل فى إقليم البرابرة لا تبعد عن الدر كثيراً ، ويشتغل أهلها بتجارة الرقيق . فى هذه الطريق الثانية لا يجد المسافر من الآبار إلا بئراً واحدة فى منتصفها ، وتقع على مسيرة أربعة أيام من بربر ومثلها من السبوع ، واسمها المرة وماؤها متدفق غزير ولكنه خبيث الطعم . ومما يضيق به المسافرون فى هذه الطريق خلوها من الأشجار كبيرها وصغيرها ، لذلك لا تجد الإبل لها فيها طعاماً ، ويضطر المسافرون إلى أن يحملوا معهم خشباً يطهون عليه طعامهم ويستدفئون به فى الشتاء . واقتضتنا الرحلة من دراو إلى بربر اثنين وعشرين يوماً ، ولكن يلاحظ أن المراحل إلى حيمور ، بل إلى نابه ، كانت قصيرة جداً . والجبال القائمة إلى الشرق من أسوان وحيمور — والتى تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن البحر الأحمر _ أشم ما فى هذه البقاع فيما يروون ، واسمها جبال عتباى ، وقد يقصد بها كل السلسلة حتى بلوغك القصير ، وهم يعنون بها دائماً الجبال البعيدة عن النيل ، القريبة من البحر الأحمر . وجبل عتباى ملك للعبابدة وحدهم لا ينازعهم فيه منازع ، وأكثر ما يغشونه فى الصيف حين يعود إليه المقيمون منهم بصعيد مصر فيسرحون فيه ماشيتهم . وبين عبابدة جبل عتباى والبشاريين فى علبة اتصال كبير . ويقدرون المسافة من حيمور إلى دراو بخمسة أيام ، ولكنا قطعناها فى تسعة . ويقدر التجار عادة المسافة بين بربر ودراو بستة أو سبعة عشر يوما ، ورحلة الإياب من بربر أسرع لأن الإبل تكون فيها كثيرة العدد ، ولأنهم يخرجون فيها وكلهم راكب ، ولأنهم يخففون عن الإبل بعض أحمالها كل يوم . وهم يقيلون ثلاث ساعات أو أربع ، ثم يسافرون أكثر الليل ، فيتمون الرحلة فى اثنى عشر يوماً . وكثيراً ما قطع الرسل الرحلة من دراو إلى بربر فى ثمانية أيام على ظهور الهجن . وقد تستغرق الرحلة شهراً من الزمان إذا هطل المطر مدراراً وجرى الماء

على الطريق فلأ البرك والمنخفضات وأنبت الكلأ النضر فى الوديان . أما نحن فقدرنا للرحلة ثمانية عشر يوما لا تزيد ، وعلى هذا الأساس تزودنا ، لذلك لقينا الأمرين من شح الزاد والماء فى أخريات الرحلة ، وعانت الدواب أشد مما عانينا ، ولم أجد لحمارى عليقاً سوى العدس طوال يومين كاملين . وعليق الجمل عند التجار اثنا عشر رطلاً من الذرة فى اليومين أو الثلاثة ، يزيدون عليها عليقا إضافياًللجمل المثقل الذى يحمل ستة قناطير أو سبعة . وكانت الدواب كلها قد أضناها السير ، وظهور أكثر الجمال مثخنة بالجراح[1] اثقل أحمالها وجشع أصحابها وإهمالهم ، فقد أرهقوا إبلهم حرصاً على دراهم معدودات يبتاعون بها رحالا جيدة الحشو . على أن فى طاقة كثير من الإبل أن تؤدى هذه الرحلة ثلاث مرات فى الحول ذهاباً وإيابا .

ولما وصلنا النخيرة سعى كل تاجر فى القافلة إلى بيت صديق لخلو القرية من خان يأوى إليه المسافرون ، فلامندوحة للتجار إذن عن أن يحلوا ضيوفاً على أهل القرية . ومضى آل علوان الذين صحبتهم من دراو إلى بيت رجل من أقارب شيخ القرية ، واسم الرجل **إدريس تمساح** . وكنت لا أزال أنشد المنفعة من وراء صلتى بالقوم ، وكنت أكره أن أختصمهم جهرة ، لذلك انضممت إلى جماعتهم . واستضافنا إدريس هذه الليلة ، وفى الصباح توافد علينا الزائرون أفواجاً .

والقرية تابعة لإقليم بربر ، ويضم هذا الإقليم فضلا عنها ثلاث قرى كبيرة أخرى إلى الجنوب منها ، فهناك **قوز**[2] **السوق وقوز الفونج** ، ثم **الحصا** شمالا ، وتبعد زهاء ثلاثة أرباع الساعة عن النخيرة . وفى صعيد مصر والنوبة يقسمون البلاد ودياناً يشتمل الواحد منها على عدد من القرى ، وكثيراً ما يطلق على كبرى هذه القرى اسم الإقليم ، فإذا قالوا بربر عنوا النخيرة فى الأغلب ، ولعل لفظ بربر

---

(١) هذه الجراح شديدة الخطر ، والجرح منها — أو الضبرة كما يسمونه — يكون فى كتف الجمل أو ضلوعه الامامية وتسببها الرحال الرديئة . أما إصابات الجمل فى غير هذه المواضع فتبرأ بعد أيام من الراحة والاستجمام .

(٢) فى بلاد الزنج يطلقون لفظ قوز على كل قرية مبنية فى السهل الرملى .

هو الأصل فى هذا الاسم الذى يطلق فى مصر على النوبيين، أعنى «البرابرة» ، وهو لفظ لا يستعملونه هم فى بلادهم ، فهم يسمون أنفسهم النوبيين والكنوز كما أسلفت فى يومياتى . ويبدو أن المصريين رأوا التجار القادمين من بربر ومن إقليم إبريم متشابهين لوناً فأطلقوا على الشعبين اسماً واحداً ، ومثل هذا دعاهم إلى الخلط بين أهل بربر وأهل سنار ، فهم يسمون البربرى سنارياً .

وأهل بربر عرب من قبيلة الميرفاب . وهم يردون أصلهم إلى الشرق (يمنون جزيرة العرب) كما ترد أصولها سائر القبائل العربية النازلة بوادى النيل ، من صعيد مصر إلى سنار . على أن لفظ الميرفاب لا يبدو عربى الأصل ، وهو بلغة البشاريين أشبه . وليس بين القبائل النازلة ضفاف النيل قبيلة كبيرة ، ولا يبعد الإقليم عن أخيه أكثر من رحلة يوم طولا . وأكبر هذه الأقاليم إقليم عرب الشايقية . ولا تمتد مساكن قبيلة الميرفاب أكثر من ست ساعات أو ثمانية على ضفاف النيل، ولكن من رجالها نفراً كبيراً يسكنون الأقاليم المجاورة أغرابا . وهم يزعمون أن فى وسع القبيلة أن تسلح جيشاً عدته ألف من العرب الأحرار وخمسمائة من الرقيق ، ولكنهم قلما يخرجون فى محاربة جيرانهم بأكثر من أربعمائة محارب أو خمسمائة. ويتزعم القبيلة أحد رجالها ، ولقبه مِك (اختصار للفظ ملك) ، وهو لقب يحمله صغار رؤساء القبائل فى هذه الأرجاء حتى دارفور وسنار . ومنصب الملك وقف على الأسرة الحاكمة ، ولكنه ليس منصبا وراثياً ينتقل من الأب إلى أكبر أبنائه . ذلك أن ملك سنار قد بسط نفوذه على ضفاف النيل شمالا حتى الحدود الجنوبية لوادى الحجر منذ ارتقت العرش أسرة الفونج ، وهو يولى هذا الإقليم من أعضاء أسرة تمساح من شاء ، أو قل إنه يبيع العرش لمن يدفع فيه أغلى الأثمان بعد وفاة الملك السابق . وليس لملك سنار سلطان على بربر أكثر من حق اختيار ملكها، ولكنه فى كل أربع سنين أو خمس يوفد إليها أحد رجاله ليجمع منها جزية من الذهب والجياد والإبل قوامها عشرون جواداً وثلاثون بعيراً على التقريب . وكان ملوك دنقلة — إلى ما قبل اجتياح المماليك لإقليمهم — يؤدون جزية كهذه لسنار ، كذلك كان يؤديها عرب الشايقية ، ولكنهم أمسكوا عنها بعد أن اشتد ساعدهم

أخيراً . ومثل هـذه الجزية يفرضها ملك سنار على القبائل الصغيرة بين الشايقيـة وبربر ، وهو يولى ملوكهم كما يولى ملك بربر. وينزل بربر أغراب كثيرون فضلا عن عرب الميرفاب ، ففيها دناقلة وعبابدة من صعيدمصر ، ومن هؤلاء من استوطن بربر ، ومنهم من تزوج من بربر وله بمصر أسرة أخرى .

وليس لملك القبيلة على أبنائها العرب ـ لاسيما أبناء الأسر القوية ـ ، إلا أضعف النفوذ وأوهاه ، وهو لا يفرض ضريبة على حقولهم أو محاصيلهم ، ولـكنه لا يرحم الغرباء لأن جل إيراده مما يجبيه منهم من ضرائب وما يبتزه من عطايا . والجزية التى يؤديها لسنار يجمعها من القبيلة كلها ، وهو جد حريص على ألا يخرج من هذه الصفقة خاسراً . أما المال الذى يؤديه لملك سنار نظير الاعتراف به خلفاً للملك المتوفى فيجمع فى الأكثر بقرض إجبارى يأخذه من أى قافلة يتفق مرورها إذ ذاك . والوصول إلى الحـكم أمر ميسور لأى فرد من أفراد الأسرة الحاكمة أوتى من النفوذ والنفر والمال مايكفل اختياره فى سنار .

وتقع قرى بربر الأربع على حافة الأرض الزراعية على مسيرة ساعة من النهر الذى يشق الصحراء الرملية . وتتألف كل قرية منها من اثنتى عشرة نزلة منفصلة على أبعاد متقاربة ، ويفصل البيوت عن بعضها البعض حيشان واسعة ، لذلك لا تجد فى القرية شوارع منظمة ، وبناؤها لا بأس به ، وتبنى باللبن أو الآجر ، وليست فى منظرها دون بيوت الصعيد . وفى كل بيت حوش كبير له قسم خارجى وآخر داخلى . وحول الحوش تقوم غرف الأسرة وكلها فى الطابق الأرضى ، ولم أر فى هذه البلاد طابقاً أعلى أوسلماً . وهم يسقفون البيوت بالعروق يمدونها فوق الجدران ثم يغطونها بالحصير ومن فوقه يرصون البوص ثم يبسطون على هذا كله طبقة من الطين . وللسقف منحدر ينزلق عليه ماء المطر فيجرى فى أكثر البيوت فى قناة تنتهى به إلى الحوش فيستحيل هذا الحوش وقت المطر بركة قذرة . وتسكن الأسرة غرفتين ، وتخزن المئونة فى ثالثة ، وتستقبل الضيوف والأغراب فى رابعة ، وكثيراً ما تؤجر خامسة للغوانى . وقل أن تشتمل الغرفة من النوافذ على أكثر من طاقة صغيرة ، فإذا أرادو مزيداً من الضوء فتحوا بابها . وأبوابهم من خشب

وللباب الضبّة والمفتاح الخشبيان المعروفان فى الشام ومصر ، ولكنهما هنا أخشن صنعة . ولست أذكر أننى رأيت فى الغرف أثاثاً ، اللهم إلا أريكة أو سريراً هيكله من الخشب وله قوائم أربع ، فإذا كان مقعده من الجريد فهو سرير ، وإذا كان من سيور رقيقة متعارضة من جلد الثور فهو عنقريب (والكلمة بشارية) . وأفضل ضروب العنقريب ما جلب من سنار ، وكثير منه يصدّر للصعيد وبلاد العرب ، واستعماله شائع فى كل أرجاء السودان . وإذا أراد القوم الاحتفاء بغريب أتوه بعنقريب حال وصوله يضطجع عليه ليلا ويتكىء نهاراً . وللجلد رائحة خاصة تبعد عنه الحشرات فيما يقولون . ويفرشون بالحصير الجزء الداخلى من الغرف التى تنام فيها النساء ، وكذلك الحجر الأخرى التى يقيل فيها الرجال ، والقيولة ترف لاغنى عنه فى هـذه البلاد . فإذا ناموا فرشوا تحتهم بساطاً من قطع الجلد يخاط بعضها ببعض ، وآثروا النوم على غير وسادة شأن العرب ، فيكون الرأس فى مستوى سائر الجسم . وتحفظ الذرة فى غرفة المئونة ، إما أكواماً على أرضها وإما فى صوامع من الطين وقاية لها من الفيران . على أن الدار تحفل بالفيران برغم ذلك ، وهى تمرح فى الحيشان فى وفرة تتيح للصبية أن يمرنوا على قذفها بالرماح فيقتلون عشرات منها كل يوم . وتحتوى غرفة المئونة على أشياء أخرى فضلا عن الذرة ، ففيها بعض القرب المملوءة زبداً ، وفيها القدور من العسل ، وفيها قرب الماء للمسافرين ، وفيها إلى ذلك اللحم المجفف إذا كان رب الدار مبسوط الرزق . ويغلب أن يخصص الحوش الداخلى للماشية من جمال وبقر وغنم ، وفى جانب منه تحفظ سيقان الذرة الجافة يقدمونها علفاً للماشية حين يشتد الصيف فيجفف النبات أو العشب الذى أنبته الفيضان . وبالحوش الخارجى فى أكثر البيوت بئر ماؤها ملح لا يصلح إلا للماشية . وفى هذا الحوش ينام الذكور والأعراب فى الصيف إما على مصاطب من الطين ملاصقة للغرف ، أو على عنقريبات أو على الأرض ، وفيه يعلف آثر الجياد عند رب البيت ، وفيه تصرف الأعمال كلها فى العراء.(*)

(*) فى الصفحتين ٢١٤ و ٢١٥ من الأصل أورد بوركهارت عن البغاء فى بربر تفصيلات لا نظن أن غريباً بكل معانى الغربة كرحالتنا هذا يستطيع أن يكون لديه الخبر اليقين عنها ، وهذه التفصيلات تناقض فى نفس الوقت ما أثبته هو عن أخلاق القوم . ولهذا ، وحرصا على ألا نصيب قوما بجهالة ، آثرنا عدم إثبات تلك التفصيلات فى هذه الترجمة . (غربال)

ونساء بربر — حتى المنتميات منهن للطبقات العليا — يمشين سافرات ، وكثيراً ما ترى صغار البنات عرايا إلا من نطاق من شراريب جلدية قصيرة يلبسنه حول الخصر . ومن القوم من يكتحل — سواء منهم فى ذلك الرجال أو النساء ، ولكن هذه العادة ليست منتشرة بينهم انتشارها بين المصريين، ونساء الخاصة والمتأنقات من الغوانى يطرحن فوق قمصهن عباءات بيضا بحواش حمر من صنع المحلة الكبرى . ويتدهن الرجال والنساء بالسمن الطازج كل يوم ، وهم يزعمون أنه منشط منعش، وأنه واق من الأمراض الجلدية ومنعم للبشرة ، ويضيف الرجال إلى هذه الفوائد فائدة أخرى وهم يذكرون معاركهم الكثيرة ، وتلك أنه يقوى الجلد ويشدده ويجعله أعصى على طعنات المدى. ولكنى أقر عن خبرة إننى كنت أحس راحة كبرى فى الهجير إذا دهنت بالسمن صدرى وذراعى وساق أو قدمى بعد السير المضنى. ولا يعرف القوم هنا « حمو النيل » الشائع فى مصر ، وكثيراً ما أعجبت بنعومة جلدهم وطراوته حتى مع طول تعرضهم للشمس، وتلك هى الميزة التى يُدِلُّ بها العرب على الزنوج ، فإن لهم برغم سوادهم بشرة ناعمة كبشرة البيض ، أما بشرة الزنوج ففيها خشونة وغلظ ، ويد الزنجى يابسة كلوح الخشب ، أما يد العربى من غير طبقة الفعلة فرخصة غضة كأيدى أهل الشمال . والدهن المعطر الذى لا يستعملونه إلا فى المناسبات الخاصة مزيج من دهن الغنم والصابون والمسك ومسحوق خشب الصندل والسنبل والمحلب ، وللمزيج رائحة عبقة ، ويزعم الرجال أنه منبه قوى ، ولكن الحقيقة التى يستشفها المرء هى أنهم يتدهنون به عادة قبل أن يغشوا خليلاتهم .

وأهل بربر سلالة جميلة ، ولون الخلّص منهم أسمر داكن ، فإذا كانت الأم جارية حبشية كان لون أطفالها أسمر فاتحاً ، وإذا كانت زنجية كان لونهم أسود فاحماً. ورجالهم أطول قامة من المصريين ، وهم أشد منهم أبدانا وأكبر أطرافا ، وليست لهم قسمات الزنوج إطلاقا ، فالوجه بيضىّ والأنف فى كثير منهم إغريقى خالص وعظم الوجنة لا بروز فيه ولا نتوء . بيد أن فى الشفة العليا غلظاً خفيفاً ينحرف بها عن معايير الجمال عنـــد الأوربيين ، ولكنها مع هذا بعيدة الشبه بشفاه

الزنوج . وفى سيقانهم وأقدامهم جمال قل أن تجده بين الزنوج ، ولهم لحى قصيرة ولكنهم مرد الخدود ، وشواربهم رقيقة قصيرة ، وشعورهم كثة قوية ولكنها ليست صوفية . فإذا كان الشعر قصيراً بدا جعداً متلاصقاً ، وإذا أرسلوه تألفت منه خصل عريضة عالية. وهم يقولون «نحن عرب لازنوج»، والواقع أنه لايسلكهم فى عداد الزنوج إلا من اكتفى فى حكمه عليهم بالنظر إلى لون بشرتهم فحسب .

ويحرص عرب الميرفاب حرص غيرهم من القبائل العربية فى هذه الأرجاء من إفريقية على حفظ سلالتهم نقية خالصة ، ولن تجد رجلا من أحرارهم يتزوج بجارية من الحبش كانت أو من الزنوج ، فهو لا يرضى بغير عربية من قبيلته أو من قبيلة مجاورة ، أما أبناؤه من جواريه فلا يعتبرون أهلا للزواج إلا بالجوارى أو ببنات الجوارى . ويشاركهم هذه العادة كل البدو الشرقيين ، أما أهل المــدن فى شبه جزيرة العرب وفى مصر فلا يجدون غضاضة فى الزواج من الجوارى الحبشيات أو الزنجيات .

ويؤدى الزوج لحميه صداقا عن ابنته جريا على عادة المسلمين ، وهو هنا أعلى مما يؤدى فى سائر الأقطار التى يسكنها العرب ، وقد يصل صداق ابنة الملك إلى ثلاثمائة ريال أو أربعمائة يحفظها الأب مهراً للعروس .وقل منهم من يتخذ أكثر من امرأة ، أما القـــادرون فلهم جوار ممن ملكت أيمانهم يقمن فى بيوتهم أو فى منازل مستقلة. ويسمون الخليلة هنا رفيقة ، ونسبة الخليلات عندهم أعلى منها فى أكثر العواصم الأوربية احتشاماً . وندر من بين التجار من يمر ببربر دون أن يتخذ لنفسه خليلة وإن لم يمكث بالمدينة سوى أسبوعين . والذين يكثرون من اتخاذ الإماء هم أيضاممن يدمنون الخمر وكأنه لا هم لهم فى الحياة إلا هذين . وخمرهم البوظة ، ويصنعونه بتفتيت الخبز المخمر من الذرة ومزجه بالماء وترك المزيج ساعات على نار هينة ، ثم يرفعونه عنها ويصبون عليه الماء ويتركونه أسبوعين ليختمر . وتختلف أسماء هذا الشراب بتفاوت نسبة تخمره ، فهو إما مريسة ، أو بوظة ، أو

أم بلبل ، وسمى أم بلبل لأنه يطلق لسان شاربه بالغناء . والمريسة والبوظة لا يخلوان من فتات الخبز لأنهما يخمران معه ، أما أم بلبل فيصفّى بقماش يخرج من خلاله الشراب نقياً سائلا . ولقد ذقت ثلاثتها ، ووجدت لأم بلبل حرافة لطيفة تجعله أشبه بالشمبانيا الحامضة . ويقدم الشراب فى برمة كروية واسعة مفتوحة عند قمتها عليها نقوش كثيرة منوعة . وتسع البرمة لترين ، وشراب الرجل منهم برمة على الأقل فى مجالسهم . فإذا وضعت البرمة على الأرض جىء إلى جوارها بوعاء آخر صغير مقسوم من نصفه فى حجم فنجان الشاى ، ثم صب فيه الشراب وأدير على القوم واحداً واحداً ، وبين الدور والدور فترة من ست دقائق إلى ثمان . وفى بداية مجالس الشرب يدار عليهم عادة طرف من اللحم المشوى المتبل بالفلفل الكثير ، ولكنهم يزعمون أن فى البوظة الكفاية من الغذاء . والواقع أن النوع العادى منها أشبه بالحساء أو الثريد منه بالراح التى تشرب جرعة واحدة . والقوم كلهم مولع بهذا الشراب ، وللنساء به كلف لا يقل عن كلف الرجال ، ولا يشذ عنهم فى هذه العادة سوى رجال الدين أو الفقراء ، فهم لا يقربونه جهرة على الأقل . وثمن البرمة من البوظة كيلة من الذرة ، يستعمل ثلاثة أرباعها لصنع الشراب ويؤخذ الربع أجراً عن صنعه .

وأهل بربر ، فيما خلا هذا الولع بالشراب ، زاهدون فى الطعام ، وقد يمسكون عنه اليوم كله ليتسنى لهم الشرب والقصف ليلا . وأهم غذاء عندهم خبز الذرة ، ولما كانوا لا يملكون طاحونا ولا رحى ، فهم يطحنون الذرة بنثرها فوق حجر أملس طوله قدمان وعرضه قدم ، يضعه الطحان بميل أمامه ، وتحت طرفه السفلى ثغرة فى الأرض فيها قدر مكسورة أو وعاء خشبي أو نحوه يتلقى دقيق الذرة ، أما أداة الطحن فحجر صغير فى القاع يمسكه بكلتا يديه ويروح به ويجىء على الحجر المائل وهو راكع . ولصنع أجود الخبز تغسل الذرة غسلا جيداً وتجفف فى الشمس ، ولكنهم فى الأكثر يطحنونها دون أن يجشموا أنفسهم مشقة غسلها ، وفى أثناء الطحن تبلل الذرة باستمرار برش الماء عليها من حوض قريب ، فيكون الدقيق المتساقط فى الوعاء أقرب إلى العجين السائل ، خشناً تشوبه الأقذار والتبن .

وعلاًون من هـذا العجين قدراً تـكفيهم مئونة يومهم ، وهم يتركونها من أربع وعشرين ساعة إلى ست وثلاثين يختمر العجين فى أثنائها ويحرف طعمه دون أن يضيفوا إليه خميرة ، ثم يقرصونه بعد ذلك رغفانا صغيرة على لوح من الحديد موضوع على نار ، فإذا لم يتيسر فعلى حجر رقيق ناعم ، فإذا حمى الحديد أو الحجر تم خبز الرغيف منها فى دقائق ثلاث أو أربع . ولما كانت الرغفان صغيرة ، ولما كان لا يوضع فى المرة أكثر من رغيف ، كان خبز قدر كاف منها يتطلب وقتاً كبيراً . ومن عادتهم أن يقدموا على المائدة عشرات منها ساخنة فى وعاء خشبى كبير ، ثم يصب عليها اللبن أو الحساء أو مرق البصل (ويسمونه مُلاَّح) . وهم لا يضعون فى الخبز ملحاً وإنما يضيفون الملح إلى المرق . هـذا اللون من الطعام هو ما يتناولونه فى غدائهم وعشائهم ، وهو لون شديد الخشونة ولـكنه ليس كريه الطعم ، وحرافته الطفيفـــة تجعله سائغا فى ساعات الهجير . وهضمه سهل ، وكنت على الدوام أجده يلائمنى . على أن مذاقه يخبث إذا بات ، لذلك لا يخبزونه إلا قبيل الغداء أو العشاء ، وزادهم فى السفر من رغفان كهذه ولـكنها أرق [الـكسرة] ، وعجينها يترك يومين أو ثلاثا ليشتد خمره ، فإذا خبزت على النار تركت لتجف فى الشمس ثم كسرت كسراً ووضعت فى حقيبة من الجلد ويسمونها الأبريه . وهذه الطريقة تحفظ الخبز شهوراً فيتناوله التجار حين لا يجدون طعاما مطهوا . وقد يصبون على حفن منه السمن السائح فيكسبه ذلك طعما شهياً . وقد تغمس الـكسرة فى الماء فيشربونه حين يحرف طعمه ويسمونه «شربة الجلابة» .

وكثيرا ما يقدمون على موائدهم اللحم مسلوقا أو مشوياً ، واللبن عندهم غذاء رئيسى ، أما البامح فترف عظيم ، ويجلبه تجار دنقلة من المحس ، ولا يؤكل إلا فى المناسبات غير العادية ، وهو يسلق عادة مع الخبز واللحم واللبن . ولا يشرب القهوة إلا التجار وعلية القوم ، وحتى هؤلاء لا يتعاطونها كل يوم . والبن الذى يصنعونها منه ليس عربياً ولا يمنياً ، إنما هو بن ينمو بريا فى جبال الحبشة الجنوبية الغربية ، ويجلبه تجار سنار من هناك . وهـذا النوع يباع فى مصر أرخص من

البن اليمنى بثلاثين فى المائه ، على أنك لا تـكاد تفرق بينهما طعما أو شكلا [١] .

وفى وسع أهل بربر أن يتأدبوا حين يرون التأدب أليق وأجـــدى . فإذا استقبلوا غريباً وأرادوا الاحتفاء بهتـكلفوا من الطيبة والبساطة الفطرية ما يخدع أكثر المسافرين حنكة ودراية . على أن هؤلاء المنافقين الذين حذقوا فنهم قل أن ينطلى نفاقهم على من سبق له النزول ببربر . وتسمع حديثهم فإذاهو يفيض بعبارات التحية والمجاملة ، وهم يسألونك عن صحتك وحالك بشتى الأساليب ، فإذا كنت عائدا من غياب طويل قبلوك وصافحوك فى شوق وحرارة . ويسلم الرجل منهم على النساء باحترام وإجلال ، فيمس الرجل جبين المرأة بيمناه ثم يقبل أنامله التى مستها . وهم يسألونك عادة : شديد ؟ ، وأغرب من هذا عبارة لم أسمعها من قبل ، فهم يقولون لك : لعلك طيب [٢] ؟ ولعلهم يريدون هل أنت من القوة بحيث تمشى على نعلك ما شئت أن تمشى ؟ وإذا لقى أحدهم صاحبه أول مرة بعد موت قريب له جثا إلى جواره على إحدى ركبتيه ، وطفق يردد متفجعا « فى سبيل الله ، فى سبيل الله » ، وهو يعنى أن الفقيد مضى فى سبيل الله القويم وأن له أجره ومثوبته . ثم أقام الشخص بيده — رجلا كان أو امرأة — وبادله بعد ذلك التحية المألوفة .

وأدهشنى ألا أرى القوم فى هذا البلد الإسلامى الصريح يحيون بعضهم بعضا بالتحية الشائعة بين المسلمين ، أعنى عبارة « السلام عليكم » . فهم لا يحيون عادة إلا بلفظ طيب ؟ يرددونه مرات . وقد يحى رجال الدين بقولهم « سلام ســلام » دون أن يضيفوا إليها كلمة ، ولـكن القوم لا يردون تحيتهم بما يرد به المسلمون ، فلا يقولون «وعليكم السلام» ، بل «طيب ، أنت طيب ؟» . ويحيون أعضاء الأسرة المالـكة بعبارة «يا أرباب» ويلقبونهم بالرءوس ، فيقولون الراس إدريس ، والراس محمد إلخ . وهو لقب شائع الاستعمال فى هذه البلاد كلها ، ويبدو أنه انتشر منها إلى الحبشة [٣]

---

(١) آثرنا حذف ما ورد فى الصفحات من ٢٢١ إلى أول ص ٢٢٥ لما فيها من كيل السباب جزافا . (غربال)

(٢) لعل صحة هذه العبارة « لعلك طيب » . (المترجم)

(٣) أصل اللقب من الحبشة . (المترجم)

ويطلقون على الحكومة لفظا نحاهو السلطنة ، ولا يراد به الحاكم بل الحكومة على وجه العموم .

ولم يطل مكثى ببربر زمناً يتيح لى أن أشهد عادات القوم فى الأفراح والمآتم والختان وما إليها، ولست أشك فى أنها تخالف العادات الإسلامية الأصلية كما نص عليها الشرع . ومن عادتهم عند موت الميت أن يذبحوا شاة ، فإذا كانت أسرته فى سعة فبقرة أو جملا . وقد ذبح إدريس فى أثناء نزولنا بداره بقرة ترحما على روح قريب له مات قبل شهور ، وصادف موته مجاعة عزت فيها الأبقار . وأتى الرجل بأكثر فقهاء النخيرة ليقرءوا ما تيسر من آى الذكر الحكيم فى غرفة منفصلة . واجتمع فى غرفة أخرى جم غفير من النساء يندبن على الطار ويصحن صيحات منكرة أكثر الليل . وقدم الحساء ولحم البقر المشوى لفقراء كثيرين فى فناء الدار ، أما أطيب اللحم فقد جىء به إلى أصحاب إدريس .

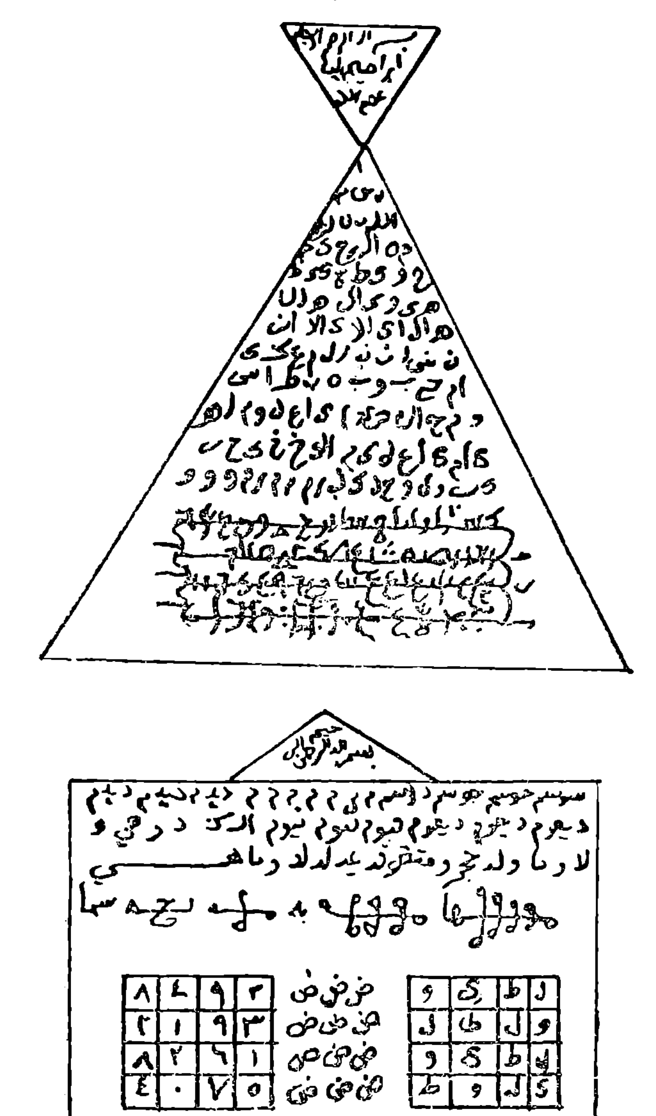
حدثت القراء غير مرة عن الفقراء أو رجال الدين ، وقد يسمونهم الفقهاء [١] . وقل من الأسر المحترمة من ليس له ولد أو قريب ينقطع فى شبابه لدراسة الفقه والشريعة . فيرسل الطالب وهو فى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة إلى مدرسة من المدارس المجاورة، وأشهرها اليوم فى الدامر على الطريق إلى شندى ، وفى مقرات [٢] وعند الشايقية ، ويتعلم الطلاب فى هذه المدارس القراءة والكتابة ويحفظون عن ظهر قلب ما وسعهم حفظه من القرآن وكتب الصلوات [٣] ، ويتلقون أسرار كتابة الأحراز والتمائم ، ثم يعودون إلى وطنهم فى العشرين فيعيشون فيه متظاهرين بالتقوى والورع والتمسك الشديد بأهداب الفضيلة ، ولكن هذا فى الغالب لا يعدو الزهد فى التدخين ، وفى تعاطى البوظة جهرة ، وفى غشيان بيوت الليل .

وقد يكتبون التمائم على قطع من الورق ، فإذا ابتلع المحب الذى يشكو صد حبيبه ورقة منها رق له قلب الحبيب . ومن الفقراء من تخصص لكتابة أحجبة

(١) فى تكاكى بمقرات قبيلة من الفقهاء الأشراف يزعمون أنهم ينتسبون لبنى العباس.
(٢) فى قرية على النيل بمقرات تدعى وادى حصاد — وهى على نصف يوم من بربر — يعيش فقيه مشهور له عدد غفير من التلاميذ .

(٣) عرفت فى بربر والدامر فقهاء كثيرين يحفظون القرآن عن ظهر قلب .

الحب ، أو التمائم المضادة للحمى . وقد حصلت على حجابين أحدهما من ربر والثانى من الدامر . وزعم لى الفقير منصور — وهو الذى باعنى الحجاب الأول بسبحة من الخشب — أنه إذا كتب اسم العاشق على الحجاب الأول لن تقوى امرأة على مقاومة فعله ، ولكن الفرصة لم توانني بعد للتحقيق من مفعول هذا الحجاب . أما الحجاب الثانى فيقى صاحبه من الإصابة بأى جرح .



وأهل بربر فيما يبدو قوم صحاح الأبدان يندر بينهم معلول أو مهزول . وهواء البلدة صحى من غير شك لوقوعها على أطراف الصحراء . وذكروا لى نبأ حمى يسمونها الوردة ، يلوح أنها مرض وبائى لأنها تفتك بالمرضى فى أغلب الأحيان . ويستهدف الدناقلة لهذه الحمى ، وتتفشى فى الفيضان ، ولكنها لا تظهر كل عام . أما الطاعون فلا يعرفونه ، ويحملنى ما جمعت من أخبار فى رحلتى السابقة للنوبة على الاعتقاد بأن هذا الوباء لا يتجاوز شلال أسوان . أما الجدرى فيفتك بالقوم فتكا ذريعاً حيثما حلّ ، وقد جاءهم خلال مجاعة العام الماضى فكان ضغثاً على إبالة ، وازداد عدد الضحايا زيادة كبيرة . وقد جلبه إلى بربر قوم من التاكة نقله إليهم تجار سواكن . ثم انتشر فى أعالى النيل طولا وعرضا ، وكان يصاب به الكبار والصغار على السواء ، بل إنه فى الصغار كان أخف وطأة وأسلم عاقبة . وشفى من المصابين به ثلثهم ، ولكنهم ظلوا يحملون سماته على جلدهم ، فكنت ترى أذرعهم ووجوههم تكسوها البقع والندوب التى لا حصر لها . وقل أن يمر الوباء غارة خفيفة يترفق فيها بوجوه ضحاياه فلا يشوهها . والتطعيم أو «دق الجدرى» معروف فى هذه الأرجاء ، ولكنهم لا يقبلون عليه لأنهم ضعيفو الثقة فى جدواه ، فإذا دقوا ففى الساق غالباً . وقد فتك الجدرى فى شهور قليلة باثنين وخمسين شخصاً من أسرة تمساح التى ضيفتنا . وأنبأنى بعض التجار بالقاهرة وأنا أكتب هذا (فى ديسمبر ١٨١٥) أن وباء آخر قد ظهر هناك فأهلك الأسرة كلها تقريبا ومنهم إدريس نفسه . وعلاج الجدرى عندهم أن يدهن الجسم كله بالسمن مرتين فى اليوم أو ثلاثا ، وأن يلزم المريض غرفته لا يبرحها . ويظهر الوباء بينهم مرة كل ثمانية أعوام أو عشرة ، وهم يفزعون منه أشد من فزع المشارقة من الطاعون ، فيهرب الكثيرون من عدواه إلى الجبال . وقيل لى فى مصر إن الجدرى أشد خطراً فى بلاد الزنج منه فى سواها لما فى جلودهم من غلظ ، فقد تشتد الحمى لأن الجلد الصفيق يقاوم جهود السم فى اختراقه . وقد يكون هذا صحيحاً فى حالة العبيد الزنوج ، ولكنه ليس صحيحاً فى بربر حيث جلد القوم فى رقة جلد البيض ونعومته . ولم أر من حالات الإصابة بالرمد إلا قليلا ، ويقال إن الأمراض السرية منتشرة بين

أهل بربر فإذا صحّ هذا فإن آثارها هنا ليست وبيلة كآثارها فى مصر ، لأننى لم أر بينهم ما رأيت فى شمال وادى النيل من وجوه مقروحة وأنوف شائهة .

وعرب الميرفاب رعاة زراع ، إذا انحسر الفيضان زرعوا الأرض ذرة وقليلا من الشعير . وقبل أن يزرعوها يعزقونها بالفئوس ، أما المحراث فلا يستعملونه ، وقد استعمل مصرى محراثا للمرة الأولى فى العام الماضى . وسواقيهم تعدّ على الأصابع ، فليس فى قريتى النخيرة والحصا أكثر من أربع أو خمس منها . ويزرعون الأرض مرة فى السنة ، ولا يغمر ماء الفيضان الكثير من الأرض الزراعية لأن ضفاف النيل تصل إلى ارتفاع كبير يجاوز ارتفاعها فى مصر على العموم ، ولا يعوض القوم فى الغالب هنا العجز بالرى الصناعى كما يفعل أهل مصر حتى يأخذوا من الأرض عدة محاصيل ، ومن هذا يسهل على القارىء أن يدرك السر فى كثرة تعرضهم للقحط ، فقد بلغ سعر مدّ الذرة فى العام السابق لرحلتى نصف ريال إسبانى . على أنه يلوح أن البلاد كانت إلى عهد غير بعيد أزهى حضارة منها اليوم ، فقد تبينت فى الحقول آثار ترع عميقة تركت مهملة مع أنه قد يستعان بها حتى فى زرع السهل الصحراوى المجاور للأرض الزراعية . وأهم المحاصيل الذرة ، وهى قوام غذاء الناس والبهائم ، أما القمح فلا يزرع فى بربر ، وقليل منه يزرع فيما جاورها من بلاد . والذرة هنا من فصيلة الذرة الصعيدية ، ولكن سيقانها أطول وأقوى ، وقد تعلو ست عشرة قدما أو عشرين . أما الخضر فلا يزرعون منها سوى البصل واللوبيا والبامية (*) والملوخية ، وكلها معروف فى مصر . وهم لا يزرعون من الفاكهة شيئاً ، والنبق البرى هو الفاكهة الوحيدة التى يعرفونها فيما رووه لى .

ويربى أهل بربر الماشية الكثيرة من خير الفصائل ، وينتجعون بها الكلأ الذى ينمو فى جبال البشاريين شتاء وربيعا عقب هطول المطر ، وهناك يعيش رعاتها فى أكواخ وخيام كالبدو سواء بسواء . وفى أخريات الربيع تأكل الماشية الأعشاب البرية التى تنمو بين أعقاب الذرة غزيرة كأنها الحشيش فى الروج .

(*) واسمها الويكة فى هذه البلاد كلها .

فإذا جاء الصيف وجف العشب وعز الكلأ في الجبل علفت في البيوت بسيقان الذرة الجافة وأوراقها . وأبقار الرعاة وإبلهم هي عماد ثروتهم ، ويملكون فضلا عنها الغنم والماعز ، ولكن أكثره استهلك في أثناء المجاعة . وأبقارهم متوسطة الحجم ضعيفة الجسم ، ولها قرون صغيرة وسنام من الشحم قرب الكتف . ولا تعرف هذه الفصيلة في مصر ، وهي تبدأ في دنقلة ولا ترى غيرها على ضفاف النيل حتى تبلغ سنار . وهذا السنام بعينه تلحظه في الأبقار المرسومة في صور المعارك الحربية على المعابد القديمة بصعيد مصر ، وقد رأيت هذه الفصيلة نفسها في الحجاز . وهم يربون البقر للبنه ، وأهم من لبنه عندهم لحمه ، وقليل منه يستخدم لإدارة السواقي .

أما إبلهم فمن أنجب الفصائل ، بل إنها لتفضل إبل الصعيد المشهورة صلابة واحتمالا . وهجنهم تفوق ما رأيت في صحارى الشام وبلاد العرب . ولإبلهم وبر قصير جداً ، وجسمها خلو من الخصل . ولا تختلف الهجن عن إبل الحمل فصيلة ، ولكن القوم هنا أحرص الناس على نقاء السلالة ، وإن العربي منهم ليتجشم السفر أياما كثيرة في سبيل الوصول إلى بكر أصيل معروف يغشى ناقته . وقد تكاثر اليوم الطلب على الإبل للسوق المصرية ، ويبتاعها الباشا ليرسلها إلى شبه جزيرة العرب لتنقل ذخيرة الجيش ، ويسوقون منها كل شهر عبر الصحراء ثلاثمائة أو أربعمائة . ومع ذلك فثمن الجمل هنا لا يزيد على ثمانية ريالات إلى اثنى عشر ، وإن كان يباع في دراو بثلاثين أو أربعين ، وفي القاهرة بخمسين أو ستين .

وأغنام هذه الأقطار الجنوبية لا صوف لها ، ولا يكسوها إلا شعر رقيق قصير كشعر الماعز ، لذلك لا يرى القوم لها نفعا يذكر ولا يربونها إلا للحومها . أما الحمير فتقتنى كل أسرة تقريباً منها اثنين ، وهي من فصيلة قوية ، وأهم ما تستخدم فيه حمل المحصول من الغيط ونقل السبخة من الجبل . وينشر الأهالي هذا الثرى المحتوى على النترات على الأرض قبل أن يزرعوها ، ولم أعرف غرضهم من ذلك ، أهو تسميد الأرض أم التخفيف من خصبها الشديد . والطلب كثير على الحمير المصرية لأنها أسرع من النوبية عدواً ، ويركبها وجوه القوم ، ويقبلون

على شرائها إقبالا شديداً كلما وصلت بلدهم قافلة ، أما الخيل هنا فموفورة العدد ، ولكل أسرة محترمة جواد على الأقل ، ومنها ما يملك جوادين أو ثلاثة . ولا يمتطى عرب النوبة غير الفحول ، ويستعين عرب الميرفاب فى حروبهم مع جيرانهم بالفرسان الكثيرين ، والفرسان هم الذين يقررون مصير المعركة فى الغالب ، وخيلهم من الفصيلة الدنقلاوية،وهى من أعتق الخيل كما ذكرت فى رحلتى لدنقلة. وعليقها الذرة ، وتقدم لها أوراقها المجففة بديلامن التبن أو الدريس ، وهم يطلقونها أسابيع لترعى الشعير الأخضر فى الربيع . وثمن الحصان منها خمسة عشر ريالا إلى أربعين ، ولا يسمونه حصاناً كالمصريين بل « حافراً » . وهناك بعض الشبه بين سرج الفارس الأوربى وسرج الفارس البربرى (وهو بعينه السرج الذى تراه فى دنقلة وسنار والحبشة) فكلاهما له حنو عالٍ فى مقدمته يميل إلى أمام على عنق الجواد . وقبل أن يخوض الفرسان غمار معركة يغطون ظهور الخيل وجوانبها وأعناقها وصدورها بقماش من صوف مبطن بالقطن السميك لا تنفذ فيه الرماح أو السيوف فيما يقال ، ويسمى « اللبس » ،وهو نفس الاسم الذى يطلقه البدو الشرقيون على أغطية خيامهم ، ولكن اللبس الذى يصنعه عرب الميرفاب يمتاز بالأناقة والخفة والمتانة .

وجل أهل بربر — وهم زراع كما قلت — يشتغلون بالتجارة حين يفرغون من زراعتهم، لذلك أصبح بلدهم سوقاً رئيسية لتجارة الجنوب ، وزاد من مكانته التجارية ضرورة مرور جميع القوافل القادمة من سنار وشندى ببربر فى طريقها إلى مصر . ولبربر نفسها تجارة مع مصر ، وكثير من القوافل الصغيرة تحمل بضاعتها وتشد رحالها منها دون انتظار بضاعة من أسواق الجنوب . وما من سلعة سودانية — بما فيها الرقيق — إلا استطعت شراءها فى بربر بزيادة ١٥٪ إلى ٢٠٪ على ثمنها فى شندى . ولبربر سوق عامة ، ولكن العمل فيها تعطل مؤقتا — وقد وجدناه معطلا حين ألممنا بها — بسبب ما حل بالبلاد أخيراً من قحط ، وبفعل الجدرى الذى حصد أرواح الكثيرين .

والذرة والريال الإسبانى هما العملة السائدة فى بربر وسائر البلاد حتى سنار .

وتثمن السلع الرخيصة بالذرة ،ويكيلونها«بالسلقة» أو الحفنة ، وفى المدّ ثمانى عشرة سلقة أو حفنة ، وعيار السلقة هو ملء راحة الرجل إذا بسطها. ويستطيع القارىء من هذا أن يستنتج ما يحدث عادة بين البائع والمشترى من نزاع لاختلاف حجم أيديهما ، وفى مثل هذه الحالات يطلب إلى شخص ثالث أن يكيل الذرة بيده . وعشر مدّات من الذرة تساوى اليوم ريالا . وإذا أرادوا كيل كمية كبيرة من الذرة عبّروا سعة إناء من الخشب أو نحوه بالحفن أولا ثم استخدموه مكيالا . صحيح أن لهم مكاييل خشبية ، ولكنهم لا يثقون بها ويؤثرون عليها الكيل باليد . وهناك بديل آخر عن العملة غير الذرة ، وذلك هو الدمور ،وهو قماش قطنى خشن ينسج قرب سنار ، وأهل هذه البلاد يحيكون منه قمصانهم على الأخص ، و«ثوب» الدمور — كما يسمونه — يكفى قميصا للرجل منهم . وكان ثمن الثوبين وأنا ببربر ريالا . ويقسم الثوب « فردتين » ، تصلح الفردة منها فوطة طويلة يلفها العبد على خصره . وفى الفردة « فتقتان» ، ولا تنفع الفتقة إلا أداة للمقايضة ، وأذكر أننى اشتريت تبغا بفتقة منها . على أن القوم يؤثرون الذرة أداة للبيع والشراء . لأن البائع قد لا يأخذ الدمور بثمنه الحقيقى فى السوق ، وهو ثمن يتقلب كلما وصلت من الجنوب قافلة جديدة . وثمن الرقيق أو الإبل أو الخيل أو سواها من السلع الغالية يدفع ريالات أو أثواب دمور ، ولكن الوسيط يقتضى عمولته ذرة لا يلبث أن يحولها ريالات .وللريالات أسماؤها فى محيط التجارة ، فـ « القسمة » ريالان ، و « المثقال » أربعة ، و « نصف الأوقية » ثمانية ، و « الأوقية » ستة عشر ، وهى أسماء منقولة فى الأصل عن عيارات الذهب ، لأن أوقية الذهب تساوى عادة ستة عشر ريالا ، ولكن هذه الأسماء أصبحت اليوم ثابتة وإن تغيرت قيمة الذهب ، فالستة عشر ريالا تسمى أوقية وإن كانت أوقية الذهب تساوى ثمانية عشر ريالا أو عشرين ، وتلك كانت قيمتها فعلا يوم كنت فى بربر .

ويتعامل الناس فى كردفان بعملة أخرى فضلا عن الذرة والدخن ، ألا وهى القطع الصغيرة من الحديد يصنعون منها الرماح والمدى والبلط وما إليها . كذلك يتعاملون فى صفقاتهم الكبيرة بالأبقار فتراها دائمة الانتقال من يد لأخرى .

أما السلع المختلفة التى تشتمل عليها تجارة السودان فسيأتى تفصيل القول فيها عند الكلام على سوق شندى ، ويتجر البلدان بالسلع نفسها ، ولكن تجارة بربر أقل لأنها لا تتصل اتصالا مباشراً بغير شندى من أقاليم الجنوب ، أما شندى فتفد عليها القوافل من كل فج ، ولعلها اليوم أول بلد تجارى فى إفريقية جنوبى مصر وشرقى دارفور . وكل ما يباع فى سوق بربر من رقيق أو سلع مجلوب إليها من شندى . بيد أن التجار المصريين يؤثرون فى الغالب سوق بربر على الأسواق الجنوبية برغم ارتفاع أثمانها ، ذلك لأنهم يستطيعون أن ينجزوا أعمالهم فيها فى وقت أقصر ثم يتنهزون أول فرصة للعودة إلى مصر بطريق الصحراء . ويوم كنت ببربر خرجت منها قافلة قوامها مائتان وخمسون جملا وعشرون رقيقاً تقصد دراو ، فعاد معها بعض رفاقى بعد أن باعوا بضاعتهم . ومع هذا فسوق بربر قليلة البضاعة لا تصلح إلا لأوساط التجار المصريين .

وفى صعيد مصر يسمون القوافل القادمة من بربر قوافل سنار . وعلم المصريين بالسودان ضئيل ، لذلك لا تعدو القوافل القادمة من الجنوب أن تكون آتية من دارفور أو سنار فى نظرهم ، وذلك حسب دخولها مصر من الصحراء الغربية أو الشرقية . ويدخل فى قوافل سنار ما يفد من سنار وشندى وبربر والمحس والسبوع . وكل قافلة تفد على بربر من الجنوب تمكث بها وقتاً تختار فيه من يصحبها من خبراء وتعد عدتها للرحلة عبر الصحراء . ويقيم ببربر كثير من العبابدة وهم على استعداد للقيام بهذه الرحلة فى أى وقت ، ولن يرفض الرجل منهم أن يصحب القافلة خبيراً وحارساً لقاء عشرين ريالا . وبين التجار كثيرون ممن خبروا الطريق ولكنهم لو خرجوا إليه فى غير صحبة أحد العبابدة لسطا عليهم أى بدوى من هذه القبيلة يلقاهم فى الطريق فيسلبهم مالهم وبضاعتهم . وعلى كل قافلة تفد بربر أن تؤدى للمك (أى الملك) ضريبة مرور يتطلب جمعها من كل فرد أياماً . ويقتضى الملك كل قادم من مصر خمسة أثواب دمور دون مراعاة لعدد أحماله أو جماله ، وبصرف النظر عن كونه سيداً أو خادماً . وعلى المسافر أن يدفع ثوب دمور لموظفى الملك ، وآخر لعبيده ، وثالثاً لرؤساء البشاريين من الأرباب

والعلياب أو أقربائهم إذا التقوا بالقافلة فى بربر ، ويطالب البشاريون بهذه الضريبة لأنهم سادة الصحراء من بربر إلى آبار نابه ، أما البـــلاد شمال نابه فتدخل فى نطاق سلطان العبابدة ، وتستطيع على ذلك أن تعدها جزءاً من مصر لأن العبابدة تابعون لحكومتها . ويجمع الملك الأثواب السبعة ويعطى كل فرد من قومه نصيبه منها . أما البشاريون فيأخذون الثوب بأنفسهم ، فإذا لم يوجد منهم أحد أعفى المسافر من أداء هذا الثوب . ويأخذ الملك ضريبته ريالات أو دموراً، فإذا كانت جيوب رجال القافلة حال وصولهم بربر خاوية — وهو ما يحدث عادة لأنهم يكونون قد اشتروا بضاعة بآخر درهم معهم قبل خروجهم من مصر — حصل ضريبته عيناً بأسعار يحددها هو . أما العبـــابدة فمعفون من ضريبة المرور هذه لأنهم هم أنفسهم ، كما يقولون ، «أهل سلطنة » أى قوم مستقلون فى جبالهم ، وليس من المروءة أن يتقاضى رئيس قبيلة ضريبة من رئيس قبيلة نظيره . أما حقيقة الأمر فهى أن أهل بربر يخشون بأس العبـابدة لأنهم يهبطون عليهم من جبالهم إذا خاصموهم ، ويغيرون عليهم وينهبون ماشيتهم وعبيدهم ليلا . كذلك يعفى التجار البشاريون من ضريبة المرور ، ولكن عددهم قليل جداً ، ولا يرتاد هذا الطريق منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة .

ولا يفرض ملك بربر إتاوة ثابتة على القوافل القادمة من الجنوب والداخلة فى الصحراء عند بربر ، وذلك لأنها خارجة من عاصمة سيّده ، على أنه يأخذ من كل مسافر عطايا زهيدة تتناسب وعدد أحماله وعبيده .

وليس هذا كل ما يقتضيه الملك وحاشيته ، فهم يستفسرون عن نوع البضاعة التى جلبها كل مسافر من مصر ، ثم يطلبون بعضها هدايا فوق ما أخذوا من ضريبة. ويساعد التجار أنفسهم الملك فيما يقوم به من استطلاع ، فهم يشون بعضهم ببعض تودداً إليه . وقد أنفقنا الأسبوع الأول فى بربر والملك لا يفتأ يحاول الحصول على شتى الهدايا من التجار ، والتجار لا يفتأون يروغون ويتملصون . ولما كنت فى عيونهم رجلا مملقا فإن الملك لم يتقاضانى أول الأمر أكثر من ثلاثة ريالات ، ولكنه أكرهنى بعد ذلك على دفع ريال رابع حين ترامى إليه أننى

أحمل فى منطقتى نقوداً . ولولا خشيته من مك شندى القوى البأس ، ولولا خوفه من أن تتعطل تجارة المرور ببربر تعطلا تاماً ، لكان فى مطالبه من التجار أشد تعسفاً وإرهاقاً . وفى ظنى أن دخله السنوى من القوافل يناهز ثلاثة آلاف ريال إسبانى أو أربعة ، وهو ينفقه على بيته الكبير الذى يضم العبيد والجوارى والخيول والهجن العتاق ، وهو يطعم كل يوم حوالى خمسين شخصاً من أسرته فضلا عن الأغراب ، وكذلك عليه أن يمنح أقاربه وأتباعه الهدايا بين الحين والحين تدعيما لنفوذه بينهم . وهكذا ترى أن هذه الوجوه التى ينفق فيها ماله لم تتح له ادخار شىء مذكور منه .

وأشاروا لى على أغنى رجال بربر بعد الملك ، وذكروا أنه يملك ألف ريال ربحها فى العام الماضى حين تفشت المجاعة بين الناس لأن مخازنه كانت تزخر بالذرة . ووجوه القوم هنا يملك الواحد منهم من ثلثمائة ريال إلى ستمائة ، يدخل فى ذلك ثمن الماشية والأثاث وما إلى ذلك .

وليس لبربر من منافذ تجارية، فضلا عن دراو وشندى ، إلا القليل . ذكروا لى أن القوافل كانت فيما مضى تسير منها إلى دنقلة مخترقة الجبال على ضفة النيل الشرقية لا محاذية لضفاف النهر خشية أن تكره على الوقوف بكل قرية لتؤدى لها الإتاوة . على أن هــــذه الطريق تعطلت منذ بدأ عرب الرباطاب يسطون على المسافرين بعد أن نشبت الحرب بينهم وبين جيرانهم . ولا سبيل إلى الاتصال بدنقلة اليوم إلا من طريق شندى ، ومنها تشق القوافل فى الجبال طريقاً مستقيمة . ويسكن بربر كثير من التجار الدناقلة ، وقوام تجــــارتهم التمر والتبغ ، وقد اشتهرت نساؤهم وجواريهم بصنع أفضل أنواع البوظة . ويفد على بربر البدو البشاريون والزراع النازلون ضفاف نهر *مقرن* — الذى يسميه بروس *مارب* — ليشتروا حاجتهم من الدمور ، وليبتاعوا من التجار المصريين الخرز والكحل وجوز الطيب وشتى العقاقير الداخلة فى تركيب الدهن المعطر الذى سبقت الإشارة إليه . وكذلك تصلها بين الحين والحين القوافل القادمة من التاكة عبر الجبال الشرقية — وهى رحلة عشرة أيام أو اثنى عشر — لتشترى هذه السلع

أو تقايض عليها بجلود الثيران وبالجمال . كذلك تأتى قوافل صغيرة قوامها البشاريون من سواكن — وهى رحلة عشرة أيام — حاملة التوابل والأقمشة الهندية وعلى الأخص التيل الرفيع (الكمبريت) . ولا يسلك التجار الأجانب هذا الطريق خوفاً من غدر البشاريين ، على أنهم كثيراً ما يتخذون هذا الطريق الموفور الماء إذا اتفق وجود الحجاج ببربر فى طريقهم إلى مكة فى أثناء عودة قافلة من هذه القوافل إلى سواكن . ويسلك الحجاج السودانيون عادة أحد طريقين ، فإما الطريق المحاذى لضفاف النيل وإما طريق التاكة الذى سأفصل الكلام عليه فيما بعد . وقد راودتنى شخصياً فكرة الرحلة إلى التاكة ، وكنت أرجو أن أصل منها إلى الحدود الشمالية للحبشة صوب مصوع . وكان ببربر كثيرون ممن وفدوا عليها من سنار ، فلما استفسر منهم أصحابى عن قريبى الذى زعمت أنه مفقود أجمعوا على أنهم لم يروا بسنار إذ ذاك رجلا أبيض . لذلك لم يبق أمامى إلا أن أزعم لهم أنه لا بد قد بارح سنار إلى الحبشة ، وأمكننى بذلك أن أستفسر عن الطريق الصحراوى إلى التاكة وسواكن دون أن أثير حولى الشبهات والظنون ، وكان أصحابى يحثوننى على اتخاذ هذا الطريق والإقامة ببربر حتى تواتينى الفرصة للخروج فى الرحلة . ولا شك أنه كان يسرهم أن أركب هذا الخطر ليستريحوا منى نهائياً إن لقيت فى الرحلة حتفى ، ولعلهم كانوا يخشون إن عدت إلى مصر أن أنتقم منهم لمسلكهم معى . على أننى بعد التحرى والاستقصاء أيقنت أن هذا الطريق يجب ألا يتخذه غريب ، وأهل بربر أنفسهم لا يتخذونه إلا فى جماعة كبيرة منهم ، فهم لا يأمنون جانب البشاريين الذين لا يترددون فى قتل الرجل منهم ولو كان موصى به من الملك نفسه ، ما داموا يرتجون من وراء قتله مغنما مهما يكن زهيداً . ولا بد للمسافر فى هذا الطريق من أن يحمل معه بضاعة ولو قليلة ليقايض بها على الزاد فى أثناء الرحلة ، وفى هذا ما يكفى لإثارة جشع البشاريين وحملهم على الفتك به . وعلمت خلال بحثى واستقصائى أنه قد قدم بربر قبل خمس سنوات أو ست

رجل من مصر قيل إنه نصرانى لأنه كان يدون المذكرات عن رحلته(*) . وروى أن الرجل أهدى ملك بربر هدايا سخية ، فأوصى به جماعة صغيرة من البشاريين توصية معززة مشددة ، وخرج صاحبنا إلى سواكن فى صحبتهم ، ولكنهم فتكوا به فى الطريق ، ولما عادوا إلى بربر صالحوا الملك بهدية صغيرة .

وسمعت بعد ذلك بقصة مسافر كان يجهر بنصرانيته ولا يكاد يتكلم العربية ، مر بسنار قبل ثمانى سنين أو عشر قادماً من الشمال — ولعله قدم من مصر — فقتله العرب فى الجبال الواقعة بين سنار والحبشة لا فى طريق القوافل . ولما كنت فى شندى استفسرت عنه فلم ينبئنى بنبئه أحد . ولو كان مجيئه بطريق القوافل الغربى القادم من دارفور وكردفان لأنبأونى بخبره ، لأن البيض — والرجل أبيض فيما روى — يسترعون الالتفات فى هذه الأرجاء عنهم فى الطريق القادم من مصر ، ولرآه بعض القادمين من كردفان ، وقد عرفت منهم كثيرين فى شندى . ولم أسمع أنه كان يكتب يومية عن رحلته .

إن ما يصيبه المسافر فى هذه الأصقاع من توفيق جله بل كله رهن بأدلائه ورفاقه فى الرحلة وما يضمرون له من نوايا طيبة . فإذا لم يكن خبيراً بلغة البلاد تعذر عليه اختيار أصلح الأدلاء أو الرفاق ، وتعذر عليه تجنب الفخاخ التى يوقعه فيها غدر القوم ولؤمهم . ولن يغنيه فتيلا أن يركن للحظ لعله يقيض له قوماً أمناء طيبين ، إذ قل أن تجود هذه البلاد بنفر من هؤلاء يحسب لهم حساب فى رحلة الغريب بين أرجائها ، ولا بد للمسافر أن يسيء الظن بمن حوله ، وليحسب نفسه سعيـــداً إذا وفق إلى الكشف عن نفر بينهم يمكنه أن يثق بهم ويطمئن إليهم بعض الاطمئنان ويستعين بهم على بلوغ أهدافه ، وهو ما لاسبيل إليه إلا بالتوفيق بين مصالحهم وسلامته . وليحذر أول ما يحذر أن يروه يدون المذكرات ، وإنى لعلى يقين من أننى كنت أستهدف لأخبث الشائعات وأضرها ، وأن ما أرجو من نجاح كان مقضياً عليه القضاء المبرم، لو أن رفاقى ضبطونى متلبساً

(*) أو «يكتب البلاد» كما يصف القوم هنا وفى مصر السائح الذى يدون المذكرات عن رحلته .

بيوميتى فى يدى . وقد وجدت تدوين المذكرات بالصحراء أيسر لى من تدوينها وأنا ببربر ، وكنت أسوق حمارى القوى حثيثاً فأسبق القافلة ثم أنزل عنه وأجلس إلى شجرة أو صخرة وأظل تحتها غير ملحوظ ، لا يبدو على إلا أننى أدخن قصبتى، حتى تلحق بى القافلة . أما فى بربر وشندى فكنت أحار فى طريقة أعتزل بها أصحابى الذين نزلت الدار وإياهم ، وكان فى انطلاقى إلى الحقول البعيدة تعرض للخطر ولفت للنظر . وشر ما ابتليت به أثناء مقامى فى هذه البلاد ملازمة الناس لى على هذا النحو ، ولعلى كنت أستطيع أن أنجو من هذا البلاء بعض النجاة لو اتخذت لنفسى مسكنا خاصاً ، وكان ذلك أحب إلى وأشهى لولا أن مقامى فى بيت غريب كان يحرمنى من كل حماية — وقد يكون هذا الغريب شراً من رفاقى — ولولا ما كنت أستهدف له من ثقل الزوار يرهقوننى سحابة يومى بطلب الهدايا ، ولولا ما كان يتعرض له متاعى القليل من السرقة . وعلى نقيض ذلك كان شخصى أقل لفتا للنظر وأنا أقيم مع أصحابى الدراويين ، وكانت نفقتى أخف ، واستطعت بفضل مقامى بينهم أن ألم بأساليب التجارة ، وأمنت على نفسى بعض الأمن لمكانة هؤلاء الرفاق وجاههم برغم قلة حدبهم على أو ميلهم إلى حمايتى .

ويؤثر التجار النزول ببيت وجيه من وجوه القوم ، أو بيت قريب من أقرباء الملك إذا تيسر ، لأنهم يكونون إذ ذاك فى حمى رب البيت، وهو لن يرضى بأن توجه لضيوفه إساءة أو إهانة ذات بال . أما أدلاؤنا العبابدة فقد نزلوا ببيت فقير من الفقراء رقيق الحال ، وكانوا فى مأمن من لجاجة اليرفاب وإهاناتهم ، لذلك توفر لهم فى مسكنهم هذا من أسباب الراحة والحرية ما لم نظفر به نحن . وألزمنى أصحابى بدفع ريالين كانا حصتى فيما دفعوه لرب البيت ، كذلك دفعت لهم ريالا هو نصيبى فى الهدايا التى قدموها لمن بعثوا لنا بصحاف اللحم فى أوقات مختلفة . واشتريت بريال ذرة لحمارى وبعض التبغ . يضاف إلى هذا أربعة ريالات أديتها لملك بربر، وثلاثة لرئيس القافلة — وكان من حقه أن يقتضينى خمسة — وخمسة لنقل بضاعتى ، وأربعة لنقل قربى فى الصحراء . وكان فى جسامة هذا المبلغ بالقياس إلى مواردى إذ ذاك ما جعلنى أتوجس خيفة من المستقبل .

وأخيراً آن لنا أن نرحل إلى شندى ، وإليها كان يقصد معظم التجار ببضاعتهم ، فجمعنا فيمابيننا عطاء لإدريس رب البيت ، ولكننا لم نستطع إرضاءه بسهولة ، ناهيك بمطالب زوجه العجوز . وبعد لأى ارتضى أن يأخذ بضاعة تساوى عشرين ريالا لقاء تضييفه إيانا أسبوعين . وكنا اثنى عشر رجلا ، ولكنى لست أشك أن ما كان ينفقه علينا يوميا لم يزد على ثلث الريال أو نصفه ، فإن الرجل لم يقدم لنا — فيما خلا الشاة التى ذبحها لنا أول يوم — سوى لون واحد من الطعام هو خبز الذرة بالسمن نأكل منه صحنا كبيرا فى الظهيرة ومثله فى الليل . وكان رب البيت هو المتكفل بإطعامنا لأننا لم نكن إلا عابرين بالبلدة لانصحب معنا عبيداً ولا جوارى لتجهيز الطعام ، أما حين يعود التجار إلى بربر فى طريقهم لمصر مصحوبين فى العادة بعدد من الجوارى ، فإن هؤلاء الجوارى يطهين طعام سادتهن ، فلا يدفعون لرب البيت إلا أجره عن السكنى .

وما ذكرته من تفاصيل عن بربر يصدق جله على شندى وعلى سائر الإمارات الصغيرة حتى بلوغك سنار فيما أعلم .

والأرض الواقعة تجاه بربر على ضفة النيل الغربية أرض غير مزروعة ، ولكنهم ذكروا لى أن السائر بحذاء النيل يصادف عدداً لا بأس به من قرى العرب لا سيما فى بلاد مقرات التى ينزلها عرب الرباطاب — وهم قبيلة مستقلة كقبيلةالميرفاب ، تمتد مساكنها مسيرة يومين أو ثلاثة على النيل . ومن أكبر قراهـا بجم وتقع على ثلاث مراحل طوال من بربر ، وهى اليوم مقر أبو عجل شيخ عرب مقرات الذى خلف قريبه نعيما قاطع الطريق الشهير السالف ذكره وكان نعيم قد جمع ثروة طائلة مما غنمه من القوافل المصرية ، وقد أنفق جلها فى شراء الجوارى الصغيرات ، وكان يطيب له المفاخرة بما يلهو ويعبث به فى حريمه . ودرج على أن يتربص بالقوافل بين بربر وآبار النجيم ، ولكنه كان أحياناً يتعقبها إلى شقرة . وكثيراً ما أطلقت عليه النار ، ولكنها لم تصب منه مقتلا لأن درعه القوية كانت تقيه من رصاص البنادق البعيدة ، وهذا هو السر فى اشتهاره بالسحر . فقد زعم القوم أنه يحمل من التمائم والتعاويذ ما يعصمه من الإصابة .

وأفتى فقيه من فقهائهم بأن جسده لا يمتنع على العيارات الفضية لأن تمائمه لا تقيه إلا من عيارات الرصاص ، فصهر نفر من التجار ريالات إسبانيـة وصبوا منها عيارات عبأوا بها بنادقهم . أما تمائم نعيم التي حمته من رصاص أعدائه فلم تـكن في حقيقتها سوى بعدهم عن الهـدف وضعفهم في الرماية . وكان إذا رأى القافلة أكثر منه نفراً وأقوى بأساً وقف بعيداً وأمر جماعة منها أن ينسلخوا عن بقية القافلة مؤكداً لهم أنه لا يقصد بهم سوءاً ، فإذا انفصلوا عنها استطاع أن يشتت شمل الباقين في غير عناء . وكان يوفي بوعده للمنفصلين عن القافلة ويتركهم يمضون بجمالهم المحملة دون أن يلحق بهم أذى ، ولـكن هذا لا يمنعه من مهاجمتهم فيمن يهاجم في ظروف أخرى . ويعدّ نجاح هذه الخدعة أقوى دليل على جبن التجار وغدرهم لأنهم يتخلون عن رفاقهم على هذا النحو المشين ؛ ولو أن قبيلة من قبائل الصحارى العربية سلـكت هذا المسلك لوصمها بمار لا يمحى .

ولم يقس نعيم على ضحاياه العاجزين قسوة غيره من قطاع الطرق الإفريقيين . فـكان إذا سلب قافلة سمح للركب أن يأخذوا من الإبل والزاد ما يكفيهم لبلوغ مصر أو العودة إلى بربر . وكان يعرف معظم التجار معرفة شخصية ، لذلك كان يرد للتاجر منهم عبداً أو عبدين عند رحيله . وقد أحفظ عليه قبيلة العبابدة وحملها على الثأر منه قتله عدداً منهم في غارة من غاراته ، ولم يمض طويل وقت حتى واتتهم فرصة الانتقام . ذلك أن مئات منهم كانوا يحرسون قافـلة بارحت سنار إلى مصر سنة ١٨١٢ في صحبة رسل الباشا ، وأقاموا ببربر أياماً ليعدوا العدة للرحلة عبر الصحراء . وتلقى رئيس العبابدة في هذه الأثناء نبأ سرياً مفاده أن نعيماً قد اتخذ لنفسه عروساً جديدة وأنه سيدخل بها في يوم معلوم . وفي اليوم السابق للعرس صدر الأمر للقافلة بمبارحة بربر ، وكان الرئيس قد سار في الليلة البارحة على رأس مائة راكب مسلح محتجاً بأنه يقسم بذلك الجمال تسهيلا لمهمة سقيها من عيون شقرة . ولـكنه ما إن مضى في الصحراء قليلا حتى عدل عن الطريق المستقيم إلى آخر مغرب ، وانطلق حثيثاً يعبر الجبال إلى مقرات . فلما وصل إلى بيت نعيم حاصره وأشعل النار فيه ، وخرج إليه نعيم فقتل في ستة من أصحابه ، وحملت عروسه لمصر وأرسلت أذناه

إلى محمد على باشا وهو بالحجاز .. وأكرهت العروس المسكينة على الزواج بأحد قتلة زوجها ، وأتى الرجل بها إلى مصر ، ولكنها استطاعت بعد ذلك أن تهرب إلى دنقلة ، وهى اليوم تعيش بين أسرتها بمقرات . على أن المصير الذى انتهى إليه نمير لم يمنع قاطع طريق آخر من أن يعيد سيرته فى هذه الجبال ، واسم الرجل كرار ، وهو شيخ العبابدة من قبيلة العشاباب . وقد نهب عدة قوافل جلها من بربر سنة ١٨١٤ وعاد بما غنم إلى خيامه فى جبال عتباى ، وحاول الباشا غير مرة أن يقبض عليه دون جدوى .

وليس هناك اليوم إلا أقل اتصال بين بربر ومقرات ، وهى نتيجة يستطيع القارىء أن يخلص إليها ، وكذلك بين بربر وبلاد الشايقية وهى أبعد من مقرات ، اللهم إلا بواسطة الحجاج السودانيين الذين يسيرون بحذاء ضفاف النيل الآهلة بالسكان فى طريقهم إلى مصر ، فالحرب المستعرة بين الشايقية والمماليك فى دنقلة تضر بسير التجارة . وقد خاض الفريقان عدداً من المعارك راح ضحيتها مائة وخمسون من الشايقية وخمسون من المماليك ، وغنم المماليك بعض الخيل والعبيد ، ولكنهم سحبوا قواتهم من الحدود الجنوبية لدنقلة بعد أن أعياهم قهر عدوهم وأضنتهم هذه الحرب العقيمة المزعجة ، ثم ركزوا هذه القوات فى الولايات الشمالية حول أرقو حيث يقيمون إلى اليوم . وقد مات أكبر زعمائهم إبراهيم بك الكبير بالشيخوخة عام ١٨١٣ ، ويعتبر عبد الرحمن بك المنفوخ زعيمهم اليوم . وقد وفد من مصر عدد من المماليك اتخذوا طريق الصحراء إلى بربر بدل أن يذهبوا إلى دنقلة ، ونزل البيت الذى نزلنا سليم بك الطويل فأقام به شهوراً ، وأظهر له مك بربر منتهى اللطف والكرم خوفاً من بطش المماليك . وقد خالنى بعضهم فى بربر تابعاً من أتباع المماليك هربت من مصر لألحق بهم . وكنت أكره أن يتناقل القوم عنى هذه الشائعة ، ولكنها كانت خيراً من أن يظنوا أنى أنتمى لأسرة الباشا أو لجيشه ؛ فقد توجس الناس شراً من إرساله مبعوثاً إلى سنار وظنوه يضمر لهذه البلاد سوءاً . وكان رؤساء القبائل ينظرون إلى سلطته المتزايدة على مصر نظرات الغيرة والحسد ،

أما التجار فكانوا يحقدون عليه غلوه فى فرض الضرائب الباهظة على واردات الجنوب . لذلك حرصت أشد الحرص على دفع كل شبهة فى صلتى به أو اهتمامه بأمرى ، وخبأت مامعى من توصيات ، وعولت على عدم إبرازها أو الالتجاء إليها إلا إذا ألجأتنى لذلك الضرورة القصوى .

وبين بربر والحدود الجنوبية لبلاد عرب الشايقية أربع مراحل طوال عبر الجبال على الضفة الغربية للنيل . وبعض هذه الجبال يؤلف إقليما يدعى الحوف فيه الشجر والآبار، وقد اعتصم بهذه الجبال الهاشمى ملك كردفان الأسبق بعد أن اغتصب منه ملكه الملك الحالى ويسمونه المسلم ، وهو أحد موظفى ملك دارفور . وظل الهاشمى معسكراً فى جيش من أتباعه شهوراً عدة حتى ضيق عليه عرب الشايقية الخناق فأجلوه عن الجبال وارتد إلى شندى فاحتمى بالملك نمر ، ولكن الهاشمى ما لبث أن ائتمر به مع إخوة نمر فقتله نمر انتقاماً منه .



الرحلة من بربر إلى شندي

بعد أن سوينا حساباتنا كلها فى بربر بارحناها عصر التاسع من إبريل وقد تناقص عدد الركب إلى الثلاثين ؛ فقد عاد بعض التجار إلى مصر ، وظل بعضهم ببربر ليبيعوا بضاعتهم ، كذلك بقى بها بعض العبابدة ـ ممن كانت لهم بها أسر ـ ينتظرون رجوع القافلة من شندى . وتركت بربر غير آسف ، فإن خلق أهلها بعث الريبة فى نفسى ، وأشار على كثير من وجوه البلدة أن أمكث بها مترقباً فرصة الخروج مع قافلة من قوافل التاكة ، ولكننى قلت فى نفسى إننى إذا بقيت ببربر وحيداً كنت تحت رحمة الميرفاب وهم ينوون سرقتى ما فى ذلك شك ، لذلك صح عزمى على متابعة الرحلة إلى شندى لعلى أظفر هناك بقافلة مأمونة أصحبها إلى البحر الأحمر .

وسرنا هذا المساء ميلين فى الرمال ثم وقفنا بقرية قوز الفونج من أعمال بربر ، ونزلنا فى فناء بيت فقير من فقرائهم ـ وكان تاجراً معروفا بمصر ـ فأكرم الرجل مثوانا ولم يطلب على ضيافتنا أجراً . وقد ألف هذا الفقير كلما زار مصر أن ينزل على معارفه بدراو ضيفاً لا يؤدى عن إقامته أجراً . وأتى مضيفنا السابق إدريس مودعاً فى الليل ، وألح فى طلب المزيد من الهدايا . وطال الأخذ والرد بينه وبين القوم ، واستطاع بعد لأى أن يظفر من تجار دراو بدرقة فاخرة تساوى ثمانية ريالات ، واضطررنا أن نسهم كلنا فى جمع هذا المبلغ لنسترد منه الدرقة .

٨ إبريل — فى القوز أطلال مبان حديثة أصبحت اليوم خراباً يباباً ، وكانت القرية فيما مضى أهم قرى بربر ، وكذلك ذكرها الرحالة بروس . وفى مواضع عدة منها آبار عامة ماؤها ملح يسقى منها المسافرون دوابهم لأن شطئان النهر قائمة وعرة والهبوط إلى الماء عسير . ومضينا محاذين لحافة الصحراء فوق سهل مستو أو أرض زراعية عرضها ميلان تقوم بيننا وبين النيل . وكانت الأرض زاخرة بشجر العشر الذى ذكرته مراراً فى رحلتى على ضفاف النيل إلى دنقلة وفى رحلتى السابقة فى البطراء . وكنا نسلك درباً مطروقا هو أشبه بالطريق الرئيسى تتشعب منه الدروب الصغيرة فى كل أنحاء الصحراء الشرقية . وبعد ساعتين وصلنا بقعة تحفل بشجر

السنط والسلم . أما الأرض على ضفة النيل الغربية فقد بدت لى شديدة الاستواء على مرمى بصرى ، فلم أر بها جبالا ولا تلالا ، وكل ما رأيته خط أبيض يتبينه الرائى وراء شريط الأرض الزراعية الضيق المحاذى للنهر ، وهذا الخط يشير إلى رمال الصحراء . وصادفنا فى طريقنا كثيراً من المسافرين يركبون الخيل أو الهجن ونساء وأطفالا على ظهور الحمير أو خلفها يسوقونها محملة . ويبدو أن هذا الطريق مأمون جداً لاخطر فيه على أهل البلاد ، ولكن الغريب لايطمئن إلى السير فيه دون دليل أمين . وكنا قد أخذنا من النخيرة رجلين يصحباننا إلى حدود وادى بربر .

وبعد ثلاث ساعات ونصف دخلنا إقليم **راس الوادى** ، وبعد أربع وصلنا قرية راس الوادى ، واضطررنا أن نقف بها لنؤدى ضريبة مرور يفرضونها هناك على التجار . وراس الوادى قرية كبيرة تفوق النخيرة مساحة ولكنها دونها فى مبانيها ، وفيها أكواخ كثيرة من الحصير . ومضينا رأساً إلى بيت الملك وحططنا على الأرض الفضاء أمامه . هذا الملك ـ ويسمونه **الملك حمزة** ـ هو ابن عم الملك نور الدين فى بربر ، ولكنه مستقل عنه لأن راس الوادى إمارة قائمة بذاتها وإن كان جل أهلها فى ظنى من عرب الميرفاب قبيلة أهل بربر . على أنها كبربر تتبع ملك سنار وهو الذى يولى ملكها . ويخشى المسافرون ـ ولا سيما المصريون منهم ـ بأس حمزة . وقد ظن التجار الدراويون أن الرجل قد يسىء إليهم بسببى ، وكانوا إلى ذلك مقتنعين بأنه لم يعد لهم فى صحبتى نفع ولا مغنم لأننى كنت أدفعهم عن كل حفنة من الذرة يريدون غصبها منى ، لذلك صح عزمهم على التخلى عنى ونبذى نبذ النواة . وكنا قد وقفنا دقائق فى السهل على مقربة من بركة ماء أمام القرية ، فما إن هممنا بمعاودة السير حتى أمرونى فى لهجة ملؤها الازدراء أن أنصرف عنهم ونهونى أن أقرب جماعتهم بعد ذلك . وأردف غلمانهم هذا الأمر بانتهارى كما تنتهر الكلاب ، ثم ضربوا حمارى بمؤخر رماحهم وطاردوه إلى الصحراء .

وكنت طوال الرحلة أحاول جهدى أن أكون على صلة طيبة برفاقى العبابدة ، وكانوا على لؤمهم خيراً من الدراويين . فمضيت الآن إليهم أسألهم هل ينوون تركى تحت رحمة لصوص الميرفاب أو يسمحون لى بالانضمام إلى جماعتهم ؟ فارتضوا من فورهم

أن أنضم إليهم ، وبذلك أصبح موقفي خيراً مما كان ، فإن رفاقي الدراويين دأبوا على أرذل المزاح وأسخف العبث طوال مقامنا في بربر للاساءة إليّ والغض من شأني . ولما أيقنوا آخر الأمر أنني أصليهم عوداً — وقد ثبت هذا حين صارعت أقواهم غير مرة فصرعته — حاول غلمانهم إرهاقي بمماكسات لا تنقطع ، ولم يكن من السهل على أن أردعهم عنها ، فرأيتني مضطراً إلى احتمالها مخافة أن أعرض نفسي — إذا تركت جماعتهم فجأة — لشر مبيت لا أعرف مداه ولا أستطيع له دفعاً .

واستقبلنا حمزة في فتور شديد ، وظللنا ببابه سحابة يومنا قبل أن يرسل إلينا طعاماً ، وقال رفاقي إنه لو سمع أن أحداً منا أصاب حظا من زاد في أثناء مقامنا ببابه لعد ذلك منا إهانة له وتحديا لأننا ضيوفه . ومضى إليه اثنان من أصحابنا التجار يفاوضانه فيما يؤدى له من إتاوة ، أما الباقون فقد شغلوا كلهم بالذود عن متاعهم ودفع الأهالي الجشعين الذين تزاحموا حول المتاع أول الأمر يسألوننا عن حالنا متوددين ، ثم ما لبثوا أن حشروا أنفسهم وسطه . على أننا لم نلتحم بهم التحاماً صريحا ، ولكن أشياء كثيرة فقدت من المتاع ومن بينها قصبتي . وأنبئنا آخر الليل أن الملك لا يرضى بأقل من عشرة ريالات عن كل حمل وأربعة عن كل تاجر . وقد حسبت واحداً من التجار ، وأدينا الضريبة بعضها نقداً وبعضها عيناً . أما العبابدة فقد أعفوا منها ، بل إنهم استطاعوا أن يعفوا بعض أحمال المصريين بحجة أنها أحمالهم لقاء بعض العطايا التي أخذوها منهم . وكنت أخاف أن يستولى الملك على بندقيتي ، وحملني على هذا الخوف ما سمعت من استيلائه على ما يقع تحت يده من أسلحة نارية ، لذلك تظاهرت في الليلة السابقة بأنني أساوم شيخ العبابدة على بيعها له أمام رجال القافلة ، وكنت على يقين أنني إن لم أفعل هذا فسيشي بي رفاقي للملك ، وأعلن الشيخ لأصحاب الملك أن البندقية ملكه ، ولم يستطع أحد أن يكذبه ، وهكذا أنقذت بندقيتي ، ولكن الشيخ ظفر مني بريال جزاء صنيعه .

وبقي الملك ببيته طوال الليل فلم نلقه ، ولكن ابنه أقبل يطلب لنفسه بعض الهدايا فكان جوابنا الرفض الصريح . فطلب أن يرافقه منا إلى البوظة نديم مرح يسمر معه ، فتقدم إليه أحد المصريين ، وشرفه ابن الملك باصطحابه إلى ماخور قريب

جملا يشربان ويقصفان فيـــه حتى مطلع الفجر .

٩ أبريل — هلت علينا هذا الصباح طلعة الملك حمزة . خرج من داره وسار في السهل ثم جلس على مصطبة من الحجر قرب أحد البيوت أمام متاعنا . وكان متجردا من ثيابه لشدة القيظ ، لا يلبس إلا وزرة مشدودة إلى حقويه ، وشعره ملطخ بالدهن ، وفى ركابه من الرقيق ستة أو ثمانية ، يحمل أحدهم قربة ماء صغيرة مصنوعة من الجلد السنارى صنعاً بديعا ، ويحمل ثان سيفه ، وثالث درقته ، وهكذا ظهر جلالته فى كامل أبهته وخيلائه . وريع لظهوره أصحابنا التجار ، وكانوا قد عللوا أنفسهم بأنه سيأذن لهم بالرحيل فى الصباح الباكر ، ولكنهم أوجسوا الآن من شر ضريبة جديدة قد تفرض عليهم . ومضينا إليه جميعاً فقبلنا يده ، ووقفنا بين يديه فى خشوع واتضاع . وقال جلالته إنه مغتبط برؤيتنا ، وإنه صديق صدوق للتجار ، ولكنهم قد غدوا بخلاء مقترين . ثم أصر على أن نعطى ابنه هدية ، وتطلع إلى القافلة فإذا فيها حمار طيب فأمر ابنه أن يمتطيه . وعرض عليه صاحب الحمار ستة ريالات يفتديه بهـا ولكنه أبى ، وسيق الحمار إلى إسطبل الملك ، ثم أذن لنا فى الرحيل . وتشاء المصادفة أن يكون هذا الحمار هو الذى طويت على ظهره الصحراء . وكنت فى أثناء الرحلة قد أدركت ما للحمير المصرية من سمعة طيبة فى الأقطار الجنوبية ، حتى ليتهافت الناس لاسيما وجوههم على اقتنائها ، وكان حمارى قد اشتهر فى القافلة بصلابة عوده وعظم نشاطه ، فقدرت أننى لن أستطيع أن أدفع عنه جشع الأمراء والرؤساء ، لذلك قايضت عليه فى الليلة السابقة لوصولنا بربر بحمار أصغر حجما وأقل صلابة ، وكان الحمار لأحد التجار الدراويين ، وظفرت منه فى هذه الصفقة بريال . ولست أشك فى أنه كان يضحك من غفلتى بينه وبين نفسه ، ولم يدر بخلده أن الحمار قد يؤخذ منه عنوة وغصبا ، وكان يقدر أنه سيبيعه بعشرة ريالات أو اثنى عشر . واستطاع الرجل فى بربر أن ينقذ الحمار من براثن الملك نور الدين ، أما الملك حمزة فكان صلبا لاتلين له قناة ، وندم الرجل على الصفقة ولات حين مندم ، وطالبنى فى إلحاح برد حماره القديم ولكن العبابدة انحازوا إلى صفى ، بل إنهم امتدحونى — بينى وبينهم — لأنى ورطته فى هذا المأزق .

وكانت تخيم على مقربة من راس الوادى جماعة كبيرة من البشاريين أتوا ليبتاعوا زادهم من الذرة للصيف. وعلمت أن أخا الملك حمزة ذهب مؤخراً إلى سواكن فى طريقه إلى شبه جزيرة العرب، وصحب معه عدداً من الرقيق والخيل العتاق ليهديها إلى الشريف محمود أمير اليمن أملاً فى الظفر ببعض الهدايا المناسبة بطبيعة الحال . وهذا الضرب من التجارة شائع فى هذه البلاد .

وقد رأيت بعض هجن الملك حمزة فإذا هى من صفوة الهجن ، وكانت على جمها ورحالها زينة براقة ، ويقتنى كل شيخ من شيوخ القبائل هنا هجينين من خير الفصائل يظهر بهما أمام الناس ليسترعى الأنظار ، ويركبهما عبدان من عبيده ويسيران فى ركابه أنى سار .

وبارحنا راس الوادى فى الضحى يصحبنا رجلان من أسرة الملك إلى حدود أملاكه. وكان شطر من الطريق رمالا جرداء ، وفى شطر آخر منه تفرقت أشجار السنط . وبعد ساعتين مررنا بعدد من النزلات فيها الكثير من شجر الدوم وإلى جوارها جزيرة كبيرة ظهرت فى عرض النهر . ويقال إن أهل هذه النزلات من أعرق اللصوص ، ولعل هذا هو الذى حمل دليلينا على أن يقفا بنا هنا ويطالبانا بعشرة ريالات أجراً لاصطحابهما إيانا حتى هذه البقعة ، ولم ير التجار مفراً من الإذعان فدفعوا الأتاوة وأنفهم راغم . وكان الركب قد تناقص حتى بلغ العشرين ، فقد انسلخ عن جماعتنا بعض صغار التجار تفادياً لدفع ضريبة المرور وسبقونا عابرين الصحراء ليلا شرقى راس الوادى ، كذلك استأجر غير هؤلاء ممن لا جمال لهم خبيراً من القوز صحبهم ليلا فى طريق خطر بحذاء ضفة النهر ثم انضموا إلينا ثانية بعد أن جازوا أملاك الملك حمزه .

وعلى مقربة من النزلات أبصرنا عدداً هائلا من شواهد القبور الجديدة التى تنطق بما حل بالبلاد من غارات الجدرى المدمرة ، وكان كل قبر مغطى بالحصى الأبيض وقطع المرو جرياً على عادة النوبيين ، وهى العادة التى لحظتها من قبل فى بلاد البرابرة. وسهل الصحراء الشرقية تقطعه هنا بعض التلال من الرمل والحصباء . ومررنا بأحراج من السنط ، ثم وصلنا بعد أربع ساعات إلى نهر مقرن لا مارب كما يسميه

بروس ، فاسم مارب لا يعرفه القوم هنا ، وهبطنا جرفا عالياً ثم سرنا زهاء الميل فوق رمال عميقة كست قاع النهر حتى جئنا بركة من الماء الآسن عرضها نحو عشرين خطوة وماؤها يصل إلى خلخال القدم ، وأمثال هذه البركة كثير فى عرض النهر ولكن الماء فيها كلها راكد لا يجرى . وقدرت علو الشاطئين بثلاثين قدما ، أما ارتفاع الماء عن القاع فقد دل أثره على أنه لا يزيد على عشرين قدماً ، وواضح من هذا أن النهر لا يمكن أن يفيض على جانبيه ويغمر الأرض المحيطة به ، وقد أيد لى هذا أصحابى فقالوا إنهم فى أثناء فيضان النهر يعبرونه فى قارب يجلب من الدامر لهذا الغرض ، وإنهم لم يروا هذه الأرض مغمورة من قبل بماء نهر سوى نهر النيل . وكان منظر ضفاف مقرن الخضراء تكسوها الأعشاب اليانعة وشجيرات الطرفاء الخضراء منظراً بهياً رائعاً أجلت فيه الطرف ساعة كاملة ، وكنت فى انتظار الركب الذى تعطل حين تعثرت بعض الإبل وهى تهبط جرف النهر القائم وسقطت عنها أحمالها .

ونهر مقرن هو الحد بين إقليم راس الوادى والدامر . ورأينا السواقى على ضفافه الجنوبية ترفع الماء من البرك . ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، ووجود المساقى الصغيرة ، على أن الزراعة تلقى من العناية قسطا لا تلقاه فى الأقاليم التى جزناها من قبل . ويسكن العرب من بدو الجمليين ضفاف مقرن فى مساحة تقطعها فى يومين بعد التقائه بالنيل ، وهم مستقلون استقلالا تاما وعشائرهم منبثة فى هذه الأرجاء حتى بلوغك سنار . وهم أقوى القبائل العربية هنا شوكة وأشدها بأساً ، ويزرعون الذرة على ضفاف النهر ويرعون الماشية الكثيرة .

وبعد أن عبرنا مقرن سرنا فوق سهل رملى قاحل تكسوه أشجار العشر التى بلغ ارتفاع بعضها عشرين قدماً ، ثم دخلنا الأرض الزراعية ثانية ، وهنا قابلنا شيوخاً من الدامر أرسلتهم إلينا طلائعنا ليحرسونا من لصوص الجمليين الذين كان بعض فرسانهم يحومون حولنا لشر يبيتونه بلا ريب . ودخلنا الدامر فى الأصيل بعد مسيرة ست ساعات ، والدامر بلد ذو صيت ذائع فى هذه الأقطار ، وقد أثلج صدرى أن أرى أهله أنبل من جيرانهم أهل بربر ، ومضيت مع جماعة

العبابدة التى انضمت إليها إلى المنزل الذى نزلوا ، وكان بيت تاجر دنقلى من قدامى أصحابهم ، وكان الرجل غائباً عن داره ، ولكن زوجه رحبت بمقدمنا أيما ترحيب ، ونظفت لنا فى الحوش غرفتين أودعنا فيهما بضاعتنا ومتاعنا . والتقينا بتجار من كردفان كانوا قد قدموا من دنقلة حديثاً بطريق شندى ، فأتونا بآخر أخبار المماليك .

الدامر من ١٠ — ١٥ أبريل — الدامر قرية ، أو بلدة(*) كبيرة قوامها خمسمائة بيت . وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من مبان جديدة ولخلوها من الخرائب . وفى بيوتها شىء من التنسيق ، وشوارعها منتظمة ، وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال . ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ، ويردون أصلهم إلى شبه جزيرة العرب ، وجلهم من رجال الدين أو الفقراء . وليس لهم شيخ يتزعمهم ، بل فقيه يسمونه «الفقى الكبير» ، وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم . ويشتهر آل المجذوب الذين أصبح هذا المنصب وقفاً عليهم من قديم بما تنجب عشيرتهم من سحرة وعرافين مهرة لا يحجب عنهم غيب ولا تقاوم لهم تميمة . ويروون عن سحرهم القصص التى لا حصر لها ، من ذلك أن أبا الفقيه الحالى — وكان اسمه عبد الله — جعل شاة تثغو فى بطن اللص الذى سرقها وأكلها . ويحتكم القوم إلى الفقيه فى سرقاتهم ، وليس عسيراً عليه أن يأتى بالعجب العجاب فى الكشف عن سر هذه السرقات لخوفهم من علمه الواسع الذى يخترق الحجب كما يزعمون . ويخيل إلى أن وظيفة الفقى الكبير وراثية ، ولا بد أن يتوافر فيمن يليها بطبيعة الحال الذكاء ورجاحة العقل والتفقه فى الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته . على أن الفقى الكبير ليس ساحرهم الأوحد ، فغيره من الفقهاء الأقل شهرة كثيرون ممن يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم ، وهكذا اكتسبت بلدة الدامر بأسرها صيتاً ذائعاً . وفى البلدة مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء السودان ليدرسوا الفقه دراسة تتيح لهم أن يكونوا فى بلادهم فقهاء كباراً .

(*) لا يفرّق أهل البلاد هنا بين القرى والمدن . فكل مكان مأهول يسمونه بلدا ، فإذا كان صغيراً فهو نزلة . أما لفظ المدينة فلا يستعمل قط فى هذا الشطر من السودان .

ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشيء الكثير ، ولكنها لا تتناول من المواضيع غير الدين والشريعة . ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا يقل ثمنها عن أربعمائة قرش ، ونسخة كاملة من تفسير البخارى تساوى ضعف هذا المبلغ فى مكتبات القاهرة . وقد جلب هذه الكتب من القاهرة الشباب من فقهاء الدامر أنفسهم، فكثير منهم يجاور فى الأزهر الشريف أو فى المسجد الحرام بمكة ، ويظلون سنوات ثلاثاً أو أربعاً يعيشون على الصدقات والجرايات . فإذا عادوا إلى الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دروساً فى التفسير والتوحيد . ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنه بلا مئذنة ، وتسنده عقود من الآجر وأرضه مفروشة بالرمل الناعم . وجو الجامع ألطف أجواء المدينة وأرطبها إليه ، و إليه يأوى الغرباء للتقيل بعد صلاة الظهر . ويلحق بالجامع مكان مكشوف تحيط به حجرات الدرس . ولكثير من الفقهاء زوايا صغيرة إلى جانب بيوتهم ، ولكنهم لا يصلون فريضة الجمعة إلا فى الجامع الكبير . ويحيط كبار الفقهاء أنفسهم بمظاهر الورع والتقوى ، ويعيش الفقى الكبير عيشة العابد المتقشف ، فهو يسكن بناء صغيراً يقوم وسط ميدان كبير من ميادين البلدة ، وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو اثنى عشر قدما يقيم فيها ليل نهار لايبرحها ، بعيداً عن أسرته ، وحيداً لا خدم معه ولا أتباع . وهو يعيش على ما يرسله له أصدقاؤه أو أتباعـــه من فطور وعشاء . فإذا كانت الساعة الثالثة عصراً بارح حجرته بعد اعتكافه سحابة نهاره للقراءة والدرس ، ثم اتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره ، وألم به إخوانه وأتباعه ، فجعل يصرّف أعماله حتى الغروب بل بعده . وذهبت مرة لأقبل يده فراعنى منه محيا وقور وطلعة جليلة ، وكان يلتف بعباءة بيضاء تغطيه كله ، وسألنى من أين أنا آت ، وفى أى مدرسة تعلمت القراءة ، وأى كتب قرأت ؟ وبدا لى أنه اقتنع بجوابى عن أسئلته . وكان يجلس إلى جواره شيخ مغربى من مكناس قدم من مكة ليشتغل له كاتبا ، ويصرف له كل أعماله الرسمية . وذكروا لى أن هذا المغربى استطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلا .

ويلوح أن شئون هذه الدولة الدينية الصغيرة تصرّف بمنتهى الحكمة والتعقل. وجيرانها يكنون للفقهاء أعظم الاحترام والإجلال ، فقد ألقوا الرهبة حتى فى قلوب البشاريين الغادرين فلم يسمع أحد أنهم اعتدوا على دامرى يعبر الجبال من بلده إلى سواكن . وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر بسحرهم فتهلك أغنامهم ومواشيهم . وتسير القوافل من حين لحين بين الدامر وسواكن لأن من الفقهاء تجاراً كثيرين . ووجدنا خارج المدينة مضارب للبشاريين والجعليين الذين قدموها ليبيعوا غنمهم . وتوجد الآبار العامة فى المدينة وفى الطرق المؤدية إليها على أبعاد متقاربة .

وجل تجارة الدامر مع دنقلة وشندى ، ولا تصلها ببربر إلا القوافل المصرية المارة بها . ويصنع القوم قماشاً قطنياً خشناً هو تقليد للدمور الذى تصنعه سنار ، ومعظم البضائع المصرية فى متاجر الدامر . وليس فى البلدة سوق يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا لى أن المبيع من الماشية فيها كثير ، وأن الحصر الدامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجاً كبيراً فى البلاد المجاورة كلها . وفى بلد كالدامر يخلو من السوق اليومية ولا يعرض البائعون فيه سلعهم إلا مرة فى الأسبوع يعانى الغريب الأمرين فى شراء مايحتاج إليه من سلع بسيطة . من ذلك أنى احتجت لقليل من ذرة عليقاً لحمارى ، ولكن أقل عملة معدنية يتعامل بها القوم هى الريال ، ومقدار مايشتريه من الذرة يفوق كثيراً ما أستطيع حمله معى . لذلك اضطررت إلى أن أحذو حذو رفاقى ، فطفت بالبيوت أعرض على أصحابها مسابح من خرز بسعر أربع حفن من الذرة للمسبحة . وجنيت من وراء هذه الطريقة ربحاً قدره ٦٠٪ من الثمن الأصلى ، وأتيح لى فوق ذلك أن أدخل كثيراً من البيوت . وأدهشنى أن أكتشف عدداً كبيراً من مشارب البوظة وبيوت اللهو منبثة فى أرجاء المدينة برغم تزمت الفقهاء وصرامتهم . وأعدت طوافى بهذه البيوت يومياً فى أثناء مقامى بالدامر ، وفى عصر يوم كنت أنادى على مسابحى فأقبل على فقيه وسألنى هل أقرأ القرآن ؟ فقلت نعم ، فطلب إلى أن أتبعه إلى بيت قد أصيب فيه غداء طيباً ،

ثم قادني لبيت وجدت فيه حشداً من الناس يحيون ذكرى قريب لهم مات حديثاً ، وكان هناك عدد من الفقهاء يقرءون القرآن في صوت خافت . ثم أقبل فقيه كبير فكان ذلك مؤذناً لهم بترتيل القرآن ترتيلا عالياً على نحو مايفعل المقرئون في الشرق . وقد شاركتهم هذا الترتيل ، ومضينا فيه زهاء نصف الساعة حتى جيء لنا بالغداء ، وكان موفوراً لأن القوم نحروا بقرة لهذه المناسبة . واستأنفنا التلاوة بعد أكلة شهية ، وأخرج شيخ منهم سلة ملئت بالحصى الأبيض فقرئت عليها الأوراد . وينثر هذا الحصى على قبر الميت كما رأيت على كثير من القبور الجديدة ، وقد استفسرت من الشيخ عن هـذه العادة التي لم أرها تمارس في أي بلد إسلامي آخر ، فقال إنها لا تعدو أن تكون عملا طيباً مشكوراً ، وإنها ليست فرضاً محتوماً ، إنما يعتقد القوم أن روح الميت إذا زارت قبره سرها أن تجد هذا الحصى فتستخدمه مسبحة تسبح عليها الخالق الصمد. ولما فرغنا من التلاوة بدأ النسوة يولولن ويعددن مناقب الفقيد . وهنا بارحت الحجرة ، وفيما أنا أستأذن رب البيت الكريم في الرحيل نفحني ببعض ضلوع من اللحم المشوى لعشائي .

ويزين نساء الدامر غرف جلوسهن بعدد كبير من الصحون الخشبية الواسعة يعلقنها على الجدران فتبدو كأنها الصور الكثيرة ، أما الأرض فيغطينها بالحصر الجميلة مختلفة الرسوم والألوان ، ولا غرو فالقوم خبيرون بصبغ خوص الدوم . كذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلقاً على الحائط فوق الباب للزينة .

وعلى ضفة النيل الغربية تجاه الدامر قرية صغيرة تدعى الدامر غرب ، وتصلهما معدية بدائية الصنع هي جذع شجرة نبق منقور .

وتلقى الزراعـة في الدامر من العناية ما لا تلقاه في أي بلد آخر من دنقلة إلى شندى . فيروى الفلاحون الأرض ريا صناعياً بالسواقي على أعناق البقر كما يفعل أهل مصر ، ويحصلون بذلك على محصولين في السنة ، ولم تقاس الدامر من أهوال المجاعة ما قاسته جاراتها ، ولـكن الجدرى فتك بأهلها فتكا ذريعاً . وأهم محاصيلها الذرة ، ويزرعون بعض القمح ولـكنهم لا يصدرونه ، إنما يأكله كبار الفقهاء الذين تعلموا هذا الترف في أثناء مقامهم بمصر . كذلك تزرع البامية والمقادير الـكبيرة

من الشطيطة الحمراء التي يصدر بعضها والتي يولع القوم ولعاً شديداً بتتبيل طعامهم بها . وينتج هذا الإقليم القطن الكثير ، كذلك ينتج قليلاً من التبغ لسوق البشاريين ، وهو فى أحط الأنواع ، أما الفقهاء أنفسهم فلا يدخنون قط . وقد خيل إلى أن ماشية الدامر أجود وأسمن من ماشية بربر ، وهم لا يربون من الخيل إلا القليل ، أما الحمير فكثيرة ، وقد اشترى أصحابنا التجار بعض الإبل وباعوا شيئاً من بضاعتهم . ولا يتقاضى الفقهاء ضريبة مرور فإن أهم مواردهم يأتيهم من الزراعة والتجارة ، وهذا هو السر فى ازدهار الدامر وثرائها ، لأن القوافل لا تجد أى بأس من المكث بها أياماً . وكان مضيفنا فى مطالبه منا معتدلا بعيداً عن الشطط ، وشمرت وشعر أصحابى ونحن نغادر البلدة أنا راضون عن أهلها كل الرضى . وأرسل المبابدة أقماعاً من السكر للفقى الكبير ، ولكنهم أعطوها محض اختيارهم .

١٥ إبريل — بكرنا فى الرحيل بصحبة فقيهين يحرسانا حتى حدود إقليم شندى . وهذا الطريق خطر وأهله لصوص ، ولكن خوف الفقهاء تغلغل فى قلوب القوم بحيث كان مجرد رؤية فقيهين يسيران أعزلين على رأس القافلة كافياً لبعث الرهبة فى نفوسهم . وكثيرا ما أقبلوا نحونا ليلثموا أيديهما ثم يعودوا أدراجهم . ولولا معونة هؤلاء الفقهاء لاقتضى عبور هذا الطريق قوة مسلحة ، وقد درجت القوافل القادمة من الجنوب على الوقوف بحدود شندى الشمالية حتى يصلها فقيه من الدامر ليحرسها .

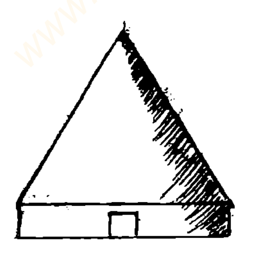
وعلى الرغم من وجـــود دليلينا كان كلهم نهبا للوساوس والمخاوف ، ولصق بعضنا ببعض خشية أن يفتك اللصوص بالمتخلف منا بين الأحراج . وحملت بندقيتى فى يدى ، وكنت أعلم أنها خليقة بأن تروع عصابة بأسرها ، ولكننى كعادتى فى أسفارى لم أر ضرورة لتعبئتها . وأقبل على كبير التجار الدراويين ، ولما علم أن البندقية فارغة أمرنى فى صلف أن أعبئها بمقذوف ولكنى أبيت . وعلى إثر ذلك نشب بيننا شجار حاد ، فسبنى بأقذع الألفاظ ورمانى بالجبن ، وزعم أننى غير جدير بحمل السلاح ، فأجبته « قد يكون هذا صحيحا ، ولكنى على أى حال ألفت حمله ، أما أنتم فتجدون العصا أو المنجل أليق لأيديكم من السيف » . ووجد الرجل فى

هذا الجواب ما يجرح كبرياءه ، فأهوى على كتفى بضربة من عصاه كادت تصرعنى ، وسدد إلىّ ثانية صددتها ببندقيتى ، وهممت بضربه بمؤخرها لولا أن أصحابنا حالوا بيننا وانتزعوا السلاح من يدى . وقد اغتبطت بما فعلوا حين فكرت فى الأمر مليًّا ، فلو أننى ضربت الرجل لأصبته بجرح ولاستفحل الأمر . لذلك اكتفيت بقذفه بوابل من الشتائم تنفيساً لغضبى ، وألحى عليه الجميع باللائمة ، لا سيما العبابدة الذين جهروا بأنهم لن يسكتوا على أى إهانة توجه إلىّ بعد الآن . ولم أستطع أن أدون فى هذه الرحلة ما درجت على تدوينه من مذكرات ضافية وافية ، وذلك لاشتباكى فى هذه المشاجرة ولعدم إمكانى اعتزال الركب خشية أن يهاجمنى اللصوص . وبعد أن بارحنا الدامر دخلنا حرجاً من شجر السلم ومضينا فى طريق غير بعيد من الأرض الزراعية . وشهدنا على مقربة من النهر عدداً من القرى والنزلات منبثة بين أحراج الدوم ، ويسكن هذه القرى عرب المطراب ، وكانوا يخضعون لأمراء شندى ، ولكنهم استقلوا عنهم منذ زمن طويل ، وهم اليوم يعيشون من محصول أرضهم ومن السرقة . والحرب قائمة بينهم وبين جيرانهم أجمعين ، ويخشى هؤلاء الجيران بأسهم الشديد وما اشتهروا به من بسالة عظيمة ، ولا ينجو المسافرون من سطوهم ما لم يرافقهم فقيه أو أكثر من فقهاء الدامر .

وتركنا النيل بعد الدامر بست ساعات شاقين لنا طريقاً قصيراً عبر التلال ، فبلغنا حواية بعد تسع ساعات ، وهذه القرية هى اليوم الحد الشمالى لإقليم شندى . وتمتد حدود شندى قانوناً إلى نهر مقرن ، فتدخل فى نطاقها الدامر ، ولكن فقهاء الدامر كما مر بنا مستقلون . ونعمنا بأمسية بديعة بعد نهار شديد القيظ ، ومضينا جميعاً إلى النهر نسبح فيه ، وقد وجدت الحصى يكسو قاعه قرب الشاطىء . وكان مضربنا فى ساحة مكشوفة وسط القرية ، وقيل لى إن القرية مأمونة ، فأخذت بعض المسابح لأقايض عليها بالخبز . وطوفت فيها دون أن ألقى توفيقاً ، حتى لقينى رجال فدعونى لبيتهم زاعمين أن نساءهم سيبتعن المسابح . فمضيت معهم حتى بلغنا زقاقاً ضيقاً مهجوراً ، وإذا هم ينقضون علىّ ويختطفون مسابحى وعمامتى ، ولما رأونى ما زلت أقاومهم

مع أنى كنت أعزل جردوا سيوفهم ، فما كان منى إلا أن أطلقت ساقى للريح ولحقت بأصحابى ، فلما رويت لهم ما حل بى ضحكوا منى وأشاروا على بأن أشكو أمرى إلى شيخ القرية وهو كفيل بالكشف عن اللصوص . ولقيت الشيخ آخر الليل فى مشرب من مشارب البوظة يحيط به جماعة من السكارى ، ووصفت له اللصوص فلم يمض قليل حتى ردت إلىّ المسابح والعمامة . ثم ألح على الشيخ فى أن أجالسه وأشاربه ، فلما اعتذرت صحبنى إلى قومى ، واضطررت آخر الأمر أن أنفحه بما يساوى ضعف ثمن المسروقات . وقد سقت هذه الواقعة مثالا لما يتعرض له المسافر فى هذه الأنحاء من خطر السرقة إذا سار فيها وحيداً .

١٦ أبريل — بلغنا قرية قباتى بعد مسيرة أربع ساعات من حوايه . ويبنى القوم هنا قراهم الكبيرة كما يبنيها سكان المرتفعات فى صعيد مصر ، أعنى على منحدر تلال الصحراء غير بعيد من الأرض التى يزرعونها . ورأيت فى قباتى بناء غريباً يقوم فوق ضريح أحد الأولياء ، والبناء مخروط منتظم يعلو نحو الثلاثين قدماً ، ويرتكز على قاعدة مربعة ارتفاعها خمس أقدام أو ست . وفيها باب منخفض .



والبناء كله من اللبن ، وقد وجدت بابه موصداً ، وقيل لى أنه لا يفتح إلا أيام الجمعة . وشكل البناء من بعيد كشكل الهرم بالضبط ، ولعل الإثيوبيين كانوا أول من استخدم هذه الأبنية قبوراً من قديم العهود ، ولعلها الأصل فى مقابر منف العظيمة . ورأيت فى شندى بناء منها ولكنه أصغر حجما ، وفيما خلا هذين لم أصادف لها مثيلا على كثرة قبور الأولياء والمشايخ فى شتى القرى الكبيرة .

وسرنا من قباتى على السهل الزراعى تارة وعلى التلال الرملية تارة أخرى . وأعرض ما يبلغه السهل من التلال إلى النهر أربعة أميال . وكان القوم قد ضموا

محصولهم من أمد طويل ، ولـكن سيقان الذرة كانت ما تزال تـكسو السهل كله متفرقة فيه لا مزدحمـــة متقاربة كما ترى فى مصر ، وهو دليل واضح على ما تلقى الزراعة هنا من إهمال شديد . وفى الحقول الـكثير من أشجار النبق ، أما أطراف الصحراء فتكسوها أشجار العشر . ومررنا بعدد من النزلات فى التـلال القائمة إلى يسارنا ، وبعد مسيرة عشر ساعات جئنا قرية جبيل | أم على | ليلا ، فوجدناها قرية كبيرة جاثمة بين التـلال ، وفيها عدد من المساجد الصغيرة والمبانى الجيدة . ويحكمها قريب من أقارب ملك شندى الذى يمتد إقليمه إلى حواية . وحططنا فى ساحة مكشوفة خلف القرية ، وبعد أن مضينا لنصيب حظنا من الراحة أيقظنا خدم فقيه القرية الـكبير حاملين لنا من قبله عشاء طيباً . وفى أثناء مسيرنا هـذا النهار كنا نلقى كثيراً من المسافرين فى الطريق ، وجلهم على ظهور الحمير ، كذلك التقينا بقافلة صغيرة قادمة من شندى قاصدة بربر . ورأيت سدوداً أثرية من الثرى لم ألمح فيها أثراً للحجر أو اللبن ، وقنوات كثيرة شقت لرى السهل ولـكنها كادت تنغص بالتراب فـلم يعد لها نفع . وتبدأ قرب جبل أم على سلسلة من الجبال صخورها من الحجر الرملى ، وتمتد جنوباً محاذية للنهر .

١٧ أبريل — بعـد أن غادرنا جبيل أم على بساعتين مررنا فى أثناء عبورنا الأرض الزراعية بتلال منخفضة من الأنقاض والآجر ، طول التل منها ثمانون خطوة تقريباً ، وتمتد بعرض الأرض الزراعية ميلا على الأقل إلى الشرق ، وخيل إلىّ أنها تنحرف فى نهايتها نحو الجنوب ، والآجر فجّ الصنعة لا يدانى ما يصنع منه اليوم فى مصر . ويلوح أن هـذه التلال كانت تستعمل سوراً وإن لم يبق منه آثار يكوّن منها الناظر رأياً فيه . وقد مررنا فى شماله وجنوبه بأسس مبان متوسطة الحجم بنيت بالحجر المنحوت ، وهذا كل ما رأيت من أطلال ، ولم أشهد — على قدر ما أسعفنى بصرى — أثراً لحجارة مبعثرة بين تلال الأنقاض ، ولعلى كنت واصلاً إلى كشوف أمتع من هذه لو أننى أنعمت النظر فى المـكان وأطلت فحصه ، ولـكنى وأنا مقيد بالسير مع الركب — ما كنت لأستطيع الوقوف بأطلال لأفحصها ولو كانت عجائب طيبة . وجئنا قرية صغيرة تدعى روّا بعد مسيرة ثلاث ساعات،

وعندها يزداد انحراف التلال شرقاً ، فتترك سهلا عرضه لا يقل عن عشرة أميال . والسهل يزخر بالنباتات البرية تخالطها كل ضروب السنط الشوكى ، وتنبث فى أرجائه الأكواخ والنزلات ،وهو منتجع العرب الجمليين ، تسرح فيه قطعانهم من البقر والإبل والغنم . ولهؤلاء العرب بعض السواقى ويزرعون المقادير الكبيرة من البصل يغذون بها سوق شندى ويصنعون أكواخهم من الحصر ، وقد طرقت بعضها ولكنى لم أستطع أن أظفر من أهلها بقطارة من اللبن دون أن أؤدى الثمن ذرة . وكانت الأعشاب البرية وأغصان السنط المتدلية تزحم الطريق وتعرقل سير إبلنا المحملة .

ومضينا ساعتين أو ثلاثا وسط هذا الإقليم الخصيب ، ثم دخلنا ثانية سهلا رملياً تكسوه أشجار السيال الضخمة ، فحططنا على ضفة النهر العالية ساعات الظهيرة وسقينا الإبل . ومرت فوق رءوسنا أسراب كبيرة من اللقالق ميممة شمالا . وطوينا هذا السهل الرملى بعد سبع ساعات من قيامنا فى الصباح ، ودخلنا بقعة أقل منه اتساعا تدعى بيوضة ، ولكنها فى خصوبة السهل السابق .وتشتمل بيوضة على نزلات كثيرة بيوتها من غرفة واحدة تفى بجميع الأغراض . وهنا تقوم مصانع الملح التى تغذى بهذه السلعة جميع هذه الأرجاء حتى بلوغك سنار ، ويجمع العرب التربة أكواماً على جانب الطريق ، وهى فى هذه المنطقة وفى أميال حولها مشبعة بالملح ، ثم يفصلون الملح عن التربة بغليها فى قدور كبيرة من الفخار ،ويغلون الجزء الملح مرة ثانية فى قدور أصغر ، ثم يقرّصون الملح المتخلف أقراصاً صغيرة مستديرة قطر القرص منها قدم وسمكه ثلاث بوصات ولونه أبيض ناصع ، وله مظهر الملح الصخرى ، ويعبأ اثنا عشر قرصاً من هذه الأقراص فى سلة ، وحمولة الجمل أربع سلال منها . والملح سلعة هامة فى تجارة شندى ، ويشترى تجار سنار المقادير الكبيرة منه لأسواق الحبشة،ويقايضون عليه بالذهب والرقيق فى الجبال المحيطة براس الفيل .ومصانع الملح هذه ملك لأمير شندى ،وكان على النارحين مررت بها عشرون قدراً .

ووراء سهل بيوضة ،حيث يدخل الطريق مرة أخرى فى صحراء رملية جرداء، تقوم

نخلة فارعة هي الوحيدة التي تراها في هذه البلاد ، ولا غرو فالنخل لا يزرع من دنقلة إلى سنار . ويتهلل التجار لمرآى هذه النخلة فهي بشيرهم بختام موفق لرحلتهم. وكان في انتظارنا جماعة من أهل شندى جاءوا يحيون أصحابهم ويلقون على بضاعتهم نظرة . ولا يدخل التجار شندى نهاراً ، لذلك حط الركب حتى غربت الشمس ، ثم عاودنا السير إلى المدينة هونا حتى بلغناها بعد مغادرتنا جبيل أم على بتسع ساعات تقريباً .

شندى من ١٧ أبريل إلى ١٧ مايو — نزلنا بيتاً فسيحاً لصديق من أصدقاء العبابدة ، وكان في أطراف المدينة من ناحية الصحراء . إلا أن ملك شندى أوفد إلينا في الصباح عبداً ينبئنا بأنه يطلب البيت لجارية من جواريه الحبشيات ستطعم بلقاح الجدري ، وكان يريدها أن تقضي فترة مرضها في بيت منعزل خلوى متجدد الهواء . وأمر الملك بأن يعد لنا بيت آخر في وسط البلدة ، فمضينا إليه في الغد ، ووجدنا رب البيت غائباً ، ولكن امرأته احتفت بمقدمنا .

وشندى أكبر بلد في شرق السودان بعد سنار وكوبى (بدارفور)، ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتى دنقلة وكردفان . وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها البعض الميادين العامة أو الأسواق، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف. وهى مبنية فوق السهل الرملى على نحو نصف ساعة من النهر ، وتشبه بيوتها بيوت بربر ، ولكنها أعمر منها بالمباني الكبيرة وأقل منها خرائب . ولا تكاد تجد لشوارعها نظاماً ، فالبيوت منبثة فوق السهل في فوضى عجيبة ، ولم ألحظ الآجر في مبانيها ، وتشتمل بيوت الملك وأقاربه على حيشان مساحة الحوش منها عشرون قدما مربعة تحيط بها أسوار عالية ، ويصدق هذا على سائر بيوت شندى . وعلى رأس الحكومة ملك اسمه نمر، وتنتمى أسرته للعشيرة التي تحكم سنار، واسمها ودعجيب وهى من عشائر الفونج كما فهمت . وكان أبو نمر عربياً من قبيلة الجمليين ، ولكن أمه من عشيرة ودعجيب الحاكمة ، ويبدو من هذا أن للنساء الحق في وراثة العرش ، ويتفق هذا وقصة بروس الذى روى أنه وجد على عرش شندى امرأة تسمى ستنا . وملك شندى خاضع لملك سنار ، شأنه في ذلك شأن ملك بربر ،

ولكنه فى واقع الأمر مستقل كل الاستقلال إذا استثنيت ما يؤديه من إتاوة عند ارتقائه عرشه وما يرسل للملك ووزيره(*) من هدايا بين الحين والحين ، وهو مطلق التصرف فى حكم إقليمه الذى يمتد مسيرة يومين إلى الجنوب .

وقد اتصلت الحرب سنوات بين عمر وعرب الشايقية قبل أن يصل المماليك دنقلة ، فقتل الشايقية نفراً من أقاربه وأغاروا مرات على أرضه وأملاكه على ضفة النيل الغربية بفرق كبيرة من فرسانهم فتركوها خراباً يباباً . ثم اصطلح عرب الشايقية معه ليفرغوا إلى قتال المماليك قتالا مجدياً ، فانقلب عليه أخوه الذى وكل إليه حكم الشاطىء الغربى وأشهر عليه الحرب ، واستمرت الحرب بينهما سجالا سنوات دون أن تنتهى بظفر أو هزيمة يؤبه بهما لأن النهر يقوم حداً بينهما فلا تستطيع عبوره من جيوشهما إلا شراذم صغيرة .

وحكومة شندى أقوى من حكومة بربر ، فلملكها سلطة مطلقة لا تحد منها عصبية الأسرة القوية التى لا هم لها فى هذه البلاد إلا الإخلال بالنظام ، وهو لا يلجأ إلى ما يلجأ إليه ملك بربر من ابتزاز مال الغرباء ابتزازاً يفزعهم من هذه البلدة ، ولعل الفضل فى احتفاظه بهذه السلطة المطلقة راجع إلى تعدد القبائل العربية النازلة بشندى ، وإلى أنه ليس فيها قبيلة بلغت من القوة مبلغاً يتيح لها التصدى لقبيلة الملك وبطونها الكثيرة . وأكبر هذه القبائل السرارب والنافعاب والجعليون ، وجلها ما زال يحيا حياة البداوة . وطبقة التجار هى أجل طبقات الناس فى شندى قدراً وأوفرها اعتباراً ، وبين هؤلاء كثير من النزلاء وفدوا عليها من سنار وكردفان ودارفور ودنقلة ، وأكثرهم نفراً هم الدناقلة ، ويشغلون حياً كاملا ولكنهم أقل هؤلاء النزلاء قدراً فى عيون أهل شندى ، فهم ينعون عليهم شحهم ، وقد أصبح ولعهم بالمال مضرب الأمثال ، وزادفى تلويث سمعتهم إشتغالهم بالربا ، وهى تجارة تكاد تقتصر عليهم، حتى إنك لو دعوت عربياً من أهل شندى بـ « الدنقلاوى» لعدها منك إهانة لا تغتفر ، فالدنقلاوى هنا كاليهودى فى أوربا .

(*) يقولون إن وزير سنار — وهو من أسرة عدلان — هو السيد المهيمن عليها ، أما الملك فليس له من السلطة إلا ظلها .

وتزكو التجارة فى شندى لأن الملك لا يبتز من التجار ضرائب ، وقد أكد لى كثيرون أنه لا يجرؤ على هذا خشية أن يغضب وزير سنار . ولست أدرى مبلغ ما فى هذا الزعم من صحة، ولكن الواقع أن القوافل معفاة من المكوس أيا كانت، ولا يقدم المسافرون للملك سوى هدية صغيرة ليبسط عليهم مزيداً من حمايته الخاصة، ويضيفون إليها هدية أخرى لأحد إخوته ، وهو من وجوه المدينة . وقد أرسل أصحابى العبابدة الملك لفة صغيرة من الصابون والسكر أسهمت فيها بنصف ريال . ولم أسمع بوجود وظائف أخرى أدنى من وظيفة الملك فى حكومة شندى ، ويبدو أن ملكها قد جمع فى يده كل السلطات ، وأقرباؤه يحكمون القرى التابعة للإقليم، وقوام بلاطه ستة من الشرطة وكاتب وإمام وخازن وفرقة حرس جلها من الرقيق . أما أخلاق أهل شندى فكأخلاق أهل بربر سواء بسواء . نعم إن الملك يلزمهم بعض الحدود ، ولكن اللؤم والبغى لا يجدان رادعاً ، ولا غرو فهم يعلمون أن القانون لا يملك إلا أن يحاول منع وقوع الجرائم ولكنه قلما ينزل بهم العقوبة الرادعة . وكثيراً ما يساق إلى الملك لصوص سطوا على الناس ليلا ، وسكارى اعتدوا على الأغراب ، وسارقون ضبطوا فى الأسواق ، إلى غير هؤلاء من المجرمين ، فيقتصر فى عقابهم على الحبس يومين أو ثلاثة ، وما سمعت قط أنه أمر بإعدام مجرم منهم أو حتى جلده ، مع أن مثل هذه الجرائم كانت تقترف يومياً خلال مقامى بشندى . وكان يؤذن لمقارفيها بالعودة إلى بيوتهم مطمئنين بعد أن يدفعوا غرامة صغيرة للملك ورجاله . أما فى كردفان فعقاب السرقة الإعدام فيما سمعت .

وبيوت الليل ومشارب البوظة منتشرة هنا انتشارها فى بربر ، بل إن المشارب أكثر انتشاراً . ولم تمر بى ليلة لم أسمع فيها أصوات السكارى يتصايحون بأغانيهم فى مجالس البوظة مع أن الحى الذى نزلنا كان من أهدأ أحياء المدينة ، وهو حى الدناقلة الذين يعصمهم الحرص على المال من الانغماس فى اللهو وإدمان هذه المعاصى . وبينما كنت فى بربر أرى البغايا لا يختفين لم ألقاهن فى الطرقات بشندى إلا قليلا ، وإن كن ، فيما يقال ، داخل البيوت يكدن يبلغن فى الكثرة أخواتهن فى بربر .

ولباس أهل شندى وعاداتهم وآدابهم لا تختلف عما وصفت فى غيرها من

البلاد التى مررت بها ، ويبدو أنها هى بعينها حتى بلوغك دارفور وسنار . وقد لحظت أن نسبة المتأنقين فى لباسهم بشندى أكثر من نسبتهم ببربر ، كذلك كانت ثياب القوم أنظف . والذهب من السلع الكثيرة التداول فى سوق شندى ، لذلك ترى بين نسائها من يلبسن الأقراط فى أنوفهن وآذانهن أكثر مما ترى بين نساء بربر . والقوم هنا أيسر حالا ، ومن المألوف أن ترى الأسرة منهم تملك اثنى عشر عبداً يخدمون فى البيت وفى الحقل .

وأهل شندى كأهل بربر رعاة وتجار وزراع . على أن القوم قلما يكترثون للزراعة ، فهم يتركونها لزراع العرب المجاورين للمدينة . والأرض الزراعية القريبة من شندى ضيقة الزمام ، ولكن فى شمالها وجنوبها بعض السهول الخصيبة . وسواقى الماء شائعة الاستعمال ، ومعظمها قائم على شطئان النهر العالية التى يعجز أعلى الفياضانات عن غمرها بالماء . وهى تتيح للزراع محصولا سنوياً واحداً ، وفى إمكانهم أن يزرعوا محصولا ثانياً وثالثاً كما يفعل أهل الصعيد فى أراضيهم العالية التى قل أن يرقى إليها ماء النهر ليغمرها بفيضانه ، ولكن فى طبعهم من الكسل وفتور الهمة ما يقعد بهم عن بذل الجهد فى ربة ثانية أوثالثة . والذرة أهم المحاصيل، ويزرع القليل من الدخن والقمح ، فأما الدخن فيأكله التجار القادمون على شندى من الغرب ، وأما القمح فيكاد يقتصر استهلاكه على الأسر الغنية . وتعرض السوق على الدوام المقادير الكبيرة من البصل ، وبعض الشطيطة المجلوبة من كردفان ، والبامية والحمص والملوخية والترمس(*) وكلها أخضر أو مجفف . ويزرعون فى موسم الفيضان شيئاً من البطيخ والخيار ، ولكن المزروع منهما لا يتجاوز حاجة حريم الملك .

وماشية شندى طيبة، ويقول أهلها إنها تجود وتكثر كلما صعدت فى النهر . ولم أر هنا من الحيوان الأليف ما لا يوجد مثله فى مصر . وأول ما تلقى الفيلة فى أبو حراز على مسيرة يومين أو ثلاثة شمال سنار ، ولم تر قط مجاوزة هذا الإقليم

---

(١) يستعمل دقاق الترمس فى مصر بديلا عن الصابون فى غسل الرأس والجسم .

الذي تحده سلسلة من الجبال تقطع عرضاً في ست ساعات أو ثمان ، وهي سلسلة تمتد حتى تحدق بالنهر . وقد ذكروا لي أن النمر كثيراً ما ترى في الوديان الواقعة إلى الشرق من شندى ، أما الزراف فيعيش في جبال الدندر ، وهو إقليم يقع في اتجاه عطبرة على ست مراحل أو ثمان من شندى جنوباً بشرق ، ويصيده عرب الشكرية والكواهلة ، وينشدون منه جلده الذى تصنع منه أمتن أنواع الدرق .
ورأيت كثيراً من التياتل الجبلية جلبت إلى سوق شندى ، وكانت من أوفر ما رأيت جسما ، ولها قرون طوال تنثنى حتى تبلغ منتصف ظهورها ، ويطرى القوم لحمها اللذيذ إطراء شديداً . ويطلقون على التيتل هنا اسم الآريل ، وهو اسم يطلق على الظبي الأحمر في سوريا ، أما في صعيد مصر فاسمه التيتل ، وفي سوريا البدن ، ويقتنصه البدو الجمليون في فخاخ على نحو ما يقتنصون النعام . والنعام كثير الذيوع أيضاً في هذه الأرجاء ، على أن ريشه لا يبلغ في الجودة مبلغ ريش نعام الصحارى الغربية . وأغلى الريش في مصر ماجاب من كردفان ودارفور ، وتحمله قوافل دارفور إلى أسيوط . ويجلب فلاحو الجمليين ريش النعام إلى السوق حزماً اختلط فيها الطيب بالردىء ، ويقايضون عليه بالذرة . وكان ثمنه يوم كنت بشندى عشر ثمنه بالقاهرة التي كانت تباع فيها أجود أنواعه بسعر مائتين وثمانين قرشاً للرطل .
وقد أدخل الباشا مؤخراً ريش النعام ضمن السلع التي يحتكر تجارتها .

وفرس البحر أو البرنيق قليل في شندى وإن ظهر فيها حيناً بعد حين . واتفق وجود فرس في النيل قرب بيوضة خلال مقامى بشندى ، وكان يغير على الحقول غارات مدمرة . ولم يكن يظهر فوق الماء نهاراً ، فإذا هبط الليل خرج إلى البر وأتلف بأرجله الضخمة من الزرع ما أتلف ، والتهم منه بنهمه ما وسعه أن يلتهم . ولا يعرف القوم وسيلة لقتل هذه الأفراس . أما في سنار حيث يكثر عددها ، فيقتنصها الأهالى في حفر يخفونها بالغاب فتسقط فيها الأفراس أثناء طوافها ليلا . ويجمع القوم على أن الرصاص لا يصرعها إلا إذا أصابها في مقتل ، ومقتلها فوق الأذن . وتصنع السياط أو الكرابيج المأخوذة من جلدها في سنار ، فإذا صادوا فرساً منها قطعوا على الفيل جلده سيوراً دقيقة ، طولها خمس أقدام أوست ، مستدقة

الأطراف ، ثم يطوى كل سير منها بحيث يلتئم طرفاه ويكونان أنبوبة تربط رباطاً وثيقاً وتترك في الشمس لتجف . ولا بد من دلك هذه الكرابيج بالسمن أو الشحم لتصبح لدنة طيعة . وتباع في شندى بسعر اثنى عشر كرباجاً أو ستة عشر للريال الإسبانى . أما في مصر ، حيث يكثر استعمالها وحيث يبعث مرآها الفزع في أفئدة الخدم والفلاحين ، فثمن الواحد منها من نصف ريال إلى ريال . وهى في الأجواء الباردة — حتى جو سوريا — تصبح قصمة وتتشقق وتفقد ليونتها .

وتكثر التماسيح حول شندى ، وقد لحظت على وجه العموم أن هذا الحيوان يلتزم من النيل مناطق خاصة قل أن يخلو عنها . فهو قد اختفى مثلا من دلتا النيل اختفاء تاما مع أنه لا يوجد عائق معقول يعوقه عن الانحدار إليها مع النهر ، أما في الصعيد فآخر البقاع عنده اليوم إخميم ودندرة وأرمنت وأدفو ، وقل أن تراه فيما بين هذه البلاد . كذلك شأنه في بلاد النوبة حول دنقلة. وفي بربر لا يخشى أحد أن يلقى في النهر تمساحاً ، وكثيراً ما سبحنا فيه هناك وأوغلنا إلى وسطه ، أما في شندى فالتماسيح تلقى الرعب في قلوب الناس ، فالعرب والعبيد والنسوة الذين يقصدون شاطىء النهر القريب من المدينة صباح مساء ليغسلوا ملابسهم يجب ألا تغفل لهم عين ، أما السابحون منهم في مياه النهر فيحذرون التوغل فيها . وقد شهدت غير مرة ظهور التمساح على القوم ورأيت مبلغ ما يلقيه مرآه من هلع في قلوبهم فيرتدون جميعاً إلى البر في لمح البصر . وفي أثناء مكثى بشندى اقتنص التمساح رجلا أشاروا عليه بالسباحة في النهر بعد إبلاله من الجدرى ففتك به . وكثيرا ما يؤتى إلى سوق سنار بالتماسيح فيباع لحمها فيها . وقد ذقت هذا اللحم مرة بإسنا ، ولونه أبيض مربد لا يختلف عن لون لحم العجل ، وفي رائحته أثر من رائحة السمك. وقد صاد هذا التمساح بعض الصيادين بشبكة قوية ، وكان طوله يزيد على اثنتى عشرة قدماً . وأمر حاكم إسنا بجيء به إلى فناء داره ، وأطلقت عليه أكثر من مائة رصاصة دون أن تصيب منه مقتلا ، وأخيراً طرحوه على ظهره وأفرغوا مروداً صغيراً من الرصاص في بطنه ، وهو أرق جلداً من ظهره . وقل أن يصطاد عرب شندى السمك ، ويبدو أنهم لا يعرفون الشباك ، ولكن أطفالهم يتلهون بصيد السمك بالسنانير .

ومحصول حقول شندى وما جاورها لا يسد حاجـة أهلها التى تتزايد لوفود القوافل عليها وفوداً لا ينقطع . فتستورد الذرة من أبو حراز على الأخص ، وهى فى الطريق إلى سنار . وقد وصلت منها فى أثناء مكثى بشندى قافلة تحمل الذرة قوامها أكثر من ثلاثمائة جمل، وكان ثمن الذرة يوم وصولنا ريالا لـكل اثنى عشر مكيالا فهبط إلى ريال للعشرين . ويتقلب ثمن الذرة كل يوم تقريبا إذ تتأثر السوق بوصول كل قافلة من قوافل التجار الذين يبتاعون منها المقادير الـكبيرة طعاما للرقيق وعليقاً للابل . كذلك يحتكر الملك تجارة الغلال ما وسعـــه الاحتكار ، ويقال إن الذرة موفورة جداً فى أبوحراز وسنار ، فالأربعون مكيالا تباع بريال ، وهى فى شكلها وحجمها شبيهة بذرة شندى والصعيد، ولـكنها غبراء اللون، وغذاؤها فيما يروون أقل، لذلك فهى أرخص بطبيعة الحال .

والخيل فى شندى أوفر منها فى بربر ، ويقولون إن فى وسع الملك أن يحشد فى شندى نفسها من مائتى فارس إلى ثلاثمائة . ويؤثر بدو الجمليين ركوب الأفراس على ركوب الفحول كعادة العرب الشرقيين ، أما سكان شندى فيؤثرون ركوب الفحول . ورأيت عند أخى الملك — وهو الراس سعد الدين — جواداً اشتراه من الجنوب بثلاثة عشر عبداً ، وهو أجمل مارأيت من الخيل. وقد احتشد فرسان شندى عن بكرة أبيهم فى يوم مهرجان أقامه الملك نمر بمناسبة ختان ولد له ، وطافوا المدينة مع أسرة الملك وجيادهم تثب وتخطر ، ولـكنى لم أر فيهم شيئا من المهارة ، ولم يحاول أحدهم ضرباً من تلك الألعاب التى اشتهر بها فرسان المماليك ، وكل ما فعلوه هو الوثب أماماً وخلفاً ، ولم ألحظ بينهم فارساً مقداماً جسوراً . ومع ذلك فهؤلاء الفرسان هم عماد الملك ، وعليهم المدار فى جميع المعارك التى يكره على أن يخوضها مع أعدائه . وتشبه سروج الخيل ولجمها ومهاميزها — التى لا يضمون فيها غير كبرى أصابع القدم — نظائرها عند أهل بربر وعند عرب الشايقية الذين يشتهرون بالفروسية فى هذه البلاد اشتهار المماليك بها فى تركيا فيما مضى . ويقتنى نمر زهاء اثنتى عشرة بندقية اشتراها أو أخذها من التجار المصريين ، وهو يسلح بها عبيده المقربين إليه، ولـكن قل منهم من تتوافر له الشجاعة الـكافية لإطلاق النار ، وليس منهم من

بجرؤ على تسديد بندقيته بسندها إلى كتفه . على أن مرأى البندقية يكفى عادة لإرهاب العدو ، وهذا هو المطلوب ،فغاية ما يرجوه الفريقان المتناوشان أن تنتهى المعركة دون أن يراق من الدم إلا أقله ،ولاغرو فإن لناموس الثأر بين هؤلاء العرب سلطانا عظيما . وقد عرا بعض بنادق الملك نمر من التكسر أو الصدأ ما أتلفها ، ولكنهم لم يجدوا من يقوم بتنظيفها وإصلاحها . فلما رأونى مرة أنظف بندقيتى حسبونى على دراية بهذه الصناعة ، واقترحوا علىّ جادين أن ألتحق بخدمة الملك صانماً لأسلحته ،وعرض علىّ الملك عبداًوجاريتين وما شئت من ذرة لإطعامهم ، ولم أستطع أن أقنع رسله بجهلى هـذه الصناعة إلا بشق النفس . وعلى المسافرين فى هذه الأقطار أن يتجنبوا الإعلان عن درايتهم ولو بأتفة الأشياء التى قد يفيد منها الملوك أو يستمتعون بها ، وإلا أكرهوهم على خدمتهم .ولما يئس الملك من حملى على البقاء أراد على الأقل أن يستولى على بندقيتى ، فأرسل فى طلبها وحجزها عنده أياماً ، وألححت أنا فى طلب ردها ، فبعث إلىّ بأربعة ريالات إسبانية ، وأمر عبيده أن يقدموا إلى من مطبخه الخاص عدة صحاف من الخبز واللحم . ولما شكوت إلى بعض القوم هذه المعاملة أجابوا أننى قد صرت صديق الملك بعد أن أكلت خبزه،فعار على إذن أن أضع العراقيل فى سبيل حصوله على بندقيتى . أما أنا فقد كان أسفى عليها شديداً لا سيما حين جال بخاطرى ما أنوى ارتياده من أقطار . ولـكن أربعة ريالات لرجـل فى ظروفى لم تـكن بالمبلغ الهين . ولما يئست آخر الأمر من استرداد البندقية أو الحصول على ثمن أعلى ، قبلت الريالات الأربعة التى عرضها الملك مردداً له عبارات الشكر والحمد .

وقد يدهش القارىء أن يرى الأسلحة النارية عزيزة نادرة فى هذه البلاد برغم سهولة استيرادها.ولـكن الواقع أن التجار يخشون حملها لئلا يثيروا جشع الملوك ، وليس من المعقول أن يستطيع التجار عرضها فى الأسواق كغيرها من السلع أو أن يستطيع الراغبون شراءها بأسعار ثابتة إلا إذا كثر عددها . ويروع منظر البندقية الريفيين الذين يلمون أحيانا بالمدن التى يفد عليها التجار ، وهى كفيلة بحمل عشرات منهم على الفرار. وأذكر أن عربياًمن الجعليين كان يحمل ريش نعام يبتغى

بيمه أتى المنزل الذى نزلت ليبيع بضاعته لأصحابى ، فما إن لمح بندقيتى قائمة فى ركن الحجرة حتى هب واقفاً وطلب إليهم أن يخرجوها خارجا لأنه يكره أن يظل قريباً من هذا السلاح الفتاك .

وقد روى مبعوث باشا مصر إلى سنار بعد عودته منها أن الملك عرض مرة فرقة من الفرسان أمامه ، فطلب إليه المبعوث أن يأذن له بعرض شىء من تمرينات الدفعية التركية لأنه كان قد صحب معه مدفعين صغيرين محمولين على جملين، وثلاثة جنود . وما إن بدأوا يطلقون النار حتى فر معظم الأهالى ، وسقط كثيرون على الأرض مستغيثين . ولم أصادف فى هذه البلاد رجلا جرؤ على مس بندقيتى إلا إذا كان قد زار مصر أو بلاد العرب من قبل ، وكثيراً ما كان يلجأ فتيان القافلة حين يريدون التخلص من الزوار المشاغبين إلى بندقيتى يمسكون بها ويهددون بإطلاقها عليهم . فإذا كان هذا حال القوم فى هذا الإقليم الوثيق الصلة بالأملاك العثمانية ، فما بالك بما يبعثه مرأى الأسلحة النارية من دهشة وهلع فى قلوب سكان مجاهل القارة الذين لم تقع عيونهم على شىء منها ، بل لعلهم لم يسمعوا بنبئها قط . وهذا سبب من الأسباب التى تحملنى على الاعتقاد بأن فرقة صغيرة من الجند الأوربيين كفيلة بأن تشق لها طريقاً فى هذه البلاد دون أن تلقى مقاومة إذا تذرعت بالحكمة والصبر . وأحسب أن ثلاثمائة رجل مثلا ، ممن مرنوا على احتمال المناخ المدارى ، يستطيعون أن يوغلوا فى شرق إفريقية ، ولن تعترض طريقهم عقبات قوية يؤبه بها من أسوان إلى سنار . وإذا كان مائتان وخمسون من صماليك المماليك قد فتحوا دنقلة وفرضوا عليها سلطانهم برغم مقاومة الدناقلة والشايقية مجتمعين ، فخليق بقوة مدربة من الأوربيين ألا تخشى بأس هؤلاء الإفريقيين وهم على حالهم من تشتت وانقسام إلى إمارات صغيرة لا رابطة بينها ولا اتحاد . أما ماتلقاه الحملة من عناء السير والحرمان وتقلبات الجو فذلك أمر يستعان عليه بالصبر والتدبر ، وسبيل ذلك التزام ضفاف الأنهار — ولن يعدموا فيها الزاد أو الإبل — ثم تخير المواطن الصحية العالية لقضاء الفصل المطير فيها ، وهو فصل يخلو على أى حال من تلك الأضرار الوبيلة التى تحيق بالمسافرين فى الأقطار الغربية من إفريقية .

أما الذين يحاولون ارتياد مجاهل القارة وعدم والتغلغل فى أقاليم لايطرقها التجار الشماليون فأخشى أن يروحوا ضحية حماستهم وطموحهم النبيل . وإذا قدر لمنابع البحر الأبيض [النيل الأبيض] أن تكشف ، فلن يقوم بهـذا الكشف إلا قوة مسلحة . ولقد سبقت انجلترة سائر الأمم الأوربية فيما قامت به من رحلات كشفية وما أوفدت من بعوث لارتياد الأقطار النائية ، ولاينقصها اليوم إلا حملة موفقة إلى مجاهل إفريقية ليصبح تفوقها فى هذا المضمار تاماً .

ولشندى سوق يومية وأخرى أسبوعية كبيرة يؤمها جميع العرب المحيطون بها . والعملة المتداولة فيها هى عملة بربر ، أعنى الذرة والدمور . أما العبيد والجمال فتشترى بالريالات ، وقد يقايضون على فرق من العبيد كاملة ببضاعة مصرية أو سواكنية . ولا يتداول القوم من الريالات إلا ما ضرب فى إسبانيا ، ويسمونه « أبو مدفع » على زعم أن ما بظهره صورة مدفع أو « أبو عمود » نسبة للأعمدة التى عليه ، ولا يجيزون من هذه الريالات الإسبانية إلا ما يحمل منها اسم كارلوس الرابع ، ويسمونه « ريال أبو أربع » ولن يساوى الريال فى نظرهم قيمته الكاملة إلا إذا كانت هذه الخطوط الأربعة واضحة عليه . أما الريال الذى يحمل اسم كارلوس الثالث فهو فى زعمهم أقل قيمة ما دامت خطوطه ثلاثة لا أربعة ، ذلك فهو عندهم أقل من قيمته الحقيقية بالسدس . كذلك يفقد الريال الذى يحمل اسم فرديناند ثلث قيمته عندهم . أما الريالات المتساوية فلا سوق لها هنا . وقد وجدت فى أثناء مقامى بشندى حداداً يشتغل خفية بإضافة رقم I إلى ريالات كارلوس الثالث ، وكان ربحه من وراء ذلك مكيالين من الذرة للريال . ويقال إن البدو هم أول من فرق بين أرقام الريالات على هذا النحو . على أن التفريق لا يسبب مضايقة تذكر لأنه غير معروف فى أوساط التجار . ولا يتداول القوم العملة الذهبية هنا ، ولكنك تستطيع أن تحصل فى أى وقت شئت على كتل صغيرة ، أو أقراط ، من الذهب الخالص بسعر السوق من تجار سنار . ولم أر فى سياحاتى تاجراً يحمل تبراً . وذات مرة أرسل المماليك أحد خدمهم إلى شندى بجنيهات بندقية وتركية ليقايض عليها بريالات ، فاشتراه منه المصريون بنصف قيمتها ، ثم أسفوا حين ذكروا أنه كان

أجدى عليهم أن يشتروا بريالاتهم بضاعة يبيعونها فى مصر بربح يربى على ٥٠٪.

وتنصب سوق شندى على ساحة فسيحة مكشوفة بين الحيين الرئيسيين . وفيها ثلاثة صفوف من المتاجر الصغيرة المبنية باللبن صفاً خلف صف على هيئة الـكوى ، وطول كل منها ست أقدام وعرضها أربع ، وهى مغطاة بالحصر ، ويشغلها أغنياء التجار ، فيحمل كل تاجر بضاعته فى الصباح إلى متجره ويعود بها فى المساء إلى بيته ،وذلك لأن هذه المتاجر لا أبواب لها تغلق لتصون ما بداخلها. أما غير هؤلاء فيفترشون الأرض تحت مظال من الحصير تسندها ثلاثة أعمدة طوال ، ويوجهون هذه المظال أى جهة شاءوا درءاً للشمس وطلبا للظل الـكافى للبائع وزبائنه سحابة النهار . ومثل هذه المظال شائع فى الحجاز ، أما السلع التى يعرضونها فى السوق اليومية فإليك بيانها :

اللحوم . تذبح الأبقار والإبل يومياً لتموين السوق ، أما الضأن فنادر .

ولم أسمع بأن القوم يخصون ما يعدون للذبح من حيوان . ويبيع فريق من التجار الشحم فيغسلونه وينظفونه ليصبح دهاناً صالحا للشعر والجلد . وإلى جوار محال الجزارة تباع قطع الدهن المشوى ، وهى وقليل من البوظة غذاء بدو الصحراء إذا قدموا المدينة . أما اللحم فلا يوزن ، إنما يباع أنصبة وزن كل منها رطلان أو ثلاثة . ويغلب ألا تجد الموازين إلا فى بيوت التجار ، أما فى السوق فاعتمادهم على قطع من الحجر تتيح لهم فرصة الغش . والرطل الذى يستعملونه مساو للرطل المستعمل فى القاهرة .

اللبن . تحمل فتيات البدو فى الصباح اللبن حليبا وحامضا ويقايضن عليه بالذرة ، ومعهن قصاع صغيرة من الخشب علا المشترى إحداها ذرة ويأخذ نظيرها ثلاثة مكاييل من اللبن كذلك تبيع هؤلاء الفتيات الذرة والترمس(*) المسلوقين ، وكلاهما فطور محبب إلى القوم ، ويسمونه البليلة . أما الخبز فلا يباع فى السوق ، ولـكن فى المدينة

(*) لعله يقصد الحمص (المترجم) .

كثيراً من النسوة يسكن أكواخاً حقيرة فى شتى أحيائها ، وهن على استعداد لطحن الذرة وخبزها على الفور لقاء أجر زهيد . ومن عادات القوم الراسخة ألا يأكل أحدهم فى السوق أو على ملأ من الناس ، بل ليس من حسن الأدب عندهم أن يرى الرجل يلوك طعاماً بعد خروجه من عتبة بيته ، وعلة هذا ما وقر فى ذهن القوم من أن الآكل قد يتطلع إليه إنسان جائع فيحسده على اللقمة التى يأكلها ، وهم يقولون « الطعام المحسود مافيه بركة » . ولهذا السبب عينه تجد أحقر الفلاحين من المشارقة لا يتناول غذاءه من الخبز والبصل إلا بعد البسملة ودعوة كل عابر ليشاركه طعامه ، وهو يحسبه فضلا منك أن تشاركه لقمة من رغيفه ، وإهانة أن ترفض دعوته صامتاً ، فهو ينتظر منك على الأقل إذا لم تشأ أن تشاركه طعامه ، أن تقول له « هنياً » جريا على عادة أهل البلاد . أما فى تركيا فهذه العادة غير مرعية ، والناس هناك يأكلون فى الأسواق وأمام بيوتهم . وكثيراً ما كنت أشترى اللبن من سوق شندى فى الصباح الباكر ثم أخلو إلى نفسى فى كوخ مجاور لأشربه ، ولكن هذا كان يكلفنى حفنة من الذرة أنفح بها صاحبة الكوخ لقاء إذنها لى بدخول كوخها .

التبغ . إن تجار التجزئة الذين يبيعون التبغ منبثون فى جميع أنحاء السوق . ويدمن القوم التدخين عند تذوقهم التبغ ويعدونه ترفاً . على أن شغفهم به لا تخالطه صفاقة أهل بربر الذين يأخذون قصبتك من بين شفتيك ليدخنوها . أما الفقراء فلا يدخنون قط . وأجود أنواع التبغ ما يستورد من سنار ، واسمه التابه، وإذا جف استحال لونه أخضر داكناً ، وشابه التبغ المزروع فى جبال البطراء مذاقاً وشكلا . كذلك تستورد من سنار قصبات التدخين والمباسم من الفخار . ويعزج الكثيرون الفطرون بالتبغ قبل أن يمضغوه . أما السعوط أو النشوق فشائع الاستعمال، ويصنعونه بسحق التبغ دقيقاً وخلطه بثلث مقداره نطرونا . وعلب النشوق هى جوزات هند صغيرة مجلوبة من سنار ، أو قرعات صغيرة جداً . وهم كأهل الحجاز يضعون النشوق على ظفر إبهامهم لا بين السبابة والإبهام . ويحمل تجار سواكن الجمال الكثيرة تبغاً ليبيعوه فى أسواق جدة واليمن . ولأهل هذه البلاد عادة فى التدخين لا تجدها

عند العرب والأتراك ، فهم يبصقون بعد كل نفس يشدّونه ، ويقولون إن من لا يفعل هذا لا يستطيع أن يكون شريب بوظة مغواراً ، ويبخون البصاق من بين ثناياهم ، وهى عادة ما كنت لأحفل بذكرها فى هذه المناسبة لولا أننى لم أجد لها نظيراً عند سائر من لقيت من المدخنين المسلمين .

كذلك يبيع تجار التبغ النطرون المجلوب من كردفان ، وتستورده هذه من دارفور . ويبيعون الملح المجلوب من مناجم بيوضة ، ولكن هذا الصنف من الملح غال ، لذلك يستعيض عنه الأهالى الفقراء بماء ملح يحصلون عليه من كتل من التربة الملحية الضاربة إلى الحمرة يذيبونها فى ماء ساخن ، ويشترون هذه الكتل المرة الكريهة المذاق من بدو الصحراء الشرقية، ولعلها تحتوى على المغرة والشب. ويبيع فقراء التجار البامية المجففة والشطة والبصل والملوخية .

وتلقى البقالات والعطارات فى هذه السوق أعظم إقبال ، وفى وسعك أن تجد منها ستة محال مفتوحة فى أى وقت من أوقات النهار ، وهى تبيع القرنفل والفلفل والحبهان والتمر الهندى (ويسمونه العرديب) المجلوب أقراصاً صغيرة من كردفان . ويجهز العرديب بتعريض لبه وحبه للشمس إلى أن يوشك على التعفن ، ثم يعجنان أقراصاً. وأجود أنواعه ينمو فى غرب دارفور وشمالها الغربى فيما بينها وبين دار صليح ، ولكنه موفور أيضاً فى الأنحاء المجاورة لكردفان . ويذيب أهل شندى هذه الأقراص فى الماء الساخن ويتخذون منها شرابا منعشاً . وتحمل الجمال الكثيرة بهذا التمر اللذيذ وتجلب لمصر ، ويسمونه فى القاهرة التمر الهندى لأن بعضه يجلب إليها من جزر الهند الشرقية . وقد رأيت الكثير منه مع الهنود فى جده ،ويسمى هناك الحُمر ، ولكنه صنف أرخص لأنه فرط لا أقراص ، ونوعه أقل جودة . وينمو التمر الهندى فى مكة(*) وبعض أرجاء الحجاز .

خشب الصندل . تجلب من الهند المقادير الكثيرة من هذا الخشب ، ويدخل فى تركيب الطيب الذى يدلكون به بشرتهم ، وإذا كان عندهم مريض عطرت

(*) يقول ناشر الكتاب إنه رأى هذه الشجرة فى جزيرة الفنتين .

غرفته بأريج هذا الخشب بعد إلقاء قطع منه على الجمر . ويباع قطعاً طول الواحدة منها ست بوصات . ويصدّر الكثير منه إلى سنار .

الحلبة . وتجلب من مصر ، ويصفها الأطباء هنا مقوياً لمرضاهم .

اللبان . وهو نوع من الصمغ يجمعه البدو ساكنو الصحارى بين كردفان والشلك على طريق سنار . ويقال إنه يفرز من ساق شجرة على نحو ما يفرز الصمغ العربى . ويباع أقراصاً صغيرة رقيقة ، ولونه أغبر ، وهو قصم نفاذ الرائحة . ويستعمله الريفيون عطراً ولكنه غالى الثمن . ويلقى رواجاً عظيما بين أهل التاكة وكافة القبائل النازلة بين النيل والبحر الأحمر . ويصدّر إلى سواكن ، ويتلقاه تجار القاهرة من جدة ، ويعتبر فى القاهرة كالبخور . وهو صنفان ، أحدهما أخشن من الآخر ، ويجلب لجدة من السواحل كذلك ، وموقعها على ساحل إفريقية الشرقى وراء رأس غردفوى ، ومن بلاد الحبشة بطريق مصوع ، ولكن الصنف الحبشى ردىء .

الصمغ العربى . وتباع المقادير الصغيرة من هـذا الصمغ فى سوق شندى ، ولكنك تستطيع أن تحصل على أحمال منه من تجار سنار أو كردفان . وأغلى أصنافه — وهو الأبيض الناصع — يجلب من كردفان من الأقاليم التى يسكنها بدو فاضل . وقد قلت أهمية تجارة الصمغ التى تسلك هذا الطريق مؤخراً لأنها لا تغل من الربح ما تغله تجارة الرقيق والإبل ، ولكن قوافل دارفور لا تزال تجلبه . على أنه أصبح اليوم فى مصر نادراً غالى الثمن ، لذلك يحتمل أن يستأنف استيراد المقادير الكبيرة منه .

الشَّشم . يجلب الششم من دارفور ، وحباته صغيرة كحبات العدس الدقيقة حجماً وشكلا ، ولونه حالك السواد لامع . ويسحق الششم وتدلك به الجفون للاستدواء من أمراض العيون . وتنقل قوافل دارفور المقادير الكبيرة منه إلى مصر حيث الإقبال عليه أشد منه فى الأقطار الجنوبية ، فنى مصر تستعمله كافة الطبقات واقياً للعيون

أكثر منه علاجاً للرمد ؛ ولست أشك فى أنه ملطف مبرد للعين ، ولم يصل إلى علمى أن شيئاً منه يصدر من مصر .

الكحل . تباع مقادير كبيرة من الكحل لشتى الناس من مختلف أنحاء البلاد لتكحيل الجفون . وفى الريف يمكن أن تقايض بقطع الكحل الصغيرة بدل العملة ، فنساء الفلاحين لا يترددن فى المقايضة عليه بما يستغنين عنه من متاع البيت أو محتوياته .

وثمت عقار يدعى القرفة (*) أى اللحاء يجلبه التجار القادمون من الأقطار الغربية ، وهو قشور صفراء سميكة ذات نسيج ليفى ، ولا بد أنها مأخوذة من شجيرة أو من أغصان شجرة صغار لأن قطرها بوصة واحدة . ومغلى القرفة يستعمل قابضاً فى حالات الحمى والدوسنتاريا ، وطعمه شديد المرارة . وقيل لى إن الشجرة التى يؤخذ منها هذا اللحاء تنمو أيضا فى إقليم الشكرية على الجبال فى الطريق إلى الحبشة .

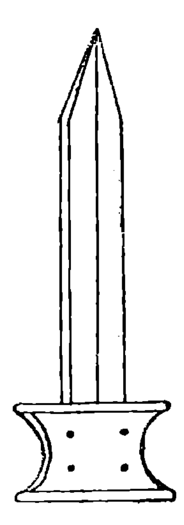
وقد جمعت من هذه المحاصيل والمواد عينات فقدتها للأسف بسبب إهمال رفاقى فى الرحلة من سواكن إلى جدة ، وكان من بينها ثمار من فاكهة تسمى **اللالوب** جلبت من سنار وكردفان ، وهى فى حجم بيضة الحمامة حين تكون جافة ولونها أصفر داكن ، ولها نواة كبيرة تحيط بها مادة لحمية رقيقة فيها حرافة لطيفة . ويأكلها القوم ويلتذونها كأطيب الفاكهة ، ويعتقدون أنها دواء لانتفاخ الأمعاء الذى يشكو منه الكثير منهم . ولها اسم آخر هو « تمر البر » أى تمر السودان . وهى ثمرة شجرة كبيرة فيما يقال ، ولأهل كردفان ولع شديد بها . وقد رأيت فى القاهرة عينة من فاكهة تدعى الزقوم مجلوبة من سهول الرملة بفلسطين ، وقد خيل إلىّ أنها اللالوب بعينه .

ويؤم شندى يومى الجمعة والسبت — وهما موعد السوق الكبيرة — آلاف الناس من بلاد تبعد عنها أياماً ثلاثة أو أربعة ، وجلهم يجلب الماشية ليبيعها .

(*) يطلقون هذا الاسم أيضا على الـ Cinnamon ، ويسمونها هنا القرفة الهندى .

ويلوح لى — بعد أن تأملت سحن رواد السوق — أن هؤلاء العرب جميعهم من سلالة واحدة ، إلا أن البدو الجمليين الخلص القادمين من الصحراء الشرقية أكثر بياضا من سكان ضفاف النيل ، ولعل ذلك راجع إلى تحاشيهم الاختلاط بالزنجيات أو اتخاذ الخليلات منهم ، وقد أدهشتنى قسمات الكثيرين من هؤلاء الجمليين ، فقد كانت شبيهة كل الشبه بقسمات بدو شرقى شبه جزيرة العرب، ويزيدون عليهم قصر لحاهم وخفة شعرها . ورأيت فى السوق أفراداً من قبيلة للجعليين تسكن الحدود الجنوبية للشكرية ، وكانوا يلبسون قبعات مصنوعة من القش ، عالية مدببة عريضة الحوافّ مربوطة برباط من الجلد تحت الذقن ، ويرتديها الرجال منهم والنساء على السواء .

وكان المعروض للبيع فى يوم السوق الكبيرة زهاء خمسمائة جمل ، ومثلها من البقر ، ومائة حمار ، وعشرين أو ثلاثين حصاناً . ويتخذ كل تاجر مكانه فى أحد المتاجر المفتوحة أو فى ساحة السوق ويعرض على المشترين بعض بضاعته، ولاغرابة فى هذا فإن أغنى تجارهم لا يأنفون من الاتجار بأصغر السلع قيمة . ويؤلف التجار المصريون والسواكنيون والسناريون والكردفانيون حلقات منفصلة يعرضون فى وسطها عدداً كبيرا من الرقيق للبيع . ويجلب الريفيون للسوق الحصر والسلال وجلود الثيران وغيرها ، والفخار الخشن الصناعة ، ورحال الإبل، والقصاع الخشبية، إلى غير ذلك من مصنوعاتهم الوطنية . ويشتغل بالسوق نحو اثنى عشر صانعاً من صانعى الأحذية أو على الأصح القادمين من الريف ، وفى وسع الصانع منهم أن يصنع لك زوجا منها فى ظرف ساعة . وأشغال الجلد بديعة الصنع ، ويدبغ الجلد بالقرض ، وهو ثمر السنط . ويقال إن البدو المقيمين حول سنار أمهر الدباغين كافة ، كذلك يبيعون فى السوق الجربان (جمع جراب) ، ويحمل فيها شتى المتاع والبضاعة فيما خلا الذرة والصمغ العربى والملح ؛ فهذا كله يحمل فى القاطف . ويؤم شندى الحدّادون القادمون من الريف ، ويصنعون ويبيعون المدى الصغيرة التى يحملها القوم ، وطول المدية منها نحو ثمانى بوصات ، وتحمل فى غمد من الجلد مشدود إلى المرفق الأيسر ، ولها حدان كمدى البرابرة



وتـكتظ السوق بروّادها ويشتد فيها القيظ ويثور الغبار وقت الظهيرة — وهى أحب أوقات البيع والشراء عندهم — حتى إننى كنت أعجز عن البقاء فيها ساعات متصلة ، وكنت آكل أحد رفاقى بما أحمل من بضاعة قليلة . وينبث فى أرجاء السوق فلاحون جلسوا بجوار المـاء يبيعون منه للظماء من روّاده ، وسعر الماء حفنة من الذرة لشربة شخصين ، ومن الفقراء من يجعل فى فناء داره سبيلا للماء يشرب منه من شاء مجاناً ، ومنهم من يلحق ببيته زاوية لأن البلد يخلو من المساجد .

ولم أر فى شندى من مهرة الصناع سوى الحدادين ، والصائغين الذين يصنعون الحلى الفجة للنساء ، والدباغين ، والخزافين ، والنجارين . وإذا أراد رجل منهم أن يبنى بيتاً قام هو وأقاربه وعبيده بالبناء يعاونهم بعض الفعلة ، ثم طلب إلى النجار أن يسقف البيت ويصنع أبوابه . ويصنع هؤلاء العرب بأنفسهم كافة ما يلزمهم فى شتى مرافق الحياة المادية ، شأنهم فى ذلك شأن بدو الصحراء .

وليس بشندى نساجون ، ولـكنك ترى النساء والصبية وكثيراً من الرجال لا تفارق أيديهم المغازل ، وهم يغزلون خيوط القطن التى يبيعونها لأهل بربر . وتشبه مغازلهم مغازل أهل مصر والشام . ويزرع القطن فى هذه الأرجاء ، وهو من المحاصيل التى تنتجها كل البلاد الواقعة على ضفاف النيل ، وإن كان إنتاجها منه ضئيلا فيما عدا الدامر ومنطقة سنار .

ويقوم السماسرة بتجارة الجملة فى شندى ، وأكثرهم الدناقلة ، ويبدو أنهم أذكى التجار وأحذقهم فى هذا البلد . فما إن تصل إلى المدينة قافلة حتى يتقاطر السماسرة على بيوت التجار . ولكن فى الفريقين — باعة وسماسرة — من الجشع والحرص ما يمنعهم من إبرام صفقاتهم فى سرعة ناجزة . بل إن كل فريق منهم يحاول — حتى بعد إبرام الصفقة — أن يغش صاحبه قبل تسليم البضاعة وأداء الثمن . وإذا أراد فريقان أن يدخلا فى اتفاق تجارى ذى بال شاع الخبر وذاع فى أرجاء البلدة ، وكثيراً ما حال حسدالتجار الآخرين دون عقده . وليس للسلع ثمن محدد ،والأثمان الدارجة عبارة لا محل لها هنا، فكل تاجر يبيع بضاعة بقدرما يتاح له أن يغش المشترى ويرشو السمسار.وقدألف القوم أن يؤدوا فوراً ثمن الشراء،أومايوازيه بضاعة ، وأطول أجل للدفع رأيته كان يومين . وحين يبرمون الصفقة يظهر لك فى جلاء أن البائع والمشترى كلاهما يتشكك فى ذمة صاحبه . وإذا أرادوا إكراه مدين على تسديد دينه استعانوا عادة بعبيد الملك الذين يقومون بمهمة البوليس . على أن الرجل الذى لا يحميه قوى ولا يسنده أصحاب تضيع عليه معظم بضاعته لا محالة إذا تركها تخرج من يده دون أن يتسلم ثمنها فوراً .

وسأسوق إلى القارىء فيما يلى بياناً موجزاً بشتى السلع التى تتبادلها شندى مع مصر وكردفان وسنار وسواكن . على أن قصر مقامى بهذا البلد لم يتح لى جمع أوفى المعلومات وأصحها عن هذا الموضوع .

إن أهم ما تستورده شندى من مصر هو **السنبل**(*) **والمحلب** ، وكلاهما يشتد عليه الطلب فى السودان ، فيتعطر القوم بأولهما ويتطيبون ، ويتبلون طعامهم بالثانى وقد يتداوون به . ويبيعهما التجار مخلوطين معاً بنسبة ثلاثة أجزاء من السنبل إلى

(*) السنبل هو Valeriana Celties أو Spiga Celtica عند الإيطاليين . ويزرع معظمه فى الولايات الجنوبية من الأملاك النمساوية ويصدر من البندقية وتريستا . أما المحلب فيجلب من أرمينيا وفارس،ويصدر من أزمير وغيرها من موانىء آسياالصغرى . ويبدو أنه ثمر فصيلة من فصائل التليا Tilia .

جزء من المحلب . وحمل الجمل يشتمل عادة على نحو ٣٥٠ رطلا من السنبل و ١٢٠ من المحلب ، ولكنه قد يشتمل على مقادير متساوية من الصنفين . ويطلق على هذا الحمل — بصفة خاصة — اسم « زاملة » أى الحمل المفعم الكبير . ويجلب كل تاجر ذى شأن زاملتين من مصر ، وكانت القافلة التى صحبتها تحمل ثمانى منها موزعة على تسعة وثلاثين جملا هى مجموع الدواب . ومن اليسير بيع الزاملة منها جملة لتجار سنار الذين يؤدون ثمنها ريالات ودموراً وعبيداً .

والطلب على هذين العقارين فى غرب إفريقية أقل منه فى جنوبها ، وفى البلاد الواقعة إلى الشمال من الحبشة ، وإلى الجنوب من سنار ، وفى بلاد الحبشة نفسها ، يستعملهما الناس بصفة دائمة ، وتصدر منهما إلى سوق الحبشة المقادير الكبيرة بحراً من جدة إلى مصوع فضلا عما يجلب لها براً وثمنهما هنا أغلى منه فى القاهرة ٢٥٠٪ على الأقل . وقد يمضى التجار المصريون بأحمالهم قدماً إلى سنار إن لم يجدوا لها فى شندى تصريفاً عاجلا .

الصابون . يصنع الصابون الذى يمون مصر كلها وبلاد العرب فى غزة ويافا وحبرون (الخليل) والقدس . ولم تنتج مصر للآن صابونا جيداً ، وفى أسيوط عدة مصابن ولكن صابونها ردىء لأنها تصنعه من زيت الخس لا من زيت الزيتون . على أن الباشا أسس مؤخراً مصبنة فى الدلتا يشرف عليها إيطالى ماهر ، ويجلب إليها الزيت من جزر الأرخبيل ، أما القلى فمن بحيرات النطرون . والصابون سلعة موفورة الربح شديدة الرواج فى جميع أرجاء الجنوب ، ولكنها تعرض التاجر الذى يحملها للجاجة السائلين من شتى الطبقات ، فهم يلحون عليه فى طلب قطعة من الصابون يغسلون بها ثيابهم ، وليس من الحكمة دائماً أن يصرفهم فارغين . ويباع الصابون فى شندى بالقطعة دون نظر إلى حجمها ، وكذلك الحال فى السكر ، فالقمع الذى يزن أربعة أرطال تقريبا ، والذى يباع فى مصانع التكرير بالصعيد بسدس ريال ، يباع فى شندى بريال ، ويعزى هذا الغلاء إلى أن فى نقله مغامرة كبيرة ، فإن مطراً مفاجئاً يهطل فى الطريق قد يأتى على الشحنة كلها .

ويقبل القوم على السكر فى هذه الأنحاء يهدونه إلى العظماء والنساء(*) . ويأكلونه وحده دون أن يدخلوه فى حلوى أو طعام .

ومن أهم السلع المستوردة من مصر التاكات ، وهى « كمبريت » خشن أزرق الصباغ يبطن به النساء — لاسيما نساء البدو — أفضل ملاياتهن . ويباع قطعاً صغيرة كانت القطعة منها وأنا بشندى تساوى ريالا . وهو أروج السلع الصغيرة ، ويشتريه تجار كردفان على الأخص . ويقبله القوم أداة للمقايضة أينما سرت ، وتستطيع أن تعطيه للحكام المحليين عوضاً عن الريالات إذا أعوزتك . كذلك يستورد القماش القطنى الأبيض ذو الإطار الأحمر وهو من صنع المحلة الكبرى بالدلتا ، ويرتديه عظماء القوم لاسيما فى سنار ، والملايات القطنية ذات الخطوط الزرقاء ، وتلتف بها الموسرات من النساء عند النوم . وتحمل قوافل دارفور العائدة من مصر هدايا الملوك والعظماء من الأقمشة الحمراء والمخمل والساتان والنسيج الخفيف الموشى بالذهب من صنع ليون وفلورنسة ، ومعها أنواع شتى من البفتة والكمبريت الإنجليزى . والإقبال عظيم على الكتان المنسوج فى أسيوط ومنفلوط ويصنع منه القوم قمصهم ، ولكنه أغلى من أن يروج بين العامة . ومن السلع الهامة التى تجلب من مصر جلود الغنم المدبوغة بأصوافها ، ويستعملونها فرشاً لسروج الخيل ورواحل الجمال وبرادع الحمير ، ويفرشونها فى غرف نسائهم للجلوس عليها . وقد تصبغ باللون الأزرق أو الأحمر ، وتحمل إلى أقصى البلاد غرباً وجنوباً . وما من شيخ لقبيلة أو كبير فى قرية إلا ويقتنى هذه الجلود المدبوغة ، ومعلوم أن أغنام الجنوب لا صوف لها .

المسابح والعقود . ذكرت أن المسابح والعقود تستعمل فى هذه الأقطار أداة للتعامل . وأروجها مسابح صغيرة من الخشب مصنوعة فى صعيد مصر ، ويقبل عليها البدو والفلاحون على الأخص . وغير هذا نوع اشتهرت بصنعه دندرة ، ويصنع من نوى الدوم ، ويحمله من يبتغون الظهور بمظهر التقى والورع . وتجلب

(*) تطلب ألمع غوانى شندى قمع سكر صلة من عشاقهن .

من القدس أنواع شتى من الخرز الأحمر والأسود ، ولا تكاد تجد واحداً من القوم — رجلا كان أو امرأة أو طفلا — لا يحمل فى عنقه أو ذراعه أو يده عقداً أو عقدين من الخرز . ولا يلقى الخرز من الزجاج هنا الرواج الذى يلقاه فى الحبشة ودارفور ، وإن كانت السوق لا تخلو منه . وأفضل أنواعه البندقى ، ولكن معظمه مصنوع فى الخليل (أو حبرون بجوار القدس) فهى التى تمون بالزجاج جنوب الشام كله وجل مصر وبلاد العرب . أما خرز بوهيميا الزجاجى الأبيض — ويسميه الإيطاليون Contaria d' Olanda — فسوقه دارفور . ويباع فى القاهرة سنوياً من خرز البندقية الزجاجى من أربعمائة صندوق إلى خمسمائة ، وزنة الصندوق منها عشرة قناطير ، وثمن القنطار يتراوح بين خمسين بتكا ومائة ، أى بين أربعة جنيهات وثمانية . وقد أتيح لى وأنا بجدة أن أشهد الخرز المزمع تصديره إلى أسواق الحبشة ، فعددت منه على الأقل اثنى عشر صنفاً ، لكل منه اسمه الخاص ، منها « أم شهير » و « مرج الملوك » و « عين القحبة » و « ألوان » و « خمس جنوس » و « حسن بك » و « عثمان بك » وهكذا ، وكلها أنواع متباينة . فكل إقليم فى الحبشة يؤثر نوعا من الخرز الزجاجى لا يلقى إقبالا فى غيره . ويجلب التجار السواكنية إلى شندى ضرباً من الخرز يسمى « الريش » ، وشراؤه وقف على تجار كردفان ، وهو أهم سلعة يقايضون بها على الرقيق فى بلادهم . كذلك يلقى هذا النوع رواجاً فى دارفور ودار صليح وبرقو غربى دارفور ، ويجلب الريش من جزر الهند الشرقية ، ولا سيما من سورات ، وهو كرات منقوبة من العقيق الملون فى حجم الكراز الصغير ، شديدة الشبه بالبلى الذى يلعب به الأطفال فى أوربا . وكانت الألف ريشة منه تساوى فى جدة خمسة عشر ريالا إسبانياً ، أما فى شندى فتباع بثلاث أوقيات ، أعنى بثمانية وأربعين ريالا ، وقيل لى إن الألف فى كردفان تشترى ستة من الجوارى يبعن فى شندى بمائة وعشرين ريالا . ويلبس النسوة الريش عقوداً ، وتعد تجارته من أربح ضروب التجارة لسهولة نقله واحتمال إفلاته من رقابة شيوخ القبائل والأمراء .

المرجاد . تجلب إلى سوق شندى مقادير يسيرة من المرجان الردىء . ويحلى

أفراد القبائل الحاكة أعناقهم به وبالكهرمان . ويجلب « المرجان الكذاب » من البندقية ، وأهم سوق له الأقطار الغربية ، ولا يروج من الكهرمان هنا إلا نوعه الشفاف .

الورق . إن ورق جنوة والجهورن ذا المخيطات الثلاث Papier de trois limes سلعة قليلة الرواج هنا، والإقبال عليها أشد فى الأقاليم الغربية التى تحملها إليها قوافل دارفور . على أنك تجد الورق فى متاجر المصريين أنى طلبته . كذلك تجد المقادير الصغيرة من **القصدير** قضبانا رفيعة ، و**النحاس الأحمر** القديم، لاسيما الحلل الكبيرة أو الدسوت والقدور التى يشتريها جلابو الرقيق ، والسلك الأصفر الذى يتهافت الناس عليه فى هذه الأرجاء جميعها ليحلوا به الرماح بلفه على أجزاء من مقابضها .

أما **السلع الحديدية** فأروجها أمواس الحلاقة، ويساوى الموسى منها ثلاثة بنسات فى ألمانيا موطن صناعتها ، وفى القاهرة يباع الموسى باثنى عشرة بارة بسعر الجملة . ثم المبارد التى يقلب معظمها مدى ابتغاء الحصول على شفرات من الصلب متينة ، والكستبانات والمقصات والإبر من أحسن الأنواع المصنوعة فى نورمبرج ، والمسامير والزناد لقدح الشرر ، والسيوف من النوع الذى وصفت ، والذى يعم استعماله أرجاء السودان إلى شرقى فزان ، وموطنها زولنجن بألمانيا ، ويباع منها لتجار الجنوب فى سوق القاهرة زهاء الثلاثة آلاف كل سنة . ويباع **الكحل** كتلا صغيرة ، و**القطران** تطلى به قرب الماء لكى لا ترشح ، وتطلى به ظهور الإبل وقاية لها من الجرب أو علاجا له ، ثم **الحلى** من الفضة تتزين بها النسوة كالأساور والأقراط وما إليها ، وتشترى قوافل دارفور من مصر المقادير الكثيرة منها ، والأجراس الدقيقة التى يحلون بها لجام الجمل ورسنه فى سنار ودارفور ، كذلك يجلب لهذين الإقليمين **المركزيت** «**روح التوتيه** ».ومن السلع الهامة التى يتجر فيها المصريون المرايا المذهبة الغطاء من صنع البندقية وتريستا، ومساحة المرآة منها أربع بوصات مربعة ، وبعضها مستدير بنفس الحجم وبمقبض طويل ، ويصنع فى

القاهرة ، ولا تتزوج فتاة فى هذه البلاد دون أن تزين حجرتها بمرآة من هذه المرايا .

ومنذ استوطن المماليك دنقلة جرت القوافل المصرية على أن تجلب لشندى بعض ما يرتدون كالأقمشة والأحذية وما إليها فيشتريها التجار الدناقلة . وكان الباشا إلى عهد قريب قد حظر التجارة المباشرة بين صعيد مصر ودنقلة ، فكان التجار يؤثرون هذه الطريق الطويلة على التعرض لمصادرة بضاعتهم . ولما نشبت الحرب بين المماليك وعرب الشايقية أرسل المماليك جل نسائهم إلى شندى صوناً لهن من مخاطر حرب سجال ، ثم ردوهن بعد ذلك إليهم ، ولكنى رأيت بعضهن ما زلن باقيات بالمدينة حين جئتها ، وكن يثرن السخرية بصلفهن وغرورهن .

ويستخدم التجار المصريون رءوس أموال صغيرة جداً فى تجارتهم ، ولست أظن أن أحداً منهم تساوى بضاعته أكثر من ألف وخمسمائة ريال إسبانى . وأسرة علوان التى جئت فى صحبتها من دراو ، والتى خرج من أفرادها فى القافلة نحو اثنى عشر ، هذه الأسرة لم تستثمر فى تجرتها هذه أكثر من ألف ريال . وأكثر التجار لا يملك إلا مائتى ريال أو ثلاثمائة ، بل قل أن يكون هذا المبلغ ملكا خالصاً لهم ، فهم إما يقترضونه من الصعيد بفائدة باهظة ، وإما يشترون بضاعتهم نسيئة من إسنا أو قنا أو القاهرة . وسبب ذلك أن التجار المصريين المحترمين حقاً يربأون بأنفسهم عن الاشتغال بمثل هذه التجارة . والناس — حتى فى مصر — ينظرون إلى الرحلة للسودان نظرتهم إلى مغامرة يائسة لا يقتحمها إلا كل مفلس أو مشرف على الإفلاس ، وهم يعدون تجارة الرقيق أو « التسبب فى لحم بنى آدم » كما يسمونها تجارة خسيسة لا تشرف صاحبها . على أن أهل دراو لا يعدمون من يقرضهم المال ، ولولا انغماسهم فى الرذيلة والفجوز ، ولولا تبديدهم أكثر أرباحهم وفى السكر والمريدة ، لاقتنوا من وراء تجارتهم الثروة الطائلة . وهم يقترضون المال فى صعيد مصر بفائدة تبلغ ٥٠٪ فى الرحلة طالت أو قصرت ، ويرهنون عادة بيوتهم أو أطيانهم ضماناً لسداد القرض ، كذلك يرفع ثمن ما يشترون فى مصر من بضاعة مؤجلة الدفع إلى هذه النسبة ، على أن يتعهدوا بأداء ثمنها حال رجوعهم . ويدرب التجار الدراويون أبناءهم على هذه التجارة منذ نعومة أظفارهم ، وكان فى القافلة التى

رحلت فيها من دراو عدد من الغلمان — لم يكد الغلام منهم يبلغ العاشرة — يصحبون آباءهم ، ومتى بدأ أحدهم هذه التجارة مرة ألف الخروج بعدها كل سنة في رحلتين على الأقل حتى تتقدم به السن . وقد رأيت في دراو أفراداً كانوا يباهون بأن أجداد أجدادهم كانوا تجاراً في قوافل سنار .

ويشتهر تجار دارفور في القاهرة بأنهم أسخى في الدفع من تجار طريق القوافل الشرقية ، وهم يودعون في تجارتهم رأسمال أكبر ويؤتمنون على قروض أوفر لاسيما في أسيوط حيث يبتاع الكثير منهم بضاعتهم . ومن اليسير على القارىء إذا راجع ما ذكرت عن أثمان السلع المختلفة أن يدرك أن أرباح المصريين من وراء هذه التجارة باهظة ، والواقع أنه ما من سلعة مصنوعة في مصر أو أوربا إلا وتباع في شندي بضعفي ثمنها الأصلي في مصر أو بثلاثة أضعافه ، وكذلك تبلغ نسبة الربح في حاصلات الجنوب حين تباع بمصر . نعم إن العقبات التي تعترض سبيل التجارة ثقيلة مرهقة ، فمن جشع الأمراء الذين تمر القوافل بأملاكهم ، إلى نفقات النقل بالصحراء ، إلى تكاليف إطعام العبيد ، إلى إتاوة العبابدة وما يفرضه باشا مصر (*) من مكوس على التجارة ، ولكن أرباحها برغم كل ذلك عالية جداً ، ولست أشك في أن مجموعة طيبة من السلع تشحن من دراو إلى شندى تغل من الربح الصافي — بعد بيع البضاعة المجلوبة في العودة بدراو — ما نسبته ١٥٠ ٪ على أيسر تقدير . بل إنني سمعت أن الزاملة من السنبل والمحلب غلت في القاهرة فائدة قدرها ٥٠٠ ٪ بعد المقايضة عليها بالرقيق في سوق شندى . ولقد وجد التجار المصريون مؤخراً أن الريالات أربح السلع الأوربية لهم لأنهم يستطيعون أن يشتروا بها تواً ما شاءوا من إبل . على أن هذا الإيثار للريالات رهن باستمرار التهافت على الإبل في مصر لاستخدامها في النقل من قنا إلى القصير وفي تموين الجيش التركي بالحجاز .

وقلّ من أغنياء التجار في مصر من رحل إلى شندى برأس مال كبير ، ومن

(*) تفرض الحكومة اليوم ضريبة قدرها ستون قرشا على كل عبد يجلب لصعيد مصر . ويحتكر الباشا شراء أهم السلع كالرقيق والعرديب وريش النعام والنطرون (من دارفور) ، فهو يدفع فيها لتجار السودان ثمناً حدد أقصاه ، ثم يبيعها على هواه بربح باهظ .

هذه القلة بكير أغا وهو رجل أزميرى المولد غادر مصر من ثمانى سنوات أو عشر وبصحبته عشرون راحلة محملة ، ولكنه مات بشندى فاستولى ملكها على ماله وبضاعته لقمة سائغة ، ولم يقدم بعده أحد على مثل هذه المحاولة . وجلة المال الذى يستثمره التجار المصريون فى تجارة السودان يبلغ حسب تقديرى من ٦٠٫٠٠٠ إلى ٨٠٫٠٠٠ ريال ، ولكن بما أن هذا المال يغل ربحاً مرتين وأحياناً ثلاث مرات فى العام ، وذلك تبعاً لعدد الرحلات ، فإن مجموع قيمة الواردات إلى هذه البلاد من مصر يقدر بنحو ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ ريال فى السنة . أما الريالات فلا يعاد تصديرها من السودان ، فهى إما توزع أو يخزنها الملوك وسواهم من الأفراد ، فالسودان إذن مستهلك دائم لشطر من فضة أوربا .

وفى الإمكان النهوض بهذه التجارة نهوضا كبيراً ، وذلك بتنظيم قيام القوافل (مرة كل شهرين من دراو مثلا) . وبإقامة المصانع فى بربر وشندى . أما اليوم فإن القوافل القادمة من شتى البلاد قد تظل الشهور فى انتظار غيرها من القوافل التى لا تستطيع بيع بضاعتها إلا لها . صحيح أن الصحراء النوبية لا تخلو من جماعات صغيرة من التجار المغامرين يعبرونها كل أسبوعين تقريباً ، ولكن هؤلاء يتجرون فى كل بلد مروا به على الطريق ، وقل أن تجد من السلع المصرية فى سوق شندى — وكذلك فى سوق سنار فيما أظن — شيئاً مذكوراً إلا بعد وصول القوافل الكبيرة ، وهذه لا تبرح دراو اليوم فى مواعيد منتظمة . أما قافلة سنار فتخرج من الصعيد مرة فى العام وتعود إليه فى العام التالى . وهى تلم ببربر والدامر وشندى وقد تستغرق شهرين أو ثلاثة فى رحلتها من دراو إلى سنار . وعدتها ثلاثمائة رجل أو أربعمائة ، وبضع مئات من الجمال ، ويصحبها فى إيابها كثير من تجار سنار وعلى الأخص عملاء ملك سنار ووزيره وهما أكبر التجار فى هذا الإقليم . هذه القافلة هى التى خرج فيها فى العام الماضى مبعوث باشا مصر إلى سنار ، وقد أوفده فيما يقال ليحرض الملك على المماليك ، وليتجسس الأرض ويتعرف هل فى الإمكان غزوها بجيش ترکى . وما من شك فى أن السفير لقى الإهانة والتحقير برغم ما تؤكده حكومة مصر من نقيض هذا ، وما من شك فى أنه لم ينج فى الطريق من الأذى

إلا بشق النفس. وقد حمل من الهدايا إلى ملك سنار الشيلان وقطع الموسلين والأسلحة وغيرها مما يقدر ثمنه بثلاثة آلاف ريال أو أربعة ، ورد ملك سنار على هذه الهدية بإهداء الباشا ثلاث جوار قبيحات أو أربع ، وعدداً من جلود الفهود ، وقط زباد ، وقردين ، وشبل أسد مات في أثناء عبوره الصحراء؛ والهدية كلها لا يتجاوز ثمنها في سنار ثمانين ريالا . وقد علمت في أثناء مقامي ببلاد العرب أن بعثة أخرى أوفدها محمد علي إلى الحبشة لقيت مصيراً أسوأ من هذا ، ذلك أن محمد علي – بعد أن استولى على ثغر مصوع الذي كان لشريف مكة فيه قبل هذا جاب للمكوس [1] ، وبعد أن أصبح بهذا الاستيلاء جاراً للحبش – رأى أن الضرورة تحتم عليه التودد إلى ملك غندار ليفوت بذلك على المماليك أي محاولة من هذا القبيل ، ناهيك بما يجنيه من ذيوع صيته إلى مجاهل إفريقية السحيقة فتطيب بذلك نفسه وترضى كبرياؤه . على أن الراس ولد سلاسي أوقف السفير في أكسوم على نحو ما أوقف مستر سولت قبل سنوات ، وأخذ سلاسي الهدايا المرسلة إلى الملك ، وأهدى الباشا عوضاً عنها قميصاً أبيض من الكتان (وهو رداء الحبش) ومائة ريال إسباني يعينه بها على نفقات الحملة الوهابية [2] .

وتصل القوافل السنارية إلى شندى كل ستة أسابيع أو شهرين ، فإذا جلبت القافلة الذرة كانت رواحلها خمسمائة أو ستمائة ، أما إذا جلبت البضائع والعبيد فقط فقل أن تعدو رواحلها المائة . وأهم ما يستورد من سنار الدمور الذى ينتشر استعماله بين الناس جميعاً لا على ضفاف النيل حتى دنقلة فحسب بل في كردفان ومعظم دارفور وفي الحبشة وجميع أرجاء النوبة شرقي النيل حتى تبلغ البحر الأحمر .

---

(١) يلقب باشا جدة بوالي جدة وسواكن والحبش ، وإن لم يملك من أمر الحبشة شيئاً اللهم إلا المكوس التي تجبى في مصوع وسلطة القضاء الاسمية في هذه المدينة . ومنذ أخضع الوهابيون الحجاز وانتزعوا جدة من الاتراك بالاتفاق مع غالب شريف مكة أخذ غالب مصوع لنفسه .

(٢) درج الشرقيون على أن تكون هديتهم كسوة ومصروفاً .

ويتهافت الناس على هذه السلعة ، لذلك يقايضون بها على أى سلعة أخرى تقريباً . ومناسج القطن بسنار والباقيرمى (غربى دارفور) تزود أكثر بلاد إفريقية الشمالية الشرقية بالقماش .

وثانى السلع فى تجارة سنار هو الذهب ، ويبتاعه تجار سنار من التجار الأحباش ، ولكنى لم أتحقق بالضبط من موطنه فى غرب الحبشة . ويلوح أن أهم أسواقه هى راس الفيل ، وهى محط على طريق القوافل من سنار إلى غندار ، وتبعد عن سنار مسيرة أربعة أيام . ويتردد التجار السناريون اليوم كثيراً على هذا الطريق ، كذلك تسلكه جماعة التجار الأحباش (واسمهم الجبرت) ويبدو أنهم أهم من يتجر من الأحباش فى العبيد والذهب . ولم ينبئنى أحد بنبأ تاجر مصرى واحد مضى فى رحلته قدماً حتى بلغ رس الفيل ، ذلك أنه وإن كانت الطريق غير محفوفة بالخطر ، إلا أن الناس فى هذه البلاد يخشون الخروج فى رحلات نائية ما لم يكونوا فى صحبة لفيف كبير من مواطنيهم . فالغيرة شديدة والتحاسد عظيم بين طوائف التجار ، وما اشتهروا به من غدر وخيانة يمنع المغامرين من التجار أن يطمئنوا — وهم فرادى — لحسن نواياهم .

ويلم الجبرت بسنار طلباً للعبيد السود على الأخص ، وعندى من الأسباب ما يحملنى على الظن بأن من السهل على المرء فى وقت السلم أن يسافر فى الطريق من سنار إلى غندار ماراً براس الفيل ، ومن غندار إلى الساحل دون أن يتعرض للخطر . ويشترى التجار السواكنيون على الأخص مايجلب من سنار من ذهب ، ويحملونه إلى جدة حيث يؤدى ثمناً للبضائع الهندية ،وقل أن يشتريه التجار المصريون لقلة ما يغله من ربح . وتساوى أوقية الذهب الخالص فى سنار اثنى عشر ريالا ، وفى شندى ستة عشر ، وفى سواكن عشرين ، وفى جدة اثنين وعشرين . وفى وسع تجار سواكن أن يشتروا من شندى سلعاً أربح لهم من الذهب ، ولكنهم يؤثرونه عليها لسهولة نقله وإخفائه تهرباً من المكوس التى تجبى فى الطريق .

كذلك يجلب تجار سنار العبيد إلى شندى ، ولم يبق أمامهم سوى هذا الطريق

بعد أن قطع طريق القوافل المباشر من سنار إلى كردفان بفعل غارات عرب الشلك وسرقاتهم عند عبور القوافل للبحر الأبيض (النيل الأبيض) . وهؤلاء العبيد إما من الحبش أو النوبا (واحدهم نوباوى) ، أما الأولون فجلهم جوار من شعوب الجلا ، وفيهم قليلات من الأمارا(*) . على أن ما ترسله شندي إلى الشمال من هؤلاء الحبشيات قليل على وجه العموم ، فإن الملوك يشترون أفضلهن لحريمهم . ويمكن الحصول على الجوارى الحبشيات فى مصر وبلاد العرب بثمن أرخص ، وذلك بشرائهن من التجار الجبرت القادمين من مصوع والذين يبيعونهن فى جدة . وعدد الجوارى الحبشيات اللاتى يجلبن سنوياً من سنار إلى سواكن أو مصر لا تزيد على المائة حسب تقديرى . وقد اشترى المماليك الكثيرات منهن مؤخراً ، ولا غرو فإنهن يمتزن عن سائر السود بالجمال وحرارة الحب والوفاء لسيدهن متى استطاع أن يغريهن بحبه .

ويطلق لفظ النوبا على جميع السود القادمين من بلاد العبيد جنوبى سنار . ويمتد إقليم سنار رحلة عشرة أيام بعد المدينة على ما علمت من تجارها ، واتجاهه جنوبى وجنوبى شرقى ، وتسكنه كله قبائل حرة من العرب . ويغير هؤلاء العرب على الجبال الجنوبية ويسبون أطفال الوثنيين ، وهؤلاء العبيد النوباويون — ويجب أن نسلك فى عدادهم أيضاً العبيد المولودين فى إقليم سنار من آباء زنوج وأمهات حبشيات ، والذين يبيعهم بعد ذلك أصحاب آبائهم — هؤلاء العبيد وسط بين السود والحبش ، فلونهم أفتح من لون الزنج ، وهو ضارب إلى حمرة النحاس ، ولكنه أدكن من لون العرب الأحرار من أهل سنار وشندى . وفى قسمات وجوههم ما ينم عن أصلهم الزنجى فى جلاء ، ولكن فيها كذلك شيئاً من التناسق . فأنوفهم وإن صغرت عن أنوف الأوربيين لا تبلغ فى انبساطها أنوف الزنوج ، وشفاههم أرق وعظام وجناتهم أقل بروزاً ، وشعور بعضهم صوفية القوام ، ولكنها فى أكثرهم شبيهة بشعور الأوربيين ، غير أنها أقوى ، وهى دائماً

(*) هكذا يلفظ العرب هذه الكلمة . فهم لا يلفظونها أمهره Amhara كما زعم بروس . والاسم الذى يطلقونه على الأحباش « نقطى » لا « حبشى » .

جمدة . وفى باطن أيديهم طراوة تميزهم عن الزنوج الخلص الذين تحس بأيديهم قاسية كالخشب .

ويؤثر الناس فى مصر وبلاد العرب عبيد نوبا هؤلاء على من سواهم فى العمل البدنى ؛ فأخلاقهم طيبة ، ويزيد ثمنهم فى شندى ومصر على ثمن الزنوج عشرين فى المائة . أما العبيد الأحباش فمعروفون بعدم صلاحيتهم للعمل البدنى ، ولكنهم مطلوبون لأمانتهم ، وهم من خيرة الخدم فى البيوت ، وكثيراً ما يعملون كتابا ، ولا غرو فهم أذكى من السود . والعبيد النوباويون أسلم أبداناً فيما يقال ، وهم أعصى على المرض وأقوى على احتماله من الحبشى ، وجلهم يصدر إلى مصر ، ولكن بعضهم يرسل إلى سواكن .

العاج . يشترى التجار المصريون سن الفيـــل بمقادير صغيرة ، ولعل هذه التجارة كانت فيما مضى أروج منها اليوم ، أما اليوم فالطلب على العاج قليل فى مصر ، وربما كانت علة ذلك أن أوربا تجلب ما تريده منه بثمن أزهد من بلاد البربر وجزر الهند الشرقية . على أن جلب العاج من دارفور إلى مصر ما زال يحتفظ ببعض أهميته ، وإن كانت سوقه كثيراً ما تـكسد فى مصر كساداً تاماً .

ويخيل إلى أن الزنوج لم يتعلموا قط استئناس الفيل ، فهم يوقعونه فى الحفر أو يقتلونه بإطلاق وابل من النبال عليه من فوق الأشجار التى يمر تحتها ، ويؤكل لحم الفيل قرب سنار فيما يقال .

قرن الخرتيت . يسمى الخرتيت فى بلاد الزنج «أم قرن» ، ومن الجلى أنه الأصل فى وحيد القرن الخرافى unicorn . وقد وصف لى العرب الخرتيت مراراً فقالوا إنه أشبه بالبقرة الـكبيرة لها قوائم غليظة وذيل قصير وقرن طويل واحد فى جبهتها(*) وجلد كالحراشف الـكبيرة قاس كأنه الحديد . وكلما وصفت لهم وحيد

(*) إن عجز العرب عن التمييز بين المقادير والأبعاد لا يحتاج إلى بيان ، فهم قلما يتحرون الدقة فى استعمال الألفاظ الدالة على الطول أو القصر ، وعلى الـكبر أو الصغر ، وعلى العلو أو الانخفاض ، وعلى العمق أو الضحولة الخ . . . وهم إذا وصفوا شيئاً غالوا فى تضخيمه أو تصغيره غلواً غير معقول .

القرن وسألتهم هل رأوا مثل هذا الحيوان ذى القرن الطويل ذكروا لى أنه الخرتيت أو « أم قرن » . ويسكن الخرتيت منطقة سنار ولكنه لا يرتاد أقاليم النيل شمال هذه المنطقة . ويبدو أن حده الشمالى الذى لا يتجاوزه — شأنه فى ذلك شأن الفيل — هو الجبل الواقع إلى الشمال من قرية أبو حراز على مسيرة يومين من سنار ، ويمتد هذا الجبل حتى يحدق بالنهر فيعترض المرور على ضفافه . ولا يعرف الخرتيت ولا الفيل فى شندى ولا الحلفاية ، وهى على يومين جنوبيها . ويصنعون فى القاهرة من قرن الخرتيت زخارف يحلون بها مقابض السيوف والخناجر ويطعمونها بها على طريقة المماليك . وثمن القرن غال ، وقد رأيت منه قطعاً طول القطعة منها زهاء بوصات أربع ، وسمكها بوصة ، وثمنها أربعة ريالات إسبانية أو خمسة .

المسك . لا يباع مسك قط الزباد civet - cat فى شندى ، ولكن التجار السواكنية الذين يلمون بسنار يجلبون منه المقادير الصغيرة يبيعونها فى جدة . وأهم أسواق المسك مصوع ومكة إبان موسم الحج . ويجلبه إلى القاهرة تجار جدة .

السكرابيج . تجلب السكرابيج السالفة الذكر من سنار دون سواها .

الأبنوس . يجلب الأبنوس قطعاً صغيرة ، وأطول ما رأيت منها قدم واحدة ، ويقال إن هذا الشجر ينمو جنوب سنار ، ولكنى أحسبه ينمو على مدى بعيد منها لأنه غال جـــداً . وتجلب من سنار مقابض المدى المشغولة بالأبنوس شغلا دقيقاً ، وتركب فيها بعد ذلك المدى التى يحملها العرب فى هذه الأنحاء مشدودة إلى مرافقهم . ولا يحمل جلابو الرقيق الأبنوس إلى مصر ، فمصر تستورده من جدة . على أننى فهمت أن شجره ينمو فى الصحارى الملاصقة لدارفور غرباً .

البن . يجلب من البن الذى تنتجه الحبشــة وإقليم الجلا المقادير الصغيرة . ولا ينقل شىء منه من مصوع إلى جده لأن شجرة البن لا تنمو إلا فى أقصى الغرب

من بلاد الحبش . والقهوة ليست شرابا شائعاً فى هذه الأنحاء ، إنما هى ترف لا ينعم به إلا الملوك .

الجلد . فى سنار خير مصانع الجلد قاطبة من دارفور إلى البحر الأحمر . ويظهر حذق صانعيه ومهارتهم فى رحال الإبل (القصعة) والحقائب والصنادل . وتصدر الرحال إلى مصر لتوضع على الجمال أو الهجن ، وتباع بعشرين ريالا للرحل ، وتزين بالشراريب من الجلد ، وهى تجمع بين سلامة الذوق والمتانة . أما الحقائب أو الجربان فيشتريها التجار السواكنية ويبيعونها لأهل اليمن يحملون فيها زادهم فى السفر . وحياكتها غاية فى المتانة والدقة ، ولبعضها أقفال ، وكان أهل سواكن يبيعون منها القادر الكبيرة للوهابيين فى مكة . وجلدها من خير أنواع الجلد ، ويفضل كثيراً جلود مصر والشام ، ويكاد يبلغ فى الجودة الجلد الروسى . وأما الصنادل السنارية فيلبسها كل من يعنى بلباسه من النوبيين رجالا ونساء ، وإن المرأة منهم لتؤثر أن تمشى بقميص ممزق عن أن تلبس صندلا قبيح الشكل . وفى حياكة هذه الصنادل من الدقة والأناقة مالا ينتظر من عرب غير متحضرين . وفى سوق شندى يساوى أفضل زوج الصنادل من ريالين . ولكل بلد فى هذه الأقطار طراز منها يؤثره أهله ، وعلى ذلك تستطيع بقليل من الخبرة أن تنبىء عن موطن الرجل منهم بنظرة إلى قدميه . وكذلك الشأن فى بلاد العرب ، وإنى لأذكر أننى يوم وصلت جدة أول مرة منتعلا صندلا ابتعته من سواكن كان كثيرون ممن لا يعرفون من أمرى شيئاً يشيرون إلى صندلى ويسألوننى ما الذى ذهب بى إلى سواكن .

الرزمزميات أو المطاهر من الجلد ، والاقبال عليها فى مصر كبير

كذلك يدخل فى الواردات المجلوبة من سنار **الدرق** من جلد الخرتيت والزراف ، ويصنعه البدو من العرب ويبيعونه فى سنار ، ويستعمله القوم على طول ضفاف النيل وعبر الجبال حتى القصير وقنا فى صعيد مصر .

النبق . وينزع لحم الثمرة عن النواة ويجفف فى الشمس ثم يعبأ فى حقائب جلدية صغيرة ويحمل حتى سواكن . وهو طعام لذيذ فى الرحلات .

وأهم السلع السنارية فى سوق شندى الإبل والذرة ، ولولا اتصال ورود هاتين السلعتين إلى شندى لهددتها المجاعة . وتخرج قوافل الذرة فى الرحلة وحدها عادة ، وقل أن يصحبها التجار فهم يخرجون فى قوافل خاصة بهم . وهؤلاء التجار أيسر حالا من التجار المصريين ، ولا يندر أن ترى بينهم رجلا يملك عشرة أحمال من الدمور وفرقة كاملة من العبيد . وقد ذكروا لى اسم تاجر سنارى ابتاع فى شندى كل ما حملته قافلة مصرية قوامها ثلاثون راحلة .

الشهد . وتجلب المقادير الكبيرة منه من سنار ، ويجمع العرب النازلون بإقليم سنار العسل البرى الكثير ، ولكنهم لا يهتمون بتربية النحل وتعهد خلاياه قرب مساكنهم .

ولم أسمع بنبأ ضرائب مرور أو إتاوات تجبى على التجارة فى سنار . والعقبة الوحيدة التى يقيمونها فى سبيل التجارة هى أن الملك يفرض بضاعته دائماً على المشترين قبل أن يجرؤ غيره من التجار على عرض بضاعتهم والمساومة عليها ، ويأخذ تجار سنار من المصريين ، لقاء بضاعتهم ، السنبل والمحلب بمقادير كبيرة ، وكذلك السكر والصابون وكل سلعة تقريباً من السلع التى تعرضها أسواق مصر وسواكن ومنذ قطعت المواصلات المباشرة بين سنار وكردفان أخذ أهل سنار يشترون من سوق شندى الرقيق المجلوب من كردفان ، فهم يحصلون عليه بأسعار أرخص مما يبتاعون رقيق النوبا من سوق سنار . وكان طريق النيل إلى سنار محفوفاً بالخطر فى أثناء مقامى بشندى وذلك لما نشب من خصومة بين ملك الحلفاية وملك أربجى ومن ثم كانت القوافل تؤثر الطريق الصحراوى الموازى للنهر على رحلة يوم فى الداخل حتى تبلغ أبو حراز ، ثم تلتقى بالنهر ثانية . وليس بهذا الطريق من الآبار سوى بئر واحدة ، وقد يتنكبها المسافرون لأن بدو الشكرية كثيراً ما يلمون بها ، وأهل سنار يفزعون منهم ويخشون بأسهم أشد خشية .

ووصول قوافل كردفان إلى شندى منتظم ، وهو رهن بمزاج حاكم كردفان الذى طالما منع التجار من الرحيل طمعاً فى المزيد من أرباح تجارته . وقد تمضى

ثلاثة شهور لا تصل فيها قافلة ثم تأتى القوافل بعدها تترى . والطريق مأمون من الأبيض Obeydh (وليست Ibeït كما كتبها براون) عاصمة كردفان إلى شندى، ويقطع فى أسبوعين يجتاز المسافر فى الأيام الخمسة الأخيرة منهما صحراء لا ماء فيها ويصل مع قوافل كردفان تجار من دارفور أيضاً ، ويقال إن التجارة نشيطة والطريق مأمون بين كوبى عاصمة دارفور وبين الأبيض . وليس بكردفان من العبيد سوى ما يجلب إليها من دارفور ، ويبدو أن أهلها لا يتجرون مع بلاد الزنج الجنوبية ، ولكن منذ أتى المماليك دنقلة فتح طريق تجارى مباشر بين دنقلة وكردفان التى لا تبعد حدودها الشمالية عن حدود دنقلة أكثر من ستة أيام على ما علمت .

وإذا وصلت قافلة كردفانية إلى شندى حفلت سوقها بالرقيق وهو أهم السلع التى يجلبها تجار كردفان ، ويجلبون كذلك خير ما تنتجه بلاد الزنج من الصمغ العربى (*)، والعرديب أو التمر الهندى، واللبان ، والنطرون من دارفور ، والششم الذى يستعمل فى مصر علاجاً للرمد ، والشوشة وهى نوع من البازلاء الصغيرة التى تنمو فى كردفان ودارفور ،ولونها قرنفلى جميل بنقطة سوداء صغيرة فى نهايتها، ويسلكونها فى خيوط ويلبسونها كالعقود . ومن السلع التى يبيعونها الحبال من الجلد . وسكان البلاد الواقعة على النيل يصنعون حبالهم من ليف النخل أو من الغاب الذى ينمو على ضفاف النهر ، أما سكان البلاد الغربية التى تخلو من النخل فحبالهم من سيور الجلد المفتولة ، وهى غاية فى المتانة والقوة ، ولهذه الميزة مقام الصدارة فى الرحلات الصحراوية على ظهور الإبل المثقلة بالأحمال . وتباع هذه الحبال للتجار المصريين والسواكنية ، وكذلك الجربان الكبيرة المصنوعة من جلود الثيران الغليظة بكردفان ودارفور ، ويحمل فى هذه الجربان دقيق الذرة فى

(*) كانت قوافل سنار تجلب إلى مصر سنويا ألفى قنطار من الصمغ العربى ، أما اليوم فهى لا تحمل إليها أكثر من مائة قنطار . والصمغ المأخوذ من السنط فى صحارى الحجاز يعرف فى القاهرة بالصمغ الينبعى (نسبة إلى ينبع) ، أما المأخوذ من صحارى السويس والتيه وجبل سيناء فاسمه الصمغ الطورى (نسبة إلى الطور) ، ولا يصدر هذا إلى أى بلد أوربى غير فرنسا . وصمغ كردفان من خير أنواع الصمغ ، وحبيباته صغيرة وبياضه ناصع . أما صمغ سنار فالطلب عليه أقل .

الصحراء طعاماً للعبيد . ثم قرب الماء الكبيرة من جلود الثيران ، وتسمى القربة منها راياً ، ويستعملها التجار الذين يعبرون الصحراء بحشد كبير من العبيد ، وحمولة الجمل قربتان منها . وهى تحفظ الماء خيراً مما تحفظه قرب الماعز الصغيرة ، وغلظ جلدها يمنع الماء من سرعة التبخر . وهذه القرب من السلع الهامة فى تجارة دارفور ومصر ، وتستخدم فى جميع المدن المصرية لا سيما فى القاهرة لحمل الماء من النهر إلى المدينة سداً لحاجة أهلها منه . وكذلك يجلب تجار كردفان قرباً من جلد الغنم صنعت بمهارة فائقة لأن الجلد قد حفظ فيها كاملا برمته . وسبيل ذلك أن يفصل الرأس عن الجسد ، ثم يسلخ الجزار الجلد بمهارة لم يؤتها البدو من العرب ، فيدخل يده بنصل صغير من فتحة فى الزور ، ويفصل الجلد عن اللحم دون أن يجرحه .وعلى ذلك لا ترى فى القربة الكردفانية آثار جروح فيما عدا مكان القوائم أما غير هذا من القرب العادية فملفوفة من جوانب ثلاث. ومن السلع المجلوبة من كردفان القصاع الخشبية الكبيرة ، وهى منقورة من أصل نوع من الشجر فيما يقولون ، وتدهن بالسمن ثم ترفع على النار لتسود . وكثيراً ما تقوم مقام الخزف والأوانى والصحاف والأكواب الصينية التى يحلى بها بعض الأقوام الشرقيين المتحضرين غرف الجلوس فى بيوتهم بوضعها على رفوف مثبتة فى الجدران. وبعض هذه القصاع من الكبر بحيث يسع من الطعام ما يكفى اثنى عشر شخصاً ، وفى صنعها دقة لا تلمح معها أثراً للآلة التى صنعت بها .

كذلك يلقى ريش النعام الذى يجلبه تجار كردفان إقبالا عظيما . وهؤلاء التجار متوسطو الثراء ، ولأكثرهم نساء فى شندى ودارفور وفى الأبيض أيضاً . ويشترون العبيد من دارفور ويلمون ببيوتهم فى الأبيض ثم يؤمون شندى بعبيدهم . ويعرف الناس فيهم أمانة ليست فى أهل سنار ، ولكن هذه السمعة الطيبة لا تغرى أحداً ببيعهم بضاعته نسيئة . ويحملون من سوق شندى السنبل والمحلب والكحل والعقود والتوابل الكثيرة وعلى الأخص القرنفل ، وكلها يتهافت الناس على شرائه فى أقاليم السودان الغربية . كذلك يحملون قليلا من البضائع الحديدية والدمور السنارى والكتان المصرى ، وأقمشة الهند القطنية المجلوبة من سواكن ،

والقليل من ثياب الحجاز الحريرية. وقماشه الذى يلبسه أمراؤهم المولعون بكل زاه براق يشعر الناس بمكانتهم، وبعض البن، وأهم من هذا كله «الريش» أو الخرز من العقيق الهندى. ويقال إن العملة التى يتداولها أهل كردفان — فضلا عن الذرة — هى قطع من الحديد صغيرة يشترون بها من السوق اللبن واللحم وخبز الدخن. وتجمع هذه القطع وتصنع منها البلط ورؤوس الحراب. كذلك يتعامل القوم بالأبقار، فيشترون بها العبيد مثلا، وطعام هذه الأبقار من الأعشاب البرية موفور وفرة تتيح اقتناء أى عدد منها فى حيشان المنازل.

وأغنى من يؤم اليوم سوق شندى من التجار قاطبة هم تجار سواكن المعروفون فى هذا الجزء من إفريقية بالحدارية أو الحضارمة (نسبة لحضرموت موطنهم الأصلى فى جنوب بلاد العرب). ولن تعدم فى شندى بعض هؤلاء التجار فى أى وقت افتقدتهم. وحين كنت بها غادرتها إلى سواكن قافلتان منهم ووصلتها قافلة كبيرة، ولا يمر شهر دون أن يصل بعضهم من سواكن. كذلك يلم الحدارية بسوق سنار، فتتخذ قوافلهم طريق شندى أو الطريق الأقرب طريق قوز رجب على عطبرة، ومنها ييممون سنار مباشرة عبر الصحراء، ويلم بعضهم أيضاً بالأبيض عاصمة كردفان، ولكنهم ليسوا من الكثرة بحيث يؤلفون قوافل قائمة بذاتها، ومن ثم فهم يرحلون إليها فى صحبة التجار الوطنيين. ويرحب تجار سنار وكردفان بقوافل هؤلاء الحدارية حين تصل شندى، ولا غرو فهم أسرع الناس شراء لبضائعهم، ولكنهم يثيرون فى صدور المصريين — منافسيهم فى تجارة كثير من السلع — أشد ضروب الغيرة والحسد. وأهم ما يجلبه تجار سواكن إلى شندى هو السلع الهندية، فيها الكمبريت مختلف الأنواع من بفتة إلى بنوه ويجلب من مدراس وسورات، وفيها الموسلين الخشن المجلوب من بنغالة، وبعضه يستهلكه أهل شندى وسنار، ولكن أكثره يعطى لتجار كردفان عوضاً عن العبيد، وفيها التوابل والأفاوية لاسيما القرنفل والزنجبيل، وفيها السكر الهندى، والعقود اليمنية كما يسمونها — وإن كانت لا تصنع فى اليمن — وخشب الصندل، وهو سلعة هامة تتخذ طريقها من شندى حتى تبلغ الأقاليم

التى فى غرب دارفور وأقصاها الباقرمى ، كذلك يبيع الحداربة كل ما يجلبه المصريون من بضائع حديدية ، ولكن هؤلاء أقدر على بيعها بأثمان رخيصة ، ويبيعون لتجار سنار ودارفور « الضُفر » وهو قشر حيوان يعيش فى البحر الأحمر ، ويقطع قطعاً صغيرة تصلح بخوراً يفوح شذاه إذا أدنى من النار . ويقبل أهل الحجاز ومصر على قطعه الخرزية الشكل ، فيلبسها النساء قلائد فى أعناقهن ، ولونها أسود أو أزرق قاتم بعروق فاتحة . ويصدر السواكنية هذه القلائد إلى جدة أيضاً .

ويحمل الحداربة عوضاً عن سلعهم الذهب والعبيد — وعلى الأخص من الحبش — وسلع بلاد الزنج كافة فيما خلا الصمغ العربى ، وإن كانوا أحياناً يحملون الصمغ أيضاً ويبيعونه فى اليمن للتجار الإنجليز والأمريكيين . وفى شندى تبتاع كل قافلة سواكنية عدداً من الجياد الدنقلاوية لتبيعها بثمن مجز فى بلاد اليمن، سواء فى الحديدة أو اللحية أو فى الجنوب حتى مخا . وفرسان الشريف حمود — الأمير الحالى لليمن — يمتطون جياداً تكاد تكون كلها مجلوبة من دنقلة لأن الجياد العربية الأصيلة نادرة جداً فى اليمن .

وتجلب القوافل السواكنية التى تبلغ فى رحلاتها سنار تبغاً كثيراً من سوقها لتبيعه فى اليمن . ويتمتع التجار السواكنية فى شندى بثقة لا يتمتع بها غيرهم لثرائهم وكثرتهم ، وكلهم من العرب الأحرار ، فهم ليسوا فلاحين كالتجار القادمين من صعيد مصر ، ولا سوداً كتجار كردفان ، وجلهم من صفوة الأسر السواكنية ، وهم يبادرون إلى الثأر لأية إهانة توجه إلى أى فرد منهم . ويعاملهم الملك بأدب جم ، وهم يتحفونه بهدايا لا ينالها من سواهم من التجار . على أننى سأعود إلى الكلام على هذا فى معرض حديثى عن سواكن . وسواكن اليوم — باستثناء مصوع — والقاهرة أهم بلد لتجارة الرقيق فى الشمال الشرقى من إفريقية وراء حدود السودان .

وليس لتجارة دنقلة أهمية تذكر فى شندى . ويجلب إليها الدناقلة البلح الذى

يشترونه من الحمس ، والتبغ الذى تنتجه بلادهم . ويرسل البلح إلى سنار وكردفان هدايا للملوك ، ويمده القوم هناك ترفاً لا يفضله غير السكر .

ويتهافت التجار على شراء الجوارى اللواتى سبقت لهن خدمة فى بيوت الدناقلة لما اكتسبن من خبره فى الطهو والخدمة(*) . وقد أصبحت شندى — بفضل اتفاق هؤلاء التجار جميعاً — أول سوق سودانية لتجارة الرقيق المصرية والعربية ، والتجارتان على صلة وثيقة بعضهما ببعض وبالتجارة الحبشية أيضاً ، وقد يلتقى التجار القادمون من هذه الأقطار الثلاثة فى أقصى حدود البلاد التى يوغلون فيها للتجارة ، ويجلبون لأسواق إفريقية من الشمال والشرق سلماً تكاد تكون واحدة. ويبدو أن أبعد الحدود التى يبلغها التجار هى دار صليح ، أو لعلها الباقرمى فى غرب دارفور وشمالها الغربى . أما الأقاليم الواقعة وراء هذين الإقليمين فعلى الرغم من اتصالها بدارفور لاستيراد السلع العربية والمصرية ، إلا أنها تقفل أبوابها فى وجوه هؤلاء التجار ، وعبثاً حاول التجار أن يوغلوا وسط قبائل العرب والبدو المعادية التى تقطن بحر الغزال ، ووسط القبائل الإفريقيــة الوثنية التى تقيم بين الباقرمى وعفنو ، مهما تكن أهمية السلع التى يحملونها . وتبدأ تجارة فزان أو تجارة زبلع — وهو الاسم الذى يطلقونه عليها هنا — فى الانتشار وراء بحر الغزال فى اتجاه حدود بورنو ، ومن هذا الإقليم تنتشر إلى أقصى الغرب عبر السودان . ولم أعثر على أثر لأى تجارة منتظمة بالقوافل تقوم بين شرق السودان وغربه على الرغم من استفسارى عن هذا المرة بعد المرة (وفى وسع المرء أن يوجه ما شاء من أسئلة للتجار السود دون أن يخشى توجساً منهم أو غيرة) ، ولم ألق أى تاجر قادم من الأقاليم الواقعة وراء الباقرمى . والذين يقصــدون تلك الأقاليم يلحقون فى بورنو بقوافل فزان . أما القلة من أهــل بورنو التى تسافر بطريق بحر الغزال إلى دارفور رأساً فحجاج يعيشون على الصدقات . وجل الرقيق الذين تراهم فى شندى مجلوبون من

(*) بعد أن استقر المماليك فى دنقلة اضطروا إلى جلب مايحتاجونه من مصر بطريق شندى . وأقصر الطرق يستغرق خمسة أيام ،ويخترق الجبال من كورتى فى بحدود دنقلة جنوبا ، ولكنه طريق غير مأمون .

أقاليم الوثنيين المتاخمة لدارفور وبورقو ودار صليح . أما العبيد المجلوبون من بورنو — ويتميزون بالوشم على جلودهم — فلا يذهبون إلى شندى قط ، والذين تراهم منهم فى مصر إنما جاءوها بطريق فزان . وقلّ من التجار الأجانب من يفد على شندى خلاف المصريين ، وقد يفد عليها أحياناً بعض عرب ينبع فى قوافل سواكن أوفى القوافل المصرية لأن للينبعيين بصعيد مصر مساكن كثيرة فى قنا وقوص . وحين نزلت شندى كان فى كردفان ينبعيان وتركى من موهل . وقد ذهب إليها هذا التركى يحمل تجارة قليلة من مصر ، ولكنه أنفق ماله فى الدعارة والفجور ولم يستطع أن يدبر مبلغاً يستعين به على العودة للشمال . وقد يسلك هذا الطريق التجار الأتراك[1] القادمون من مصر إلى دارفور أو الأشراف القادمون من الحجاز للحصول من الملوك على العطايا بالإلحاح واللجاجة نزل شندى حين كنت بها عربى قادم من سواكن ، وكان من عشيرة رفاعة التى تنتسب إلى قبيلة كبيرة تجاور ينبع هى قبيلة جهينة[2] . وأخبرنى الرجل أن من أبناء عشيرته رفاعه — فيما سمع — قوما نزلوا جنوب سنار ، وأنه ينوى أن يلم بهم طلباً لعطاياهم لأنهم كانوا يعطفون على ذوى قرباهم بالحجاز ، لا سيما على الذين يتجشمون منهم مشقة الرحلة للسلام عليهم وكان على علم باسم أحد مشايخ رفاعه وبموطنه من شاطىء النهر على نحو ستة أيام من سنار ، وغادر الرجل شندى فى قافلة سنار قاصداً هذا الشيخ .

ويلم بشنـدى أحياناً أفراد قادمون من الحجاز ومصر إلى سنار طلباً لصغار القردة يدربونها على ألعاب يتلهى بمشاهدتها أهل المدن فى بلاد العرب والشـام ومصر . وكان القوم حين يتبينون فى ملابسى وأدواتى رثاثة لم يعهدوها فى التجار يسألوننى المرة بعد المرة ، أقادم أنا فى طلب قردة ؟ وهؤلاء القرادون محل الازدراء والتحقير لأنهم — على حد قول السود فيهم — ينفقون حياتهم كلها فى إضحاك الناس عليهم .

---

(١) حين أستعمل لفظ الأتراك أقصد بهم العثمانيين أومسلمى أوربا وآسيا الصغرى .

(٢) لقيت فى القاهرة أعرابيا من قبيلة جهينة أخبرنى أن القبيلة قوامها بدو وزراع .

لقد أفضت فى الحديث عن التجارة لأنها عصب الحياة فى هذه البلاد . ولن تجد من القوم أسرة واحدة لا صلة لها بفرع من فروع التجارة ، سواء تجارة الجملة أو التجزئة ، وتستطيع أن تسمى أهل بربر وشندى أمة من التجار بأدق مافى هذه العبارة من معنى . وبقيت لى ملاحظات قليلة أذكرها فيما يلى عن أهم فروع تجارتهم وأعنى به *تجارة الرقيق* .

يبلغ عدد المبيع من الرقيق سنوياً بسوق شندى – حسب تقديرى – قرابة خمسة آلاف ، يحمل التجار السواكنيون نصفهم والمصريون ألفاً وخمسمائة منهم ، أمامصيرالباقين فدنقلة ومواطن البدو الواقعة شرقى شندى تجاه عطبرة والبحر الأحمر . وقد أشرت فى حديثى السابق إلى المواطن التى يجلب منها هؤلاء . فوطن المجلوبين من كردفان إلى دارفور فى الغالب بلاد *بندا* و *باجه* و *فنقرو* و *فرتيت* الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربى من دارفور على مسيرة عشرين إلى أربعين يوما من *كوبى* ، وهـذه البلاد كلها وثنية ، ولـكل منها لغتها الخاصة . ويتجر تجار دارفور مع فرتيت التى تبعد عشرين يوما عن كوبى ناحية الجنوب ، وهى بلاد جبلية يجهل أهلها الزراعة جهلا تاماً ولـكنهم ذاقوا لذة الذرة والدخن ، وفى سبيل الحصول عليهما – إذا عز محصولها – يبيعون حتى أطفالهم فيما يروى .

وجل العبيد المجلوبين إلى شندى دون الخامسة عشرة . ويقسمهم الجـلابون حسب أعمارهم إلى فئات ثــلاث : الخماسى (دون العاشرة أو الحادية عشرة) والسداسى (فوق الحادية عشرة ودون الرابعة أو الخامسة عشره) ، والبالغ (من الخامسةعشرة فصاعداً) .وأغلى هؤلاء عندهم السداسى. وحين كنت بشندى كان العبد السداسى يساوى خمسة عشر ريالا أو ستة عشر ، هـذا إذا كان جلده يحمل سمات الجدرى ، وإلا فثلثى هذا المبلغ لا أكثر . وكانت الجارية تساوى من عشرين إلى خمسة وعشرين ريالا إسبانياً . وكان ثمن العبد الخماسى اثنى عشر ريالا وثمن الجارية خمسة عشر . وقصارى مايبلغه ثمن العبد البالغ ثمانية ريالات أوعشرة، ونسبة العبيد البالغين ضئيله لأن القوم فى مصر وبلاد العرب لا يركنون إلى عبد لم يربه سيده منذ صغره . لذلك تراهم يكرهون أن يشتروا العبيد الـكبار لخدمة

البيوت أو حتى للفلاحة . وجل البالغين يشتريهم البدو ليستخدموهم رعاة . ويقتنى البشاريون العدد الكبير منهم فى جميع مضاربهم . أما الجوارى الكبيرات فقد تباع الجارية منهن بثمن يرتفع إلى الثلاثين ريالا — وإن جاوزت سن الصبا والجمال — إذا أثر عنها حذقها الخدمة والحياكة والطهو وما إلى ذلك من أشغال البيوت . وأهل الشام لا يقتنون من العبيد إلا قليلا ، وجل من رأيتهم هناك جلبتهم القوافل من بغداد ، وموطنهم سواحل موزمبيق .

وقل من العبيد المجلوبين لمصر من لم تتبادله أيدى السادة مرات قبل أن ينتهى به المطاف إلى أسرة من الأسر . فالعبيد المجلوبون من فرتيت مثلا يجمعهم من حدود وطنهم أولا صغار تجار الذرة ، فيبيعونهم لتجار كوبى الذين يقصدون فرتيت فى قوافل صغيرة لهذا الغرض . وفى كوبى يبتاعهم تجار دارفور أو كردفان ويحملونهم إلى الأبيض بكردفان . وفى الأبيض ينتقلون غالباً إلى أيدى تجار كردفانيين أخر يمضون بهم إلى شندى . والسبب فى هذا هو أن تجار السودان يقصرون تجارتهم عادة على سوق واحدة ، ففريق من الكردفانيين يتجر مع دارفور وآخر مع شندى ، وفريق من المصريين يتجر مع شندى وآخر مع سنار ، وكذلك الحال مع السواكنية : ففريق منهم يتجر مع شندى وآخر مع سنار . وإذا جىء بالعبد إلى شندى ابتاعه من سوقها مصرى أو عبادى ، حتى إذا بلغ به صعيد باعه فى إسنا أو أسيوط أو القاهرة . وفى إسنا وأسيوط يشترى التجار العبيد بالجملة ثم يبيعونهم بالتجزئة فى القاهرة أو فى بلدان الصعيد يلمون بالبلد منها أياما فى رحلتهم هابطين مع النهر . وقد لا يباع العبد نهائياً حتى فى القاهرة حال وصوله إليها . فوكالة الجلابة القريبة من الجامع الأزهر تغص بالبدالين وصغار التجار يساومون تجار الصعيد على شراء العبيد حال وصولهم ، ثم يبيعونهم لآخرين ، قانعين من هذه الصفقة بربح قليل . يضاف إلى هؤلاء تجار من أزمير والقسطنطينية اتخذوا القاهرة مقراً لهم واشتغلوا بتجارة الرقيق دون غيرها . ويصدر هؤلاء التجار الرقيق من الإسكندرية ، وقد ينتقل العبد إلى أيدى سادة ثلاثة أو أربعة بعد ترحيله من الإسكندرية حتى يبلغ مستقره الأخير فى ولايات تركيا الشمالية .

ذلك هو المصير الذى يلقاه هذا التعس المنكود ، وفى حالات كثيرة تتناقله أيدى السادة بأسرع من هذا . فقد رأيت فى شندى وإسنا عبيداً بيعوا واشتروا فى السوق مثنى وثلاث قبل أن ينقلوا منها نهائياً ، وقد يعرضهم سيدهم بعد ذلك للبيع مرة أخرى أو يستبدل بهم غيرهم إذا جربهم أياماً فألفاهم على غير ما يشتهى . والواقع أنه لا فرق بين الرقيق وسائر السلع ، وعلى ذلك لا يفتأ الأرقاء ينتقلون من تاجر إلى تاجر . والقوم يسمون الرقيق رأساً ، كأنه من الأنعام ، فيقولون فلان يملك عشرة رءوس من الرقيق (*) ، كقولهم إنه يملك خمسين رأس غنم . وإذا طلبوا إلى المشترى أن يمضى بالعبد قالوا له « سوقه » ، وهو لفظ لا يستعملونه إلا للأنعام ، فيقولون مثلا « سوق الغنم قدامك » .

وبين العبيد الذين شهدتهم معروضين للبيع بشندى أطفال كثيرون فى الرابعة أو الخامسة بغير والديهم ، ولكنك تجد بالسوق أيضاً أطفالا فى هذه السن تصحبهم أمهاتهم . ويبدى الجلابة من الشفقة عليهم ما يمنعهم من بيع الأطفال منفصلين عن أمهاتهم إلا نادراً ، فإذا أتى أحدهم هذا الأمر استحق لوم الجميع على قسوته .

ويحرص الجلابة حين يشترون العبيد على التأكد من جنسهم ، فقد تعلموا بالتجربة أن أفراد الجنس الواحد لا تختلف طباعهم إلا قليلا . فعبيد نوبا المجلوبون من سنار أدمث العبيد طباعا بعد عبيد الحبش والجلا فيما يقال ، وهم أشدهم تعلقاً بسادتهم وإخلاصاً لهم . أما الحبش فالشماليون منهم — ويسمون القسطانيين — عرف عنهم الخبث والخيانة والغدر ، فى حين يؤثر عن الأمارة اللطف والوداعة ، وأغلى الزنوج الغربيين عند الجلابة هم أهل بندا ، ويليهم العبيد المجلوبون إلى دارفور من قطر إسلامى يدعى برقو يخطف أهله جيرانهم الوثنيين . ويقال إن العبيد المجلوبين من فرتيت متوحشون محبون للثأر والانتقام ، ومرتبتهم أحط مراتب العبيد .

وندر بين العبيد المجلوبين إلى شندى من لم يقض فى الرق أمداً طويلا ، وآية

(*) فى إقليم سنار لا يسمون العبد عبداً بل رقيقاً .

ذلك أنني لم أر بينهم عاجزاً عن التفاهم بالعربية ، وجل الأرقاء المجلوبين من دارفور وكردفان على شيء من العلم بلهجات هذين القطرين فضلا عن معرفتهم بلغتهم القومية وباللغة العربية .

وإذا اقتنى المسلم غلاما ختنه وأطلق عليه اسما عربياً . على أن العبيد قلما يحظون بشرف الأسماء الإسلامية الصحيحة كحسن ومحمد وسليم ومصطفى وما إليها ، فجلهم يحمل أسماء كخير الله وفضل الله وفضل الواسع وجبر الواحد وأم الخير الخ . . وقد تكون أسماؤهم أغرب من هذا وأعجب ، كصباح الخير ، وجراب ، الخ . . ونِدر أن يجلب من الغرب غلمان غير مختونين ، ولم أسمع قط بغلام زنجي آثر اتباع وثنية آبائه وأبى دخول الإسلام . ولكني سمعت عن كثير من الأرقاء الأحباش ممن حولهم سادتهم الأحباش المسيحيون من الوثنية إلى المسيحية ثم باعوهم فيما بعد إلى الجلابة المسلمين — أقول إن كثيراً منهم — لاسيما الجوارى — رفضوا التحول عن دينهم ، ومن الجوارى من ثبتن على الرفض وهن فى حريم المسلمين ثباتا حمل سادتهن آخر الأمر على بيعهن خشية أن يعقبوا من أمهات نصرانيات ، وهى معرة تلصق بالأب وذريته أبد الدهر . وأهل السودان لا يعلمون العبيد القراءة ولا الصلاة وإن سلكوهم فى زمرة المسلمين بالختان . وحتى فى مصر وشبه جزيرة العرب لا يعلم القوم من العبيد إلا آثرهم لديهم . ومع ذلك فإنك تجد فى هؤلاء العبيد تعصباً للإسلام لا تجده فى أشد العلماء تزمتا ، والمسيحيون والفرنجة أكثر تعرضاً للاهانة والسب على يد العبيد منهم على يد أية طائفة أخرى من طوائف المسلمين .

وسألت القوم فى شندى هل بين العبيد المجلوبين لها خصيان فقالوا إنه لم يرد لسوقها من الخصيان أحد أثناء مكثى بالمدينة ، وإن الإقليم الوحيد من أقاليم السودان الغربى الذى يخصى فيه العبيد لتصديرهم هو برقو (غربى دارفور) . على أن هؤلاء قلة لا تذكر ، ويؤخذ بعضهم من دارفور إلى مصر ، ويبعث ملوك الزنوج بالباقين على سبيل الهدية للمساجد الكبرى بمكة والمدينة بطريق سواكن . وأكبر « مصنع » يزود تركية أوربا جميعها ومعظم تركية آسيا بهؤلاء الحراس القائمين على عفة النساء تجده فى قرية من أعمال أسيوط بصعيد مصر تدعى « زاوية الدير »

وأغلب أهلها من القبط . وكان يقوم بهذه العملية يوم ألممت بهذا البلد راهبان قبطيان قيل لى إنهما فاقا كل من سبقهما حذقاً لصناعتهما ، وكان لهما بيت يستقبلان فيه الضحايا . وهذه الصناعة يمقتها القوم ويزدريها حتى سفلتهم ، ولكن الحكومة تبسط على الراهبين حمايتها لأنهما يؤديان لهن إتاوة سنوية . أما أصحاب العبيد فإنهم يجدون فى الأرباح الطائلة التى تدرها عليهم هذه العملية الوحشية ما يغريهم بالرضى عن عمل قد ينفر منه أكثرهم ويستهجنونه فى دخيلة نفوسهم . والعملية على غرابتها وشذوذها يندر أن تفضى إلى موت العبد . وأنا أعلم على التحقيق أنه لم يمت من بين ستين غلاماً خصوا فى خريف عام ١٨١٣ سوى غلامين . وقد أكد لى كل من سألته بأسيوط أن هذه النسبة أعلى من المعدل ، إذ قلّ أن تزيد نسبة الوفاة على اثنين فى المائة . ولم تتح لى فرصة مشاهدة هذه الجراحة لأنها تجرى لأكثر الغلمان حال وصولهم أسيوط فى قوافل دارفور وسنار ، ولكنى سمعت وصفها من فم شهود عيان كثيرين . ويتفاوت عمر الغلمان الذين يقع عليهم الاختيار بين ثمانى سنوات واثنتى عشرة لأن المتقدمين عن هذه السن قد تقضى الجراحة على حياتهم(*) .

ولا يختار للخصى من الغلمان إلا أصلبهم عوداً وأوسمهم خلقة ، ولكن الجراحة تترك على قسماتهم أثراً يبدو واضحاً حين يكتمل نموهم . وحين تأملت الخصيان الذين لقيتهم بالحجاز ألفيت لهم وجوهاً تجردت من اللحم أو كادت ، وعيونا غارت ، ووجنات برزت عظامها ، وسحنات عجفاء تستطيع بنظرة واحدة أن تحكم بأن أصحابها مخصيون .

ويبلغ ثمن الغلام بعد أن يجوز هذه الجراحة بسلام ألف قرش فى أسيوط ، وقد يكون سيده ابتاعه بثلاثمائة قبل أسابيع ، وأدى للجراح القبطى أجراً يتفاوت بين خمسة وأربعين قرشاً وستين . وفى هذا الربح الفاحش الذى يصيبه الجلاب من صفقته هذه ما يكفى للقضاء على كل عاطفة للرحمة قد ينبض بها قلبه . ويخصى فى كل

(*) أورد المؤلف فى ص ٣٣٠ فقرة باللاتينية تصف الجراحة وقد حذفناها ، ونحيل من أرادها على الأصل . (غربال)

ما يقرب من مائة وخمسين غلاماً . وقبل عامين أمر محمد على بخصى مائتى غلام من دارفور أهداهم إلى الباب العالى . وقد ضعفت عادة اقتناء الخصيان فى مصر والشام ضعفاً شديداً . ولست أحسبك واجداً فى مصر كلها من هؤلاء الخصيان أكثر من ثلاثمائة ، إذا استثنيت الموجودين منهم فى حريم الباشا وحريم أبنائه ، أما فى الشام فهم أقل من هذا . ذلك أن الناس فى هذين القطرين يتعرضون لأشد الأخطار إذا أعلنوا ثراءهم وجهروا بنعمتهم ، واقتناء الرجل منهم عدداً من الجوارى يتطلب خصياً يحرسهن أمر يثير جشع الحكام ويغريهم بابتزاز ماله . ومن أندر الأشياء أن تجد خصياناً بيضاً فى أملاك العثمانيين ، وقد لقيت فى شبه جزيرة العرب عدداً من الخصيان الهنود فى وجوههم صفرة الموت ، وقيل لى إن العبيد فى الهند كثيراً ما يخصون . وجل الغلمان الذين يخصون بأسيوط يرسلون إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى [1] .

ويلقى العبيد من الجلابة معاملة هى أقرب إلى الرقة منها إلى العنف[2]. والعادة أن يعلّم العبد أن يدعو سيده « أبوى » وأن يعتبر نفسه ابنا له . وقل أن يجلد الجلاب عبيده أو يرهقهم بالعمل ، بل إنه ليعطيهم طعاما طيباً ويتلطف معهم فى الحديث ، لا رحمة بهم وبراً ولكن خشية من هروبهم إذا أساء معاملتهم . وهو

(١) كان القحطانيون — بحكم تحمسهم للوهابية التى اعتنقوها — يناوئون شريف مكة أشد المناوأة إبان حروبه مع سعود زعيم الوهابيين، فأسر الشريف منهم مرة أربعين رجلا ، وقال لهم إنه قد قتل من قبيلتهم ما يكفى، ثم أمر بخصيهم وردهم إلى أهلهم . ولما كانو رجالا لا أحداثا فقد فتكت الجراحة بهم جميعا إلا اثنين عادا لوطنهما وأصبحا بعد ذلك ألد أعداء الشريف غالب ، فقتل أحدهما بيده ابن عم لغالب فى إحدى المعارك ، أما الثانى فقد قتل وهو يحاول فى معركة ثانية أن يخترق صفوف الفرسان ليثأر من الشريف شخصياً . وقد لام الناس الشريف على قسوته أشد اللوم لأن فعلته هذه تجافى الرحمة التى طبع عليها العربى . وقد سقت هذا الحادث دليلا على أن الناس لم ينسوا تماماً هذه العادة القديمة ، أعنى معاملة الأسرى على هذه الصورة التى تراها ممثلة على كثير من المعابد فى صعيد مصر ولا سيما فى مدينة هابو . على أن هذا الحادث هو الوحيد الذى سمعت به من نوعه .

(٢) وردت فى ص ٣٣١ وهامشها وفى ص ٣٣٢ وهامشها تفصيلات عن ختان البنات آثرنا حذفها ونحيل من أرادها على الأصل . (غربال)

لا يجهل ما يلحقه بصحة العبد من أذى إذا هو حاول منعه من الهروب بحبسه والتضييق عليه ، لأن للعبيد الجدد غراما بالخلاء ، وهم لا يدخلون البيوت إلا كارهين، فهي السجون بعينها في نظرهم . ولكنهم ما إن يدخلوا الصحراء — في طريقهم إلى نهاية الرحلة — حتى يتنكر لهم سادتهم ويرخوا العنان لشراستهم وتوحشهم،لأنهم يعرفون أن العبيد سدت دونهم سبل الهروب . وطالما سمعت رفاقي بشندى — وهم على فظاظتهم لم يكونوا أحط طبقات الجلابة ولا أسفلها — يحدث بعضهم بعضاً إذا أساء عبد من العبيد أدبه وخافوا مغبة عقابه ، فيقولون : صبراً حتى يجتاز بربر ، وبعدها يعلمه الكرباج الطاعة والامتثال . وقد رأيت مثل هذه القسوة في التجار السواكنية الذين سافرت في قوافلهم بعد ذلك ، فهم يتنكرون للعبيد إذا اجتازوا التاكه . على أن صحة العبد هي على الدوام محل عناية الجلاب ، فالعبد يصيب طعامه بانتظام ، ويأخذ حظه من الماء خلال الرحلة مع سيده . كذلك يسمح لصغار الفتيات ونحافهن بركوب الإبل في حين يقطع الباقون الرحلة راجلين ، سواء كانت وجهتهم مصر أو سواكن ، كما قطعوها من دارفور إلى شندى . وقد رأيت في صغار العبيد من شدة البدن وصلابة العود عجبا . كنت أجدهم ، بعد مسيرة أيام متوالية بمعدل عشر ساعات إلى اثنتى عشرة ساعة في اليوم ، يلعبون ويمرحون عقب العشاء كأنهم قد نعموا براحة طويلة . وتحمل النساء الأطفال على ظهورهن ماشيات خلف القافلة . وإذا أعيا جمل حمّل الجلاب العبيد حمله ، ويكفي الغلام شيء من السمن يصيبه في العشاء مع خبز الذرة وقليل من الشحم يلطخ به جسده وشعره كل يومين أو ثلاثة ، فلا يشكو قط تعباً ولا نصباً . وثمت دافع آخر يحفز الجلابة إلى الترفق بالعبيد ، وأعنى رغبتهم الشـــديدة في محو ما علق بأذهان الزنوج أجمعين من خوف وفزع مبعثهما مصر وسائر بلاد البيض . فالفكرة السائدة في بلاد الزنج هي أن « ولد الريف(*) » (أى المصريين) يأكلون العبيد ، وإن هؤلاء يجلبون إلى مصر لهذا

(*) الريف هو اللفظ الذى يطلقونه في هذه البلاد على مصر ، ومعناه الأرض المنخفضة الكثيرة المياه .

الغرض(*) . لذلك لا يدخر الجلابة جهداً فى محو هذه الفكرة والقضاء عليها ، ولكنهم برغم ذلك لا يفلحون فى اقتلاعها من رءوس العبيد . وشىء آخر يفزع منه العبيد هو حيوان ضئيل وثاب يزعمون لهم أنه سيعيش على جلودهم ويمتص دماءهم ولا يدعهم ينعمون بالراحة ولو لحظة واحدة . وهم يعنون البراغيث ، وهى حشرات لا عهد للقوم فى قلب السودان بها ، ويروون عنها أغرب الروايات حين يحصون الفضائل التى تميزت بها بلادهم على أرض مصر . غير أن بلادهم تحفل بحشرات أخبث من البراغيث وأشنع .وأخوف مايخافه الغلمان أيضاً أن يطوّشوا فى مصر حين يبلغونها .

وللغلمان العبيد مطلق الحرية فى نطاق حيشان البيوت ، أما الكبار ممن لا يطمئن سادتهم إلى طباعهم أو ممن يجهلون أخلاقهم فيحبسون ويراقبون بل ويوثقون بالأغلال فى كثير من الأحيان . ويربط العبد فى أثناء الرحلة إلى قائمة طويلة يشد أحد طرفيها إلى رحل الجمل ويحيط طرفها الثانى — وهو على شكل شوكة — بعنقه من الجنبين ويربط خلفه بحبل متين يمنعه من إخراج رأسه من محبسه . ثم تشد يمناه إلى القائمة على مقربة من رأسه ، فلا يبقى طليقا من العبد غير ساقيه ويسراه . ويمشى خلف الجمل على هذا النحو سحابة يومه ، أما الليل فيقضى سواده راسفاً فى الأغلال بعد أن يفك من القائمة . وقد رأيت فى رحلتى إلى سوا كن عبيداً كثيرين يساقون على هذا النحو ، وكان الجلابة يخشون أن يهربوا أو أن يثأروا لأنفسهم منهم . وهكذا يظل العبد حبيساً مغلولا حتى يشتريه سيد ليقتنيه، فيترفق به اجتلابا لمحبته وولائه ويخشى الجلابة على العموم مغبة غضب العبيد وسخطهم ، وإذا أراد أحدهم أن يجلد فتى منهم وضع الأغلال فى يديه ورجليه أولا .

(*) حين كنت بصعيد مصر حدث حادث غريب أسوقه دليلا على تسلط هذه الفكرة على عقول السود . ذلك أن رجلا من علية القوم اشترى بأسيوط فتاتين من قافلة دارفورية ، ثم دعا نفراً من أصحابه ليقضوا معه عصريوم فى مغارة لطيفة الجو من مغارات الجبل الواقع خلف أسيوط .وأمر الرجل الفتاتين أن تصحباه ، ولكن ما إن دخلتا المغارة حتى توهمتا أنها المكان المعد لذبحهما . ولما رأتا المدى التى جىء بها لتقطيع اللحم الذى سيأكله القوم حاولت إحداهما الفرار فأطلقت ساقيها للريح ،ووقعت أختها على الأرض تضرع إليهم ألايذبحوها. واقتضى إقناع الفتاتين بفساد هذه المخاوف وقتاً غير قليل .

وليس من المستغرب أن يبيع الجلاب أبناءه الذين ولدتهم له نساء زنجيات ، وفى كل يوم تسمع عن جلابة باعوا جوارى قد حبلن منهم . وفى هذه الحالة يصبح الطفل المنتظر ملكا للمشترى بطبيعة الحال. ويقتنى معظم الجلابة عبيداً كباراً يكلون إليهم أمر صغار العبيد الذين يشترونهم ويفيدون أعظم الفائدة من خدماتهم فى أثناء السفر . ولكنى رأيت الجلابة لا يبقون حتى على هؤلاء ، مع أنهم لطول مكثهم فى بيوتهم أصبحوا كالأهل والولد . ولا حافز لهم إلى بيعهم غير شهوة الربح . فمن العبث إذن أن تلتمس عند هذه الطائفة أثراً للمودة أو العطف أو عرفان الجميل .

وثمن الجوارى فى كل مكان يزيد ثلاثين فى المائة على ثمن أترابهم العبيد . ويدعونهن هنا خادمات لا جوارى كما فى مصر . وأجملهن يقتنيه الجلابة أنفسهم ، ويسمون الفتاة منهن « سرية » . وتتمتع هؤلاء السرارى بقسط كبير من الحرية كثيراً ما يسئن استعماله . ويزعم لك الجلابة فى مصر — كاذبين — أن من عاداتهم المرعية ألا يعتدوا على عفاف الجوارى الجميلات ، أما الواقع فهو أنهم فى صلاتهم بهن لا يرعون أدبا ولا لياقة ، وكثيراً ما شهدت فى رحلتنا إلى سواكن مناظر مخزية يندى لها الجبين ، وذلك حين كان الخوف من الخطر يلجىء المسافرين إلى التخييم فى حلقة واحدة واسعة ، وكان الجلابة ، وهم المسئولون عن هذه المناظر قبل غيرهم ، يكتفون بالضحك منها . وإنى أقرر هنا — أيا كانت مزاعم القوم فى القاهرة — أن القليل جداً من الجوارى اللاتى جاوزن العاشرة يصلن مصر أو بلاد العرب عذارى . ويحرص وجوه القوم فى هذين القطرين أشد الحرص على ألا يشتروا من الجلابة جوارى بالغات إلا للخدمة ، وأكثر ما يشترون الفتيات الصغيرات يربونهن بين نسائهم .

ويبتاع القوم صغار العبيد تحت التجربة . وللمشترى من سوق شندى أن يجرب العبد يوما ، أما فى مصر فثلاثة أيام . وكثيراً ما يأخذ المشترى فتاة « لتجربة ليلة » كما يقولون ، وله أن يردها فى الغد دون أن يبدى لردها سبباً سوى نفوره منها ، إذ قل أن يهتم هؤلاء المتوحشون بتربية جواريهم على الشعور بالحياء أو الشرف ، فلا غرابة إذا شببن فاجرات بعد بقائهن زمناً فى حوزة الجلابة . وقد يباع صغار العبيد أحيانا بيعاً يشترط فيه عدم ردهم شرطاً صريحاً .

وهناك عيوب إذا شابت العبد كان من حق مشتريه أن يرده ولو بعد أسبوعين ، اللهم إلا إذا كان قد تنازل عن هذا الحق وهو يشتريه . وأهم هذه العيوب : (١) الشخير بالليل ، وهو فى نظرهم عيب كبير . (٢) التبول فى النوم . (٣) تحريق الأسنان فى النوم ، وهى عادة بغيضة لأنهم يعتقدون أن صاحبها لا يرجى منه أن يدين لسيده بمحبة أو ولاء . (٤) أى مرض لم يبرأ منه العبد برءاً تاماً ، أو أى مرض قديم يعاوده وهو فى حوزة مشتريه كالحمى المتقطعة أو الحكة أو نحوها . ويحرص القوم حين يشترون العبيد على التحقق من سبق إصابتهم بالجدرى . وغير المصابين بهذا المرض أرخص ممن أصيبوا به . وقد روى الجلابة أن نسبة الوفاة بالجدرى فى صغار العبيد بدارفور وكردفان تبلغ خمسهم فى المتوسط .

ويتجر كثير من الجلابة فى مفاتن جواريهن ويقاسمونهن الربح فيما بعد ، وكان أحد رفاق بالقافلة يؤجر إحدى جواريه جهرة بكيلين من الذرة يأخذ لنفسه منهما كيلا . وأذكر أن فتاة من جواريه الأثيرات لديه ماتت فى أثناء مقامنا بشندى ، فجردها من كل قطعة من الدمور تكسو جسدها ، ثم أمر فى غير اكتراث ولا مبالاة بأن تحمل الجثة على حمار إلى النيل وتقذف فيه . وقلما يدفن العبيد ، إنما جرت العادة أن تلقى جثثهم فى النهر .

ويحرص الجلابة على منع المخالطات النابية بين الرقيق ، فيفصلون الغلمان عن الفتيات فى الليل ، لا بدافع الغيرة بل الخوف من أن يهبط ثمن الجارية إذا حبلت . ولكن هذا الذى يخشون قد يقع برغم يقظتهم وحذرهم ، ويغلب أن يكون لكل فتاة محبوب تؤثره بين عبيد سيدها . ويعتقد القوم فى جميع الأقطار التى تنتشر فيها تجارة الرقيق أن الزنجية أسرع حملا من زنجى عنها من غريب . فإذا ثبت أن جارية من جوارى الجلاب حبلى لم يدخر جهداً فى إجهاضها ، فيكرهها على تعاطى ألوان من العقاقير المجهضة فى زعمهم ، بل إننى شهدت غير مرة سادة يضربون جواريهن الحبالى ضرباً لا يترك مجالا للشك فى أنهم يرمون من ورائه إلى اجهاضهن . ومن الملاحظ فى بلاد الشرق أن الجارية إذا حبلت اعترفت بالفاعل فى غير عناء . وقد

سمعت بحالات جلب فيها هذا الاعتراف عليهن الوبال ، مع أن توقيه كان يسيرا . والإجهاض أعم فى مصر حيث تقتنى كل أسرة تقريبا عبداً وجارية من السود ، ولا يعده القوم هناك جريمة على الإطلاق ، ويسمح السادة للأثيرات من جواريهم بحضور مجالس البوظة ، وأكبر مايلهون به فى هذه المجالس إثقال الفتيات بالشراب حتى يثملن .

ولقد كوّنت من أخلاق الزنوج وطباعهم أسوأ رأى لما رأيت منهم وما سمعت عنهم . على أن الإنصاف يقتضينى أن أضيف إلى هذا الحكم أننى لم أرهم بعد فى أوطانهم قبل أن يقتنصهم طغام الجلابة ، وهم كفيلون بإفساد ألطف الطباع وأرقها . غير أنى لم أجد بين العبيد من أخلصوا الولاء لسادتهم إلا القليل ، حتى ولو أحسن هؤلاء السادة معاملتهم . وأسوأ ما يشينهم عناد لا سبيل إلى ردهم عنه ، وخيلاء وصلف فى الطبع ، وفى كثير منهم حقد قتّال وولع بالثأر ، ولكنك لن تجد فيهم هذا الغدر الذى تجده حتى فى أطفال العرب الأحرار فى وادى النيل وبلاد النوبة . وفى الزنوج كسل وإهمال وبذاذة ، وهم لا يؤدون أعمالهم إلا مكرهين . ويخيل إلى أنهم تجردوا من كل عاطفة سوى شهوة البطن ، وهم لا يأبهون لما يصيبهم من ضرب أو سب ولمن إذا وجدوا الطعام الجيد وأصابوا حظهم من السمن واللحم بانتظام وظفروا بقدر من الشحم يلطخون به أجسادهم . ومن العبارات المأثورة عن الجلابة قولهم « لا تأمن العبد . اضربه واطعمه تشوف الحاجة مقضية » . ولست أدرى مبلغ الصواب فى هذه العبارة ، ولكنى أعلم على التحقيق أنها المبدأ الذى يستوحيه الجلابة إذا أمنوا هرب عبيدهم . على أن هذه المعاملة لا تحدّ من ولع العبيد بالمرح واللهو والطرب ، وقد يكون مرجع هذا قوة فى أذهانهم أو تبلداً فى عاطفتهم . أما ذكاؤهم فلا يقل مرتبة — فى رأيى — عن ذكاء العرب الزنوج ، ولعله دون ذكاء أهل مصر والشام قليلا . ولست أرى فى جوحهم ما يشينهم لولا ما يقترن به فى كثير من الأحيان من الحقد والكراهية . وقد أسلفت أن لشعوب السودان المختلفة طباعاً مختلفة ، وكل ما عرفته منهم لم يزعزع عقيدتى فى أن السود

قد يبلغون — إذا تهيأ لهم التعليم الصحيح — مرتبة تدانى مرتبة البيض إن لم تساوها .

وأجسام العبيد على مغالبتها للتعب ليست أشد من أجسام الأوربيين ولا أصلب ، بل إن الشواهد تحملنى على الاعتقاد بأنهم فى جملتهم أكثر تعرضاً للمرض من الأوربيين ، ولست أشك فى أنهم أقل احتمالا له وصبراً عليه حين يقعون فريسة له . ومن العبارات المألوفة عن الجلابة قولهم إن الضربة (أى المرض) التى لا تهز عربياً قد تصرع عبداً . وأكثر العلل تفشياً بينهم الحمى المصحوبة بالالتهاب ، ويستهدف لها كذلك أهل شندى . وهم يعالجونها بالحجامة على الساقين وبشرب نقيع التمر الهندى ، ولكنها تفتك بكثير من العبيد لا سيما الذين أعياهم طول السفر ووعثاؤه . ولعل السبب الأول فى هذا تعرضهم لتيارات الهواء وهم يتصببون عرقا ونومهم الليل كله عراة . وسمعت منهم كثيرين يشكون مرض الصفراء ، ولعل سببه الإفراط فى تعاطى البوظة الشديدة التخمر . وتتفشى البواسير على نطاق واسع بين الأهالى ، وهى أقل تفشياً بين العبيد ، ولا دواء لها عندهم غير الكىّ بالحديد المحمى . وأول ما رأيت الفرنتيت (أو دودة غانة الأصيلة) فى شندى ، ولكنها معروفة أيضا للعبيد وتجار السودان الذين يفدون على الصعيد . ويلوح لى أنها منتشرة فى السودان ، وقد رأيتها فى شبه جزيرة العرب كذلك . وهى حين تملق بالجسم لا تتخير الساق دون غيرها ، فقد رأيتها تخرج من الذراع ومن الصدر ومن الركبتين ، ولكن أحب أعضاء الجسم إليها سمانة الرجل . والإصابة بها فى شندى أقل منها فى كردفان ودارفور ، ويصاب بها عدد كبير من العبيد والجلابة الوافدين من هذين القطرين . وهى وإن سببت للمصاب بها آلاما مبرحة لا تمنعه من المسير حتى يشرف على الموت . وقد أرونى نفراً أصيبوا بها مرات ، ولكن الحظ حالفهم فيها كلها ففطنوا إلى الدودة وهى تحاول اختراق جلودهم واستطاعوا بشىء من الأناة والصبر أن يستلوها . ولا تفتك الدودة بإنسان إلا إذا عجز عن سلها من جلده أو مزقها وهو يحاول سلها ، ولكن

كثيرين يبرأون من الإصابة بها حتى ولو تمزقت منهم . وفى كردفان ودارفور يعزو القوم الإصابة بالفرنتيت إلى البقايا الحيوانية التى يحتويها الماء الذى يشربونه عقب هطول الأمطار المبكرة .

ويندر فى السودان أن يمتق العبيد ، أما الجوارى فكثيراً ما يعتقن . والحال غير هذا فى شبه جزيرة العرب ومصر ، فقلّ أن تجد فيهما عبداً خدم أسرة محترمة فترة من الزمن ولم ينل حريته ، وهم إما يزوجونه جارية من جوارى الأسرة أو يبقونه بمحض اختياره خادما للأسرة يتقاضى على خدمته أجراً . وقد درج القوم فى هذين القطرين على عتق الجارية إذا ولدت لسيدها طفلا . ومما يشين السيد فى هذه الحالة — لا سيما إذا كان المولود ذكراً — ألا يقدم للأم « تذكرة النكاح » موقعاً عليها من القاضى ، وهم يكتفون من مراسم الزواج بهذه التذكرة . فإذا مات الطفل بعد الزواج لم يكن على الرجل من حرج أو لوم إذا طلق المرأة ، ولكن يكون لزاما عليه أن يقوم بنفقتها . ولما كان الشرع الإسلامى يقصر عدد الزوجات على أربع ، فإن أغنياء القوم قد يأخذون لأنفسهم — فوق أزواجهم — محظيات من هؤلاء المعتوقات.

والرق فى بلاد الشرق ليس فيه ما يخيف ويفزع إلاّ اسمه . فالقوم فى كل مكان يعاملون العبيد كما يعاملون أبناءهم ، وهم يعاملونهم خيراً مما يعاملون الخدم الأحرار . ومن الخسة عندهم أن يبيع الرجل عبده بعد عشرة طويلة . وإذا أساء عبد سيره أرسلوه إلى الريف ليشتغل فلاحا فى حقل سيده . ولا يتمتع الجوارى اللاتى يقمن بخدمة الأسر بمثل ما يتمتع به العبيد ، وذلك لما تجلبه عليهن غيرة سيداتهن من أذى بليغ . ولا يسىء معاملة العبيد غير الجنود الأتراك ، فهم يبتاعون صغار العبيد فى الصعيد ويربونهم فى بيوتهم ، حتى إذا شبوا وتعلموا ألبسوهم لباس الجند وقلدوهم السلاح وسلكوهم فى فرقهم التى يقودونها . وفى هذه الحالة يتسلم التركى راتب عبده من الحاكم كما يتسلم رواتب غيره من الجند ، فنظام الجيش العثمانى يقضى بأن يتسلم الضابط أو « اليمباشى » رواتب الجند الذين يقودهم وأن يقوم بتوزيعها عليهم . ومن هنا كان تجنيده العبيد مصدر رزق له ، ولا تمانع الحكومة قط فى الانتفاع بخدماتهم ، ورواتبهم لا تدخل إلا جيبه ،

فهو لا يلتزم إلا بإطعامهم وكسائهم . وعلى هذا النحو دخل الجيش التركى فى مصر عدد غفير من الجند السود . بل إن محمد على فكر — فيما يقال — فى تنظيم فرقة من السود وتدريبها على أساليب الحرب الأوربية ، ولكن يلوح أن نفور كبار ضباطه من هذه البدعة حمله على العدول عنها . ويشترى الضباط الأتراك فى مصر من ستمائة عبد إلى ثمانمائة فى كل عام .

وفى الأقطار الجنوبية درج العبيد — الذين اقتناهم الأهالى فى بيوتهم لا الجلابة — على أن يعتبروا أنفسهم أعلى مقاما من كل فرد فى الأسرة ، فيما خلا ربها . فيباح للعبد حضور مجالس الأسرة ، ويسمح له بالتجارة أو بالاشتغال بغيرها من الأعمال لحسابه الخاص ، وتطلق له الحرية فى أن يفعل ما شاء إذا أثبت أنه شجاع مقدام يحسن الذود بسيفه عن سيده فى ساعة الخطر . ولا حرج عليه بعد ذلك فى أن يسىء أدبه أو سيرته ، وهو لا يخشى عقابا ولا تأديبا . فإذا قتل رجلا من الأحرار أدى سيده عنه دية القتيل وإلا تعرضت أسرته لانتقام أهله ، لأنهم لا يرون فى قتل العبد ما يكفى للتكفير عن دم الحر .

وفى مصر وبلاد العرب يخول القانون للعبد امتيازاً عظيما . فله إن تبرم بسيده وصح عزمه على عدم العيش فى كنفه أن يطلب إليه عرضه للبيع فى سوق العبيد ، فيقول له : « بيعنى فى سوق السلطان » . وقد يأبى مولاه بادىء ذى بدء أن يفرط فيه ، ولكن العبد — إذا ما تغلب على الخوف من إثارة سخط سيده — لن يعدم الفرصة لمطالبته بحقه هذا أمام شهود من وجوه القوم ، ثم يمضى فى هذا ويلح حتى يظفر آخر الأمر بما يبغى . وقد يكون بعض العبيد أقل من غيرهم قدرة على الانتفاع بهذا الحق العام لأنهم محبوسون فى الحريم لا يسمع شكاتهم غير سادتهم .

وإذا توخينا غاية الاعتدال قدرنا عدد العبيد فى مصر بأربعين ألفاً ، ثلثاهم ذكور وثلثهم اناث . ولا تكاد تخلو قرية من عبيد ، ويقتنى كل ذى مال أو عقار عبداً على الأقل . وقد نيف عدد العبيد الذى فتك بهم الطاعون فى ربيع عام ١٨١٥ ، وبلغت عن موتهم مكاتب الحكومة ، على ثمانية آلاف فى القاهرة

وحدها . على أن ما يبعثه السودان منهم إلى مصر وبلاد العرب لا يعدو — فى رأيى — أن يكون نسبة ضئيلة مما يقتنيه المسلمون فى السودان نفسه ، أو مما يجمع سنوياً من مواطن الرقيق فى قلب إفريقية سواء بالشراء أو الخطف . وقلّ أن تجد فى بربر أو شندى بيتاً لا يقتنى عبداً أو اثنين ، وأكثرها يقتنى خمسة أو ستة يفلحون الحقل ويرعون الماشية الخ . . ويقتنى الأمراء والأغنياء العشرات منهم . وهذا النظام نفسه تجده متبعاً فى أعالى النيل حتى سنار ، وفى الغرب حتى كردفان ودارفور وبورنو ، كذلك تقتنى قبائل البدو المحيطة بهذه الأصقاع العدد الغفير من العبيد . . وإذا قدرنا عدد هؤلاء الأرقاء — قياساً على عدد من يقتنيهم السكان على ضفاف النيل (ولو أن الجلابة أكدوا لى أن الرقيق فى هذه الأصقاع البعيدة أوفر عدداً منهم حتى فى شندى) — ظهر لنا فى جلاء أن الوارد منهم لمصر وبلاد العرب والمغرب قلة ضئيلة بالنسبة لمن يقتنيهم أهل السودان نفسه . وأعتقد — استناداً إلى ما شهدته بعينى فى بربر وشندى — أن عدد العبيد والجوارى على ضفاف النيل من بربر إلى سنار لا يقل عن اثنى عشر ألفاً . أما دارفور — وسكانها حسب تقدير مستر براون مائتا ألف نفس — فلعل العبيد فيها يبلغون عشرين ألفاً . وهناك إجماع على أن نسبة العبيد لا تتناقص عن هذا كلما أوغلنا غرباً فى أقطار دار صليح وبورنو والباقرى ومملكتى عفنو وهوسا — وكلها بلاد غاصة بالسكان .

وما من شك فى أن الجهود المشكورة التى تبذل فى أوربا — وفى انجلترة على الأخص — للقضاء على النخاسة ستؤتى فى أوانها ثمراً طيباً لبلاد الزنج الواقعة فى غرب إفريقية وجنوبها الغربى ، وهى المواطن التى تزود إلى اليوم الجلابة الأوربيين بالعبيد . على أننى لست أرى بارقة أمل فى محو النخاسة فى قلب إفريقية نفسها . ولو أن منافذ السودان كلها سدت فى وجه تجارة الرقيق ، ولو حظر على القوافل التى تحملهم اليوم إلى مصر وبلاد العرب والمغرب أن تحملهم ، لظلت النخاسة برغم ذلك شائعة فى السودان ذاته . ذلك أنه مادام السودان ملكا للمسلمين — ومعلوم أن دينهم يدفعهم إلى مقاتلة الزنوج الوثنيين ، وأن مطالب العيش عندهم تقتضى المدد المتصل

من الخدم والرعاة ، وأنهم يحاولون اقتناص الرقيق بوصفه أداة المقايضة تقوم مقام العملة كما يلتمس غيرهم من الشعوب المادن من المناجم الإفريقية — أقول مادام زمام السودان بيد السكان المسلمين فلا سبيل إلى محو النخاسة فى قلب القارة ، ولن يقضى عليها القضاء المبرم إلا إذا تهيأت للزنوج العدة لرد غارات جيرانهم المسلمين ودفع طغيانهم . فالأمل فى خلاص هؤلاء السود ليس معقوداً إذن بمعونة الشعوب الأجنبية ، بل إن السود أنفسهم هم الذين يجب أن تحمل كواهلهم عبء هذه المهمة العظمى ، ولا سبيل للخلاص إلا سبيل النضال والمقاومة الناجحة . وتستطيع حكومات أوربا التى تمتلك المستعمرات على شواطىء إفريقية أن تعينهم على هذه المقاومة ، سواء بالاتجار معهم أو بتعليمهم الحرف والصناعات حتى يتم لهم آخر الأمر التفوق على المسلمين فى الحرب . إذن فما لم يلحق بمشروع إلغاء النخاسة فى المحيط الأطلنطى — وخطبها يسير إذا قيست بالنخاسة فى قلب القارة — خطة حكيمة واسعة تستهدف تحضير القارة ، فلن تكون المعونة التى تقدمها أوربا للسود ذات أثر يؤبه به . وخير خطة يرجى أن تؤتى أطيب الثمرات هى أن يضطلع الإفريقيون الذين تعلموا فى أوربا بتعليم إخوانهم فى أوطانهم . على أن الأمل ضعيف فى أن تهتم بهؤلاء الزنوج النائين المزدرين حكومات أوربا ، وهى على ما عرفنا من أنانية وخطل فى السياسة يجعلانها لا تعبأ بتعليم فقرائها هى بله الفقراء فى غير بلادها .

وما قلت عن أخلاق أهل بربر يصدق بحذافيره على أهل شندى ، فهم لايقلون عن إخوانهم انحرافاً . على أن لملك شندى سلطاناً لا يدانيه سلطان ملك بربر ، لذلك استطاع أن يحد من شر رعاياه وجشعهم . وسكان الإقليم كلهم من العرب الأحرار ، وأعز هؤلاء نفراً هم عرب الجعليين ، ثم يليهم (أولا) العبابدة ، ويزعمون أنهم منحدرون من جد عبابدة مصر ويدعى سلمان من عرب بنى هلال ، وهى قبيلة شرقيـــــة عظيمة نزحت إلى الأصقاع الشمالية فى إفريقية حتى تونس بعد الفتح الإســـلامى . (ثانياً) عرب البطاحين (ثالثاً) الحمدة ، ويعترف بقرابتهم عرب الحمدة النـازلون فى أرباض الأقصر

والكرنك بصعيد مصر ، ومن هنا سميت الأقصر بالحدية ، وهو اسمها الأشهر عند أهل الصعيد . وتتطاحن القبائل المختلفة لأسباب عدة أهمها الثأر للدم ، وهو ثأر يتعرض له الأقربون من ذوى الرحم كما جرت عادة البدو الشرقيين، ولكن يخيل إلىّ أن العرب هنا لا يراعون هذه الفوارق الدقيقة التى فصلت فيها القول عند وصفى للبدو . ودية الدم عند الجمليين ألف ثوب دمور ، وهى تعادل اليوم ثلاثمائة ريال إسبانى أو أربعمائة ، ويؤديها القاتل على أقساط إذا رضى بها أهل القتيل ، ورضاؤهم لا يعرضهم الكثير من التشهير والتعيير كما يعرض أمثالهم فى شبه جزيرة العرب . وهم يحتفظون بحساب منظم للدية ، ويقيدون فيه للقاتل أو أهله ما يؤدى من دينه لأهل القتيل مهما قلّ أو تفه — حتى الخبز القليل أو حفنات الذرة . وقد تمضى السنون الطوال قبل أن يسدّد الدين كله ،ولكن الفريقين يقضيان هذه الفترة متصافيين .

وفى العرب الجمليين غدر وخيانة ، ولكنها خلق العرب جميعاً فى هذه البلاد. ولم يبلغ بهم الانحلال والتنكر لماضيهم مبلغاً ينسيهم أن الوفاء أول فضائل العرب. وطالما سمعت الجمليين يتشدقون بوفائهم لمن ارتبطوا وإياهم بعهد الصداقة والإخاء ، ولكن رأى الناس جملة فيهم لا يقرهم على هذه الدعوى ولا ينسب لهم هذا الخلق الكريم (*) .

وأعدى أعداء هؤلاء العرب قبيلتان هما الشكرية و الكواهلة (وهما اسمان عربيان) ، وتنزل القبيلتان الأرض فى جنوب الجمليين وجنوبهم الغربى ، ويغير أفرادهما على الجمليين المرة بعد المرة وينهبون بلادهم ويخطفون ماشيتهم . ويسكن بعض الشكرية ضفاف النيل قرب أبو حراز ، ولكن أكثرهم يعيشون متبدين فى الصحراء الشرقية . أما الكواهلة فينتشرون حتى إقليم دنقر ، وينزل

(*) مات من الجعليين شيخ فى شندى ، فرأيت النساء من أهله يجبن أهم الشوارع والطرقات معولات مولولات وقد كدن يتجردن من الثياب إلا أسمالا بالية ، أما رءوسهن ووجوههن وصدورهن فيحثون عليها التراب حتى أصبح منظرهن منكراً أشد النكر ، وكانت تمشى معهن صواحبهن ترددن العويل وتعقدن الأيدى . وفى العشية نحرت الأبقار وأرسلت أطباق صغيرة من لحمها لجميع التجار النزلاء .

بعضهم ضفاف عطبرة . وتتكلم القبيلتان العربية . وأيام كنت بشندى عاد الجمليون من حملة موفقة على القبيلتين غنموا فيها مائتى بعير من مضاربهم على مسيرة أربعة أيام من شندى . ومثل هذا التناحر بين القبائل تجده فى بادية الشام وصحراء العرب ، إذ قل أن تصادف فيهما قبيلة ذات شأن لا تناصبها العداء قبيلة أخرى تنافسها قوة وسلطاناً . وهذه الغارات والحملات التى تشنها القبائل على بعضها البعض كفيلة بتأجيج الروح الحربية وروح المنافسة فى صدور شبابها . على أن هذه الحملات قلّ أن تشنها قبائل العرب على جيرانهم الأقربين ، وقد تنشب الحرب بين الجيران ، ولكن سرعان ما يعقبها الصلح والتحالف .

وعرب الأقطار الجنوبية — فيما خلا النازلين منهم وادى النيل — يتحركون حركتين واسعتين كل عام بالإضافة إلى حركاتهم اليومية . فهم فى الصيف ينزحون إلى الجبال حيث عيون الماء وحيث الكلأ الذى لا يجدونه فى السهول الجافة . وتجدهم هم وقطعانهم منبثين — فى الفصل المطير — فوق الرقعة الفسيحة الواقعة بين عطبرة والنيل ينتجمون مراعيها الموفورة الكلأ . والكواهلة — فيما يروى — أقوى من الشكرية وإن لم يدانوهم عدداً . وكلا القبيلتين تدين بالإسلام ولو اسمياً . ويقال إن الماشية التى يقتنونها ماشية ممتازة .

ولعل القارىء ينتظر أن أسوق إليه طرفاً من المعلومات الجغرافية عن الأقطار المحيطة بشندى مع أننى لم أمكث بها أكثر من شهر، ولم تكن ظروفى مما يعين على جمع مثل هذه المعلومات . على أن مستر براون قد سبقنى إلى تفصيل القول عن جغرافية هذه الأقطار . أما الأقطار الواقعة إلى الجنوب من شندى، وإلى الشرق منها بينها وبين الحبش، فقد أخفقت لسوء حظى فى جمع أية معلومات عنها ، لا لتوان منى أو إهمال ، بل لأن تدوين المذكرات أيا كانت كان ضرباً من المحال وأنا فى الركب . وكنت على يقين — وأنا محوط من كل جانب بقوم فضوليين يأخذون علىّ كل حركة وسكنة ، ومجرد من أية حماية تظلنى غير ما بى من خصاصة — كنت على يقين من أننى لو أثرت شبهة

القوم وريبتهم مرة لـكان فى ذلك حتفى آخر الأمر . ولم يكن فى استطاعتى أن أجمع البيانات الدقيقة المفصلة عن المواقع الجغرافية وعن الأبعاد والمسافات إلا بتوجيه الأسئلة الصريحة إلى التجار ، ولـكن أحداً منهم لم يشعرنى باستعداده للتفضل على بالجواب لوجه الله . أما شراء[1] هذه المعلومات فأمر كان من شأنه أن يجعلنى حديث أهل المدينة كلها وهدفاً للمزيد من فضولهم وتساؤلهم وقد كنت بينهم ظاهراً ملحوظاً على غير ما أبغى . صحيح أننى حاولت مراراً أن أغرى بعض أهل سنار بالخوض معى فى الحديث الودى ، فـكنت أجلس إليهم وأملأ لهم قصباتهم من تبغى ، ولـكنهم سرعان ما كانوا يسأمون أسئلتى عن أقطار الجنوب ويؤولونها أعجب تأويل . والحاصل أننى ما كنت لأستطيع جمع هذه المعلومات إلا من شوارد الحديث وأشتاته خلال مقام طويل بالإقليم . ولو أن القوم عرفونى أوربياً كما عرفوا بروس فى الحبشة وبراون فى دارفور لأفدت من فراغى أعظم إفادة دون أن أعرض نفسى لمزيد من الخطر . ولـكن حالى كانت غير حالهما ، فقد أفلحت فى كتمان أمرى ، وكان على أن أقطع رحلة محفوفة بالخطر ، ولم يكن لى أمل فى بلوغ البحر إن أنا أثرت ريبة القوم فى خطط أسفارى . تلك كانت عقيدتى الراسخة على أى حال . وأنا إذ أقرر أننى كتمت أمرى لست أزعم لنفسى قدرة خارقة على الـكتمان ، إنما أدل القارىء على أمر كان يتوقف عليه نجاحى[2] ، وأضيف رجاء أوجهه إلى من سيتاح لهم السفر إلى هذه الأقطار ، فإذا سمعوا القوم يصفوننى بأننى من الإفرنج ، فلا يكن هذا داعياً يدعوهم لتـكذيب سائر ماقصصت عن هذه الرحلة . فما من شك فى أن الدراويين سيكشفون آخر الأمر هوية هذا الصعلوك الذى رافقهم فى رحلتهم ، ولـكن هذا لا ينفى أن أمرى كان مخفياً عنهم طوال الرحلة .

---

(١) زرت قسماً من حوران — جنوب دمشق — مع قسيس يونانى ، فـكان يتقاضانى بارتين عن كل جواب يدلى به إلى عن أى موضوع غريب ، وبارة عن اسم كل قرية أو قبيلة عربية أدونها نقلا عنه ، وخمس بارات عن كل مخطوط إغريقى أنسخه منه .

(٢) فى رأيى أن الطريق إلى سنار ميسور للتاجر المسيحى أو الإفرنجى أو لأى شخص خبير أيا كان وطنه ، أما الدروب الخارجة من النيل إلى البحر الأحمر فيجب ألا يسلكها من لا يستطيع الظهور بمظهر التجار الوطنيين .

ولقد جمع مستر براون خلال العامين اللذين أقامهما بدارفور معلومات ثمينة عن بلاد الزنج المحيطة بهذه المملكة ، ولكن الشك لايخامرنى فى أن أهل دارفور لم يسيئوا به الظن إلا بسبب إمعانه فى السؤال والتقصّى . ولو أتيح له أن يغادر دارفور ويجوب غيرها من أنحاء السودان لوقع له مثل هذا ولانتهى الأمر بحبوط مساعيه وإخفاق خططه . ولست أقول هذا غضاً من شأن مستر براون ، فإن كفايته وجلده قل أن يجتمعا لرجل ، وإننى لأذكر له صداقته أبد الدهر ، وأعزو كثيراً من الفضل فى توفيقى إلى نصائحه الغالية . إنما سقت هذه الملاحظات لمن يخلفوننى فى هذا العمل . فحين خرج مستر براون فى رحلته إلى دارفور لم يكن له هذا العلم الذى حصله فيما بعد بالعربية وطباع العرب . فلما لم يستطع الظهور بين القوم فى زى المشارقة لم يحاول إنكار أوربيته ، لأنه رأى — وكان فى رأيه على حق — أن من الخير له أن يحتفظ بجنسيته ، مهما قل احترام القوم لها فى هذه الأصقاع ، عن أن ينتحل ملابس الوطنيين وعاداتهم هذا الانتحال الأعرج فيعرض نفسه لأوخم العواقب ولخطر الكشف عن سره بين ساعة وساعة . ولكنه كان يستطيع — حتى فى صفة الأوربى — أن يكون أكثر إطمئناناً على نفسه لو أنه اتخذ التجارة مهنة بدل الطب ، فالطب مهنة لاعهد لأهل هذه البلاد بها .

وفى أثناء مقامى بأسيوط عرفت رجلا رأى مستر براون بدارفور — وكان هذا قد أقام ببيت أخيه ردحاً من الزمن — وروى لى أن مستر براون كان طوال رحلته من أسيوط إلى دارفور مشتغلا بتدوين الأحداث اليومية وبالاستفسار عن أسماء مايلقى فى الطريق من نجاد ووهاد ، وأنه كان لديه قطعة من الرصاص يكتب بها فلا تنضب . ثم قال إن « سلطان الإنجليز » لابد أوفده لتجسس الإقليم ، فلما أدرك ملك دارفور أنه لم يأت إلا مستطلعاً كفه عن التجول فى أنحاء البلاد . وقد أكد لى الرجل البيانات التى ذكرها مستر براون عن نفسه وهو بدارفور ، وهى حقائق لا يمكن أن يتطرق الشك فى صحتها إلى من عرف أمانته وصدقه . ولقد شعر هذا الصديق الراحل — الذى بذل نفسه فى سبيل الحقيقة والعلم فكان أطهر قربان وأكرم ضحية — أقول إنه شعر بأن تدوينه المذكرات جهرة كان العقبة

التي عاقته عن بلوغ أقصى ما يصبو إليه من نجاح ، فكانت نصيحته التي محضنيها غير مرة أن أتوخى في هذه المسألة الحذر الشديد ، وهي حكمة قد تبدو للقارىء الأوربي أدنى إلى الجبن ، أو إلى المغالاة في الحيطة على الأقل ، لأنه لا يعرفها ولا يقدرها حق قدرها غير من كابد أمثال هذه الرحلة .

وليس بين سنار وشندى وبربر مواصلات مائية ، ولا تستعمل القوارب إلا للعبور من بر إلى بر ، وهي إلى ذلك نادرة جدا ، ووسيلة القوم في عبور النهر الراموس الصغير من الغاب . ويطلق السكان من العرب على فرع النهر الذي تقع عليه سنار والذي ينبع من الحبشة اسم النيل أو البحر الأزرق ، فيقولون « بلد سنار مبنية على حافية النيل » . وقياساً على هذا يكون بروس على حق حين زعم أنه كاشف منابع النيل . بيد أني سمعت غير مرة من تجار سنار أن البحر الأبيض [النيل الأبيض] أكبر كثيراً من النيل الأزرق (وهم يعنون بالبحر الأبيض فرع النيل الواقع غربي النيل الأزرق) . وقيل لي من مصدر ثقة إن بين شندى والدامر جندلاً في النهر شبيها بجندل أسوان ، وإن هناك جندلا أكبر وأوعر في إقليم عرب الرباطاب بعد بربر .

وكثيراً ما تقصر مياه الفيضان دون بلوغ الأرض المجاورة لشندى بسبب ارتفاع ضفتي النهر ، وفي الزراع هنا كسل وتوان يقعدانهم عن معاونة الطبيعة بشق القنوات . وقد ذكرت أن شندى تعتمد في زادها من الذرة على ما تجلبه من الجنوب ، ولكنها جلبت بعض هذا الزاد من التاكة خلال القحط الذي حل بالبلاد في العام الماضي . ويبدأ هطول المطر عادة حوالى منتصف يونيو ، غير أن الفصل المطير هنا أقل ثباتاً واستقراراً منه في غرب السودان . وفي أواخر إبريل أصابت شندى شآبيب قليلة من المطر ، ولاح في المساء بعض البروق في المشرق ، وما وافى العاشر من مايو حتى علمنا أن مجرى نهر مقرن قد غص بالماء ، وأنه أفرغ ماءه في النيل بعد أن علا فيه أقداماً ، فلا بد أن مطراً غزيراً قد هطل — إما صوب جبال البشارية حيث منبع مقرن ، وإما صوب منبع عطبرة في بلاد الحبش . والفرض الثاني أرجح لأننا لم نعثر فيما بعد على آثار مطر في صحراء البشارية . ولكن يخيل إليّ أن هذه

الأمطار ليست من الوفرة بمكان ، وأن هطولها لا يدوم أسابيع متصلة كما هي الحال في كردفان على ما سمعت ، إنما هي تسقط متقطعة وإن كان سقوطهـا في سيول متدفقة . أما الصحراء الشمالية الواقعة بين بربر ومصر ، لا سيما الإقليم الجبلي الواقع إلى الشمال من عين شقرة ، فليس فيها على ما يبدو موسم ثابت للمطر . وقد أجمع كل من سألت من مصريين وعبابدة على أن هـذه الجبال يصيبها الغيث صيف شتاء ، ولكنه غير غزير . وركاب القوافل في خوف دائم من أن تمطرهم السماء في أي وقت أيا كان الفصل الذي يسافرون فيه فتتلف أمتعتهم وبضائعهم ، وقد بلغني مثل هذا عن طبيعة هـذه الأمطار وأنا مصعد مع النيل في رحلتي إلى دنقـلة . كذلك يسقط المطر في جميع فصول السنة على سلسلة الجبال الممتدة من أسوان إلى القصير بين النيـل والبحر الأحمر ، ولـكن سقوطه يكاد يقتصر على الشتاء إلى الشمال من طريق القصير حتى السويس ، في جبال عرب المعازة . ومعلوم أن المطر نادر في وادي النيل ، بيد أنه يسقط لماماً على الدلتا في أشهر معدودة . أما الصعيد فيكاد يقفر منه في أجزائه الدانية من النيل ، لذلك ترى فيه ظاهرة فذة ؛ فالوادي الخصيب عديم المطر على مدار السنة في حين تحظى الجبال الجرداء على ساعات منه بمطر منتظم . وفي شهر سبتمبر حين كنت بإسنا أمطرتنا السماء مدراراً وطفقت تسح ساعتين متصلتين بمطر لا يذكر له الإسناويون نظيراً .

ويعرف أهل شندي أوان ريح الخماسين الحارة كما يعرفه أهل مصر . وسميت الريح هكذا لأنهم حسبوا مدتها خمسين يوماً تمتد من ٢٩ أو ٣٠ إبريل إلى ١٨ أو ١٩ يونيو ، وهو أوان « النقطة » أو أول ارتفاع النيل في مصر . وحين كنت بإسنا في أول مايو بدأ هبوب الخماسين ، فأرسلت علينا شواظاً من ريحها اللافحة الخانقة . وقد قضيت بشندي مطالع الخماسين فشهدت بها هبوب الريح الحارة أياماً ، وخيل إلى أنها لم تبلغ في حرها وإرهاقها مبلغ خماسين الصعيد ، مع أنني في شندي كنت ليل نهار أمكث في العراء لا أدخل غرفة رطبة ولا أجد ما يقيني وقدة الشمس غير تعريشة أستظل بها . ولست أدري هل الفضل في هذا لاعتدالي في الطعام وزهدي في الشراب ، ومن شأن هذا كما أقنعتني التجارب أن يكسر من حـدة الحر والقر

على السواء ، أو الفضل فيه لخلاف فى المناخ نفسه . ولكن ليذكر القارىء أن شندى أعلى كثيراً من الصعيد .

وأهل البلاد الواقعة على النيل من دنقلة إلى سنار ، وكذلك سائر القبائل العربية الصحيحة إلى برنو ، يتكلمون العربية دون سواها ، وجيرانهم مزدرون محتقرون فى نظرهم سيان منهم الشرقيون والغربيون ، فكلهم عندهم «عجم(*)» وهو لقب غير الناطقين بالضاد فى لغة القرآن الكريم . على أنك تسمع بينهم أيضاً ما تسمع بين البدو الأعراب من رطانات متعددة واختلاف فى النطق والألفاظ . فالشرقيون النازلون عطبرة صوب التاكة والبحر الأحمر يتكلمون الرطانة البشارية ، أما النوبيون فأقرب الرطانات الدخيلة عليهم رطانة كردفان التى لا تختلف عن لهجة الفور إلا فى النطق . ويتكلم القوم العربية فى طلاقة وإجادة ، ويلوح لى أن عرب السودان أفصح لساناً من أخوتهم بمصر وأشد تمكناً من عربيتهم ، ونطقهم بها شبيه بنطق أهل الصعيد ، وهو يختلف أكبر اختلاف عن نطق أهل القاهرة والدلتا . ذلك أن أهل الصعيد إلى الجنوب من أسيوط ليسوا سوى قبائل البدو القديمة ، وعربيتهم فى نظرى خالصة نقية من الشوائب ، ولا يفضلها نقاء غير عربية شبه الجزيرة . صحيح أنهم ينطقونها بلغة مصرية ، ولكن ألفاظهم وعباراتهم جلها مأخوذ من لغة الحجاز واليمن ، وهو ما تحققته بنفسى فى أثناء مقامى بعد ذلك بجدة ومكة . ويستعمل عرب الجنوب كثيراً من العبارات الدخيلة على العربية ، ولعلها نتيجة اتصالهم الوثيق بالزنوج ، ويستعملون الكثير من الألفاظ الفنية ، ولعلها مشتقة من الحبشية ومن لغات البشارية والزنوج .

ويمتز عرب الجمليين أكثر ما يمتزون بلسانهم العربى المبين ، وقد سمعت عرباً من قبيلة بنى حسان التى تنتجع بحر الغزال يتكلمون بلهجة هى لهجة الجمليين

(*) يطلق العرب لفظ العجم من ناحية على الفرس ومن ناحية أخرى على أهل الشاطىء الإفريقى المقابل لشبه جزيرة العرب حيث يتكلم السكان أشتاتاً من اللغات . ولا يزال اليمنيون والحجازيون يسمون هذه البلاد العجم ، وهو اسم يطوى تحته جميع الساحل من سواكن إلى بلاد البربر بما فى ذلك بلاد الحبش ، ويسميه الجغرافيون الأوربيون Regnum Adjamioe.

لا تشوبها شائبة مغربية ، وهو ما استرعى التفاتى بنوع خاص ، وهو يدعو إلى الترجيح بأن أصلهم من الشرق لا من الغرب . كذلك تجد فى دارفور وكردفان كثيراً من القبائل العربية محتفظة بلغة أجدادها وإن تكلمت رطانة البلاد إلى جانب العربية . ولا يعرف القراءة والكتابة من القبائل العربية إلا قلة لا تذكر ، ولكن الجميع يجيدون الكلام بعبارة واضحة سليمة بل بليغة فى كثير من الأحيان ، وليس بالغريب ولا النادر أن تجد فيهم الشعراء الذين يتغنون فى قصائدهم بذكر أبطال الحرب على نحو ما يفعل شعراء العرب الشرقيين . وقصائدهم لا تكتب وإنما تتناقلها ألسنة الرواة ، وقد لا يسلم شعرهم من الهنات اللغوية، ولكنه لا يحيد قيد شعرة عن أوزان الشعر العربى . ويخيل إلى أن ألحانهم دخيلة ، وذلك لأن العرب — ولا أقول البدو — على اختلاف أمصارهم ، سواء منهم عرب العراق أو الشام أو شبه الجزيرة أو مصر ، يغنون ألحانا ذات طابع مشترك بين هذه الأقوام جميعاً ، وهى تختلف تمام الاختلاف عن ألحان المغاربة والعرب الزنوج . ولعل غناء العرب الزنوج مأخوذ عن بدو البشارية ؛ فإن أغانى البشارية القومية أقرب إلى أغانيهم من أغانى المصريين . أما العبابدة فقد استعاروا أغانيهم كلها من البشارية ، وهم يغنون بصعيد مصر هذه الأغانى نفسها ، وقد سمعتها كذلك فى شندى من تجار سنار يتغنون بها وهم يحتسون البوظة . على أن هناك ضرباً من الغناء تشترك فيه هـذه الشعوب جميعها ، ألا وهو « الحداء » ، غناء يسوقون به الإبل فى مسيرها ليلا على الأخص . والحداء أحب ضروب الغناء إلى البدو فى الصحارى العربية ، وقد سمعته على ضفاف الفرات كما سمعته على ضفاف العطبرة . ومن غريب العادات الفاشية بين القوم جميعاً أنهم إذا أرادوا نفى أمر أو رفض طلب طقطقوا حلوقهم بألسنتهم ، وكذلك يفعلون — بصوت أشد وأعلى — إذا أرادوا التأكيد أو الاستحسان . ويعتبر هذا فى تركيا وبلاد العرب ضرباً من الوقاحة والإهانة ؛ أو على الأقل عادة من العادات المبتذلة الوضيعة . كذلك يفرقعون أصابعهم إذا طلبوا شيئاً كأنهم يقولون « هات » .

وأهل شندى على ولعهم بالغناء لم يؤتوا من العلم بالآلات الموسيقية إلا قليلا ،

فلم أر عندهم من الآلات غير « الطمبورة » ، وغير ضرب من المزمار مصنوع من ساق الذرة الأجوف ينبعث منه صوت حزين كئيب ، هذا بالإضافة إلى «النقارة» ويخيل إلى أن هذه النقارة لازمة من لوازم الإمارة فى السودان طولا وعرضاً ، فهم إذا أرادوا وصف رجل من ذوى السلطان قالوا إن النقارة تقرع أمام بيته ، وفى شندى كانت تدق النقارات أمام بيت الملك كل عصر بانتظام . ومن الألعاب التى يؤثرها عرب السودان « السيجة » ، وهى ضرب من الداما يعرفه عرب الصعيد أيضاً ، ويلعبونه على الرمل فيخطون رقعة ذات تسعة وأربعين مربعا ، ويختار أحد اللاعبين « كلابه » من كرات من روث الجمال يلتقطها من الطريق ، ويلعب غريمه بكرات من روث الماعز . واللعبة معقدة تتطلب من لاعبها يقظة وانتباها ، وهم اللاعب فيها أن يأكل كلاب غريمه ، ولكن قواعدها تختلف عن قواعد الداما البولندية اختلافا كبيراً . وللقوم بها ولع كبير ، وقلّ أن يقعد شخصان معاً دون أن يشرعا من فورهما فى خط رقعة السيجة على الرمل . ولا يجد الملك نفسه غضاضة فى ملاعبة أحقر الخدم إذا أثر عنه حذقه اللعبة . ولا يستاء لاعب إن أعان غريمه متفرج من بين الواقفين بمشورة أو رأى . وقد يلعب بعضهم على قرعة بوظة ، ولكن هذا قليل . ولا يجهل القوم الشطرنج ، ولكنى لم أصادف منهم من يلعبه .

ولم يقع لى إبان مكثى بشندى ما ينغصنى أو يكدر صفوى . صحيح أن العبابدة الذين ساكنتهم لم يبدوا نحوى كبير عطف أو مودة ، ولكنهم كذلك لم يسيئوا إلى أو يغلظوا لى القول ، وهذا قصارى ما كنت أطمع فيه . وكان وجودى فى صحبتهم حمى لى وستراً لأننى سرعان ما اشتهرت فى المدينة كلها ، فحرصت على إعلام القوم بأننى أنتمى للأدلاء العبابدة وجماعتهم المبجلة . وغصّ البيت والحوش بالعبيد والجمال ، فقسمنا أنفسنا جماعات يشترك أفراد كل منها فى الطعام ، وكان كل منا يؤدى نصيبه اليومى من الذرة للجوارى اللاتى يقمن بطهو الطعام ، وكانت نفقاتنا جميعها تؤدى ذرة . ودأب بعض الرفاق على الاجتماع لتعاطى البوظة ليلا ، أما النهار فكانوا ينفقونه فى البيع والشراء . وكنت تواقاً إلى استرضاء العبابدة ،

فاشتريت عقب وصولنا جملا ذبحته لهم ، ولم أضن عليهم بما يشتهون من تبغ .
وكنت أختلف إلى السوق بانتظام ، وتعرفت إلى بعض الفقهاء ممن قد أحتمى بهم من شر رفاق الدراويين الذين لم يكفوا عنى سفاهتهم أينما لقونى . بل إن ابن صاحبى الدراوى القديم ، هذا الذى أوصاه أبوه بى خيراً وشدد فى الوصية ، هذا الفتى بلغ به التطاول علىّ أن بصق فى وجهى مرة فى السوق لأننى طالبته ملحاً برد مبلغ ضئيل من المال كان قد اقترضه منى ثم أنكره بأغلظ الأيمان . والحق أننى لم أكن ألقى أحد هؤلاء الدراويين فى طرقات المدينة وشوارعها دون أن ينالنى منه السب والإهانة،ولو ألقيت إلى الأمر بالاً لمضوا بى إلى الملك وألحقوا بى أشد الأذى لما لهم من حظوة ونفوذ عنده . هؤلاء الدراويون هم الذين أفقدونى بندقيتى كما علمت فيما بعد ، والله أعلم بما كانوا يبيتون لى بعد ذلك لولا أن فتق لى ذهنى خطة أثمرت لى الخير كل الخير . ذلك أن الشك لم يخامرهم فى أن سنار هى وجهتى ، فأنا لم أنبىء أحداً بأننى ميمم شطر البحر الأحمر رأساً . وكانوا لفرط إساءاتهم إلىّ يكرهون أن أعود إلى مصر حيث أستطيع أن أناقشهم الحساب ، وحيث تكفى كلمة تصدر منى لإبراهيم باشا والى الصعيد آنئذ فينكل بهم تنكيلا ، ولو أن هذا ما كان يخطر لهم ببال . وعلى ذلك فقد حاولوا التمهيد لأذاى،فأشاعوا عنى أسوأ الشائعات بين تجار سنار وقد خالونى مسافراً فى صحبتهم ، وقالوا عنى إننى أملك المال الطائل ابتززته فى مصر ، وإن سلب بضاعتى لن يكون إلا جزاء وفاقا وإنتصافاً لأولئك الذين ابتززت مالهم . وكنت الآن قد قضيت بشندى قرابة أسابيع ثلاثة ، وأصحابى العبابدة يتأهبون للعودة إلى وطنهم بعد أن ابتاعوا الكثير من العبيد والجمال ، وكانت هناك قافلة سواكنية على وشك الرحيل أيضاً . إزاء هذا أذعت أننى عدلت نهائيا عن متابعة الرحلة جنوباً لأنه لن يفضل معى من المال ما يغطى نفقات سفرى بعد بلوغى سنار . وعلى ذلك ابتعت بما تبقى لى غلاما وجملا ، ثم أعلنت أننى قافل إلى مصر مع أصحابى العبابدة ، وهى فكرة طالما أغرونى بها من قبل . هذه الخطة أطاحت بما دبر الدراويون من خطط وحملتهم على تغيير مسلكهم معى بين عشية وضحاها ، فإذا كبيرهم يزورنى ويكرر الزيارة — وهو الذى ضربنى فى الدامر — ،

وإذا هو يبعث إلىّ بالعشاء الفاخر مرات ، ويعرب لى عن أصدق أمانيه فى أن نلتقى ثانية بمصر فى صفاء وود لأنه مزمع أن يتخذ إليها سمته هو وجماعته بعد رحيل العبابدة بقليل ، وأن يصطحب من بين عبابدة بربر خبراء لرحلة الصحراء . أما أنا فقد اتخذت أثناء ذلك أهبتى للرحلة وأعددت لها كل العدة واستفسرت سراً عن قافلة سواكن ، وفى الليلة السابقة لقيامها — وكان يسبق قيام العبابدة بيومين — أحطت شيخ العبابدة علماً بخطتى ، واستطعت بهدية صغيرة أن أحمله على مرافقتى لشيخ القافلة السواكنية ، فقدمنى إليه بوصفى صديقه وأوصاه بى خيراً . والقوم فى مثل هذه الرحلات يعفون المسافر من كل تكليف أو احتفال، فدابته من تحته وهو حر فى السفر مع أى قافلة شاء ، ورئيس القافلة تواق بطبيعة الحال إلى الاستزادة من المسافرين استكثاراً للمنفعه وتعزيزاً لأسباب الدفاع عن القافلة كلها .

أما اعتزامى السفر رأساً إلى البحر فلم يحملنى عليه خوف من مغبة الشائعات التى افتراها علىّ الجلابة الدراويون . ولم أر — وأنا فى موقفى هذا — كبير مشقة فى بلوغى سنار إن شئت أو السفر منها إلى غندار ومصوع ، لأنى أعلم أن التجار الأحباش غادون رائحون بين غندار وراس الفيل حيث يلقاهم التجار السناريون ، فإذا وصلت غندار ووديان الحبشة الخصيبة فلن يعيينى أن أشق طريقى إلى الساحل ، ولكنى إن فعلت لن أكون إلا متأثراً خطى بونسيه Poncet وبروس ، وأنا واثق أنه لن يمضى طويل وقت حتى نستكشف كل مجاهل الحبشة لسهولة الوصول إليها نسبياً من البحر . ولكنى رأيت أن رحلتى فى الإقليم الواقع بين شندى والبحر الأحمر قد تضيف إلى علمنا بإثيوبيا جديداً ، وأن مثل هذه الرحلة المحفوفة بالمكاره لن يقوى على الاضطلاع بها غير رحالة تمرس بتجارب السفر القاسية ، لذلك آثرت أن أقطع هذا الإقليم الصغير نسبياً مخافة أن يطول جهل الناس به . كذلك كنت فى اختيارى متأثراً أشد التأثر باعتبار آخر هو رغبتى فى بلوغ مكة فى شهر نوفمبر ، وهو موسم الحج . والحق أن هذا الهدف كان من أهم أهدافى طوال إقامتى بصعيد مصر ، وكان عاملا من العوامل التى حفزتنى إلى الخروج فى هذه الرحلة الثانية

إلى بلاد النوبة . ولست أشك فى أن صفة الحاج ستكون لى أقوى سند وأفضل حماية فى أى رحلة أقوم بها فى قلب إفريقية . ولو أردت إنفاذ خطتى هـذه من السويس أو القصير لوجدت دون ذلك صعاباً ذات بال ، أما السفر بطريق الحبشة فقد يعوقنى فى البر أو البحر فترة تعطلنى عن إدراك الحج فى مكة ، وكنت على يقين أننى لو بلغت مكة بعد فوات موسم الحج لما استطعت أن أزعم للناس بعـد ذلك أننى حاج أصيل لا غش فيه دون أن أخشى افتضاح أمرى بين يوم وآخر .

لذلك بعت فى شندى كل بضاعتى ودفعت حصتى فى نفقات الإقامة بالمدينة ، وقدمت لرب البيت هدية لا بأس بها ، ثم اشتريت غلاماً فى الرابعة عشرة أو نحوها وذلك لغرضين ، فهو من جهة رفيق نافع مستديم ، وهو إلى ذلك حجة واضحة أتـكىء عليها فى تبرير رحلتى إلى البحر الأحمر لأننى قد أبيعه هناك بربح . وكنت لا أزال أزعم للناس أننى جاد فى البحث عن قريب لى قد انقطعت أخباره عنى ، ولـكنى الآن أضفت إلى ذلك أننى إزاء ما لقيت من مشاق السفر براً فى هـذه البلاد اعتزمت أن أركب البحر من سواكن إلى مصوع فأدخل الحبشة من هـذا الطريق ، وزعمت لهم أن الدلائل كلها تدلنى على أننى سأعثر على هذا القريب فى الحبشة . وعلمت أن قافلة سواكن قسمان ، قسم يقصد سواكن رأساً ، وقسم يسلك طريق التاكة . فعولت على السفر مع الجماعة الثانية ، وعلى تجربة حظى فى العثور على مواصلة ملائمة تنقلنى من التاكة إلى مصوع .

واخترت عبدى من بين عدد كبير من الغلمان ، ودفعت فيه ستة عشر ريالاً . وقد ألفيته غلاماً نافعاً وخادماً ممتازاً . كذلك اشتريت جملا بأحد عشر ريالا وعنيت بانتقائه من أصلب الإبل وأشدها لأن سلامتى كانت رهينة به . وأخذت معى زاداً من « الأبريه » أو الخبز الجاف والذرة ودقيق الذرة والسمن ، وابتعت عدداً من مقاطع الدمور لعلمى بأن الطلب عليها كثير فى طريق التاكة . وبقى لى من المال بعد تسديد حساباتى كلها أربعة ريالات ، ولـكن ضآلة هـذا المبلغ لم تزعجنى ، فقد رتبت أن أبيع جملى حال بلوغى الساحل بثمن يغطى نفقات رحلتى إلى جدة ، وكنت أحمل إليها من مصر خطاب اعتماد بمبلغ كبير من المال .

الرحلة من شندي إلى التاكة

بكرت قافلة سواكن فى القيام صبيحة ١٧ مايو وجاوزت حدود المدينة قبل أن أفرغ تماماً من تحميل جملى ، وبينما كنت مشغولا بمهمتى هــذه نمى إلى نفر من البراويين أننى معتزم الرحيل فجاءوا ليصبوا علىّ جام غضبهم لأننى أحبطت تدبيرهم وأفسدت عليهم مكرهم السيىء . غير أنهم جاءوا بعد فوات الفرصة ، فقد كنت أبعد من أن ينالونى بأذى ، ورافقنى العبابدة مسافة قصيرة بعد المدينة ثم ودعتهم وداعا حاراً ، ولا عجب فهم منذ غادرت مصر تقريباً أصحاب الفضل فى المحافظة على سلامتى، سواء بحمايتى أو بالتدخل بينى وبين خصومى ومناصرتى عليهم . على أن معروفهم ما كان لينتهى بعد ، ذلك أن عبداً من عبيد الملك تبعنى وأنا أغادر المدينة . ولما ودعت العبابدة — والقافلة تسبقنى بنحو نصف ميل على السهل — كان العبد يلازمنى كظلى ، ولاحظ ذلك منه أحد العبابدة ، ورأى أنه يحمل سلاحاً فارتاب فى أمره ، وقفل راجعاً إلينا من فوره فأدركنى فى الوقت المناسب وأنقذنى منه . وكان العبد يقفونى ليأخذنى غدارتى (*) عنوة مع أنه كان يصيب من طعامنا كل يوم تقريباً فى أثناء مقامنا بشندى ، ولعله خالنى أوثر التفريط فيها على العطل وخطر التخلف عن القافلة ثم اللحاق بها منفرداً . وكان العبد قد أمسك بمقود جملى وطلب إلىّ أن أسلمه السلاح ، ولــكن العبادى لحق بنا وعنفه على مسلــكه هذا أشد تعنيف . وفى العصر وصلنا إلى الحصاة ،وهى قرية واقعة بعد مصانع ملح بيوضة، وسهلها غير بعيد من المــكان الذى حططنا فيه ظهر وصولنا شندى .

١٨ مايو — مكثنا اليوم كله مخيمين بالحصاة ، ولحق بنا فى العصر نفر من تجار سواكن وشندى جاءوا مودعين أصحابهم . وكان أعراب الجمليين يحومون ليتخطفوا ما استطاعوا من إبلنا التى ترعى أوراق السنط فى حراسة العبيد ، فاضطرنى هذا إلى شدة اليقظة فى المحافظة على جملى . وفيما أنا أهيم به أحراج السنط الــكثيفة لقيت خرائب مبان قديمة بقرب النهر الذى تعلو ضفتاه هنا علواً كبيراً. وهذه الخرائب أسس حجرية للبيوت وجدران من الآجر . ويبدو أن الأسس لبيوت متوسطة الحجم ، وقوامها كتل من الحجر الرملى ، طول الــكتلة منها

(*) عبيد المــلك دون غيرهم هم الذين يباح لهم حمل أسلحة سيدهم النارية أحيانا .

ثلاث أقدام أو أربع ، خشنة الصناعة أصابها البلى والتلف . وليس بين الحجر والآجر من التناسب إلا أقله ، وهذا الآجر شبيه بالذى رأيت قرب دوا ، وقد بنيت به جدران المساكن . ولم أر آثاراً لسور مدينة أو لأى بناء كبير . ويخيل إلى أن هذا الذى رأيت لم يكن سوى بيوت بلدة صغيرة مكشوفة . ومحيط هذه الخرائب يقطع فى ثمانى دقائق إلى عشر على الأكثر . ولم أستطع أن أتبين فى تصميمها نظاماً ولا ترتيبا ، فهى مربعات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهى أقرب إلى الاستطالة ، وتراها منبثة بين الشجر حيثما اتفق . ولم يبق من حيطان الآجر أكثر من قدمين فوق الأرض ، وبقاء هذا القدر — على قلته — يدعو للغرابة إذا ذكرنا ما تحدثه الأمطار السنوية بهذه المبانى المهجورة الواهية ، ولم أعثر على آثار أخرى من أى نوع فى المنطقة المجاورة . وبقرب هذا المكان مخاضة فى النهر يستعملها عرب الجمليين ثلاثة أشهر أو أربعة قبل موسم الفيضان .

١٩ مايو — استأنفنا الرحلة صباحاً فسرنا على الحدود الشرقية للسهل المزروع حتى بلغنا قرية الكبوشية ، وهى مقر رجل من أسرة مك شندى ، وتبعد عن الحصاة قرابة ثلاث ساعات . ولما كان بيننا وبين عطبرة ثلاثة أيام طوال فقد ملأنا قربنا من النهر ، ومجراه على نصف ساعة من القرية . وحدث لى ونحن نبدأ المسير حادث من تلك الحوادث التى تضايق المسافر فى الصحراء وتنغص عليه رحلته ، ذلك أننى بعد أن شددت قربى إلى رحل جملى ثقبت إحداها — وكانت من أكبرها — وتفجر الماء منها كأنها الينبوع . ويسد العرب مثل هذا الثقب بوتد من غصن أخضر يلفونه بقماش ، ولكن خير سدادة له لباب عود من عيدان الذرة ، فهو إذا ابتل بالماء انتفخ فأحكم سد الثغرة . وعبرنا إقليما مستويا تقطعه الوهاد والوديان الحافلة بالشجيرات والقش . ثم مررنا بمخيم كبير للجمليين يبعد أربع ساعات من النهر ، وهم برغم بعدهم هذا من النهر يجلبون منه حاجتهم من الماء كل يوم . وحططنا رحالنا فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن سرنا من الكبوشية سبع ساعات أو ثمان

٢٠ مايو — قمنا قبيل الشروق ويممنا شرق الشمال الشرقى ، وكان قوام

قافلتنا ما لا يقل عن مائتى جمل حملت بالبضائع ، وعشرين أو ثلاثين هجيناً يركبها أغنى التجار دون أن ينقلوها بأحمال أخر ، ونحو مائة وخمسين تاجراً ، وثلاثمائة عبد، ونحو ثلاثين جواداً مرسلة لسوق اليمن يسوقها العبيد طوال الطريق ، وأكثر البضاعة تبغ ودمور اشتراه السواكنيون من سنار . وكان زمام القافلة بيد رجل كفء من كبار عرب سواكن تربطه رابطة المصاهرة ببدو البشارية والهدندوة الذين يقع طريقنا فى أرضهم . ولكننى برغم هذا أحسست أن القوم يتوجسون خيفة من البشارية طوال الرحلة. وكانوا يصدعون بأوامر الرئيس(*) فى كل ما يتصل بسير القافلة دون أن يجدوا فى ذلك غضاضة أو بأساً . ولم يكن هناك غرباء بين التجار السواكنيين سوى جماعة من التكارنة (واحدهم تكرورى) أو التجار الزنوج قوامهم خمسة من السادة وعشرة جمال وثلاثون عبداً على التقريب . وإلى هذه الجماعة انضممت ، ولا عجب فكلنا غرباء يسرنا أن يعاون بعضنا البعض . وكنت أحط إلى جوارهم طوال الرحلة إلى الساحل معتزلا التجار السواكنية الذين انقسموا هم أيضاً فرقاً وجماعات . وما لبثنا قليلا حتى سرت الألفة بينى وبين رفاقى السود فأدوا لى كثيراً من الخدمات الصغيرة ، وما أحوج المسافر فى القافلة إلى مثلها ، ولم أتوان فى رد هذه الخدمات بأحسن منها . وهكذا ظللنا طوال الرحلة على تفاهم ووفاق ولا أقول على مودة وصداقة ، فإن مصادقة الفقير أمر يزهد فيه الناس ولو كانوا من الزنج .

كان أحد هؤلاء التكارنة من دارفور ، والثانى من كردفان ، وثلاثة قدموا أصلا من برنو ، وقد غادروها من زمن مديد فى قافلة فزان ، ومن فزان مضوا إلى القاهرة وكان كبيرهم — واسمه الحاج على البرناوى وهو الذى تزعم جماعتنا —

(*) علمت بعد ذلك أن شيخ القبيلة لا يمكن أن يكون رئيساً للقافلة ، ذلك أن العرب درجوا من قديم الزمان على عادة لا تزال سارية فى الصحارى الشرقية فى الجزيرة، وهى ألا يتولى شيخ القبيلة قيادة الجماعات المسلحة التى توجهها القبيلة على العدو . وله أن ينضم الى الحملة إن شاء ، ولكن لواءها يعقد للقائد ، وهى وظيفة تقليدية فى الأسرة .ويقول العرب « الشيخ ما يقيد القوم » ولعلى عائد إلى تناول هذا الموضوع فى يومياتى .

قد طوف فى كثير من أنحاء تركيا تاجراً للرقيق ، ونزل القسطنطينية وعاش بدمشق طويلا (وفى دمشق يشتغل التكارنة فعلة فى بساتين سراة القوم)، وأدى فريضة الحج ثلاث مرات ، ثم استقر أخيراً بكردفان وانقطع للتجارة فيما بين كردفان وجدة . وقد ذاع صيته بفضل أسفاره وما يتظاهر به من تقى وورع ، لذلك أحسن الملوك والرؤساء لقاءه ، ولم يكن يفوته أن يتحفهم بالهدايا الصغيرة يجلبها لهم من جدة . وهو على إدمانه قراءة القرآن — سواء جالساتحت مظلة مؤقتة من الحصير أو راكبا على جمله فى الطريق ـ رجل شهوان مبطان لاهم له إلا متعة الجسد ونعيم الحياة الدنيا ؛ فهو ينفق على لذاته كل ما يغله رأس ماله البسيط من ربح متجدد بتجدد أسفاره . كان يصحب معه جارية من برقو يؤثرها على سواها ويتخذها من دونهن محظية له، وقد عاشت معه ثلاث سنوات ، وكانت تركب جملها على حين يسير غيرها من الجوارى على الأقدام طوال الطريق[1] . أما جربانه الجلابة فقد حفلت بأشهى وأطيب ما حوت سوق شندى ولا سيما السكر والتمر ، وأما مائدته فأفخر موائدالقافلة إطلاقا . وقد تسمعه يفيض فى الحديث عن الفضيلة والدين فتخاله لا يعرف عن الرذيلة إلا اسمها ، ومع ذلك فهذا الحاج على الذى أنفق نصف عمره فى التهجد والعبادة . . هذا الحاج نفسه باع فى العام الماضى بنت عمه فى سوق الرقيق بالمدينة المنورة بعد زواجه منها بمكة . وكانت الفتاة قد وفدت عليها حاجة من برنو بطريق القاهرة فلقيها على غير انتظار وطلب يدها بوصفه ابن عمها ، وتزوجها[2] ، ثم احتاج إلى شىء من المال فى المدينة فباعها إلى الجلابة المصريين ، ولم تستطع المسكينة أن تقيم الدليل على أنها حرة الأصل فأذعنت لقضاء الله وقدره . وكان القوم فى القافلة يعلمون من أمره هذا ، ولكن علمهم به لم ينل شيئاً من قدره وسمعته بينهم .

كان التكارنة يعاملوننى كما يعاملون أى مسافر غيرى وكما جرى القوم على معاملة المسافرين ؛ فكل مسافر مشغول بتوفير أسباب راحته ، اللهم إلا أن عمد

---

(١) كان لنفر من التجار السواكنية خليلات ، وهم فى العادة يصطحبونهم فى أسفارهم .

(٢) ابن العم فى جميع الأقطار الإسلامية مقدم على غيره إذا طلب يد ابنة عمه .

إلى جاره من حين إلى حين يد المعونة فى وسق جمله . على أ نى ما كنت أطمع فى أ كثر من هذا ، وما كنت فى حاجة ماسة لمعونة أحد ، ولا أذكر أنه قد نالنى من التجار السوا كنية إساءة أو شبه إساءة لم يقاسمنى إياها التكارنة على قدم المساواة. وكنت يقظاً حذراً مؤدباً مع الجميع متحاشياً مخالطة العبيد ، وكان القوم ينظرون إلىّ نظرتهم إلى هؤلاء العبيد تقريبا . ثم إننى قاومت أشد المقاومة كل محاولة يقصد بها ابتزاز شىء من بضاعتى أو زادى ، وأحسبنى بهذا المسلك قد عرفت بين القوم بأننى رجل نشيط دءوب صعب المراس ، أنانى شديد الحرص والحدب على مصلحته .

كانت صخور السهل الذى قطعنا طوال الصبح من الصوان ، وانبسطت إلى عيننا بعض الوديان والمنخفضات. وحططنا للراحة بعد عشر ساعات أو إحدى عشرة. ومن عادة القوم أن يبدأوا السير مع الشروق ، ويقيلو ساعات الظهيرة أو من العاشرة صباحاً إلى الثالثة أو الرابعة عصراً ثم يستأنفوا السير حتى العشاء ، بل قد يتصل سيرهم إلى ما بعد منتصف الليل .

٢١ مايو — ما زال طريقنا يشق السهل . وقد هبت اليوم سموم هوجاء ، ولما كان التجار السوا كنيون قد استكثروا من البضائع التى حملوها جمالهم فإنهم لم يحملوا من الماء إلا قليلا بالقياس إلى عدد العبيد والخيل . لذلك فرغت أ كثر قربهم منه عند الظهر . وأقبل رئيس القافلة على جماعتنا وأخذ من كل منا ربع مائه أخذاً يشبه أن يكون غصبا . ومررنا ساعات الظهيرة فوق سهل أسود محصب قرب أشجار من السنط . وبعد أن قطعنا فى هذه المرحلة الطويلة عشر ساعات أو إحدى عشرة متجهين شرق الشمال الشرقى نمنا فى واد مشجر عميق الرمال . ونامت القافلة كلها ظمأى ، وكان أ كثر الدرب الذى سلكنا فى الصحراء مطروقاً يسوق عليه أهل عطبرة ما شيتهم إلى سوق شندى . ولقينا فى الطريق نفراً منهم ميممين شندى بحصر من سعف صنعت فى عطبرة .

٢٢ مايو — سرنا ثلاث ساعات بين السهول الرملية ، ثم أشرفنا على نهر عطبرة ودخلنا الأحراج التى تكتنف ضفافه ، وكانت الأشجار الباسقة تحدق بنا

من كل صوب فيبعث مرآها النشوة حتى فى أفئدة الجلابة القاسية . قال أحدهم مشيراً إلى المفازة الجرداء التى قطعناها « بعد الموت الجنة ». ومشينا نحو ربع الساعة بين أشجار فارعة اشتبكت أحمالنا بأغصانها فكنا نخلصها معها بصعوبة . ورأيت من التنوع الكثير فى نبات هـذا الإقليم ما لم أره فى أى مكان على ضفاف النيل بمصر ، فكانت هناك صنوف مختلفة من الموز ، ودوم ضخم أسالت عناقيده الفاخرة لعاب العبيد ، وأشجار من النبق ناضجة الثمار ، ثم اللالوب وهى فى حجم النبق ، فضلا عن كثير من الأنواع التى لاعهد لى بها . وإلى هذا كله عشب رى موفور ينمو فوق تربة خصبة غنيـة كتربة مصر . وتأوى إلى الشجر أسراب كثيرة من الطير تصدح بالغناء الذى يندر أن يسمعه المسافرون فى مصر . ولم تكن الطيور غنية بالألوان بل طيوراً صغيرة من فصائل مختلفة ، وقد راقتنى منها أنغام لم تطرق أذنى من قبل ، ولم ينقطع من أذنى هديل الحمائم الرقيق طوال سيرى . وانطلقنا صوب النهر وهبطنا ضفافه الواطئة فى لهفة لنروى من مائه غليلنا ، وقطعت بعض الجمال مقاودها حالما وقع بصرها على الماء وألقت أحمالها عنها وهى تندفع أو تتعثر فوق الشاطىء فأحدثت كثيراً من الجلبة والفوضى .

لم يطل مكثنا بالمكان ، فاستأنفنا السير نحو ساعة على ضفة النهر ، وكان أكثر سيرنا بين نخل يحف أطراف الصحراء ، وهو أكبر من أى نخـل رأيته بمصر . وبعد ساعة عبرنا النهر خوضاً فى غير مشقة إذ لم يكد ماؤه يجاوز ركب الجمال ، ولم يمض نصف ساعة حتى جئنا قرية عطبرة ، ويسمونها كذلك لقربها من النهر . وكان مقرراً أن تظل القافلة أياماً هنا ، لذلك اهتم كل منا قبل كل شىء باختيار مكان ملائم ينزل به . أما التجار السواكنية فنزلوا ساحة مكشوفة أمام القرية وقسموا أنفسهم فرقاً وجماعات ، وأما أنا والتكارنة فخططنا بأرض من الأشجار الشائكة فى جنب من القرية ، ومهد كل منا لنفسه ببلطته مهاداً صغيراً يتسع له ولمفشه ، وأما العبيد فأمروا بالنوم أمام مدخل هذه الأرض ، وبهذه الطريقة أمنّا على متاعنا من اللصوص ، ونشرنا فوق الأشجار حصراً فكان لنا منها ظل طيب.

وقربة عطبرة — وهى أقرب إلى الخيم منها إلى القرية — صفوف مستطيلة غير منتظمة من أكواخ قوامها الأبراش وسعف الدوم ، ويسكنها نحو مائتى أسرة من البشارية . هذه الأكواخ هى مسكن القوم فى جميع المفازة الواقعة بين مصر والحبشة ، فهم يستعملون البرش لأن الماعز والغنم النوبية لاصوف لها ولاشعر حتى يصنعوا منه الخيام كما يصنعها البدو الشرقيون ، وهم يدقون فى الأرض صفاً من الأعمدة يبلغ طول العمود منها اثنتى عشرة قدما أو خمس عشرة ، ويدقونها متقابلة بحيث تتقارب فى أعلاها ، ويثبتون فوقها أعمدة أخرى فى وضع أفقى ، ثم يلقون الأبراش بحيث تكون فى كل أوضاعها مائلة ميلا يتيح لماء المطر أن يجرى من فوقها . وفى كل كوخ عنقريبان أو ثلاثة تكاد تملأ فراغه كله فلا يبقى منه غير حيز ضئيل للوقوف ، والبشارى فى غنى عن هذا الحيز على أى حال لأنه ينفق جل وقته متكئاً على العنقريب(*). وفى الأكواخ الصغيرة يعيش الرجال والنساء معاً ، أما الأكواخ الكبيرة ففيها فواصل من وراء العنقريب تقسمها إلى غرفة أمامية وأخرى خلفية ، وتشغل النسوة الخلفية منهما — ولو أنهن لا يفكرن البتة فى الاحتجاب عن الغرباء — وتستعمل مطبخا كذلك . ولكبار القوم أكواخ خاصة بالحريم يلحقون بها أحيانا سقيفة يستقبلون فيها الضيوف . والبدو يقيمون هذه الأكواخ أنى حطوا وينقلون معهم الأعمدة والأبراش وما إليها على الجمال .

(*) فاتنى أن أذكر فى موضع سابق من هذه اليوميات أننى رأيت القوم فى جميع بلاد النيل التى زرتها وفى صحراء النوبة أيضا يستعملون مساند خشبية صغيرة طول المسند منها نحو خمس بوصات ، وله رأس بهذا الطول وعرضه ثلاث بوصات أو أربع ، وهو شبيه فى جملته برأس العكاز . والمسند قطعة واحدة من الخشب الصلب ، وخير أنواعه ماجلب من سنار ، ويضعه النائم تحت رأسه ، ويستند إليه بذراعيه حين يتكىء . وإذا خرج وجيه من وجوههم حمل له تابعه مسنداً من المساند ، وفى كل بيت أو خيمة تجد مسنداً يقدمونه للضيف ، ولكنك لن تستشعر الراحة فى استعماله مالم تمرن على ذلك منذ صغرك . وحملنى على ذكر هذه العادة ماقرأت فى كتاب مستر سولت من أن أهل الحبشة يستعملون مثل هذا المسند ، ويبدو لى من الأوصاف التى ساقها هو ومستر بروس أن عادات الأحباش شديدة الشبه بعادات السكان على حدود وادى النيل .

وعطبرة مقرشيخ قبيلةالحمداب . ولا يخلط القارىء بينها وبين قبيلة الحميداب ، وهى إحدى قبائل العبابدة . والحمداب من أقوى (*) قبائل البشارية ، وقد سافر شيخهم معنا من شندى بعد أن ابتاع من سوقها العبيد والخيل . ولا تخلو عطبرة من قوم يتجرون مع شندى وينتظرون عندها وصول قوافل سواكن . وما إن علم الجيران أن قافلة قد وصلت وأنها تعتزم البقاء أياماً حتى توافدت علينا أفواج البشاريين يحملون الذرة والغنم والسمن واللبن ويريدون المقايضة عليها بالدمور والتوابل لا سيما المحلب والقرنفل واللبان ، وكلها مجلوب من الغرب . وقلّ من هؤلاء القوم من يفهم العربية اللهم إلا المتجرون منهم مع بربر وشندى ، ولكن أكثر عبيدهم يفهمونها ، ذلك أنهم تربوا بين سكان ضفاف النيل . ولباسهم – وأخلق بى أن أقول عريهم – واحد فى كل مكان ، فهو لا يخرج عن قميص من الدمور يلبسه الرجل والمرأة على السواء . وخيّل إلىّ أن نساءهم على جانب كبير من الحسن ، وفيهن سمرة شديدة وعيون فاتنة وأسنان رائعة ، ولهن قدود نحيلة ممشوقة ، ولم يكن يبدو عليهن أثر للخوف من إضرام الغيرة فى لوب أزواجهن أو آبائهن . فقد قصدن خيامنا ضاحكات عابثات ، ومن كانت منهن تجهل العربيــة حاولت أن تترجم عما تريد بالاشارة . وظهر لى أن حسانهن شاعرات كل الشعور بما حباهن الله من مفاتن ، ولكن كان من الواضح أنهن ما عابثننا إلا ليبعننا الذرة واللبن بثمن أعلى مما تبيع به أخواتهن اللاتى لا يدانينهن جمالا . على أى حال كن جميعاً سواء فى خراب الذمة . وكنت قد سمعت فى مصر أن البشاريين لا يغارون على نسائهم ، فمن أصول الشرف عندهم ألا يرتاب الرجل فى امرأته حتى

(*) إن كثيراً من القبائل البشارية لا تحتقر الزراعة مع بداوتها ، فينزل أفرادها ضفاف عطبرة عقب الفيضان ليزرعوا الذرة ، ويبقون بها حتى يضموا المحصول ثم يقفلون راجعين إلى جبالهم . فإذا اشتد الحر وجف الكلأ فى الصحراء هبطوا ثانيــة من الجبال إلى ضفاف النهر انتجاعاً للمرعى . ومثل هذا يصدق على التركمان المجاورين لحلب ، فهم يجمعون بين البداوة والزراعة .

تثبت له خيانتها بالدليل الحاسم . وقد يرى البشارى غريباً يقبل امرأته فيصرف المسألة بضحكة ، ولكنه قاتلها لا محالة إن أمسكها ترتكب الفحشاء .

وبشاريو عطبرة — كغيرهم من البشاريين — سلالة تمتاز بوسامة الخلقة وجرأة الطابع ، وهم لا يضعون سلاحهم قط ولا يفيقون من عراكهم وقتالهم . ويتفشى السكر بينهم تفشيه بين عرب شندى ، ولم تمض ليلة لم نسمع فيها صخبهم وضجيجهم فى مشارب البوظة ، وهم ميالون إلى مد أيديهم لمتاع التجار ، وعلى الرغم مما اتخذنا من حيطة وحذر فإن أحداً منا لم يسلم من لصوصيتهم . ففقدنا أشتاتاً من متاعنا ، وسرق من الجمال بعضها ولكنها ردت بفضل تدخل رئيس القافلة الذى حصل من أصحابها على هدية طيبة لقاء جهوده . وولعهم بالسرقة ليس شر ما فى طباعهم ، فإن فيهم — على ما بدالى — غدراً وقسوة وحرصاً وحباً للثأر ، وهم ينقادون لهذه النزوات فلا يردعهم عنها رادع من دين أو قانون . أذكر أن رجلا من أهل القرية — وكان قد صحبنا من شندى — افتقد عند وصوله جملين من أفضل جماله فإذا هما مسروقان ، واشتبه الرجل فى جار له فجاء إلى التكارنة يستعين بسحرهم على تأييد شبهته ولكنهم أبوا أن يعطوه جوابا شافياً أو أن يتدخلوا فى الأمر ، فأقسم الرجل ليذبحن عيال اللص لو عرفه وليقطعن إبله تقطيعاً وليهدمن بيته حتى يخرج إلى الأحراش يلتمس قوته كما تفعل البهائم . والبشاريون على بكرة أبيهم مسلمون ، ولكنهم لا يعبأون بشعائر دينهم ولا يؤدون فريضة من فرائضه ، فهم فى هذا على نقيض الحجاج الزنوج الذين يمرون بهذا الطريق ، والذين لا تفوتهم فريضة من فرائض الإسلام . وبخل البشاريين على الضيف يكفى وحده دليلا على أنهم إفريقيون لا غش فيهم ، ولكن لفتهم تؤيد هذا الظن تأييداً لا يترك للشك مجالا . وآية بخلهم أننا لم نستطع أن نظفر منهم بقطرة من اللبن دون أن نؤدى ثمنها ، وقد اقتضتنا النسوة أجرة استعمالنا قدوراً من الفخار عتيقة كنا فى حاجة إليها أثناء مكثنا بينهم ، بل إن أحداً منهم لم يرض أن يقوم مترجما بيننا وبين من يجهلون منهم العربية ، دون أن يأخذ لقاء ذلك حفنة من الذرة على الأقل . هذا الجشع تلحظه فى كل تصرفاتهم ، وهو لا يظهر فى معاملتهم لركاب القوافل فحسب — فهؤلاء بطبيعة

الحال مطمع لا شك فيه — بل في معاملتهم للحجاج الزنوج المساكين الذين يمرون من هناك في طريقهم إلى التاكة ، فهم يشكون مر الشكوى من سكان عطبرة الذين تحجرت قلوبهم وخلت من كل أثر للرحمة .

ويزرع القوم الذرة وقليلا من اللوبيا في الغابات القريبة من النهر دون أن يمهدوا لها التربة أي تمهيد . وهم لا يعرفون السواقي ، وتمتد الأرض الخصبة على ضفتي النهر على مسافتين متساويتين ، ولكن الضفة اليسرى خلو من الزرع لما يقوم به عرب الجعليين من غارات للسلب والنهب . ويجلب القوم زادهم من التاكة في السنوات التي لا يفيض النهر فيها على ضفافه . وتنمو الأشجار التي رأيتها على الضفة الغربية قرب القرية ، وأكثرها نبق ، وثمره موفور حتى أنهم يطعمون عليه الجمال أحيانا . وينمو العشر بين الشجر الكبير ولا يكاد يترك لزراعة الذرة متسعا . وكانت تحوم في الجو أسراب كثيرة من الحمام واليمام ، ولها عدو كثير العدد هو ضرب من النسر لا يكبر الرخم المصري إلا قليلا ، وجسمه أسود فاحم ورأسه عار من الشعر تكسوه حمرة أرجوانية قاتمة كرأس الديكة الرومية . ويزعم البشاربون أن غاباتهم تحفل بالنمر ، وأنهم يصادفون فيها الحيات الكبار أحيانا ، ولكني كنت أعبر الغابات يوميا لأستقي من النهر فلا تقع عيني على حيوان من ذوات الأربع اللهم إلا جيوشاً من الجرذان السمينة تسرح وتمرح بين جذور الذرة المتخلفة في الأرض . وكان العبيد يقتلون منها الكثير ويلتذون أكله ، ولا تجد للنمل الكبير الذي يقال إنه يسبب أذى كبيراً في كردفان ودارفور أثراً في أي بقعة شرق النيل . وتظهر التماسيح في النهر وقت فيضانه ، ولكنك لا تجد فيه أفراس النهر ، أما الخرتيت فلا يعرفونه .

وماشية البشاريين ماشية طيبة النوع كثيرة العدد . وحين ألممت بهم كانوا قد أرسلوا إبلهم إلى الجبال الغربية ترعى فيها الكلأ النضر عقب هطول المطر عليها . أما جمالنا فكنا نسوقها كل صباح إلى الغابات لترعى أغصان السنط . وكانت قطعان الضأن والماعز تساق إلى الجبال بعد أن سيقت إليها الإبل . وابتعنا كبشين كبيرين بدمور يساوي ريالا . ويقتني شيخ البشاريين وبعض أقاربه الخيل ويلبسون الزرد ، ولكل خيمة عندهم حماران .

ويتصل عطبرة بالقرن على مسيرة يومين من هذه القرية ، وبعدها يسمى الملتقى بالقرن . ويقال إن منبع القرن في جبال البشارية ، ولكن ماءه في الصيف يكاد ينضب. وهو حتى في موسم المطر لا يبدو أكثر من مجموعة سيول ، ولا يخترقه الطريق المباشر من هنا إلى سواكن ، وهذا دليل واضح على أن مجراه لا بد أن يكون أبعد إلى الشمال مما تجده عادة في الخرائط . وقد أسلفت القول إننا لم نجد في عطبرة من الماء إلا قليلا جداً ، ولا بد أنه من أسابيع كان جافاً تقريباً ، لأننا لم نجد في قاع ملتقى النهر — حين عبرناه قرب الدامر — إلا بركا راكدة الماء . وفي أثناء مقامنا بعطبرة كانت السماء تمطرنا بالليل رخات خفيفة ، أما النهار فكان ملبداً بالغيوم ، وكثيراً ما كان الضباب ينتشر في الصباح . وفي الثالث والرابع من يونيو هبط مستوى النهر فجأة فإذا أكثر مجراه جاف ، وقد لحظت بعد ذلك في طريقنا إلى التاكة أن مقدار الهبوط كان على الأقل قدما . ولا تعلو ضفافه عن خمسة وعشرين قدما . ولم أقس عرض النهر ، ولكني أقدر ، حسبما انطبع في ذهني حين رأيت مجراه ، أن ما بين الضفتين لا يزيد على أربعمائة خطوة أو خمسمائة ، وكان تيار الماء من الضعف بحيث لا تكاد تتبينه .

وإذا مات لنساء عطبرة قريب عزيز حلقن رءوسهن حداداً عليه ، وهي عادة جرى عليها كثير من القبائل العربية المشتغلة بالفلاحة في صعيد مصر . والتأرقانون البشارية الذي لا يعرفون فيه هوادة على ما علمت ، وقبائلهم لا يفترلها حرب ولا قتال، وأعداء جنسهم الشكرية من ناحية والهدندوة من ناحية أخرى . وجيران الحداب الساكنين عطبرة هم قبيلة بني كرب في مصعد النهر صوب قوز رجب ، وقبيلة البطراب ،وكلاهما بشاري . ويزرع الحداب شطئان عطبرة الدانية حتى ملتقاه بالقرن ، وبعد هذا الملتقى تبدأ أملاك الجمليين . وتقطع المسافة من هناك إلى بربر في أربع مراحل طوال ، ولكن الدرب لا يكاد يطرقه أحد ، ، فلا تعدو البلاد التي يتصل بها القوم شندى وقوز رجب والتاكة وبشارية الجبال الواقعة إلى الشمال منهم .

وبعد أن مكثنا بعطبرة ثلاثة أيام أو أربعة جبي الملك ضريبة المرور من كل فرد حسب عدد عبيده . ويؤدي عن العبد ثوب دمور ، ومثله عن كل حمل مهما احتوى ،

أما التجار الذين يظن أنهم يحملون ذهباً أو يعرف عنهم هذا فتفرض عليهم ضريبة تعسفية ، وبديهى أن هذا الإجراء يثير منازعات كثيرة . وقد أديت عن بضاعتى كلها ثوباً ونصف ثوب من الدمور ، ولكن التجار السواكنية استاءوا من تشدد الشيخ وتعسفه أشد استياء وأنذروه بأنهم لن يعودوا قط من هذا الطريق . على أنه فى الواقع أسلم الطرق إلى سواكن ، فالصحراء فى هذه الناحية تسكنها قبائل صديقة للحداربة واسواكن ، وقد علمت أن شيخ عطبرة مضطر إلى إشراك كثير من هذه القبائل فى الأموال التى يجبيها من القوافل . أما الطريق من سواكن إلى الدامر فيخترق مراعى تمتلكها قبائل بشارية قوية الشوكة معادية لسواكن ، فلا يستطيع عبوره من القوافل غير القوى القادر على رد الاعتداء . وفى الغد بعث الشيخ لكل طائفة من التجار طاجناً من عجين الذرة السائل وطرفاً من البوظة . وكان على القافلة أن تنقسم إلى جماعتين بعد مبارحتها عطبرة ، تتخذ إحداها طريق الصحراء إلى سواكن رأساً ،وتسلك الأخرى طريق التاكة . وينحرف الطريق الأول فى الأيام الثلاثة الأولى مشرقاً عن اتجاه سواكن حتى يبلغ بئر قنقراب ثم ييمم صوب سواكن فى خط مستقيم ماراً بثلاث آبار بين الواحدة منها والأخرى مسيرة يومين . وتستغرق الرحلة كلها عشرة أيام أو اثنى عشر ، والطريق حافل بالكلأ ، وتكثر مضارب البدو فى الوديان الخصبة التى تسقيها سيول الشتاء فينمو بعدها العشب النضر الغزير . أما الفريق الذى قصد التاكة فكان فى نيته أن يبيع فيها ما اشترى فى سنار من دمور وتبغ ،وكان بعضهم يريد العودة بعد ذلك تواً إلى شندى ، على حين نوى بعضهم الآخر المضى قدما إلى سواكن . أما أنا فقد قررت أن أتخذ طريق التاكة ، وقد سرنى أن أرى رفقائى من التجار الزنوج يحذون حذوى ، فقد كان معهم كثير من العبيد ، وكانت جمالهم ضعيفة ، والماء فى طريق التاكة ميسور كل يوم .

٣١ مايو — سافر التجار القاصدون سواكن مساء أمس ، أما نحن فبكرنا فى السير مع عطبرة سالكين سهلا عرضه ميلان تكسوه أشجار الدوم والعشر التى ما زالت تقوم بينها جذور الذرة . ورأيت حللا منبثة بين أحراج السنط الكثيفة

على مقربة من النهر . وأنفقنا فى هذا ثلاث ساعات حططنا بعدها على شاطىء رملى قرب النهر رأيت على أرضه هياكل عظمية لتماسيح متوسطة الطول . واستوت الأرض أمام ناظرى فلم يبد فيها أثر لتل ولا لنجد ، فأنى سرحت الطرف وجدت الأفق منبسطاً لا نشز فيه . والإقليم سهل مستو على يمين النهر ويساره . وكانت الجرذان الكثيرة تعدو بين قوائم الإبل فى كل خطوة تخطوها ،والعبيد يلهون بصيدها اليوم كله . ومن هذا الموضع اتخذنا طريقاً مستقيما مخلفين النهر إلى يميننا، وسرنا فوق سهل محصب رملى متجهين جنوباً ثم عدنا إلى النهر ثانية بعد رحلة عشر ساعات فى يومنا هذا .

أول يونيو — مضينا نتبع مجرى النهر . وتحفل الضفتان بالشجر ، والإقليم ملك لبنى كرب،وأرضه خصبة ولكن لا يبدو عليها أثر لزراعة ، ويظهر أن سكان الحلل أوالمضارب لا يعرفون لهم صناعة غير الرعى . وقدقدرت عرض النهر فى إحدى بقاعه — حين دنونا منه — بمسيرة عشر دقائق تقريباً . وبعد أربع ساعات مررنا **بأم داود** ، وهى مضرب كبير من مضارب قبيلة **العقاب** إحدى قبائل البشارية، وهذا أقصى حدود أملاك البشاريين جنوباً وبداية أملاك الهدندوة ، وهم قبيلة ذات بأس سأعود إلى ذكرها . وكان ابن شيخهم راجعاً معنا من شندى ، لذلك لم يكن هناك ما يثير مخاوفنا منهم اللهم إلا أن نخشى لصوصيتهم . وحطت القافلة قرب القرية فسرت إلى الأكواخ متطلعاً ، وأثار مظهرى بين القوم صيحة دهشة ورعب — وهو ما كان يثيره على الدوام فى هذه البلاد — لا سيما بين النساء اللائى اشتد بهن الفزع حين رأين رجلا ممن لفظتهم الطبيعة — أعنى البيض — يتطلع داخل أكواخهن ويسألهن بعض الماء أو اللبن . ووضح لى أن أول شعور يبعثه منظرى فى القوم هو شعور التقزز والاشمئزاز ، فالزنوج يؤمنون إيماناً راسخاً بأن بياض البشرة أثر من آثار المرض وعلامة من علامات الضعف ، وما من شك فى أنهم ينظرون إلى الرجل الأبيض نظرتهم إلى مخلوق أدنى منهم وأحط شأنا . وأهل شندى أكثر تعوداً ، إن لم يكن على رؤية البيض ، فعلى رؤية عرب شبه الجزيرة السمر . ولما كانت بشرتى قد لوحتها الشمس فإنى لم أكن أثير بينهم كبير دهشة .

ومع ذلك فكثيراً ما كنت أفزع الناس حين أطالعهم فجأة فيصيح الواحد منهم « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ». ووقع لى مرة أننى كنت أساوم بسوق شندى فتاة ريفية على بصل معها ، فقالت لى إن خلعت عمامتك وكشفت لى عن رأسك زدتك خمس بصلات . فلم أرض بأقل من ثمان ، فأعطتنيها وخلعت لها عمامتى فجفلت من رأسى الأبيض المحلوق . وسألتها مازحاً : أترضين لك زوجاً له مثل رأسى ؟ فبدت عليها الدهشة والاشمئزاز ، وأقسمت أنها تؤثر على مثل هذا الزوج أقبح عبيد دارفور وأبشعهم خلقة .

ووجدنا كثيراً من شواهد القبور فى الصحراء المجاورة لأم داود ، فقد فتك الجدرى بالأهالى فتكا ذريعا فى العام الماضى . وكانت القبور مغطاة بالحصى من المرو الأبيض جريا على عادة النوبيين ، وفى كل طرف من طرفى القبر عمود مضروب فى الأرض . وهنا التقينا بقافلة كبيرة لبشاريين يسلكون طريقنا نفسه حتى قوز رجب ليشتروا منها ذرة . وتوجس التجار السواكنية شراً لأنه لم يكن بينهم وبين قبيلتهم ود ولا سلام ، وعلى ذلك حرصنا على أن نسير بعيدين عنهم ، وكنا منهم على حذر شديد .

ومضينا مع عطبرة بعد أم داود ، وكنا من حين لحين نسير فى طريق قصيرة عبر الصحراء ، وكانت وجهتنا الجنوب الشرق بانحراف إلى الجنوب . وبعد مسيرة تسع ساعات ونصف حططنا بعد أن رأينا قافلة البشاريين تحط على مسافة منا . وكان رئيس قافلتنا يخشى أن نمضى فى طريقنا ثم نحط بعد ذلك لئلا نؤخذ على غرة ، فرأى أن من الحكمة أن يكون العدو على مرأى منا عن أن يكون وراءنا . وبتنا طوال الليل شاكى السلاح ، وأوقدنا ناراً ووضعنا متاعنا بحيث يكون دريئة لنا إن هوجمنا . على أن البشاريين كانوا فى الغالب يخشوننا كما نخشاهم ، فقد لزموا مكانهم فى الصباح بينما مضينا نحن قدماً .

٢ يونيو — سرنا فى الصبح أربع ساعات متجهين جنوباً بشرق ، وكان سيرنا فوق سهل من أرض صالحة للزراعة وإن بعدت عن النهر أميالا . ولم نر أثراً للجبال. وقيلنا فى حرج من أشجار النبق والسيال واللالوب . ورأيت هنا فصائل من طيور

لا عهد لى بها ، وكان طير منها شبيهاً فى حجمه وشكله بالشحرور ، وله ذيل طويل ذو خطوط بيض . ورأيت غرباناً كباراً برقاب بيض . ويبدو أن البشاريين لم يكن فى لغتهم أسماء لهذه الطيور المختلفة . وأكل لحم الطير عندهم عار كبير ، وقد سمعتهم غير مرة ينعتون المصريين « بآكلة الطير » سخرية منهم وتهكماً بهم . واستأنفنا السير فدخلنا الصحراء الرملية متجهين شرق الجنوب الشرقى . وفى العصر طارد التجار السواكنية — وقد ركبوا أخف هجنهم — وحشاً رأوه من بعيد ، وكانوا يدعونه حمار الوحش . ولم يكن الوحش على قرب يتيح لى التحقق من شكله ، ولكنهم يقولون إنه فى حجم الضبع ، وإن له رأساً وذيلا شبيهين كل الشبه برأس الحمار وذيله ، وإنه بغير قرون . ويعرف أهل الصحارى العربية حيواناً يطلقون عليه هذا الاسم نفسه ، ولست أدرى على التحقيق أهو هـذا الحيوان بعينه أم غيره . وكانت الأرض أنى اتجهت تحمل آثار أقدام غزلان لا حصر لعـــددها ، وبعض هذه الآثار لفصائل أكبر كثيراً مما عرض لى من شتى فصائل الغزلان . وبعد مسيرة أربع ساعات وقفنا بوادمشجر ، وكان هجير النهار لا يطاق . وأمطرتنا السماء فى الليل وابلا ، وكنت على طول الطريق أتبين شكل الكثبان الرملية والشجر فأرى الأدلة الواضحة على تعرض الإقليم للرياح الشرقية العاتيـة . ورأيت جبلا منعزلا عالياً فى السهل المشرق على أربع ساعات منا .

٣ يونيو — رأينا ونحن نقطع السهل هذا الصباح سراباً أزرق صافياً شبيهاً فى وضوحه وصفائه بما رأيت فى الصحراء بين مصر وبربر . وبعـد مسيرة أربع ساعات إلى الجنوب بلغنا النهر ثانية تجاه قرية كبيرة هى قوز رجب ، وهو اسم عربى . وكانت الأرض على الضفتين جرداء قاحلة . وحططنا تحت أشجار من العشر كانت من الكبر بحيث أظلت القافلة كلها ، وكان فى نيتنا البقاء بهـــذا الموضع أياما لأن الحداربة كانوا يرون فى قوز رجب سوقا صالحة لبيع شطر من بضاعتهم . ولما دنونا من النهر رأيت على كثب تلين منفصلين يقومان متجاورين على السهل غير بعيد من النهر . وحين اقتربنا منهما أدهشنى أن أرى على قمة التل الأكبر بناء أثريا ضخماً ، ولمـا كنت أشكو قصراً طبيعياً فى نظرى استفحل

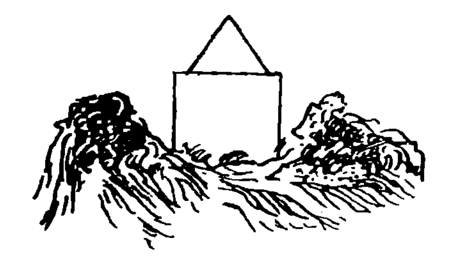
أمره حين أصبت بالرمد مرتين فى الصعيد ، فإننى لم أصدق عينى ، لذلك سألت رفاقى عن هـذا الذى يبدو فوق التل كأنه بناء ، فقالوا ألا ترى أنه كنيسة (وهو لفظ كثيراً مايطلقه المصريون على المعابد المصرية القديمة التى ينسبونها للمسيحيين) ، وهى بلا شك من صنع «الكفار» ، ومضينا نحو التل وحططنا على مسيرة ساعة منه . وما إن نزلنا عن جمالنا ورتبنا متاعنا حتى انطلقت صوب التل وبى شوق لفحص هذا الأثر الإثيوبى ، ولكن صيحة عالية من السوا كنية ردتنى على عقبى . قالوا « إن المنطقة كلها ينبث فيها فلاحو قوز رجب ، ولن تستطيع السير وحدك مائة خطوة حتى يهاجموك » . والواقع أننا رأينا أشخاصاً مريبين يختبئون بين الأشجار التى تحف ضفاف النهر بعيداً منا . وأضاف أصحابى أن التل موطن للصوص الهدندوة ، فهم يسكنون مغاوره ، وهم فى حرب مع جيرانهم أجمعين ، ولما لم يكن لهم فى خداعى مصلحة فقد صدقت تحذيرهم وعدت أدراجى ، لامطلقا فكرتى بل مؤملا أن أستطيع فى الغد تدبير زيارة لهذه الآثار فى صحبة بعض الأهالى الذين قد يوافوننا للبيع والشراء . وصح عزمى على هذه الزيارة مهما كلفتنى ، ولكننى لم أستطع لسوء الحظ أن أحقق هذا الأمل ، ولن أغتفر لنفسى هذا التردد الذى منعنى ساعتها من زيارة أهم أثر صادفته فى رحلتى هذه .

عبرت جماعة منا النهر إلى قوز رجب لتستطلع حالة السوق ، ثم عادت بعد الغروب بساعتين ، وكنا نتأهب للنوم (*) . وإذا رئيس القافلة يقبل علينا وهو يصيح «استعجلوا ياناس الجلابة ساقت إذا قعدنا يقتلونا يالله دلوا قربكم وشدوا على جمالكم» فى مثل هذه الحالات تطغى رغبة المحافظة على النفس على كل رغبة سواها . وهكذا نسيت المعبد مؤقتاً وعدوت إلى النهر بقربتين بينما تولى غلامى إعداد الجمل ، فما إن عدت بقربتى الممتلئتين حتى وجدت رئيس القافلة قد رحل . وتفسير ما حـــدث أن الفريق الذى ذهب إلى قوز رجب تراى إليه سراً أن جماعة كبيرة من البشاريين اعتزمت أخذنا على غرة ، فأصبح من الحكمة أن ترحل القافلة لساعتها لأن فى عبورنا النهر ليلا للاحتماء بقوز رجب مشقة أى مشقة ، ثم إننا قد نحاصر فيها إذا التجأنا إليها ويطول علينا الحصار . لذلك مضينا على ضفة النهر فى صمت ، ومررت

(*) إذا مرت القافلة بإقليم يهددها فيه الخطر قام المسافرون كلهم بالحراسة على نوبتين ، ففريق يحرس حتى منتصف الليل وآخر من منتصف الليل إلى الصباح .

بسفح التل ، ولكن الليلة كانت غائمة فحجبت ظلمتها عن عينى كل أثر للمعبد . ودلنى نباح الكلاب على صدق ما ذهب إليه أصحابى من أن الجبل موطن للصوص الهدندوة . وبلغ الرعب من التجار غايته ، فسكنوا سكونا عميقا ، ولم يسمح لأحد بإشعال قصبة لئلا تنبىء النار بمكاننا ووجهتنا . ولم يخرق هذا السكون غير أنين الجوارى المهزولات اللاتى أضناهن السير ، ووقع السياط يلهب بها السادة الغلاظ ظهورهن ليكرهوهن على المسير وراء القافلة بعد أن أعاروا دوابهم لقوم من القوز أرادوا أن ينقلوا عليها بضاعة إلى التاكة. ورميت ببصرى إلى هذا الأثر الذى كنت ألتهف على رؤيته وأسفت للحظ العاثر الذى عاقنى عن زيارة معبد صليب بالمحس فى العام الماضى بعد أن بلغت أقصى رحلتى فى وادى النيل جنوباً ، والذى عصف بأملى اليوم أيضاً بعد أن بلغت نهاية رحلتى جنوباً ، وحرم الناس من شىء قد يكون فى نظر البعض أشهى ثمار هذه الرحلة المضنية . فلعل الفرصة تواتى سائحاً آخر أسعد حظاً أو أجرأ قلبا فيزور هذا المعبد الذى لم أستطع إلا الإشارة العابرة إليه .

وصخور هذه التلال من الجرانيت ، فقد التقطت منها أحجاراً ونحن نمر بها ليلا فلما فحصتها فى الصباح وجدتها من الجرانيت الوردى غليظ الحبيبات ، ويبدو أن التل الذى يقوم عليه المعبد هو أعلى تلال المنطقة ، فهو يرتفع عن النهر ثلاثمائة قدم أو أربعمائة ، وله جوانب مدرجة تكسوها كتل ضخمة غير منتظمة وصخور كبيرة . أما جانبه المشرف على النهر فقائم ، وبينه وبين النهر مسافة تبلغ ثلاثين ياردة يمتد فيها الدرب الذى سلكناه . ويلوح أن البناء مشيد على الجرف



وأنه يطل على النهر ، ولم أميز من تفاصيله غير حائطين عاليين ضخمين وسقف مستو كبير ، وعلى السقف شبه قبة عمودية الجوانب ، ولم أر أعمدة ولا بناء آخر .

أما المعبد نفسه فيحيط به من كل جوانبه صخور عالية تحجب معظمه عن البصر . ولم يتح لى فى النهارأن أبصره من أمام ، وقد خيل إلى أن ارتفاع جدرانه يتراوح بين ثلاثين قدما وخمسين ، وأنها مبنية من الجرانيت لأنها بدت لى فى لون الصخور المحيطة بها . ولم يكن معى منظار مقرب ، لذلك لا أستطيع أن أذكر للقارىء من تفاصيل هذا الأثر شيئاً ، ولكن يبدو لى أن المعبد كله — باستثناء السقف المدبب — أخشن ما يكون بناء ، وأنه عريق فى القدم . وسألت التجار السواكنية هل رأوا مثل هذا الأثر فى النواحى المجاورة لهذا الموضع فقالوا إنهم لم يسبق لهم التصعيد مع النهر بعد هذا المكان ، لذلك لم يستطيعوا أن يمدونى بمعلومات وثيقة فى الموضوع ، ولم أر من أهل المنطقة من أستطيع سؤاله .

وقرية قوز رجب تقوم فوق السهل الرملى على نحو ربع ميل من ضفة النهر اليسرى ، ويسمونها قوز لموقعها بين الرمال ، وأهلها على ما علمت خليط من العرب والبشاريين والهدندوة والجعليين والشكرية الذين نزلوها للاتجار قبل كل شىء . وبدا لى أنهم لا يشتغلون بشىء من الزراعة ، وقد فهمت أنهم يجلبون من إقليم التاكة القريب كل زادهم من الذرة . ولهم ماشية تنتجع ضفة النهر صيفاً وقلب الصحراء شتاء . وتدخل القوز فى أملاك سنار ، وحاكمها — كحاكم شندى — من أسرة ود عجيب الحاكمة . ولأهلها تجارة نشيطة مع سنار وشندى وقد يقصدون أسواق الدامر يبيعون فيها ماشيتهم كما يبيعونها فى شندى . ولا ينقطع العبيد من سوق قوز ، ويؤمها التجار السواكنية أحيانا ، ولكن بدو البشارية والهدندوة أكثر غشيانا لها ، فعلى الرغم من أنهم أعداء للأهالى جرت هذه البلاد — كما جرى البدو الأعراب — على إباحة السفر فى بلد العدو بقيود معلومة. وقوافل سواكن التى تقصد سنار ولا تريد المرور بمطيرة أو شندى تسلك طريق القوز ومنها تشق الصحراء رأساً إلى سنار . وتكثر برك الماء فى الرمل شتاء ، أما فى الصيف فتضطر القوافل إلى حمل الماء معها رحلة ستة أيام كاملة ، ويقال إن هذه الصحراء جرداء لا شجر فيها . ولا تسلك القوافل هذا الدرب إلا صيفاً لأن بدو الشكرية يضربون خيامهم هناك فى الشتاء فيهددون سلامة المسافرين .

وعلى الرغم من الخطر الذى كثيراً مايهدد صحة العبيد من جراء إقفار هذا الطريق وخلوه من الماء صيفاً ، يفضل التجار أن يسلكوه عن أن يتحملوا نفقات الإقامة بشندى وأداء إتاوة المرور بمطبرة . وسرنا نحو أربع ساعات فى الليل ثم استرحنا فوق أرض رملية عميقة على مقربة من أشجار من الشوك والطرفاء .

٤ يونيو — قمنا قبل الشروق ، وكان مسيرنا فوق سهل فسيح لا أثر فيه لمرتفع غير التلين اللذين ذكرتهما واللذين كانا يقومان إلى يسارنا ، وكانا فى الصباح يتجهان إلى الشمال الشرقى بانحراف للشمال ، أما حين حططنا للقيلولة فكان اتجاههما إلى الشمال الغربى . وتربة السهل من الطفل يتخلله القليل من الحجر ، وهى تقترب فى خصوبتها من تربة ضفاف النيــل ، وتحفل بفصائل شتى من العشب البرى ، ولفت نظرى أن فصيلة منها كانت تشغل بقعة قائمة بذاتها لا تكاد تختلط بغيرها من الفصائل بحيث بدا السهل كله رقعة هائلة من الصور المختلفة ، وكان كثير من هذه الحشائش قد ذبل .

كانت وجهتنا شرق الجنوب الشرقى ، وفى الصباح انفصل عن القافلة بعض الرفاق واتخذوا سمتهم إلى أقصى حــدود التاكة الجنوبية سالــكين إليها طريقاً أكثر انحرافاً للجنوب . وطالعتنا قرب الظهر أشجار من بعيد ، وكانت الشمس حامية فخففنا إلى الظلال نلتمسها . وكان على سطح الأرض وعلى الشجر من الشواهد ما يدل على أن المكان فى مهب الرياح الشرقية العاتية . وفى العصر دخلنا سهلامستويا أجرد لا ترى فيه أثراً لشجر ولا لعشب أيا كان ، ولاترى فيه مرتفعات ولا معالم من الأرض تهدى المسافر فى طريقه . وفى المساء ومضت البروق الساطعة فصححت وجهتنا بعد أن تبين القوم الجهة التى تنبعث منها البروق . وكان الجو غائماً ينذر بالمطر ، وبعد مسيرة إحدى عشرة ساعة حططنا بواد مشجر وقد أخذ منا التعب كل مأخذ لأن فئة منا ضلت طريقها فى الليل .

٥ يونيو — يبدو أن القافلة عن بكرة أبيها قد ضلت طريقها أمس لانبساط السهل وخلوه من الشجر ، فقد بدأنا مسيرنا اليوم ميممين شرق الجنوب الشرق ، وبعد مسيرة ساعة وصلنا حدود إقليم التاكة ، فوجدنا تربة غنية لها نعومة التربة النيلية

ولونها . وكانت أحراج العشر والسنط الكثيفة تعرقل سير الإبل ، وهبت علينا ريح عاتية أثارت الغبار والرمل حتى حجبت عن أبصارنا كل شيء فلم نعد نبصر ولو على عشر ياردات . وضللنا طريقنا بين الشجر ، وطفقنا نخبط خبط عشواء برهة أفزعنا فيها بعض الرعاة إذ حسبونا من أعدائهم البشاريين فساقوا قطعانهم على عجل ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا خياماً لبدو من الهدندوة فحططنا هناك . وكان خبير من كبار خبرائنا زوجاً لإحدى قريبات شيخ المخيم ، ونزلنا فى الساحة التى تحيط بها الخيام ، وكانت مضروبة على شكل دوّار أو حلقة كما هى العادة فى شبه جزيرة العرب أيضاً . وفى المساء هبت علينا عاصفة أخرى لا أذكر أننى رأيت لشدتها مثيلا ، فقد ظهرت أول الأمر غيمة زرقاء قاتمة تعلو نحو ٢٥ درجة فوق الأفق ، ولما دنت وعلت اربدّ لونها وشابتها صفرة خفيفة ، وراع جلال هذه الظاهرة من لم يألف رؤيتها من قبل . ولما دنت الغيمة منا شاعت فيها الصفرة على حين كان الأفق أصفى ما يكون زرقة . ثم دهمتنا وهى تسرى حثيثاً ولفتنا فى ظلمة دامسة وأشاعت الاضطراب فى صفوفنا ، فلم يكن الرجل منا يميز شيئاً على خمس أقدام أو ست ، وامتلأت عيوننا بالغبار ، وعصفت الريح بظالنا المؤقتة حالما مستها ، وعصفت معها بما هو أمكن منها من خيام الهدندوة . أما الخيام الكبيرة فصمدت للعاصفة برهة ثم أذعنت فإذا المخيم كله صعيد جرز ، وزاد اضطرابنا أن الإبل همت بعقاودها — والفزع يملؤها — فقطعتها فراراً من الهلاك المحدق بها . واتصل هبوب الريح نصف ساعة لم تعرف فيها هوادة ، ثم سكتت فجأة ، وصفا الجو ، ومضت الغيمة الرهيبة فى طريقها شمالا تحمل معها الخراب والدمار . ومثل هذه العاصفة كثير فى هذا الموسم ، على أن تدميرها لا يعدو ما ذكرت ، فما هى إلا دقائق حتى نصبت الخيام من جديد وعاد كل شيء كما كان .

لم نلق من الهدندوة إكراماً يذكر ، وحططنا فى وسطهم خشية التعرض لهجوم بالليل ، وبتنا نحرس بضاعتنا مخافة أن تمتد إليها أيديهم بالسرقة على ما هو معهود فيهم . وكانت عيون الماء بعيدة عن المضارب ، وكان على قاصدها أن يشق طريقه فى الغابة ، وهو طريق محفوف بالخطر على الغرباء ، لذلك ألزمنا الهدندوة

بدفع ثمن الماء الذى جلبوه لنا منها . أما الخبير فقد أولم له أقرباؤه وليمة نحروا فيها كبشاً احتفاء به ، وأرسلوا من مائدتهم إلى جماعة التجار السود الذين كنت أساكنهم أرطالا من اللحم المشوى . وبعد هنيهة بعث شيخ الدوار عبده يطلب شيئاً من القرنفل فلم نستطع رده لأنه كان من الواضح أنهم إنما طلبوه ثمناً للحم ، ولو بدرت هذه الخسة من بدوى فى صحارى العرب لوصمته هو وقبيلته كلها بالخزى والعار .

٦ يونيو — لم يشأ أصحابى أن يمكثوا مع الهندندوة أكثر مما مكثوا ، فإن صغر مخيمهم وبعده عن الأسواق لم يفسحا أمامهم المجال لبيع بضاعتهم . لذلك استأنفنا السير هذا الصباح — على رغم اعتراض الرئيس — وسرنا جنوب الجنوب الشرقى فوق سهول التاكة الخصبة ،وهذه السهول غنية فى كل أرجائها ولكنها غير مزروعة ، وفيها الشجر الكثير والعشب الموفور . وبعد أن سرنا فى الغابات ثلاث ساعات فى طريق طويلة بلغنا مخيما كبيراً عزمنا على أن نحط عنده ، واسم المخيم فريق ، ودخلناه من إحدى المنافذ المفتوحة فى السياج الكثيف العالى الذى تؤلفه الأغصان الشائكة ، وكل هذه المضارب تلفها الأشجار الكثيفة ، ثم ضربنا خيامنا فى الساحة المربعة . وكان لكثير من التجار أصحاب هنا فنزلوا فى خيامهم . وظل التجار السود يلازم بعضهم بعضاً . ولما كنت أعلم أننا سنمكث بهذا المكان بضعة أيام على الأقل فقد استأجرت بدويا لينصب لى تعريشة من الحصير أستظل بها ونقدته لقاء ذلك حفنة من التبغ .

بلاد التاكة — بلاد التاكة أو **القاش** كما يسميها أهلها أيضاً ، معروفة فى هذه الأرجاء كلها بخصبها العظيم . وتنبسط جنوبا بشرق ، وطولها ثلاث مراحل طوال وعرضها مرحلة ، وأهلها كلهم قبائل تجمع بين البداوة وسكنى الحضر . وعلى مسيرة يوم إلى الجنوب الشرقى من مضرب الهندندوة المسمى فريق تبدأ مضارب لبدو يدعون **الملكناب** ، وأبعد منهم ينزل بدو **سقولو** . وعلى مسيرة يوم من بدو الملكناب تبدأ قبيلة **الحلنقة** ، وهى عشيرتان عليا وسفلى ، وتبعد الأولى عن الثانية

مرحلة . والتاكة جزء من بلاد البجة[1] وتشمل مجرى عطبرة من قوز رجب ، وتمتد — على ما قيل لى — جنوبا حتى الجبال (وهى فى ظنى جبال الحبشة) ، أما فى الشمال فحدود البجة هى سلسلة جبال لنقاى ، وعلى ذلك تدخل فيها مغاور ونجاد كثيرة . ولكن التاكة نفسها أرض منبسطة تمام الانبساط ، أو قل أرض منخفضة تحدها الصحارى فى الشمال والغرب ، وتحدها من الجنوب الشرقى سلسلة جبال تدعى النقيب قيل لى إنها تمتد محاذية للبحر الأحمر . أما حدودها الجنوبية فلا أستطيع أن أفيد القارىء بمعلومات كثيرة عنها ، ولكنى أعتقد أنها إقليم تخترقه الجبال والوديان الخصيبة .

والفضل فى خصوبة التاكة وعمرانها راجع لما يغمرها من فيضان منتظم ، وهى حقيقة لا يخامرنى فيها شك ولو أنه استحال على استقاء المعلومات الدقيقة عن أسباب هذا الفيضان أو ملابساته . ففى أخريات يونيو — وقد يتأخر هذا إلى يوليو ، لأنه يبدو أن فصل الفيضان ليس له ثبات فيضان النيل[2] — تتدفق على الإقليم السيول الغزيرة مقبلة من الجنوب والجنوب الشرقى ، فما هى إلا أسابيع (أو أيام ثمانية فى رواية بعضهم) حتى يغمر الماء الأرض كلها بطبقة يتفاوت عمقها بين القدمين والثلاثة . ويقال إن هذه السيول تتبدد فى السهل الشرقى بعد أن تفيض على الأرض ، ولكن الماء يظل فى التاكة فوق الشهر ، فإذا انحسر خلف وراءه طبقة غرينية سميكة شبيهة بما يخلفه النيل فى فيضانه — هذا إذا صدقت روايات من رووا ذلك لى ممن عرفوا النيل ، فاستطاعوا المقارنة بين النهرين . والثابت أن البدو يبذرون الحب على التربة الغرينية حال انحسار ماء الفيضان عنها دون تمهيد أيا كان . ويصحب الفيضان عادة أمطار غزيرة تبدأ قبيله ويشتد هطولها إذا بلغ الفيضان غايته . وقيل لى إن المطر تمهد له عواصف هوجاء عاتية تهب من الجنوب كل عشية عقب مغيب الشمس . ويطول هطول الأمطار أسابيع بعد الفيضان ، ولكنها لا تتصل ، بل تهطل منها الشآبيب الغزيرة فى فترات قصيرة . ويتزود أهل

(١) (والبجة سكانها يسمون بجاوا) .

(٢) علمت من سواكن فيما بعد أن فيضان هذا العام بدأ حوالى ٢٦ أو ٢٩ يونيو .

التاكة بالماء فى الشتاء والربيع من آبار عميقة متدفقة المياه منبثة فى أرجاء البلاد وإن تكن المسافات بينها بعيدة ، وهى مجموعات كل مجموعة منها ست ، وحولها أحواض كبيرة بنيت من اللبن لشرب الماشية ، وهى تغص طول النهار بالرعاة وقطعانهم لأنها مورد الإقليم المجاور الذى يمتد أميالا أربعة أو خمسة . والماء فى أكثر هذه الآبار ملح زعاق ، ولكن يقال إنك لا تعدم فى كل مجموعة بئراً ماؤها مقبول . ويحفرونها إلى عمق يختلف بين خمس وعشرين قدماً واربعين ، ولا يبطنون جوانبها بحجارة ولا آجر .

والمحصول الذى تنتجه أرض التاكة ضئيل إذا قيس بما يمكن أن تغله تربتها الخصبة التى تتمتع كل أجزائها بفيضان قل أن يخيب . ويبدو أن أهلها يجهلون الزراعة ، فليست لهم حقول منظمة ، وهم يبذرون حب الذرة — وهو غلتهم الوحيدة — بين الأشجار الشوكية والعشر ، بحفر ثغرات كبيرة فى الأرض يرمون فى كل ثغرة منها حفنة . فإذا ضموا المحصول رجع الفلاحون إلى مواشيهم يرعونها . ولعلهم لم يفكروا قط فى رى الأرض لغلة ثانية بالماء الذى يمكن أن نجده أينما حفرت عليه فى الإقليم . وليس أقل من أربعة أخماس الأرض يترك بوراً . ولكن غلتهم من الذرة تكفيهم عادة وتفيض عنهم ، لذلك لم يفكروا فى العمل على زيادتها وإن كان الأهلون يقاسون الأمرين من القحط والعوز فى الفيضانات المتوسطة ، أو الشحيحة — ولا أقول فى الجدب التام ، لأن أحداً لا يذكر أن الفيضان امتنع فى سنة من السنين . وكان القوم هنا يبيعون ٢٤ مكيالا من الذرة بثوب من الدمور . أما فى شندى فالثوب يساوى سبعة مكاييل ، فإذا حسبت الثمن بالريال ، كان ثمن الذرة ريالا إسبانياً ، كما هو الحال فى صعيد مصر ، وهو أرخص أسواق الغلال فى الشرق بأسره(*) . والذرة من أجود الأنواع ، وهى من الفصيلة التى نجدها فى الصعيد وسائر أراضى النيل . ولكن ذرة التاكة أكبر حباً وأبيض لونا وأطيب مذاقا ، لذلك يشتد عليها

(*) حين كنت بالصعيد كان ثمن الأردب من أجود القمح (ويعادل ١٥ بوشلا) ه باتكات أعنى ١١ بوشلاً بريال اسبانى . وقد احتكره الباشا وباعه فى الإسكندرية بأربعين باتكا للاردب (أعنى ١١ بوشلاً بثمانية ريالات) .

الطلب . وحين كنت بسواكن فى بيت الجابى التركى أكلت خبزاً صنع من الذرة التاكية فلم يكن خبز القمح يفضله إلا قليلا . وتباع ذرة التاكة فى سوق جدة بثمن يزيد ٢٠ ٪ على الذرة المصرية ، وفى ظنى أن أهل التاكة لا يزرعون من المحاصيل غير الذرة، اللهم إلا قليلا من البامية واللوبيا ، ولهم شغف عظيم بالبصل ، وقد أصبح ضرباً من العملة يتعاملون به مع تجار سواكن ، ولكن أحداً لم يحاول زرعه فى التاكة .

وشهرة التاكة بالماشية لا تقل عن شهرتها بالذرة ، فهى تملك منها القطعان الكثيرة . وأبقارها على الأخص طيبة ، وهى ذات سنام كأبقار وادى النيل، ويتعامل بها الناس كما يتعاملون فى دارفور وكردفان . وكان ثمن البقرة الكبيرة السمينة أربعة مقاطع دمور ، أو ستة وتسعين مداً من الذرة ، أى ما يساوى أردبين تقريباً أو ثلاثين بوشلا . وثمن البعير القوى يزيد ربع هذا . على أننى لم أر فيها من الماشية إلا قليلا لأن الفصل كان آخر فصول العام ، وهو الذى يسبق الفصل المطير مباشرة وتكون الأرض فيه جافة جرداء ، وكان القوم قد أرسلوا قطعانهم من شهور إلى الصحراء الشرقية جريا على عادتهم كل سنة ، وهناك ترعى الماشية فى الجبال والوديان الخصبة ، ويتوفر لها الماء فى العيون . فإذا انقضى الفيضان عادوا بها إلى السهول . ويتهافت الناس على إبل التاكة لأنهم يعتقدون أن أغصان السنط الغضة التى تأكلها فى الغابات تعطيها من الشدة والقوة ما لا يتاح لغيرها من الإبل التى تطعم غير هذا الغذاء . ويأخذ القوم جلد عنق الجمل الطويل بعد أن يخيطوه من جنب ويتركوه من جنبه الآخر فيستعمل غرائر يحملون فيها غلتهم فى السفر ، وشكل الغرائر ملائم جداً للتحميل . ولولا الوحوش الضارية التى تأوى إلى الغابات وتفترس الكثير من الماشية لزاد عددها زيادة كبيرة . وأهم هذه الضوارى الأسد ، وكذلك النمر فيما يقولون، ولكنى لا أحسب نمرهم إلا فهداً . على أن بصرى لم يقع قط على هذه الوحوش، إلا أننى كنت أسمع زئيرها كل ليلة . وفى المساء تساق الغنم التى ترعى على مقربة من المخيم إلى ساحته الكائنة فى قلب الدوار وتسد الثغرات المفتوحة فى السياج الشوكى الذى وصفته بكوم من الشوك . ولا يجرؤ أحد على

الخروج من هذا السياج فى أثناء الليل ، وهو من القوة بحيث يمتنع على السباع التى تجوس الأرض طوال الليل ، وتملأ الفضاء بموائها المنكر الذى يجيب عليه الكلاب من داخل المضرب بنباح متصل . ويندر أن يقتل القوم أسداً أو نمراً فى هذه الأرجاء ، فإذا فعلوا فدفاعاً عن النفس ، ذلك أن الأهالى لا يعرفون من السلاح إلا السيوف والرماح(*) ، وهو لا يعينهم كثيراً على الفتك بملك الغابة الذى استطاب سكنى الإقليم فيما يبدو . ويحتفظ بعض الشيوخ بجلود الأسود فى خيامهم ، ولكنهم قلة لا تذكر . ويخيل إلى أن هذه الجلود متوسطة الحجم ، ولكن الأسد فى هذه النواحى — إذا صدق الهدندوة — قد يدانى البقرة حجماً ، وكثير ما تفتك هذه الأسد بالناس . والغابات حافلة بالذئاب والغزلان والأرانب ، ويروى البدو القصص عن الأفاعى العظيمة التى قد تفترس الأفعى منها خروفاً برمته . ولكن ليس بين وحوش هذه الغابات ما هو أشرس من البجاوة أنفسهم . ويقتنى هؤلاء البدو الحمير الكثيرة . ويقال إن الزراف يكثر جداً فى جبال النقيب ، وقد رأيت فى خيمة رجل من الهدندوة قطعة من جلد زرافة . والجراد كثير فى التاكة ، ويبدو أنه يتوالد فيها ثم ينتشر منها لسائر أرجاء النوبة . ولا تستطيع أرجال الجراد مهما تكثر أن تأتى على كل أخضر فى الإقليم كما تفعل أحياناً فى مصر والشام . وما رأيت منه كان أكبر حجم عرفته ، وأجنحته العليا حمراء والسفلى صفراء . ويحفل الشجر بالحمام والأسراب الكبيرة من الغربان . ولا أذكر أننى رأيت هنالك طيراً زاهى الريش . ويجمع الصمغ العربى من السنط ويباع فى سواكن لتجار جدة ، ومن جدة ينقل إلى مصر ، ولكنه ردىء النوع ، ولعل هذا راجع لرطوبة التربة ، فإن أجود أنواع الصمغ يؤخذ من أجف الصحارى .

وبدو الهدندوة — ولم أر من أهل التاكة غيرهم — ينتمون إلى نفس الجنس الذى ينتمى إليه البشاريون وسائر النوبيين الشرقيين ، ولهم قسماتهم

(*) كذلك حال التجار السواكنية فهم لم يألفوا استعمال الأسلحة النارية . وقد يمر بهذا الطريق بعض العرب المسلحين بالبنادق البسيطة فى صحبة قوافل سواكن قاصدين شندى أو سنار .

ولغتهم وطباعهم وعاداتهم . وهم أشد قبائل التاكة الأربع بأساً ، أما أضعفها فالكتاب . وكل هذه القبائل تشتغل بالزراعة حينا وبالرعى حيناً ، ولكل قبيلة قريتان كبيرتان فى الصحراء على حدود الأرض الزراعية التى لا تخلو قط من بعض السكان ، والتى يعود إليها السكان جميعاً فى موسم الأمطار ، اللهم إلا نفراً منهم يقومون على الماشية فى الصحراء . فإذا انحسر الماء انتشر البدو فى الأرض يتخيرون المرعى الطيب فتضرب فيه الجماعة دوارها ولا تفتأ متنقلة من شهر إلى شهر حتى يجف الكلأ وتحرقه حرارة الشمس ، وفى غضون ذلك يزرع ساكنو القرية الأرض الملاصقة للصحراء . والدوار أكواخ من الحصير كتلك التى يقيمها أهل عطبرة ، وإلى هذه أكواخ قليلة ذات جدران من الطين ، وهى شبيهة بأكواخ الوادى ولكنها دونها حجماً . على أن أكثرهم — حتى من سكن منهم القرى — يفضل تعريشة فى الخلاء عن سكنى هذه الأكواخ المقفلة . وغير هذه القرى التى وصفت قرى أخرى فى الأقاليم الخصبة بنيت على بقاع رملية منعزلة ترتفع قليلا عن مستوى الأرض العام كأنها الجزائر . وسألت هل فى التاكة مستنقعات أو برك كبيرة من الماء الراكد فقيل لا .

وكان بالمخيم الذى نزلناه مائة وخمسون خيمة إلى مائتين ، وهو أربعة دوارات يفصلها عن بعضها البعض سياجات أوطأ من سياج الشوك الكبير الذى يحيط بالمضرب كله . ورأيت فى كل مضرب بالتاكة — كما رأيت فى شندى وعطبرة — الكثير من مشارب البوظة وبنات الليل . وقد ألم بهن التجار السواكنية حتى أرفعهم قدراً فى عيون القوم . وخيل إلىّ أن هؤلاء النسوة كن أكثر حشمة ممن على شاكلتهن ببلاد وادى النيل ، فهن على الأقل لا يخرجن بالنهار إلا فيما ندر ، أما أولئك فتراهن يجلن فى المدينة فى كل وقت . ويلبس القوم — رجالا ونساء — اللباس النوبى المعروف ، أعنى القميص من الدمور والثوب منه يلقونه على أكتافهم . ولفتت نظرى عادة غريبة بين النساء هى لبسهن الخواتم من النحاس أو الفضة فى أصابع القدم ، ومنهن من ترتدى مئزراً من الجلد بدلا من قطعة الدمور التى تلفها النساء النوبيات على خصورهن . وهذه العادة منتشرة بين

بدو الحجاز أيضاً . وفى الخيام يعلقن الحلى المختلفة من الودع الأبيض المجلوب من البحر الأحمر مختلطاً بريش النعام الأسود . ونساؤهم سافرات ، ولا تجـد المرأة غضاضة ولا حرجاً فى لقاء رجل فى خيمتها ، ولا تحس عاراً إذا رؤيت تتحدث معه فى غياب بعلها . على أن هذا لم يقع لى قط ، فكلما أقبلت على خيمة تلقانى النسوة بصيحات عالية وأشرن إلىّ بأيديهن أن أعرب عن وجوههن فوراً . ولم يرعهن منى أكثر من لحيتى وشاربى ، ذلك لأن لحى البدو لا تطول ولا تغزر ، وهم يقصرون شواربهم لأن إرسالها عيب ، وهو إلى ذلك عنوان البذاذة كاللحية الطويلة عند الأوربيين .

ووجدنا فى كل قرية تقريباً رجلا أو رجلين أديا فريضة الحج ، وكانا يقومان بما يقوم به الفقهاء من مهام . هؤلاء الرجال وحدهم هم الذين يهتمون بإقامة شعائر الدين ، أما سائر القوم فأجهل الناس بشرائع الإسـلام وتعاليمه . فهم متى بعض الوجوه يقلبون هذه التعاليم رأساً على عقب ، فيأكلون مثلا دم الحيوان المذبوح بأن يضعوه على نار حتى يجمد ، وبعد ذلك يرشون عليه الملح ويصبون عليه السمن . وأفضل دماء الحيوان وأصلحها لهذا اللون من الطعام دم البقرة . وهذه الأكلة يعرفها أهل دارفور كما يعرفها أهل التاكة على ما علمت من الرقيق الدارفوريين . ولا يأكلون من اللحم نيئا غير الكبد أو الكلى ، وكذلك يأكلها بالملح البدو من الأعراب وأهل الشام. ومن ألذ الأشياء عندهم أكل نخاع البقر نيئاً . وحين تكون ماشيتهم قرب مضاربهم ترى طعامهم لا يكاد يخرج عن اللبن لاسيما لبن الناقة . فإذا اجتمع منهم نفر وضعوا قدراً منه على الأرض وسطهم ثم أديرت عليهم القدر كل خمس دقائق تقريباً فيرشف منها كل منهم رشفة . فإذا فرغت ملئت ثانيـة ، وهكذا دواليك ما دام الضيوف موجودين .

وفى الهدندوة كسل مفرط ، فالرجال يكلون شئون البيوت لنسائهم وعبيدهم وينفقون سحابة نهارهم إما فى التسكع والزيارات الفارغة للجيران ، أوفى البيوت متكئين على العنقريب يدخنون الأعواد ويعاقرون الخمر حتى يثملوا بها قبل النوم .

وهم فيما بينهم كرام أسخياء ، ولكنى لم أر أشح منهم ولا أبخل على الغريب ،

وهـــذا أدعى إلى الدهشة لأنه نقيض ما ألف البدو ، فالبدوى يعنى أشد العناية بحاجات الغريب ، ويبدو أن البخل على الغريب صفة تفرد بها الهدندوة والسواكنية ، وآية ذلك أننى لم أستطع أن أحصل من القرية القريبة من دوارنا — وفيها تنصب السوق — على قطرة من الماء دون أن أؤدى ثمنها ذرة ، كذلك اضطررت فى دوارنا إلى دفع إيجار حصير لأجفف عليها شيئاً من دقيق الذرة دقائق معدودات. ويشكو الحجاج الزنوج المساكين الذين يمرون بالتاكة فى طريقهم إلى مكة مر الشكوى من بخل القوم على الغرباء ، وكان بعض هؤلاء الحجاج ملمين بالدوار ونحن به ، وكانوا يطوفون فى العشية بصحافهم الخشبية فيستجدون القوم قليلا من الخبز وهم يتمشون ، فما كانون يستطيعون أن يظفروا من مائتى خيمة بما يكفى لعشائهم. وكنت ورفاقى نضطر لاستضافة اثنين منهم أو ثلاثة كل عشية . والملاحظ أنه إذا انعدم الجود والسخاء فى قوم اتسع المجال لـكثير من الرذائل والدنايا. وتلك حال أهل التاكة ، فخراب الذمة يؤثر عنهم كما يؤثر البخل . والتطاحن والتناحر لا ينقطعان فى صفوفهم ، ولـكنهما لا ينتهيان بالعداء السافر بل بحرب خائنة غادرة يحاول فيها الرجل أخذ عدوه على غرة والفتك به غيلة وتراهم مدججين برماحهم وسيوفهم ودرقهم حتى فى دوارهم ، فإذا ابتعدوا عنه لا يسيرون إلا جماعة. وقد قتل مجهولون رجلين منهم فى أثناء مقامى عندهم، ولم يكن رجال القافلة يجرءون على الخروج من الدوار إلا فى جماعات كبيرة . وكان من عادتنا فى المساء أن يلتئم شملنا فى قافلة صغيرة لنمضى إلى الآبار نملأ منها قربنا حريصين على أن يلزم بعضنا بعضا قدر الاستطاعة . والقوم لا يعتبرون الخيانة جريمة ولا عاراً ، ولا يجد الرجل من الهدندوة عيباً فى المفاخرة بذمته الخربة ما دامت أعانته على نيل مأربه . وأهـــل التاكة — على ما زعم لى السواكنية — قوم لا يتقيدون بأيمان ولا يرتبطون بعهود ولا مواثيق . وقد يتحرجون من الحنث بيمين واحدة لا ثانى لها ، هى قول الرجل منهم «وحياة عافيتى» . وقل أن يتردد أحدهم فى الفتك بصاحبه فى الطريق طمعاً فى أتفه الغنيمة ما دام يرى نفسه فى مأمن . وهم يثأرون لقتلاهم ما استطاعوا إلى الثأر سبيلا . ورووا لى نبأ عادة منكرة جرت عليها قبيلة الحلنقة — وأصلها من الحبشة — فى ثأرها

لقتلاها . ذلك أن أقرباء القتيل إذا قبضوا على قاتله أولموا وليمة لأفراد الأسرة وجاءوا به فى وسطهم موثقاً على عنقريب ، ثم ذبحوه بشفرة ذبحاً بطيئاً وهم يتلقون دمه فى قدر تدار على الحاضرين فيشربون من دم الضحية وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة . ولست أستطيع الجزم بصحة هـذه الرواية وإن يكن كثيرون قد أكدوا لى حقيقتها ولم أسمع أحداً ينفيها . ولعلى كنت قادراً على معرفة بعض عادات هؤلاء الهمج لو كنت ملماً بلغتهم أولو لقيت منهم عدداً كبيراً يتكلم العربية، إذ لا يكفى فى ذلك أن أجد منهم واحداً أو اثنين يعرفان العربية ، فهم لا يطيقون إرهاقهم بالأسئلة ما لم يكن فى الإجابة عليها مغنم ، ومثلى لا أمل له فى الحصول على معلومات كهذه إلا بالإنصات إلى حديث القوم بعضهم مع بعض ، أو بمحاولة الاستطراد بهذا الحديث إلى هدفه هو على غير وعى منهم .

وقد ابتلى أهل التاكة برذيلة أخرى فوق الغدر والخيانة ، وهى ولعهم الشديد بالسرقة. وقد أصابنا جميعاً شواظ من هذا الولع، ولكن أشدنا اكتواء بنارهم كان سوا كنياً ينزل خيمة بدوى كبير فى الدوار ،فقد شرطوا جرابه الجلدى فى الليل وسرقوا منه مائة أوقية من الذهب . وكنا كل صباح نكتشف سرقة توافه من متاعنا ، ولكنا اتخذنا من أسباب الحيطة والحذر ما استحال معه عليهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة دون إيقاظنا . وكنت يوماً فى السوق أكيل بعض الذرة فإذا رجل ينشل من فوق كتفى فردات دمور أعرضها للبيع ، ولم أفطن إلى السرقة لتوى مع أن الواقفين جميعاً رأوا الرجل وهو يفر بها . وما إن اكتشفت فعلته حتى اقتفيت أثره، ولكنى وجدته يحمل سلاحاً، ووجدته لى قريباً بل أكثر من قريب ، ثم إن بعض القوم انحاز إلى صفه ، لذلك رأيتنى محظوظا حين استعدت منه ثلثى ثمن الدمور ذرة ، واحتفظ اللص بالباقى مكافأة له على ما كابد من عناء فى سرقة الدمور كله .

وقد أصبح سكان التاكة أهل حرب وقتال بفضل ما بينهم من تناحر ، وما بينهم وبين البشاريين أعداء جنسهم من خصومة لا هوادة فيها . وسلاحهم سلاح أهل وادى النيل ، ولا يعرفون فى حربهم سهاماً ولا قسياً . ويقتنى شيوخهم الجياد ويلبسون الزرد . وهم فيما يقال شجعان صناديد ، ولكنى لم

أو آثار الجراح إلا على ظهورهم ، ومثل هذا رأيته عند أهل النوبة جميعاً . فلم ألق منهم رجلاً يحمل ندوباً على صدره ، أما ظهور أكثرهم فتحمل ندوباً كبيرة يبدو أنهم فخورون بهـا . ويقال إن الدرق يدرأ عن جنوبهم الطعنات .
ووجدت عندهم عادة كنت فى رحلتى إلى دنقلة قدسمعت بوجودها بين البشاريين، ذلك أنه إذا ازدهى شاب آخر ببسالته الفائقة ، استل هذا مدية فطعن بها ذراعيه وكتفيه وجنبيه ، ثم أعطاها لذلك التياه الفخور بشجاعته ، فيضطر هـذا — نزولا على قواعد الشرف عندهم — إلى طعن جسمه طعنات أغور من طعنات صاحبه ، فإن لم يفعل كان لغريمه قصب السبق . وما من شك فى أن القوم أشداء لا تدانيهم فى قوة البأس وصلابة العود قبيلة ممن عرفت من البدو . ويكاد غذاؤهم فى الشتاء يقتصر على اللحم واللبن ، أما الخبز فلا يصيبون منه إلا أقله ، وإلى هذا يعزون قوتهم . ولا يروعهم من الأمراض سوى الجدرى ، وقد اجتاح قبيلتهم فى العام الماضى ولم يفارقهم بعد تماماً ، فما زال مضرب من المضارب القريبة موبوءاً به ، لذلك قطعت المواصلات بينه وبين سائر المضارب المحيطة به . وأول من جلب المرض إلى هنـا التجار السواكنية ،ثم انتشر من هذا الإقليم إلى سائر بلاد النيل.

وعلى أطراف الصحراء قرية تدعى *سوق الهدندوة*(ويستعمل الأهالى فى لغتهم كلمة « سوق »العربية) ، وتقع على ربع سـاعة من دوارنا ، وهى مقر الشيخ الأكبر لهدندوةالتاكة. وفى كل أسبوع تقام على الرمال المنبسطة خلف القرية سوق يؤمها العدد الغفير من البدو والريفيين . وقد زرتها مرتين فـكنت بين الوافدين عليها مبعث دهشة بالغة ومصدر تسلية كبيرة لما رأوا فى منظرى من غرابة وطرافة. على أننى كنت على الدوام أثير فى النساء من الاحتقار والتقزز أكثر مما أثيره فى الرجال .ورافقنى إلى هذه السوق مسا كنى من التجار السود فبمنافيها سلعاً مختلفة جابناها من شندى وتقاضينا ثمنها ذرة ، وهى العملة المتداولة هنا . وقل أن تجد فى التاكة بدواً يرضون بالريال عملة ، ولـكن الطلب شـديد على الدمور . وقد

جلب الريفيون إلى السوق سلماً أخرى بالإضافة إلى الماشية ، منها الحصر والسلال المختلفة المصنوعة من الجريد وسعف الدوم الذى يكثر فى الوديان الصحراوية شمالا وشرقاً ، والقدور من الفخار للطهو ، وأباريق الوضوء التى يشتريها السواكنية ويحملونها إلى الحجاز . وكل زنجى أو حاج فقير يحمل منها إبريقاً لوضوئه اليومى ، ورحال الإبل ، والحبال من السّمار ،والجلود، والقرب ، والدجاج الذى تراه فى أرجاء النوبة كلها ، ولحم الجمل المجفف (أما السمن فلم يكن من سبيل للحصول عليه لبعد الشقة بيننا وبين القطمان) ، وفاكهتا اللالوب والنبق ، ويصنعون من النبق ضرباً من المربى طيب المذاق ، والتاما — وهى قشر شجرة شبيهة بالقرفة التى رأيتها فى شندى سواء فى شكلها أو طعمها أو الأغراض التى تستعمل فيها ، وتسمى الباسنيا فى الجبال الواقعة جنوب الحلنقة — ، والصمغ العربى ، والقرض — وهو ثمر السنط الذى يدبغ به الجلد — ، والملح المجلوب من سواكن وهو سلعة هامة ، وريش النعام الأسود المأخوذ من أنثاه ، أما الريش الأبيض فيباع سراً لتجار سواكن . وفى السوق حدّادون ، فترى العبد ينفخ بالمنفاخ بينما يعكف سيده على إصلاح المدى ورءوس الحراب والقيود الحديدية التى يربطون بها فى الليل قائمتى الجمل الأماميتين .

وأهم ما يبيعه التجار الأجانب التبغ سواء منه ما جلب من سنار أو من العجم واليمن . وهذا الأخير يسمى تبغاً سودانياً فى هذه النواحى ، وهو بعينه التبغ ذو الأوراق الصفراء الذى يسمونه فى الحجاز ومصر تمباكاً ، والذى يدخنه الشرقيون فى النارجيلة . ونظراً لما يمتاز به التبغ السنارى من قوة وحرارة يفضله القوم فى التاكة لا سيما فى صناعة النشوق الذى يكلفون به أشد الكلف ، ويحضرونه بخلط النطرون أو الملح بالتبغ المسحوق . وليس منهم رجل أو امرأة يسير بغير وعاء صغير فى حجم بيضة الإوزة يحمل فيه نشوقه . كذلك يبيع التجار السواكنية النطرون الذى يجلبونه من شندى ، والتوابل بكافة أنواعها — ويقبل على شرائها الحلنقة إقبالا عظيما لا سيما القرنفل -- وكذلك يبيعون اللبان والخرز

والآلات الحديدية، ولكن أهم سلعهم التبغ والدمور والقرنفل، ويقايضون عليها كلها بالذرة ، وهى أهم ماينشده تجار سواكن التى تعتمد فى زادها من الذرة على التاكة، لأن الإقليم المجاور لها لا يكاد يزرع منها شيئا . وتجلب ذرة التاكة إلى سواكن بمقادير كبيرة بحيث يمكن أن يشحن القوم منها فى أى وقت شاءوا مراكب إلى جدة التى لاتفرغ أسواقها من الذرة . ولست إخالنى فى حاجة إلى القول بأن هذا ينشط المواصلات بين التاكة وسواكن تنشيطا عظيما ، فقل أن يمضى أسبوعان دون أن يفد على التاكة قوم من سواكن ، وأجرة السفر بينهما ضئيلة لرخص الابل . ومع ذلك فقد كان ثمن الذرة بسواكن اربعة ضعاف ثمنها بالتاكة ، فكانت الاثنتا عشرة كيلة تباع بريال ، ولكن هذا الثمن على ارتفاعه يسمح للتجار بنقل الذرة إلى جدة وبيعها بثمن مجز .وكانت التاكة إبان القحط الأخير تمد بالذرة وادى النيل كله من شندى إلى مقرات . وبالاقليم عدة أسواق كالسوق التى وصفت ،وسوق الحلنقة فيما يقال اكبرها ، والذرة فيها أرخص منها فى هذا القسم من التاكة . وكان ثوب الدمور هناك يساوى من اثنين وثلاثين مداً إلى ستة وثلاثين ، وقد ركب بعض اصحابى إليها ليبيعوا فيها تبغهم .

ويهدد سلامة المسافرين بالطريق المباشر من التاكة إلى شندى غارات الشكرية مما يضطر التاكيين القاصدين شندى إلى سلوك طريق قوز رجب وعطبرة. وقد تذهب القوافل الصغيرة أحيانا من التاكة إلى سنار مباشرة طلباً للدمور والتبغ ، فتسافر من أقصى الحدود الشمالية للحلنقة نصف يوم إلى قرية صناره ، ومنها سفر ثلاثة أيام فى صحراء رملية لاماء فيها حتى عطبرة ، ويسكن ضفافه هناك عرب عمرانه الذين يتكلمون العربية . ومن عطبرة رحلة يومين فى الصحراء الى عرب الضباينة الذين يملكون القطعان الكبيرة من البقر والجمال ، ومن هناك رحلة يوم فى الغابات والمزارع إلى قرية الدندر، ثم رحلة يومين عبر الصحراء يبلغون بعدها سنار بعد رحلة مجموعها ثمانية أيام أو تسعة من السير الوئيد

فى طريق غير مستقيم . وكثيراً ما يسلك الحجاج الزنوج هذا الطريق . وقد أعطانى علما بهذه المسافات رجل من دار صليح قام بالرحلة مع غلام ولم يكن لهما فيها دليل . وقد أحسن عرب عمران معاملة الرجل ، ومن خيامهم اتجه صوب منان مخترقا الصحراء ولا دليل له إلا نجوم السماء . وروايته — فى اعتقادى — موثوق بها . وإنى أسوق إلى القارىء فيما يلى ماسمعت عن الطريق إلى راس الفيل ، ولكنى لست مقتنعا بدقته اقتناعى بدقة الرواية الأولى .

يقطع المسافر بعد مغادرته آخر قرى الحلنقة مرحلة واحدة طويلة تبلغ به عرب الهجارة ، ومن هناك يسير يوما ونصف يوم إلى وادى عمران ، ثم يوما إلى عيانة ، ثم يومين إلى راس الفيل على الطريق بين سنار وغندار . وعلى مسير ثلاثة أيام من عرب عمران — صوب القوز على عطبرة — قرية كبيرة للشكرية تدعى قباريب قيل لى انها فى اتساع شندى ، وكثيرا ما سمعت القوم فى التاكة يرددون اسمها فى أحاديثهم .

وبين الحلنقة والحبش عداء شديد ، ولا يذكر الحلنقة الحبش إلا ألصقوا بهم نعتاً من النعوت المعيبة ، وأهونها الكفر . وسمعت فى الصعيد وفى بربر أن القوافل تقوم أحيانا من الحلنقة إلى مصوع . وروى لى بعد ذلك تجار مصوعيون فى جدة أن الحلنقة يذهبون إليها أحيانا ليعرضوا أبقارهم للبيع ، ولكنى لم أسمع إبان وجودى بالتاكة بمثل هذه التجارة . وبين الحلنقة وأحباش إقليم وقات روابط تجارية ضعيفة . ولو أنى وجدت الرحلة إلى مصوع ميسورة لما ترددت فى القيام بها ، لأنى رأيت هذا الإقليم غاية فى الطرافة ، ولأنى كنت فى هذه الحالة أمر بالقبائل الكثيرة التى هى همزة الوصل بين الحبش والعرب ؛ وكلها قبائل ذات عادات غريبة جدا . بيد أنى — وقد بلوت من خلق أهل التاكة ما بلوت — لم أر بصيصا من الأمل فى إمكان المحافظة على بضاعتى القليلة لو أننى افترقت عن رفاق التجار السواكنية . وقد أيقنت — لما خبرت من معاملة هؤلاء القوم للغريب — أننى لا

محالة هالك جوعا لو سرقت بضاعتى . ولو استخدمت أحد هؤلاء الهمج دليلا لى لما أغنانى هذا فتيلا حتى ولو كان الرجل مخلصاً لى وفياً ، لأنه كان يعجز عن ضمان سلامتى أكثر من يوم واحد ، أعنى لغاية حدود قبيلته ، وكنت عندئذ أقع بين أغراب لاهم لهم إلا نهب كل ماأحمل ، بينما تعوزنى وسائل الدفاع عن نفسى وأسباب التفاهم معهم ، لأن الناطقين بالعربية منهم قلة لا تذكر . فلعل أحداً لا يلومنى على نبذ هذه الفكرة فى وقت كنت أؤمل فيه بلوغ سوا كن آمناً ، وهو أمل له ما يبرره . وقد سمعت فى التاكة أن سواكن ومصوع على بعدين متساويين من الحلنقة.

ولم يلحق بى وأنا بالتاكة أى أذى ، ولست أذكر أن حادثاً مكدراً وقع لى . على أنه نمى إلى فيما بعد أننى كنت على وشك الوقوع فى بلاء كبير . ذلك أن عبداً كبيراً لأحد رفاقى بيت سرقة جملى وبيعه فى قرية قريبة ، ولست أظنى كنت قادراً على استرداده لو فعل . كانت جمالنا تساق كل صباح إلى الغابات لترعى تحت حراسة العبيد ، وكنت عهدت بجملى إلى غلامى يحرسه . وكانت بعض الجمال تسرق أحياناً فى أثناء نوم العبيد فى قيظ النهار ، ولولا أن العبد الذى دبر سرقة جملى أسر بالأمر إلى آخر ، ولولا أن هذا الآخر أبلغنى نبأ هذا التدبير لسرق جملى كما سرق إخوة له من قبل . وقد شكوت العبد إلى سيده فعنفه تعنيفاً شديداً . ولم أترك بعدها جملى يرعى بعيداً ، بل كنت أحجزه داخل المخيم وأقدم له الذرة عليقاً . ويتخذ التجار الحيطة مخافة أن تسرق خير إبلهم ، فيقيدون قائمتى الجمل الأماميتين بأغلال حديدية ثقيلة يقفلونها بقفل فلا يمكن فكها إلا بفتح القفل بمفتاح، وبذلك يتعذر على اللص خطف الجمل خطفاً على الأقل. وفى غداة وصول القافلة قدم شيخ المخيم لكل جماعة فطوراً وعشاء من عجين الذرة الرقيق ، وبعد يومين أمر بنحر بقرتين احتفاء بمقدمنا ، وكان نصيب من هذا اللحم مرسلا لرفاقى التكارنة ، ولكن عبيد التجار السواكنية استولوا عليه فاختفى فى طرفة عين . ورداً على هذه الحفاوة اضطررنا إلى إتحاف الشيخ بهدية ، وكانت فردة دمور قيمتها اثنتا عشرة كيلة من الذرة عن كل عبد فى القافلة ، وجملة هذا تقرب من

عشرين ضعفاً من ثمن الخـبز واللحم اللذين قدمهما الشيخ للقافلة . ولا يؤدى المسافرون ضرائب مباشرة هنا، كذلك لا يؤدى أهل التاكة ضرائب فى سواكن.

وما وافى الرابع عشر من شهر يونيو حتى كان تجار القافلة قد باعوا كل ما يحملون من أقمشة قطنية وتبغ ، وانطلق بعضهم فى جماعة قليلة عائدين إلى قوز رجب . وقد وصل إلى علمنا أن البشاريين وصلوا فى نفر كبير غداة رحيلنا من المكان المقابل للقوز ، ولـكنهم عادوا أدراجهم حين عرفوا مما خلفته القافلة من نيران خامدة ورماد بارد أننا فتناهم بزمان . وفى الليلة السابقة لرحيلنا عن التاكة انضم إلى القافلة عدد من أهل هذه الناحية بأحمال من الذرة . أما تجارنا فقد قايضوا على بضاعتهم كلها بالذرة ، ووسقوا إبلهم على قدر ما أطاقت . كذلك انضمت إلى القافلة جماعة كبيرة من الحجاج الزنوج ، فاجتمع لنا مالا يقل عن ثلاثمائة من الإبل . وكان رحيلنا غاية فى الفوضى والاضطراب ، فقد قام أكبر شيوخ القافلة فى الرابع عشر ، وكان من رأينا أن نمكث بعده أياما ، وإذا الشيخ الذى ولى أمر القافلة من بعده يقوم فجأة ويوسق جماله . وكان من أثر هذه العجلة أن اضطر أحد رفاقى إلى ترك دين له بالقرية ، فخسر بهذا مايعادل عشرين كيلة من الذرة . وقد تردد طويلا بين الرحيل مع القافلة أو التخلف عنها حتى يسترد دينه ثم ينطلق إلى سواكن فى قافلة تالية ، ولـكنَ حذره تغلب فى النهاية على حبه للمال ، فانطلقنا فى الصباح الباكر من ١٥ يونيو ، وأحاط بنا أهل الدوار جميعاً — قبل أن نرحل عنهم نهائيا — محاولين الحصول منا على بعض الهدايا الصغيرة . وكانوا طوال مكثنا عندهم يرهقوننا بطلب الهدايا ، لاسيما نساؤهم اللاتى لم يتركن حيلة ولا فنا من فنون الدلال إلا لجأن إليه لنيل مآربهن . وكانت أشدهن لجاجة وإلحاحا عروس حديثة العهد بالزواج ، وهى إحدى بنات عم شيخ الدوار . وكنت على يقين من أنها فى قرارة نفسها تحتقرنى وتسخر منى ، ولـكنى لم أتمالك نفسى من الإعجاب بدهائها وملقها وهى تحاول بالإشارة أن تقنعنى بأنها تهيم بى حباً، وأن تفهمنى أنها لن تردلى طلباً إذا أعطيتها حفنة من القرنفل . ولعل قومها كانوا يعلمون أنها إنما تخادعنى للظفر منى بشىء ثمين ، وعلى ذلك كان

من بواعث ارتياحي أن أفسد عليها ألاعيبها فتذهب محاولاتها كلها أدراج الرياح.

وكنت في مقامي بهذه القرية — كما كنت في مقامي بشندي — أبدو للناس غاية في التقوى والورع ، مقلداً جهد استطاعتي الفقهاء الذين يجلهم أهل هذه البلاد لاشتهارهم بالعلم الغزير والخلق الكريم ، وتلك في الحق شيمة هذه الطائفة بوجه عام ، وإن كان معروفا أن من أفرادها جماعة لا خلاق لهم ، وأنهم في كل ما يعملون منافقون . ولعل إيمان القوم بالخرافات واحترامهم لدين يزيده رهبة وجلالا جهل الأكثرين بتعاليمه ، ولعل خوفهم من التعاويذ والرقى ، وما يبديه كل فقيه نحو أخيه الفقيه من احترام وإكبار ، أقول لعل هذا كله أعان على احتفاظ الناس باعتقادهم القديم ، وهو أن الفقيه إنسان يمتاز عن سائر الخلق بالفضيلة والتقى ، فإذا بدا منه نقيض ذلك لم يجرؤ منهم أحد على اتهامه بالمعصية وإلا انقلب عليه رجال الطائفة كلها وناصبوه العداء .

وتلك حال العلماء في تركيا وشبه جزيرة العرب ؛ فأخلاقهم معلومة للناس حق العلم ، ولكنهم برغم ذلك ما برحوا متمتعين بالسمعة الطيبة لأن أحداً من الناس لا يريد أن يكون البادىء بعناوأتهم ، زد على ذلك أن الحكومة تبسط عليهم حمايتها لأنها تتوسل بهم لاسترقاق جماهير الناس وتوجيه الرأي العام .

وقبل أن نغادر التاكة بيومين روعنا نبأ أتانا من سواكن ومفاده أن رجلا من التاكة قتله أحد الحداربة بتلك المدينة . وقد تدارس الهدندوة الأمر وفكروا في حجز جميع أفراد القافلة حتى يتبين لهم الأمر ، ولعلهم كانوا فاعلين لولا أن بدويا آخر خف إلينا بنبأ ثان هو أن السواكني دفع دية القتيل ففض النزاع على هذا الوجه وسويت المسألة .

الرحلة من الناكة إلى سواكن

١٥ يونيو — ما بدأنا الرحلة حتى هبت علينا ريح هوجاء اتصل هبوبها طوال الصبح ، وأخذت تسفى علينا الرمال من كل ناحية حتى حجبت عنا الطريق فضللناه . وكانت وجهتنا شمالا بشرق مع انحراف إلى الشمال ، وكنا نمر تارة بأراض رملية وتارة بأخرى خصبة تشق الصحراء فى شريط ضيق وتغمرها مياه التاكة بفيضان منتظم . وبعد حوالى أربع ساعات بلغنا نهاية هذا الإقليم الخصب الذى ينمو فيه السنط العالى . وهنا وجدنا قائد القافلة الأكبر فى انتظارنا . وفى العصر استأنفنا السير فى الاتجاه نفسه فوق السهل الصحراوى إلى أن حططنا بعد رحلة تسع ساعات أو عشر . وهب علينا بعد الغروب إعصار شديد أثارها نجة الإبل فلزمنا مكاننا حتى هدأت الريح .

١٦ يونيو — مضينا فى اتجاهنا صوب الشمال الشرقى منحرفين للشمال . وكان معنا الآن نحو الثمانية عشر أو العشرين من الحجاج الزنوج أو التكارنة (واحدهم تكرورى) ، وليس اسمهم هذا نسبة إلى بلد تدعى تكرور كما يتبادر إلى أذهان القوم فى الشرق وكما ظن جغرافيو العرب جميعهم خطأ ، ولكنه مشتق من الفعل تكرر (أى تنقى) بمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن وبالحج ، ويطلق هذا الاسم على جميع الزنوج القادمين من الغرب — مهما اختلفت أوطانهم — طلباً للعلم أو سعياً إلى بيت الله الحرام . وهم لا يسمون أنفسهم تكارنة ، وقد أكد لى كثير منهم أنهم لم يسمعوا بهذا الاسم حتى بلغوا حدود دارفور وهؤلاء الحجاج على علم ولو قليل بالقراءة والكتابة ، وكلهم من طائفة الفقهاء ، ولم أجد بينهم أمياً قط ، فهم ينفقون زمناً فى مدارسهم الوطنية أولا (وهذه تلقاها أى سرت فى الأقطار الإسلامية بإفريقية) ثم يقصدون مكة ليحجوا أو يحفظوا القرآن ويدرسوا التفسير فيها وفى المدينة ، وقد يؤمون القاهرة لهذا الغرض ، ولكن أكثرهم يذهب للحج ، ولا تجد اليوم منهم بالأزهر الشريف أكثر من اثنى عشر ، ولم أجد بالمسجد الحرام أكثر من ضعف هذا العدد ، وهناك يفرغون إلى حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وهم يؤمنون بأنهم لن ينسوا منه سورة ما داموا حفظوها فى بيت الله . وأكثر التكارنة الذين

يفدون على مكة قادمون من مدارس دارفور ، وأهمها فى كنجارة بجوار كوبى .
والوافدون بهذا الطريق من أقصى الغرب موطنهم بحر الغزال والباقرمى . وكل الحجاج السود القادمين من غربى الباقرمى — من برنو حتى تمبكتو — يسافرون إما فى قافلة فزان ، وهى القافلة الكبرى التى تنقل الحجاج المغاربة ، وإما بحراً من شاطىء المغرب . وهم فى هذه الرحلة مدفوعون أولاً بالرغبة الخالصة فى أداء فريضة الحج ، وثانياً بالرغبة فى التمتع بما يضفيه عليهم الحج من طيب الأحدوثة إذا عادوا إلى أوطانهم ، وكلما ازدادت مشاق الرحلة كان فضلهم أعظم وذكرهم أطيب .

وبعض تكارنة درافور وكردفان على شىء كثير من اليسار ، وهم يتاجرون فى أثناء رحلتهم . وقد لقيت منهم فى جدة دارفورياً كان له من الخادمات ثلاث أو أربع ، ومن الجوارى ست يقتنيهن فى بيته فضلاً عما كان يحمل من عبيد للبيع . على أن أكثرهم لا يملكون شروى نقير ، وهم يخرجون فى رحلتهم إلى مكة ومنها يعودون إلى أوطانهم ولا مورد لهم إلا ما يجود به الخيرون وما يكسبون بعرق جبينهم فى الطريق . وعتاد الحاج منهم — وهو هو لا يتغير — خرق يتزر بها حول الخاصرة وعمامة صوفية بيضاء وجراب من الجلد يحمله على عصا طويلة فوق كتفه وكيس من الجلد يحتوى على كتاب للصلوات أو نسخة من بعض سور القرآن ، ولوح من الخشب طوله قدم وعرضه ست بوصات يكتب عليه التعاويذ أو الصلوات ليحفظها أو يحفظها غيره غيباً ، ومحبرة مصنوعة من قرعة صغيرة ، وقدر يشرب فيها الحاج أو يجمع فيها الطعام من المتصدقين ، ووعاء صغير من الفخار للوضوء ، ومسبحة طويلة من الخرز تتدلى فى طيات كثيرة حول عنقه . وقل أن تجد تكرورياً يسافر منفرداً ، أو هو على الأقل لا يبدأ رحلته منفرداً . ويسير التكارنة عادة فى جماعات من ستة ثم ينضمون إلى قافلة من القوافل كيفما اتفق ، أو يمضون فى الرحلة فى هذه الجماعات وهم يذهبون إلى مكة بطريق أسيوط أو سنار أو شندى . والوافدون منهم من أقصى الغرب يلتقون فى دارفور ، ثم يقصد أسيوط القادر منهم على تكاليف

الرحلة فى قافلة دارفور ؛ وتتطلب الرحلة من المال ما يكفى لشراء الزاد والإبل التى يستلزمها سفر الصحراء والرحلة من أسيوط إلى جدة بطريق القصير . أما الحجاج الذين يسلكون طريق سنار فهم الوافدون من كردفان ، ولهم طرق ثلاث (أولها) يشق الحبشة ماراً بغندار وأكسوم إلى مصوع و (ثانيها) على ضفاف النيل من سنار إلى شندى و (ثالثها) من سنار إلى التاكة (بطريق راس الفيل) ثم إلى الحلنقة ، متفادين بذلك رحلة الصحراء . ويشكو المسافرون بالطريق الأول — طريق الحبشة — من سوء معاملة الأحباش المسيحيين ومن أنهم لا يسمحون لهم بدخول بيت ولا حوش ، ومن أنهم يقدمون لهم الطعام على عتبة البيت كأنهم الكلاب — على حد قول الزنوج ، ولكنهم برغم ذلك يصيبون منهم دائماً عشاء موفوراً ، فإذا بلغوا مصوع ألموا بها أسابيع يعملون فيها ليكسبوا ما يكفى نفقات الرحلة بحراً إلى أقرب ساحل — وهو ساحل اليمن — وتبلغ ريالاً ، أو إلى جدة ، وتبلغ ريالين . وملتقاهم فى العادة ثغر اليمن المسمى الحريرة ، ومنه يتخذون سمتهم إلى مكة براً مارين بقبائل البدو المضيافة التى تقطن جبال الحجاز . ويبلغ عدد الحجاج الزنوج الذين يسافرون بهذا الطريق سنوياً إلى مكة — حسب تقديرى — مائة وخمسين أو مائتين . ويسكن كثير من التكارنة ثغور اليمن وجدة ومكة . والطريق الثالث آثر الطرق عند الحجاج القادرين على الاشتراك فى شراء جمل يحمل الماء والزاد ، وهم لا محالة واجدون بالتاكة إذا بلغوها تجاراً سواكنية يسافرون فى صحبتهم .

وأعمر الطرق بهؤلاء الحجاج الطريق من دارفور أو كردفان إلى شندى مباشرة . والطريق ميسور إلا فى آخره فهم أينما ساروا فى أرجائه الآهلة لقوا الجود والكرم فى قوم يفخرون بالتصدق على الحجاج الفقراء . بيد أن عليهم أن يقطعوا من حدود كردفان إلى شندى رحلة خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها ، وكثيراً ما يحملهم خوف الرحلة على اتخاذ طريق سنار الطويل أو الانتظار بكردفان حتى يحل فصل المطر فيكثر الماء فى هذه المفازة الجرداء . فإذا بلغوا شندى مكثوا بها زمناً حتى يستردوا عافيتهم ، وهم فى أثناء ذلك يلمون كل ليلة بالتجار الطارئين عليها فيجالسون

إلى مائدتهم في غير كلفة ليصيبوا منها عشاء ، وتستطيع أن تقول بوجه عام إن التكروري رجل لا يحمل هما ، فأينما وجد البلد الطيب والمكان اللين أقام أسابيع برمتها ، وخير عنده أن يتخذ طريقاً طويلة في أرض عامرة بالخيرين ولو اتصلت رحلته أسبوعين كاملين من أن يبلغ غاية رحلته في يومين اثنين يقطع فيهما مفازة جرداء أو يجتاز بلداً لا يعرف أهله قرى الضيف . فإذا بلغوا شندى مضوا جميعاً إلى الدامر ، وقل أن تجد هذا الطريق خلواً من أفواج الحجاج الزنوج ، ويتألف الفوج من ستة حجاج أو اثنى عشر ، ومن عادتهم إذا وصلوا قرية أن يتفرقوا بين أسرها ثم يجتمعوا عشية ليشاركوا فيما جاد به عليهم أهلها من طعام .

ومن الدامر يتفرع الطريقان الرئيسيان اللذان يتخذهما الحجاج ، ففريق يمضي إلى مصر هابطاً مع النيل ، وفريق آخر يرتقي ضفاف الفرن وعطبرة حتى قوز رجب ومنها إلى التاكة وسواكن . والرحلة الأولى أطول ولكنها أقل مشقة ، وكلما قاربوا مصر لقوا من أهل الوادي صدقة أوفر . ويفخر عرب الشايقية بسخائهم على التكارنة ، ولكنه سخاء يعرف الحاج أنه يدفع فيه ثمناً فادحاً ، لأنه يكافئه كل نفيس يحمله . ويأمن الحجاج على مالهم القليل بعض الأمن في الطريق من دارفور إلى شندى لأن الحكومة تحميهم ، أما بعد ذلك فلا أمن ولا اطمئنان . وقد درج التكارنة على أن يستبدلوا ببضاعتهم ذهباً في شندى ، فإخفاء الذهب أيسر عليهم من سواه . ولكن الناس عرفوا عنهم هـــذه العادة ، فتعرض الحجاج بسببها للأذى في الطريق ، وقد أكد لي كثيرون أن بدو عطبرة والتاكة ، ومثلهم بدو الشايقية ، يجردونهم عرايا في كثير من الأحيان بحثاً عما يخبئون من ذهب ، وأنهم يفتشون عن هذا الذهب في كتبهم ، وحتى في محارمهم ، ولا يتركون ذريعة إلا لجأوا إليها ليسلبوهم ما حملوا من ذهب أو فضة . وفيما عدا ذلك يكرم الشايقية مثواهم فيعوضونهم بذلك بعض التعويض عن جشعهم واغتيالهم ، أما بدو عطبرة والتاكة فيضيفون إلى شرههم للغنيمة شحاً وبخلا على الطارق ، لذلك يلاقي المسافرون المساكين منهم نصباً شديداً وعنتاً كبيراً .

والحجاج المسافرون على شاطىء النيل يلمون أياماً بقرى الصعيد حيث الأروقة

التي ينفق عليها من أموال المساجد (*) لاستضافة التكارنة المارين بها ثلاثة أيام ويصرف لكل تكروري في إسنا قرش واحد عند رحيله من الجامع . ويجتهد الحجاج المملقون في أن يكسبوا من المال بالعمل اليدوي أو بكتابة التمائم مايؤدون به نفقات الرحلة من القصير إلى جدة في موسم الحج ، فإن لم تتيسر لهم أداها عنهم بعض الخيرين من حجاج الترك . وأكثرهم يسلك طريق القصير ، ولا يزور القاهرة منهم إلا قلة برغم وجود رواق بالأزهر الشريف تقدم فيه الفتة يومياً لعدد لا يتجاوز أربعين في ظني (وقل أن يجتمع منهم أكثر من هـــذا العدد إلا في موسم الحج) . والمارون منهم بالقاهرة يتخذون طريق قافلة الحجاج الكبرى إلى مكة ، وعند أمير الحج أوامر مشددة من السلطان بتقديم الطعام والشراب لكل زنجي لا يملك دابة .

وأمهر الطرق بالحجاج الزنوج الطريق من الدامر سيراً مع المقرن حتى التاكة ومنها إلى سواكن. ولست أغالي إذا قدرت عدد المسافرين منهم بهذا الطريق كل سنة بخمسمائة . وهم لا يسافرون في أفواج كبيرة كما قلت ، ولكنك تلقى منهم الجماعات القليلة كل يوم تقريباً سائرة على ضفاف النهر . ويبتاع القادرون منهم الحمير من الدامر ويوسقونها دقيق ذرة لزادهم في الطريق . ويسير هؤلاء في جماعات من عشرين ، فإذا حاول قطاع الطرق الاعتداء عليهم في الطريق قاوموهم أشد المقاومة مستعينين عليهم بعصيهم . أما في القرى أو المضارب فهم مطمئنون إلى حماية الشيخ أو على الأقل واثقون من أن زادهم ودوابهم لن تسرق منهم . فإذا بلغوا التاكة ساروا مع القوافل إلى سواكن وفيها ينتظرون مركباً يقلهم إلى جدة . وتختلف أجرة المركب من ريال إلى ريالين . وحين كنت بسواكن رأيت فيها فوجاً من خمسين حاجاً على الأقل يقفلون راجعين إلى التاكة لأن أصحاب المراكب الراسية في الميناء

(*) يشتهر الأزهر الشريف بمؤسساته الخيرية التي أوقفت لمساعدة المسافرين الفقراء من مختلف الشعوب . ففيه أروقة خاصة بأهل الصعيد ، والزنوج ، والمغاربة ، والحبش (أو الجبرت كما يسمونهم) واليمنيين والهنود ، والأفغان ، والسليمانيين، والبخاريين، والفرس، والكرد، والأناضول ، والشوام . ويقوم على كل رواق عالم من كبار علماء القاهرة . وشيوخ الأروقة هؤلاء هم الذين تتألف منهم هيئة علماء الأزهر ، وهي هيئة طالما جعلت الولاة يرتعدون فرقا .

لم يرضوا بأقل من ريالين أجراً لكل راكب . وقد عرض التكارنة ريالا عن الرجل منهم فأبوا ، لذلك رحلوا عن سواكن قافلين إلى التاكة ومنها يذهبون إلى مصوع وهم على ثقة من أنهم واجدون فيها من يقلهم إلى شاطىء اليمن بريال واحد ، وهو قصارى ما يستطيعون دفعه . فى سبيل هذا الريال أزمعوا رحلة تقتضيهم على الأقل ثلاثين يوما، وقد قدروا أن فى استطاعتهم تغطية نفقاتهم بالعمل أو الاستجداء فى مثل هذه الطريق العامرة . فأنت ترى أن المسافات والأبعاد لا حساب لها عند هؤلاء الحجاج ولا عند أهل هذه البلاد عموماً — من البدو كانوا أو من التجار — فهم لا يعبأون بمشقة السفر ولا وعثائه ، وهم أقل احتفالا بالوقت أو اكتراثا لضياعة ، وهمهم الوحيد هو الكسب المباشر والقصد فى النفقة . وسأسوق إلى القارىء فى معرض الكلام عن سواكن ملاحظات أخرى عن رحلة هؤلاء الحجاج بالبحر ، وسأعود إلى هذا الموضوع عند وصف رحلتى إلى الحجاز فأذكر ما يفعل التكارنة بعد وصولهم شبه جزيرة العرب .

ولعل القارىء يدرك لأول وهلة أن ما يكتنف الرحلة من مكاره وأخطار يقضى على حياة عدد كبير من الحجاج ، فسدسهم تقريباً يلقى حتفه من جراء هذه الغيرة على الدين . وأكثر الأمراض التى تعتريهم فى الطريق ناجم عن عدم توفر الملبس لديهم ، ويهلك منهم نفر جوعاً وإعياء ، ونفر آخر بقتل ، ولكن هذه الحوادث لا تفت فى عضدهم ولا تحولهم قيد شعرة عن هدفهم ولا تنقص من عدد من يحجون منهم كل عام ، فضحايا الرحلة إنما استشهدوا فى سبيل الله . وأكثر الحجاج من الشباب الأشداء ، ولكنك قد تجد بينهم نساء يتبعن أزواجهن إلى مناسك الحج . وكان فى الركب حاج مكفوف — وهو أمر لا يكاد المرء يصدقه — انضم إلى القافلة فى التاكة ، وكان قد غادر وطنه برقو — غربى دارفور — فى صحبة ثلاثة من رفاقه ، وكان يستعين على السير بعصا يقوده بها واحد منهم وهو يتقدمه . ورأيت هذا المكفوف يستجدى فى المسجد الحرام بمكة وفى مسجد المدينة وهو جالس على العتبة ، وكان يستدر عطف الحجاج وإحسانهم حين يقول لهم إنه ضرير ، ولكن نور كتاب الله وحب نبيه الكريم أضاءا روحه وهدياه السبيل

من السودان إلى قبر الرسول ، وكان الحجاج يجزلون له العطاء ، وأكبر ظنى أنه سيعود إلى وطنه أيسر حالا مما غادره .

وبعض التكارنة ذوو يسار ونفوذ فى وطنهم ، ولكنهم يتصعلكون فى الرحلة مخافة أن تؤذيهم مظاهر النعمة . وقد رأيت ونحن مخيمون فى السهل القريب من سواكن شاباً تكروريا نائماً فى بقعة منعزلة وقد جثا إلى جواره فتى آخر يهش الذباب عن وجهه . ولما تحريت الأمر علمت من الزنوج الآخرين أن الشاب ابن شيخ كبير فى دار صليح ، وأنه تلقى العلم مع الفقهاء وقام فى هذه الرحلة بجمل وخادم واحد لاغير . وفى شندى استبدل بالجمل حماراً . وتظاهر الخادم بأنه صديق ورفيق له فى الرحلة ، واختلط كلاهما بجمهور الحجاج الفقراء . وبسبب هذا الفتى وأمثاله — وهم قلة — تجد سكان البلاد التى يمر بها الحجاج يقسون ويبخلون عليهم ، فهم يحسبون كل تكرورى ملكا متنكراً من ملوك السودان الذين يتقلبون فى الذهب . وكان بكوات المماليك إبان حكمهم مصر يغدقون على التكارنة أجزل العطاء ، أما الحكومة الحاضرة فلا تبدى نحوهم عطفاً يذكر ، ولا يسمح لتكرورى أن يركب مركباً بالقصير إلا إذا أدى أجراً مقرراً لأصحاب المركب ، وجل المراكب ملك للحكومة . وحيثما مر الفقهاء الزنوج فى إفريقية وبلاد العرب تجد الأهالى يقبلون على التمائم التى يكتبونها ، فهى أطهر وأقدس فى نظرهم مما يكتبه سائر الحجاج . وفى القاهرة اليوم تكرورى يسكن قرب قره ميدان ، اشتهر منذ سنوات بما يكتب من تمائم ، وقد درت عليه صناعته هذه ربحاً طائلا . والحجاج الزنوج على العموم قوم مجدون دءوبون ، وما دام فى إمكانهم كسب قوتهم بالعمل فهم لا يستجدون إلا نادرا

وطرق القوافل السودانية التى تراها على الخرائط من كردفان إلى دنقلة أو بربر لا يسلكها اليوم أحد . فليست هناك مواصلات مباشرة أياً كانت بين كردفان وبربر ، أما المواصلات بين كردفان ودنقلة فلم تنتظم إلا منذ وصول المماليك إلى تلك الأصقاع . وقل أن يختار الحجاج الطريق من بربر إلى سواكن لأنهم يرهبون

البشارية القساة ، ولأن فرصة السفر فى قوافل التجار لا تتهيأ لهم إلا قليلا ، فهذه القوافل تتنكب هذا الطريق عادة .

وأعود بالقارىء الآن إلى حديث الرحلة فأقول إننا عبرنا هذا الصباح مفازة من أرض منبسطة، وبعد ساعتين جئنا بركة صغيرة من الماء تخلفت عن المطر الذى ظل يتساقط بين الحين والحين طوال الأسبوعين الماضيين، والذى هطلت علينا منه شآبيب ونحن فى التاكة. وعلى مسير أربع ساعات تقريباً إلى يميننا سلسلة من الجبال تمتد فى اتجاه جنوبى شرقى ،وقد قدرت ارتفاعها بألف قدم إلى ثلاثة آلاف . وقيل لى إنها آهلة بالهدندوة وغنية بالكلأ . وقد التقينا هنا بقافلة من سواكن محملة ملحاً، وهو من أهم السلع التى تتألف منها تجارة التاكة . ويجلب من سواكن ، ويصدره تجار التاكة إلى عطبرة وقبائل البدو المجاورة حيث ينعدم الملح . وبعد مسير أربع ساعات جئنا وادياً مشجراً عبرنا بعده عدة وديان تحمل آثار السيول المنيفة التى تتدفق عليها فى الفصل المطير . وفى الظهيرة حططنا بواد منها بعد أن سرنا خمس ساعات . وتربة المكان فى جملتها رملية ، وينمو هنا نوع من البلوط القصير شديد الشبه ببلوط الشام ، كذلك يكثر شجر العشر . وفى العصر دخلنا أرضا صخرية مضرسة وجدت فيها ضرباً من المرو الوردى الدقيق الحبيبات فى طبقات سميكة تتخلل الحجر الرملى . وتوارت عن انظارنا سلسلة الجبال التى شاهدناها صباحاً. وبعد ثمانى ساعات وقفنا بوادى رورو، وهو واد منخفض يمتد صوب الغرب ، فوجدناه حافلا بأشجار الدوم وبالكلأ النضر ، آهلا ببدو الهدندوة ، وهم يستقون ماءهم فى الصيف من الآبار الكثيرة ، ولكنا وجدنا عند مرورنا الماء الكثير فى مجاميع الصخور المنبثة فى أرجاء الوادى . وتمتد من هنا سلسلة تلال إلى الشرق . ونزلنا عن دوابنا أول الليل لنتيح لها وقتا تنعم فيه بالمرعى الطيب .

١٧ يونيو — وفيما نحن نسير على سهل مخصب تغطية الأشجار الشوكية الكثيفة فوجئت بمقدمنا بعض إناث النعام — وتتميز عن ذكورها بريشها الأسود — فجفلت وعدت هاربة أول الأمر دون أن يبدو عليها الخوف الشديد ، ولكنها تبعت القافلة أكثر من ساعة وهى منها على نحو رميتين . وكانت تقوم إلى يمناها من بعيد جبال شماء . وبعد ساعتين جئنا بركة كبيرة تجمعت من ماء

المطر . وبعد خمس ساعات بلغنا وادى عرى ، وفيه الآبار ومياه الأمطار ، وهو زاخر بأشجار الدوم والشوك . وكان يقوم هنا مخيم كبير للهدندوة غادره أصحابه من قريب منسحبين إلى الجبال الشرقية اتقاء غارات البشاريين . ومضينا نطوى الوادى العشية كلها ، ويبلغ عرضه ثلاثة أميال أو أربعة ، وأرضه شديدة الخصوبة تصيب من سيول الشتاء رياً طيباً . ولا تكتنف الوادى تلال ؛ وإنما يسمونه وادياً لانبساط أرضه التى تصبح فى الشتاء قاعا لسيل. وكانت وجهتنا الشمال الشرق بانحراف إلى الشمال . ويزرع الهدندوة هنا الذرة وبعض القطن ، وبدا لى أنهم يبذلون من العناية بزراعة القطن ما لم أره منذ غادرت ضفاف النيل . وكان النبات أوفر وأغزر مما رأيت حتى على ضفاف عطبرة . ورأيت أشجار السنامكى تكسو الأرض ، وقد أخبرنى التجار السود أن هذه الشجيرة شائعة جداً فى كردفان ، وهى تنمو هنالك إلى أربع أقدام أو خمس . ووجدنا هنا قنفذاً كبيراً ، فسلخه التكارنة وتعشوا به . وبعد أن أوغلنا فى الليل حططنا قرب نهاية الوادى عند بركة ماء . وقد قطعنا فى يومنا هذا مرحلة طويلة فى عشر ساعات .

١٨ يونيو — نشب هـــذا الصباح خلاف بين رئيس القافلة والتجار السواكنية حول الطريق الذى ينبغى أن نسلكه ، وبعد أن سرنا ساعتين فوق أرض أكثرها مستو — وإن لم تخل من شجر — وقفنا بغابة من شجر السيال لنرى لنا فى هذا الخلاف رأياً . كان هنالك طريقان ينتهيان إلى سواكن ، فأما أقربهما فيتفرع شمالاً بشرق ويقع على جبال وعرة يسكنها البدو ، وتكثر فيه الآبار ، ولكنه طريق وعر كله نجادو وهاد . وأما الثانى فأسهلهما ، ولكنه أطول بيومين . وأصرّ الرئيس على سلوك الدرب الثانى تيسيراً على الإبل وقد أرهقتها أحمالها ، بيد أن التجار آثروا سلوك الدرب الأول . وفشل الفريقان فى الاتفاق فافترقا ، وبقيت أنا والتجار السود مع الرئيس . وفى المساء لحق بنا الباقون بعد أن أعملوا الروية ورأوا الرئيس مصمما على معارضتهم فوجدوا من خرق الرأى أن يعرضوا أنفسهم للخطر لا لشىء إلا ليوفروا يومين اثنين . وكانت تنمو فى المكان الذى نزلنا فيه أشجار كثيرة متوسطة الطول منبثة فى أرجائه ، ولها

فروع كثيرة تنبثق من الساق فى كل اتجاه من أسفله إلى أعلاه وتتدلى على الأرض . وأوراقها شديدة الشبه بأوراق الغار (*) ، وقد وجدتها مرّة كالعلقم ، أما الإبل فعافتها ، وأما الزنوج فيأكلونها لأنها « تمكّن البطن » على حد قولهم . وشجر العشر منتشر هنا . وبعد مسير ثلاث ساعات أخر — أى خمس ساعات من بداية الرحلة — كان اتجاهنا فيها للشمال الشرقى بانحراف نصف درجة للشرق ، نزلنا وادياً من شجر الدوم . وهنا قتل العبيد بعض الجراد وأكلوه ، ثم جمعوا عشباً تشبه أوراقه أوراق الملوخية ، وبعد أن سلقوها ألقوها فى الحساء الذى يضيفونه إلى العصيدة ليصلح طعمها ، والعصيدة أهم غذاء للتجار السود ، ولعلها شائعة فى كل أرجاء شمال إفريقية ، وهى عجينة غليظة من دقيق الذرة أو الدخن تسكب عليها تقلية من السمن والبصل أو البامية . ويبذل فى طهوها من العناية ما لا يبذل فى خبز الفطيرة التى وصفت من قبل . وإذا كان الدقيق جيد الطحن كان مذاقها طيباً . وكان تجار كردفان يحملون فى جربانهم الجلدية دقيق الدخن ، وهو معروف عندهم أكثر من الذرة . كذلك كان أكثر التجار يحملون الأحجار التى يطحنون بها الذرة ، وكان عبيدهم يضطرون لقضاء أكثر الليل فى طحن زاد الغد بالتناوب . وفريق آخر — كنت أحد أفراده — ملأوا جربانهم فى أثناء مقامهم بالتاكة بدقيق الذرة المجهز بالطريقة التى وصفتها ، ويصلح أيضاً لصنع العصيدة ، وهو عندهم أصح من دقيق الدخن . ويأكل العبيد عجينة الذرة فى غدائهم دون أن يضيفوا إليها مرقاً أو تقلية خلا الملح . أما فى العشاء فيسلقون حب الذرة حتى يفشر ، ثم يرشون عليه الملح ويأكلونه حفناً بلا سمن ولا مرق . وكان سائر العبيد يحسدون عبدى على تناوله غداءه وعشاءه بالسمن مثلى . وطعام التجار السواكنية أدسم وأطيب من طعام عبيدهم ، وهو مالا يفعله التجار المصريون . وإذا أعيا عبد لتاجر سواكنى أو انتابه صداع أليم — وما أكثر ما ينتابهم الصداع — أعطاه سيده قليلا من السمن . وكان فريق من التجار يحمل معه سمكاً مجففاً يسلقه فى مرق العصيدة . وكانوا إذا

---

* laurel

ذبحوا جملاً قطعوا لحمه شرائح يعلقونها يومين فى الشمس حول رحال الجمال حتى تجف جفافاً يقيهـا من التعفن ، ثم يعبئونها بعد ذلك فى الجربان . وكان القيظ شديداً طوال النهار ، وبعد الغروب أرعدت السماء وأبرقت ، ثم أمطرتنا وابلا ، وكنت أنشر فوق حصيراً أتقى به البلل بعض الاتقاء ، ولـكن لم ينقض الليل إلا وقد نفذ منه المطر فأغرقنى كما أغرق سائر رفاقى . وليس هذا بالخطب اليسير إذا لم يتخذ له المرء عدة من الثياب أو كان جسمه ما زال متأثراً بحر النهار .

١٩ يونيو — كان الصباح بديعاً والطيور تشدو شدواً أطرب الركب واستخف حتى العبيد والجلابة . وبعد ساعة دخلنا سلسلة من أهم سلاسل الجبال فى هذا الجزء من النوبة ، وهى تمتد — كما فهمت — من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى مسير أربعة أيام أو خمسة على جانبى الموضع الذى دخلنا منه السلسلة . ويتفرع منها فرع يتجه صوب الشمال قرب الساحل على طول الطريق إلى القصير . وصعدنا من واد تـكتنفه الصخور الوعرة من جانبيه ، وقد اعترضنا فيه الـكثير من المصاعد والمهابط القائمة ، وتقطع الوديان الجبل ، وكلها حافل بالشجر والـكلأ . وكان الدرب مطروقا يكاد يخلو من الحجارة . وبعد ثلاث ساعات وقفنا بسهل مرتفع ضيق عما السنط فى رماله وحصبائه ، واسم الوادى أرواد(*) . ووجدنا الظل الوارف تحت أشجار دوم ضخمة ، وعللنا النفس بأنا واجدون الماء فى بئر صغيرة قريبة منها ، ولـكنا وجدنا البئر قد غصت بالحصى . وحفرنا على الماء طويلا فلم نستطع أن نصيب منه قدراً يكفينا ويكفى الإبل . لذلك أنزلنا الأحمال عن الدواب وصعدنا بها فى منحدر الجبل الصخرى زهاء ثلاثة أرباع الساعة حتى جئنا حوضاً واسعاً عميقاملىء بماء المطر منذ العام المـاضى . وحدث لى هذا الصباح حادث لم أنج منه إلا بشق النفس ، وذلك أن سوا كنياً لحق بى وأنا أتقدم القافلة فاستطاع أن يضلنى عن الطريق ويسلك بى واديا جانبياً يبعد عنه نحو نصف ميل . وكان يحمل رمحه ، ولم يكن معى من سلاح سوى عصا صغيرة . وشاء الحظ أن أعثر على فرع شجرة

(*) ليس هذا الاسم عربيا ولـكنه بشارى كغيره من أسماء الأماكن التى جزناها بعد أن تركنا عطبرة .

غليظ فى اللحظة التى فطنت فيها إلى قصده ، ولما التقطت الفزع ضحك منى ، ولكن غرضه من تتبعى أصبح واضحاً لا خفاء فيه ، لذلك أمرته أن يقف منى بعيداً وإلا حملت عليه ، وهكذا استطعت أن أعود أدراجى وألحق بالقافلة .
ولو قتلنى الرجل وأخذ ما أحمل من ريالات قليلة ـ أحسبه غالى فى تقدير عددها ـ لعاد إلى القافلة آمنا مطمئنا ، فما كان غيابى ليحمل أحداً على الاهتمام بالبحث والاستفسار عنى بله الثأر لمقتلى . على أن هذا اليوم كله كان شؤما على ، فبينما كنت أملأ قربتى عند الظهر من الحوض أفلت جملى فى غفلة منى ـ وكنت قد شددت وثاقه إلى شجرة فى الوادى ـ وعاد إلى المناخ فى صحبة غيره من الجمال المحملة بالماء .
فلما هبطت بقربتى الجبل وجدت الجمل قد أفلت ووجدت رفاقى السود قد عادوا .
ولم يرض أحد من الباقين أن أضع قربتى على جمله ، ولما كانت أثقل من أن أحملها على كتفى طويلا فقد اضطررت للعودة إلى القافلة ملتمساً الجمل . وماملأت قربتى وعدت ثانية إلى القافلة حتى وجدت الركاب قد بدءوا يوسقون جمالهم . وهكذا اضطررت بعد هذا الكد فى قيظ النهار إلى معاودة السير من فورى دون أن أصب طعاما ولا راحة . والحق أن التجار الذين يصطحبون معهم عدداً من العبيد ينعمون براحة يحسدون عليها ، فالعبيد يضطلعون بالطهو وحمل الماء ووسق الإبل ، وليس على السيد إلا أن يرتب الأحمال ويستوثق من أن شيئاً من بضاعته ومتاعه لم يترك .
وهو ينعم ساعات القيلولة بنوم هادىء رخى تحت مظلة من الحصر ينصبها له عبيده فلا يوقظونه إلا وقد أعد كل شىء وتهيأ الركب للرحيل . وقد نفعنى غلامى الصغير فى هذه الرحلة فى جلب الخشب وإضرام النار ، أما الطهو وجلب الماء من بعيد ووسق الجمل فهذا كله كان ملقى على عاتقى .

وفى هذا الوادى بعض أسر فقيرة من الهدندوة تخشى أن تهبط إلى السهل فتتعرض لغارات البشارية . ولما كانت الأمطار لم تبدأ بعد فإن النبات فى الوادى المرتفع كان قليلا ، أما السهل السفلى فقد روى مرات .

ومضينا فى العصر فوق السهل الضيق متجهين شمالا زهاء ساعة ونصف .
وهنا التقينا بقافلة صغيرة قادمة من سواكن ميممة التاكة ، وكان هذا يومها

السابع . ولما بلغنا نهاية السهل عاودنا الصعود من واد رملى ضيق اكتسى كله بشجر السدر(*) ، ولم يبق منه مفتوحا للدرب إلا شريط ضيق يشقه فى وسطه. وتكثر التواءات الوادى ومنعطفاته ، وعرضه فى أكثره أربعمائة ياردة تقريباً ، ولكنه يضيق فى مواضع حتى لا يجاوز المائة ، وتكتنفه من جنبيه صخور شماء براها ماء المطر وحفر فيها أخاديد عميقة . ومررنا فى الطريق بكثير من البرك ، فقلت لنفسى ما كان أغنانى عن العناء الذى كابدت فى ملء قربى ، ولكن ذلك شأن المسافر فى الصحراء ما دام غير خبير بالطريق ، أما الخبيرون بمواقع الآبار أو البرك فيكتمون علمهم هذا ويحضون الجماعة على حمل ما تطيق من الماء . ومن الأقوال المأثورة عندهم أنهم يودون لو حملوا ماء النيل برمته لو أطاقت الجمال حمله . وقد يكون حمل الماء أمراً لا بد منه ولو كانت البئر قريبة ، وذلك إذا لم يكن مقرراً أن تقف القافلة بالبئر ؛ وفى هذه الحالة لا يخطر ببال راكب أن يتخلف وحده لملء قربته . وتنمو أشجار العشر والطرفاء فى أكثر من موضع بالوادى ، ولكن أشجار السدر كانت تكسوه إلى قمته . ورددت طرفى إلى السهل الذى تركنا ، فرأيت مفازة صخرية مترامية يتحوى فيها شريط من الزرع هو الوادى الأخضر . والأرض الخصبة موفورة فى كثير من ربوع الوادى ، فحيثما توفر الماء استحالت الرمال القاحلة أرضا طيبة ، وأينما سرحت البصر فى الوادى رأيت ما صنعته به السيول ، فقد حطمت جوانب الجبل وزعزعت صخوره العليا وألقتها هشيما من حوله

وبعد أن سرنا شمال الشمال الشرقى تسع ساعات — أنفقنا منها أربعاً مصعدين فى الجبل — جئنا بقمة استوى فيها الوادى بعد أن بلغ ذروته ، وانبسط مدى خمسمائة ياردة ، فحططنا فيها رحالنا ، وكنا قد التقينا بعدة أسر من الهدندوة قرب برك الماء ، ولما كنا نعرفهم لصوصاً مهرة فقد قر رأينا على مواصلة السير إلى هذه البقعة لأننا استبعدنا أن يتبعونا وراءها فى الغابات . وأكد لى رجل من رجالنا

(*) بين هذه الشجرة وشجرة الشربين larch شبه شديد ، وكثيراً ما رأيتها بالحجاز ، وهم يولدون النار بحك أغصانها الجافة بعضها ببعض .

أنه رأي في أثناء صعوده الوادي قرداً بين الشجر ، وقيل لي إن القردة ليست نادرة هنا ، وإنها تكثر في الدرب الغربي الواصل إلى سواكن وهو واقع على سلسلة الجبال نفسها . ورأينا غزلانا وأرانب جبلية ، أما الهجير الذي كاد يزهق أرواحنا ونحن نقطع السهل السفلي الذي تكتنفه الجبال العالية ، فقد استحال في هذا الموضع زمهريرا فأضرمنا نيرانا ، ولم نذق للكرى طعما أكثر الليل خوفاً من سطو اللصوص علينا . وقد قتلت عقرباً وجدته بجوار ناري .

٢٠ يونيو — كانت أعلى قنن الجبل تقع على نحو ثلاثمائة قدم من المرتفع الذي خيمنا فيه . وفي موسم المطر تنهمر السيول من صخورها الوعرة القائمة إلى هذه الهضبة متخللة آلاف الشقوق التي في الصخور ، ثم تنقسم إلى شعبتين ، فسيل يندفع إلى السهل الشمالي وآخر إلى الجنوبي . وقد سلكنا في هبوطنا هذا الصباح قاع السهل الشمالي ، ولم يكن المنحدر وعرا كالمرتقى . وذكرني جو هذا الجبل بجو وديان لبنان ، وبعث هواء الصبح المنعش في جسدي كله من العافية والنشاط ما لم أحسه منذ غادرت بلاد الشام . وكنا طوال هبوطنا نصادف أشجاراً في الطريق . وبعد أربع ساعات وقفنا ببقعة يتسع فيها الوادي اتساعاً كبيراً ، وهنا وجدنا بين الصخور القاحلة كلأً نضيراًودوماً كثيراً وبعض ماء في بركة ضحلة . وكان منظر الوادي كله غاية في الروعة والجمال ، أوقل إنه يبدو على أي حال رائعاً جميلا للمسافر إذ تقع عينه بعد قطعه الصحراءعلى بقعة خضراء فيبتهج لمرآها كأنها جنة من جنات عدن . ومرت بنا قافلة صغيرة محملة ملحاً ، وكانت قد غادرت سواكن قاصدة التاكة قبل ستة أيام.وتتصل بقاع السيل الكبير وديان جانبية كبيرة كلها حافل بالشجر . وبعد أن استأنفنا السير واصلنا الهبوط في بطء شديد زهاء ساعتين ، ثم خرجنا إلى سهل فسيح اندمج فيه الوادي . وأصبح طريقنا بعد ذلك فوق أرض مضرسة معصبة (وكان اتجاهنا الآنللشمال الشرقي بانحراف نصف درجة إلى الشمال) ثم حططنا لنبيت بعد أن قطعنا في يومنا هذا تسع ساعات ونصف . وكانت سلسلة الجبال تمتد عن يميننا وعن يسارنا . أما في اليمين فاتجاهها جنوبي شرقي . وأما في اليسار فتتفرع فرعين ، يمتد أحدها غرباً وينتهي في الصحراء ، ويمتد الثاني شمالا

بحذاء ساحل البحر . وقد لقينا فى أثناء مسيرنا بالنهار جماعات هائمة تضرب فى الأرض، لذلك لزم بعضنا بعضاً طوال الليل خشية سطو اللصوص .

وليس فى الطريق الجبلى الذى عبرنا أية مشقة ، ويطلق الأهالى على الجبل اسم عرباى لنقاى أو جبل لنقاى ، وهو ظاهرة هامة فى تضاريس شرق النوبة. ويحفل الجبل بالكلأ فى شتى أرجائه سيما فى غربيه حيث الآبار والينابيع الكثيرة. ولعل منبع نهر القرن — أو على الأصح سيل القرن العرم — فى أقصى الغرب من هذا الجبل لأن مجراه كما قلت لا يقطع طريق القوافل بين عطبرة وسواكن . وجبل لنقاى مسكن عرب الهدندوة وحدهم ، وإليه يفزعون من غارات البشارية . وإلى هذا الجبل يرسل أهل سواكن، والهدندوة البعيدون عنه مسيرة أيام ، ماشيتهم فى الصيف ، وهى لا تعدم فيه المرعى الطيب والكلأ النضر . وجبل لنقاى حد مناخى فاصل فى شرق النوبة ، فقد بدأت الأمطار جنوبيه من أسبوعين ، أما الشمال فلم يصبه طل بعد ، ومصداق ذلك هذه الأرض المتربة وشهادة البدو . وقيل لى فى سواكن إنهم لا ينتظرون المطر قبل منتصف يوليو ، وكانت الرياح السائدة فى سهول البجة (*) هى الشرقية ، أما فى هذا السهل الشمالى فكانت تهب علينا فى الأكثر رياح شمالية . ولم نشعر فى جنوب الجبال — منذ غادرنا عطبرة — بأى ندى فى الليل ، أما الآن فكان الندى شديداً كل ليلة ، واستمر كذلك طوال إقامتنا بسواكن. وهذه السلسلة كلها من صخر جيرى أولى ، ولم أجد فيه أى أجزاء متحجرة أو أثراً للجرانيت.

٢١ يونيو — ركبنا هذا الصباح فوق أرض مضرسة محجرة فى جملتها، وكانت وجهتنا الشمال الشرقى بانحراف نصف درجة إلى الشمال . وكانت الصخور من المرو والحجر الأخضر المنبث فى ربوع النوبة كلها . وتقطع الطريق منخفضات كثيرة هى قيعان سيول . وبعد ثلاث ساعات وقفنا بوادى عسويت قرب بركة ماء . وهذه البركة التى اجتمع فيها ماء المطر بين الصخور كثيراً ما تكون بعيدة الغور،

(*) تشمل البجة كل المنطقة الواقعة جنوبى لنقاى حتى عطبرة وجبال الحبشة بما فيها التاكة .

أما البرك الواقعة على السهل المستوى فأقرب غوراً وأكبر مساحة. وتركنا وادى هنويت ميامين صوب الشمال الغربى بانحراف للشمال فوق سهل شبيه كل الشبه بصحارى الشام، وكانت الشجيرات القصيرة تملأ أرجاء السهل الذى تكسوه تربة لا يصعب تحويلها إلى تربة خصبة مثمرة. ومررنا محاذين للسلسلة التى تقوم إلى يسارنا ونحن منها على أربعة أميال إلى ستة، واسم السلسلة رُنيب، وأحسبها ممتدة بحذاء الساحل حتى القصير وهى تبدو لأول وهلة جرداء قاحلة، ولكن الأغنام والماعز تجد الكلأ الموفور فى شعابها، والتقينا بقافلة أخرى من ثلاثين جملا عائدة إلى التاكة بعد أن أفرغت حمولتها. كذلك مررنا بمخيم صغير للهدندوة، وكانت لهم قطعان كبيرة من الإبل، وحططنا فى السهل بعد أن سرنا فى يومنا هذا عشر ساعات.

٢٢ يونيو — سرنا فوق أرض صخرية شمال الشمال الغربى، وبعد مسير ثلاث ساعات دخلنا وادى معيز، وهو حافل بشظايا الصخور الضخمة، وقد اخترقناها غرباً ميممين الجبل حتى جئنا بئراً رأينا إلى جانبها بركة من ماء المطر وهنا وجدنا قطعانا من الغنم وإبلا كثيرة يسقيها الرعاة من الهدندوة. وعلى الرغم من وعورة الجبل ترى الأشجار منتشرة حتى على قمته وهو منظر طريف جديد ارتاحت له عينى بعد أن حرمته مذ غادرت بلاد الشام. وفى الجبل أخاديد لا تحصى تنحدر منها السيول إلى السهل فى موسم المطر. ولا بد أنها فى انحدارها تكون المساقط والشلالات الكثيرة ترغى مياهها وتزبد فيكون منظرها رائعاً. وينمو فى السهل الكثير من أشجار السدر. واصطاد العبيد هنا أيضاً جراداً شووه على النار بعد أن نزعوا أحشاءه. ومضينا بعد وادى معيز أربع ساعات فوق أرض مستوية ولكنها صخرية، ثم حططنا للمبيت.

٢٣ يونيو — وجدنا أمامنا وادياً يسمى وادى عسير، عرضه أربع ساعات على الأقل، وتحفه من شرقه التلال الواطئة. ومضينا بجوار السلسلة الغربية العالية. والسهل كله حافل بالشجر، وكان العشب الذى جف واحترق يملأ كل منخفض فيه. ومررنا بمخيم آخر للهدندوة، وكان عندهم القطعان الكبيرة من الإبل، ويبدو أنهم يعيشون هنا بمأمن من أعدائهم. كذلك لقينا جماعة مسافرة من

الحدندوة يحملون معهم نساءهم ، وكانت النسوة جالسات على الإبل فوق رحال عالية مزخرفة مزوقة ، ولها عصي ثلاث أو أربع تمتد أمام رأس الجمل ونهاياتها محلاة بباقات كبيرة من ريش النعام الأسود . ويتأنق الإفريقيون — كما يتأنق بدو العرب في تزيين إبل النساء فقط . وكانت الشراريب الجلدية مختلفة الحجوم ، والأجراس الصغيرة ، والودع الأبيض المجلوب من البحر الأحمر — كل أولئك يحلي عدة الجمال ورحالها . ولم تمر بي من هؤلاء النسوة امرأة إلا صاحت بصوت عال ثم ضحكت عليّ . وبعد مسيرة ساعتين ونصف حططنا تحت ظل وارف من أشجار السنط في منخفض من الأرض يسمى وادي شنكرة . وكان على العبيد أن يجلبوا الماء من الجبل على مسيرة ساعة . وهنا جمعنا العشب الذي وصفت من قبل لنصلح به العصيدة . وجاءت نسوة فقيرات يبعننا لبناً ويستجدين قليلا من ذرة ، وهي نادرة عند هؤلاء البدو ، ويجلبون من التاكة حاجتهم منها ، ولكنهم يعتمدون في غذائهم على اللبن واللحم دون غيرها . ومضينا في وادي عسير في المساء متجهين للشمال بانحراف للشرق ، ثم حططنا لنبيت بعد أن سرنا ثماني ساعات ونصف .

٢٤ يونيو — قام رئيس القافلة بصحبة بعض كبار التجار في أثناء الليل وغادرونا على أمل بلوغ سواكن في الغد لما توفر لهم من الهجان الطيبة . أما نحن فقمنا قبل الشروق . وتنتهي التلال الشرقية عند هذا العرض ، وحين أشرقت الشمس من خلفها طالعتنا صورتها منعكسة على مياه البحر على بعد شاسع منا ، فابتهج بهذا المنظر كل من بالقافلة ، ولعلي كنت أشدهم طرباً . وقد سأل العبيد : أهو بحر النيل ؟ وذلك أنهم لم يسمعوا قط ببحر كبير غير « بحر » النيل . ولكن بيننا وبين البحر سهل من رمال جرداء يكتسي قرب البحر بطبقة من الملح . ومضينا نضرب بين الشجر ومجاري السيول التي تفرغ مياهها في الرمال . وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف بلغنا وادي شنقراب ، وفيه نبع متدفق الماء ، ولكنه ماء ملح زعاق . ويتجمع الماء في حوض ، ولا يصلح لشرب الناس إلا إذا اكتسب عذوبة ماء المطر . وحول هذا النبع صخور من الجرانيت الأشهب لم ألق غيرها من

الصخور مذبارحت تلال قوز رجب . وتنموهنا السنامكي بوفرة . ويتفرع في السلسلة اليسرى واد شديد الوعورة ، وفى موسم المطر يصبح وادى شنتيراب سيلاً عرماً ، وهو لا يقل عن ثلاثمائة ياردة عرضاً واثنتى عشرة قدماً عمقاً . ولما مضينا قدماً وجدنا الأرض مضرسة والطريق صخرية جداً ، فكانت الإبل تسير عليها بشق الأنفس . والدرب الذى سلكنا من لنقاى كله مطروق ، ويتصل حتى سواكن . وبعد مسيرة ست ساعات ونصف شمال الشمال الشرقى نزلنا وادياً يحفل بالكلأ فانطلقت الماشية ترعاه .

وحدث فى مسيرنا هذا النهار أن سقط على الطريق جمل لأحد تجار كردفان فنفق ، أما تجار سواكن — وهم كمهدى بهم فى كل مناسبة ، قوم لا تعرف الرحمة ولا البر إلى قلوبهم سبيلا — فقد مروا بالرجل دون أن يبدو منهم أى ميل لإغاثته فى محنته هذه . وكان جملى أقوى إبل الركب ، فعرضت على الرجل خدماتى متطوعاً ، وحملت جملى معظم ما كان يحمله الجمل النافق ، واضطرنى هذا إلى قطع باقى الطريق إلى سواكن سيراً على قدمى . وكان الرجل صاحب فضل سابق علىّ ، فكثيرا ما كان يأمر عبيده بطهو عشائى وجلب الماء لى حين يرانى متعباً مكدوداً ، لذلك كان فرضاً علىّ أن أرد له صنيعه .

٢٠ يونيو — قمنا بعد منتصف الليل ، وسرنا فوق سهل صخرى . ولما أشرقت الشمس علينا رأينا البحر على نحو ساعات منا . وأخذت التربة تبدو شديدة التشبع بالملح ، فاكتسى أكثر سطحها قشرة ملحة تتعمق فيها عدة بوصات . وقد تأثرت فروع الشجر بالهواء المتصاعد من هذه التربة ، والذى زاده هواء البحر ملوحة فوق ملوحته ، فاسودت كأنها تفحمت ، وتعذر على قطعان الإبل المؤلفة من أربعين جملا أو خمسين أن تجد لها فيها بعض الورق الأخضر تأكله . ولم أر فى حياتى إبلا أقرب إلى التوحش مما رأيت هنا ، فقطعانها تنطلق لترعى دون حراسة من ناس أو كلاب ، ولا يبتغى الهدندوة من اقتنائها غير لبنها ولحمها ، أما الحمل فلا يستخدمون له إلا أقلها . وقد روع هذه الإبل اقتراب الناس والجمال المحملة ،

ولم أعهد مثل هذا فى الإبل من قبل ، فهى فى صحارى العرب والشام إذا رأت من بعيد جملا غريباً وهى ترعى أقبلت نحوه تعدو وتطفر ، بل إنها لتطيع فى غير عناء نداء الأغراب إذا كانوا من البدو كأصحابها . والإبل التى رأيتها اليوم كانت فى جلتها بيضاء كإبل النوبة . والسنط فى هذا الوادى قزم لشدة ما يتعرض له من الرياح الهوج . وقد رأيت ضرباً متسلقاً من الصبير يتطفل على هذا السنط كله ويلتف على بعضه التفافاً تاماً ويحجبه كأنه شبكة تحيط به .

وبعد مسيرة أربع ساعات أتجهنا شمالا بشرق ودنونا من جبل يتفرع فى السهل من سلسلة دئيب الرئيسية ، واسم الجبل قنقراب ، وتسكنه أسر من الهدندوة تمد سواكن بالزبد واللبن فى الصيف حين ترحل عنها الماشية . وحططنا ساعات الظهيرة على كثب من الجبل ، واشتد كربنا لقلة الماء . فإننا لم نحمل منه يوم ٢٣ إلا قدراً ضئيلا ، واستأجر تجار سواكن — وهم أدرى ببلادهم — عربياً فى غفلة منا فجلب لهم من الجبل حمولة بضعة جمال من الماء ، وعبثا توسلنا إليهم أن يعطونا والعبيد حظاً منه . وقد يعجز الأوربى عن إدراك مقدار ما يحتاجه المسافر فى هـذه البلاد من ماء للشرب والطهو والغسل ، ولـكنه أحوج ما يكون إلى الماء لإطفاء غليله وترطيب حلقه الذى لا تفتأ تجففه لفحات الهواء المحرقة والسير على الأرض الملتهبة ، وقد يكون مقتراً على نفسه فى شرب الماء من أيام عدة ، ومن شأن الغـذاء الذى يتناوله — وقوامه العجين والسمن — أن يثير أشد الظمأ . وقد درجت القوافل فى هذه البلاد وفى صحارى العرب على ألا يشرب أحد إلا حين يقف الركب جميعاً دقائق لهذا الغرض . ووقوف قوافل العبيد يكون عادة مرة حوالى التاسعة صباحا ومرتين فى العصر والمغرب حوالى الساعة الرابعة والسادسـة ، كذلك يشرب الـكل أول الظهر إذا حطت القافلة ، ويشربون مرة أخرى عقب الغداء ، ويفعلون مثل هذا فى العشاء . وشرب أحدهم فى غير أوان الشرب يعرضه لتهمة الضعف والطراوة ، وهم يهجونه بقولهم « فمه مربوط على خشم القربة » ، وهو إلى ذلك تصرف غير حكيم ، لأن فتحة قربته فى غير أوان الشرب يعرضه للحاجـة السائلين ، وهى لحاجة ليس من الحـكمة دائماً أن يرد أصحابها خائبين ، أما إذا وقفت القافلة كلها للشرب فلن يخطر ببال أحد أن يسأله شربة . وإذا كان لمسافر عبيد كثيرون

ملئت لهم القصعة الخشبية الكبيرة ماء ووضعت على الأرض ، فيجثو العبيـــد ويشربون منها مرات كما تشرب الماشية من مساقيها . وهم يفعلون هذا اتقاء تبديد الماء إذا أخذ كل عبد منه نصيباً على حدة . ويشرب المسافر فى هذه الرحلات مقداراً كبيراً حين يتوافر الماء . ولا يحسبنى القارىء مغالياً إذا قلت إننى كثيراً ما شربت أوان العصر فى جرعة واحدة ملء زجاجتين من زجاجات الماء العادية . والاكتفاء بثلاث شربات فى اليوم أو أربع يعد تضييقاً على الراكب . وإذا كان الماء موفوراً قل أن تجد من الزنوج أو العرب من يقنع فى اليوم بأقل من ست شربات أو سبع ، أما حين تهب الرياح الجنوبية الشرقية فلا يكفى ماء — مهما كثر — لترطيب فم المسافر ، فهو يتلهف على الشرب كل ربع ساعة . وما يرويه البدو للحضر عن بقائهم ظماء يومين أو ثلاثة ليس إلا حديث خرافة ، والمسافرون فى أى جزء من أجزاء النوبة — أو فى طرق القوافل على الأقل — لا يفتقرون إلى الماء ولا يشتد بهم الكرب ما لم تكن الآبار قد نضب معينها . وليس فى الطريق قسم طويل يخلو من الماء إلا القسم من قوز رجب إلى سنار ، ومن حدود كردفان إلى شندى ، ومع ذلك فكثيراً ما يعانى التجار السودانيون ويلات العطش حتى ولو كانوا على مقربة من الآبار ، وما ذلك إلا لأنهم لجشعهم وحرصهم يسرفون فى تحميل جمالهم بالسلع والبضائع إسرافاً لا يترك لهم متسعاً لحمل زاد وفير من الماء . والقربة المتوسطة التى تسع خمسين رطلا من الماء أو ستين تكفى الرجل — فى حسابهم — ثلاثة أيام إذا كان وحده ، أو تكفى أربعة رجال يوماً واحداً إذا كانوا يأكلون ويشربون جماعة .

وإذا حط العرب ساعات الظهيرة سموا ذلك « القيالة » ، فيقولون « نحن قيلنا فى المطرح الفلانى » . وإذا أمرهم رئيس القافلة بالوقوف صاح بهم « قيلوا يااخواتنا » ، فإذا أرادهم أن يستأنفوا السير صاح بهم « الشديد الشديد » (من وسق الأحمال والشد عليها) فإذا أرخى الليل سدوله هتف بهم « حطوا » فالعربى إذا روى لك مسيرة يومه قال « قمنا فى الفجر ، وقيلنا على الماء ، وشدينا والظل بطول الشخص ، وبعد النزول [الغروب] حطينا وبيتنا فى المطرح الفلانى » .

ومن عادة قوافل سواكن أن تسافر فى رتل واحد طويل كما تفعل قوافل الحجاز، أما قوافل مصر ففى جبهة عريضة. على أن الطريقة الأولى أمثل، ذلك لأنه إذا اختل حمل جمل من جمالها أمكن تنحيته عن الصف وإصلاح الحمل قبل أن تلحق الإبل المتخلفة بالركب. أما فى الطريقة الثانية فلا بد من وقوف القافلة كلها إذا وقع لجمل منها حادث. والقوافل السائرة من بغداد إلى حلب ودمشق ـ وقد تبلغ القافلة منها أحيانا ألفى جمل تمشى والجمال سائرة جنباً إلى جنب على مساحة تزيد على الميل. وكان أصحابنا التجار السواكنية يأمرون عبيدهم بسوق الجمال من مقاودها، فإذا زل جمل أو تعثر أهووا بالسوط على قائده.

ووقع لى اليوم ونحن مقيلون أمر أضحكنى ورفه عنى كثيراً. ذلك أن التجار السود اشتروا شاة وذبحوها ثم وزعوا بعض لحمها على العبيد. وقد قدموا لى شطراً من هذا اللحم ولكنى رفضته لأن أكل اللحم يثير فى الظمأ الشديد للماء، وكذلك فعل بهؤلاء العبيد بعد أن أكلوه، ولم يكن فى قرب سادتهم ماء لسوء الحظ. فجاءنى منهم غلام يحمل عظمة لم يكد يفرغ من نهشها، وقدمها إلى زاعماً أنهـــا ما زالت ملبسة بأكثر لحمها، لآخذها لقاء شربة ماء، ثم قال « لقد أرسل سيدى إلى قنقراب مع السواكنية فى طلب الماء، فإذا عادت قربه ملأى فإنى أعدك صادقا برد هذه الشربة إليك ». وليس فى الإمكان أن يصور المرء الخلق الشرقى فى الطبقات الوضيعة خيراً مما صوره هذا الغلام فى التهامه نصيبه من اللحم بهذه الشراهة، ثم فى محاولته غشى بتقديمه العظمة إلىّ وبذل وعد يعرف أنه لا يستطيع إنجازه. على أن حيلته لم تنطل على، وشربت أنا وغلامى آخر قطرة من الماء فى قربتى.

وسرنا فوق السهل الملح مرحلة طويلة بعد الظهر، ورأيت فى أثناء مسيرنا غزالا كبير الحجم يوشك أن يكون فى طول الظبى، وله قرون طوال مدببة. واقترب منه سواكنى ورماه برمحه ولكنه أخطأه. وقبيل الغروب طالعتنا سواكن من بعيد، وحططنا قرب قرية صغيرة ـ أو قل دوار ـ بعد أن قطعنا فى يومنا عشر

ساعات أو إحدى عشرة . وانطلق معظم التجار إلى المدينة من فورهم ، أما أنا ورفاقى فقد رأينا أن من الأصوب الانتظار إلى الغد .

٢٦ يونيو . بلغنا مشارف سواكن بعد ساعتين ، وضربنا مظالنا الصغيرة على مسيرة عشرين دقيقة من المدينة .

سواكن — تقع سواكن على نهاية خليج ضيق يبلغ طوله أثنى عشر ميلا وعرضه ميلين . وفى نهاية الخليج عدد من الجزائر شيدت المدينة نفسها على واحدة منها ، ويفصلها عن ضاحية **القيف** القائمة على ساحل القارة لسان من البحر عرضه خمسمائة ياردة . وتقع الميناء على الجانب الشرقى من المدينة ، وقد كونها نتوء فى القارة . ولسان البحر الواقع فى الغرب لا تستطيع أن ترسو فيه سفن أيا كان حجمها . والجزائر وسائر الأرض المحيطة بالمدينة رملية لا ينبت فيها غير شجيرات قليلة أو قصيرة . والمدينة القائمة على الجزيرة مبنية على نظام جدة ، فالبيوت من طابق أو طابقين ، وهى مشيدة من قوالب من عرق اللؤلؤ(*) أنيقة المظهر ، ولكن أكثرها تقادم عليه العهد وأدركه البلى . أما ضاحية القيف فآخذة فى النمو ، وسكانها يتزايدون ، وهى اليوم أكبر من المدينة نفسها . وتقوم على الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من الميناء أسوار عتيقة هى آثار حصون قديمة ، وفى داخل هذه الأسوار يسكن الأغا ، وترسو السفن عادة تحت نوافذ منزله . وعلى أنقاض هذه الأسوار المتهدمة ترى مدفعين أو ثلاثة من الحديد الذى أكله الصدأ ، وهو دفاع لا يمكن أن يرد عن المدينة شراً أو يوفر لها أهون حماية . ومنزل الأغا صغير حقير ولكنه يشرف على منظر رائع فوق الخليج صوب البحر ، وعلى مقربة منه تقوم بعض المخازن ، ورصيف انتشرت عليه هياكل سفن صغيرة محطمة ، وذلك لأنك لا تجد عند أحد من الناس هنا الوسائل أو المهارة لإصلاح المراكب حين يصيبها العطب .

وفى سواكن نحو ستمائة بيت ، ثلثاها متهدم لأن قوالب عرق اللؤلؤ التى بنيت بها سريعة البلى إذا لم يتعهدها القوم بالترميم المستمر . وليس بالمدينة من المبانى العامة سوى مساجد ثلاثة . وفى ضاحية القيف بعض بيوت من الحجر تلحظ فيها

(*) madrepore

أسلوب العمارة السودانى لا العربى ، ولها حيشان كبيرة . وسائر البيوت بعد ذلك من الحصر كبيوت البدو النوبيين . وبالقيف مسجد واحد لا غير .

وعلى مسيرة نصف ساعة من القيف تقع الآبار التى تمد بالماء سواكن وضواحيها والسفن التى ترسو بمينائها وعدد هذه الآبار اثنتا عشرة تقريباً ، وبين البئر والبحر خمسون ياردة ، وعلى مقربة منها تنمو بضع أشجار من النبق . ومنها بئر واحدة مبطنة بالحجر ، أما سائر الآبار فليست إلا حفراً منقورة فى الأرض . وماء بعضها لا بأس بمذاقه ، ولكن ليس فى إحداها ماء عذب سائغ . وفى المدينة صهاريج أقيمت لحفظ ماء المطر ولكنها تهدمت وليس من راغب فى الإنفاق على ترميمها .

والجزيرة مسكن لكل مشتغل بتجارة البحر وبالشحن على المراكب وبأشغال الحكومة ، أما الأهالى العرب والتجار السودانيون فيسكنون القيف وهى مقر السوق .

وأهل سواكن — كأهل ثغور البحر الأحمر جميعاً — أخلاط من الناس . على أنك تلحظ فيهم عنصراً هاماً متميزاً عن سواه ، فأسلاف الأسر الكبيرة من عرب سواكن كانوا من أهل حضرموت ، وكان جلهم من مدينة شاهر، وهى ثغر حضرموت الواقع على المحيط الهندى . وقد نزلوا سواكن — فى رواية — قبل قرن من الزمان تقريبا، وفى رواية أنهم نزلوها عقب انتشار الإسلام هناك . ومن هنا ينسب الأجانب أهل المدينة إلى هؤلاء فيسمونهم الحضارمة (الحداربة). أما أهل المدينة أنفسهم فيميزون أدق التمييز بين الحضاربة الخلص من سلالة أهل حضرموت وبين سواهم من النزلاء الذين يسمونهم سواكنية . ويدخل فى هؤلاء السواكنية عدد كبير من قبائل البدو الهدندوة والأمرار والبشارية وغيرهم من أصل عربى وتركى . ويختلط هؤلاء البدو اختلاطاً كبيراً بالحداربة ، ويحتفظون بأسمائهم البدوية حتى إذا سكنوا المدينة . وأكثر أسلال الترك منحدر من الحامية التركية التى أرسلها

---

(١) هذا هو نطق الكلمة بلهجة الحجازيين ، فهم يجمعون حضرمياً على حضاربة لا على حضارمة. ويشتهر أهل حضرموت بحب الهجرة ، وتجد منهم أفواجا كثيرة من النزلاء فى مدن اليمن والحجاز ، وهم يؤلفون أكثر سكان جدة والطبقة الفقيرة من أهل مكة .

السلطان سليم بعد فتحه مصر لتعسكر فى سواكن كما أرسل غيرها من الحاميات لاحتلال أسوان وإبريم وصاى . ويزعم كثير منهم أن أجدادهم من دياربكر والموصل ، ولكن سلالتهم الحالية تتميز بالسحنة والطباع الإفريقية ، ولا يمكن أن تفرق بينهم وبين الحداربة فى شىء . كذلك نجد فى سواكن التجار والربابنة واللاجئين وغيرهم ممن انحدروا من مستعمرين أحدث عهداً من الأولين ، ولكنهم نسوا التركية من زمن مديد ، وتربطهم اليوم روابط المصلحة ووشائج الدم بأسلال الوافدين من حواضر العرب — وهم هنا كثيرون ، وزيهم زى حضر الحجاز وطباعهم وعاداتهم هى طباع أهل الحجاز وعاداتهم . وعلى ذلك نجد فى سواكن سلالتين متميزتين (١) البدو من حداربة وهدندوة الخ . . بما فيهم أحفاد الترك القدامى (٢) الحضر ، وهم إما عرب من الساحل المقابل أو ترك محدثون . ويتزاوج البدو فيما بينهم ، ولكن يصعب على الحضرى أن يتزوج بدوية لأن بنات الأسر الكبرى لا يزوجن إلا للبدو . ويسكن البدو ضاحية القيف . أما الحضر فيسكنون الجزيرة .

وزمام سواكن فى يد أمير الحداربة ، ويختار من كبريات أسر القبيلة وعددها خمسة ، ويميزونها عما عداها من الأسر بكلمة « أرتيقة » وهى كلمة بشارية تعنى الأشراف . وقضاء القيف موكول إلى الأمير ، ولكن سلطانه على البدو ضعيف وإن رأس محاكمهم . وهو تابع لباشا جدة اسمياً ، غير أن سلوكه رهن بقوة متبوعه أو ضعفه . فحين كان أمر جدة إلى الشريف غالب — وكان الوهابيون آنئذ يشددون عليه النكير ويحدقون به من كل جانب — كان الأمير مستقلا عنه تمام الاستقلال ، أما بعد أن فتح محمد على والى مصر الحجاز فقد فاوض الباشا وأبرم معه اتفاقاً . ويثبته حاكم جدة — أياً كان — فى مركزه سنوياً ويخول له السلطة فى أن يجبى من القيف المكوس التى يفرضها الحداربة على القوافل القادمة من الداخل . ولقد مضت عليه أعوام لم يدفع فيها للشريف شيئاً نظير هذا الامتياز ، أما اليوم فإن خوفه من محمد على باشا قد حمله على شراء حق الجباية سنوياً بنحو أربعين أوقية من الذهب أو ما يعادل ٨٠٠ ريال إسبانى .

وليس للأمير من مظاهر الملوكية غير خفّيه التركيين الأصفرين اللذين لا بد له من انتعالهما جرياً على التقاليد القديمة ، وغير طاقيته العربية الصغيرة . والتنافر ظاهر بين الخفين والطاقية وبين سائر لباسه البدوى . ولما كان لبس الطاقية لا يليق على شعر البدو الكث فقد اضطر الرجل أيضاً إلى حلق رأسه . ويستخدم الأمير فى داره رجلين أو ثلاثة نستطيع أن نسميهم موظفين أو عيوناً يتجسسون له ما تحمل كل قافلة من عبيد وبضاعة على وجه الدقة . ويسكن الأمير القيف ، وهو غير شيخ الحداربة ، فهذا لا علاقة له بالحكومة التركية ، إنما ينتخبه القوم لتصريف شئونهم الداخلية فحسب .

ويمثل الحكومة التركية فى سواكن جاب حكومى يسكن الجزيرة ويحمل لقب أغا . وهو يحكم المدينة ، ولكن يحد من سلطانه أشد الحد ما للحداربة من شوكة ونفوذ وسلطانه اليوم لا يعتد به ، ولا بد أنه كان مثاراً للازدراء الشديد قبل فتح محمد على لبلاد العرب . وباشا جدة وال على سواكن أيضاً ، وله بهذه الثابة الحق فى أن يرسل إليها ممثلا له ، وهو حق لم ينازع فيه السواكنية قط ولو أنهم ما زالوا يروون لك ما جرت عليه السنة القديمة فى سواكن قبل أن تضم إلى جدة ، فقد كان لها واليها الخاص المبعوث من القسطنطينية . وليس للأغا من سبيل إلى الاحتفاظ بالبقية الباقية من سلطانه إلا بمسالمة الأمير والتفاهم معه ، فهو يسمح له ، أو قل يساعده ، فى أن يبتز بعض المال من المستضعفين بالقيف لقاء معاونة الأمير له على جباية المكوس بالجزيرة . وقد التزم الأغا فى السنوات الأخيرة بجباية المكوس التى تحصل على تجارة البحر فى سواكن ، وهو يدفع لخزانة الدولة فى جدة كل عام ٣٢٠٠ ريال مقابل هذا الامتياز ، وأكبر الظن أن هذا يغلّ له ألفى ريال أو ثلاثة آلاف كل عام ، وقد يتضاعف هذا المبلغ لو جبيت المكوس بدقة ، ولكن الحداربة ، وهم أقدر الناس على أدائها ، قوم ضنينون بمالهم أشد الضن . وتجبى الضرائب على الواردات كلها ولا سيما سلع الهند وتوابلها التى ترسل إلى أسواق السودان ، وكذلك على السلع الواردة من السودان — وأهمها العبيد والخيل والتبغ — والتى تشحن فى جدة

للأقطار الأخرى . ويؤدون من كل عبد ريالين ومن كل جواد ثلاثة . ويعفى من المكوس الذرة وغيرها من السلع التى تبقى فى سواكن .

ويجدد تعيين الأغا كل عام أو يعين غيره . والأغا الحالى رجل من أهل جدة يدعى يملك كان أبوه حاجا موصلياً استوطن الحجاز ، وكان يملك ، على عهد الشريف ، مهرج القصر وسمساراً بسوق جدة ، فلما وصل محمد على استطاع الرجل أن يتودد إلى العثمانيين بما يعرف من تركية قليلة ، وبعد أن استخدموه وسيطاً بينهم وبين الشريف وعينا عليه قلدوه وظيفته الحالية . وحدث عن لؤم الرجل ولا حرج ، وقدزاده اصطناع العادات والتقاليد التركية فى بلد كسواكن هزءا على هزء ، فتراه يخلع على أتباعه الصماليك الألقاب التى يخلعها الباشا على كبار موظفيه ، فهذا خازنداره (أى أمين بيت ماله) وذاك سلحداره (أى حامل سلاحه) وثالث قهوجى باشا (أى حامل كأسه) ورابع باشكاتبه (أى كبير كتابه) وهلم جرا . ثم هو يحيط نفسه بالغلمان كأنهم صغار المماليك ، ويتكلم فى زهو وخيلاء وأبهة كأنه وال جليل القدر عظيم الخطر ، ويخلط عربيته السوقية ببعض العبارات التركية . ويحتفظ الأغا بخمسة جنود أو ستة من مرتزقة اليمن الذين تجدهم عند شريف مكة وغيره من أمراء العرب ، ويدفع لهم رواتبهم من ماله الخاص ، وليس لسواكن حامية سواهم ، ومن هنا يسهل على القارئ أن يدرك عدم احتفال القوم هنا بسلطان الترك . ولا يجرؤ هؤلاء الجند على الخروج من الجزيرة مخافة أن يشتموا ويهانوا، أما الأغا فلا يطأ القيف لأسباب واضحة ، ذلك أنه إذا وقعت معارك تدخل الحدارية واضطر الأغا إلى كف يده . ولا يؤدى البدو من المكوس إلا نصف ما يؤديه غيرهم من التجار ، وطالما سمعتهم يقولون للأغا صراحة إنهم لن يدفعوا له أكثر مما دفعوا . وكثيراً ما يلوكون حظ الجند الذين يأمرهم الأغا بالبقاء فى المراكب الراسية تحت نوافذه لمراقبة المهربين «علقة طيبة» ، بل إن الأغا نفسه قد يسب فى عقر داره ، ولكنه يحتمل هذا كله راضيا، ويقول للقوم إنه لولا حبه لهم لكتب أشد الشكاوى وأعنفها إلى الباشا لجلب غضبه على رءوسهم .
ومن عجب أن يهينه البدوى منهم فما إن يولى قفاه حتى يأخذ صاحبنا فى سبه

بالتركية ثم يفرغ جام غضبه على خدمه وأتباعه . وأذكر أن شجاراً احتدم يوماً بينه وبين بدوى فقال له الرجل وهو يتميز غيظا « أنت كذاب » . وما إن بارح البدوى الغرفة حتى قال لى الأغا « أنت ترانى صابراً على هؤلاء القوم ، ولكنهم سيعلمون فى النهاية كيف تغضب حكومة الترك ؛ فإن انتقام الترك مريع إذا أثيرت ثائرتهم . ولقد كنت ، ومازلت ، أردعهم غضب الترك ونقمتهم ، فإن حملة واحدة يرسلها الباشا كفيلة بأن تهدم المدينة كلها وتودى بحياة الكثيرين من الأبرياء » .
والواقع أنه لولا توجس القوم من حملة كهذه تنقض عليهم من جدة بسهولة فتهدم بلديهم لما ترددوا فى خلع نير الحكومة والجهر باستقلالهم ، ولكن أحقر مركب حربى يستطيع أن يكره المدينة على التسليم .وقبل عشرين سنة أو ثلاثين أرسل أحد ولاة جدة فرقة قوامها مائتان من الجند نهبوا القيف ثم حاصرهم البدو فى بيت الحاكم وما جاوره من المبانى ولكنهم استطاعوا فى النهاية أن يفلتوا بما غنموا . وبعد أن فتح الوهابيون مكة أوفدوا مبعوثين إلى سواكن لإقناع القوم باعتناق الوهابية ولكن لم يؤذن لهم بالمضى فى رحلتهم إلى القيف واضطروا إلى ركوب البحر عائدين بعد حين . وقد سمح الوهابيون — حين كان زمام الأمور بيدهم — لأهل سواكن بالاتجار مع جدة ،ولكن سعوداً زعيمهم رأى بمكة بعضهم وقد بيضوا بالدهن شعورهم الكثيفة فألزمهم تغطية رءوسهم بالمناديل على نحو ما يفعل البدو الأعراب .

ويشارك الحدارية وبدو سواكن البدو النوبيين سحنتهم ولغتهم وزيهم ، ولباسهم من الدمور المجلوب من سنار ، ولكن سراتهم — رجالا ونساء — يلبسون القمصان النوبية المصنوعة من البفتة الهندية . على أنهم لا يرتدون إلا ثوباً واحداً، وقل أن تجد لهذا نظيراً فى سائر أنحاء النوبة . ويتألف من قطعة طويلة من البفتة يلف أحد طرفيها حول الخاصرة ويلقى الطرف الآخر على الصدر والكتف اليسرى ويتدلى على الظهر تاركا الساقين وأكثر الجذع عارياً ، ذلك هو الثوب الفضفاض الذى يفضله الحدارية ، فإذا أضفت إليه خفين جميلين ، وثلاث تمائم كبار أو أربع كتلك التى يلبسها القوم فى وادى النيل متدلية على المرفق الأيسر ، وسيفا

وكرباجاً فى يد الرجل ، وشعراً كثا بيضه بالدهن ، وسيخاً خشبياً طويلا دسه فيه ليحك به رأسه ـ فقد اجتمعت لك صورة لا بأس بها لبدوى سواكن . ولهؤلاء البدو سحن معبرة ولحى خفيفة قصيرة ، وفى بشرتهم سمرة شديدة توشك أن تكون سواداً ، ولكنهم براء من السحنة الزنجية ، ثم إنهم يمتازون بالجسم القوى والعضل المفتول .

وليس للسواكنية مهنة غير التجارة سواء بالبحر أو مع السودان . وهم يصدرون السلع التى تأتيهم من القارة الإفريقية إلى شتى ثغور الحجاز واليمن حتى مخا ، ولكن أهم هذه الثغور جدة والحديدة . ولهم فى جدة حى خاص بهم ، ومساكنهم فيه أكواخ من الغاب كمساكنهم فى القيف . ومن البدو الحداربة من يمضى فى الرحلة إلى ساحل بلاد العرب بعد أن يؤم سوق سنار ، ومنهم من يبيع سلعه الإفريقية للتجار فى سواكن فيتولى هؤلاء تصديرها إلى بلاد العرب . ولا تقلع سفينة فى سواكن إلى جهة من ساحل بلاد العرب دون أن توسق ذرة من التاكة فوق ما وسقت من سلع شندى وسنار (وهى العبيد والذهب والتبغ واللبان وريش النعام) ، وتزود السفن معظم الحجاز بقرب الماء والجربان الجلدية والجلد المدبوغ . ويشترى القوم القرب فى حواضر الحجاز الكبرى ـ وهى خمس ـ وفى ريفه أيضا . أما الجربان فلا يشتريها غير البدو ، وفيها يحملون زادهم . ويغل الاتجار فى هذه السلع أرباحاً طائلة ، فالماشية نادرة فى الحجاز لقلة المرعى ، وحجاج مكة يحتاجون إلى عدد كبير من القرب ، لذلك كان ثمن القربة المصنوعة من الجلد بجدة يعادل ثمن الشاة بسواكن . كذلك تصدر القرب إلى اليمن ولكن بكميات أقل ، وقد رأيتها معروضة بسوق السويس ، وهى تفضل سائر أنواع القرب لجودة الدباغة ومتانة الحياكة . وتدبغ الجلود كما تدبغ فى الصعيد ووادى النيل ، أعنى بالقرض ، وهو ثمر السنط الذى اشرت إليه غير مرة . ويبيع البدو المجاورون لسواكن الجلود فى سوقها لقاء الذرة . وفى بلاد العرب يصنعون النعال من الجلد المدبوغ وجلود الأبقار الخامة المصدرة إلى جدة ، ولكن أفضل ما يرد للحجاز من الجلود مجلوب من مصوع . كذلك تصدر سواكن السمن(*) إلى جدة . وفى موسم

(*) وهو سائل لا جامد ، ولا يستعمل فى السودان من الزبد سواه . ويصنعون الزبد كما يصنعونه فى مصر وبلاد العرب بخض اللبن فى القرب حتى ينفصل الزبد على حدة .

الحج تعتمد مكة وجدة على سواكن ومصوع قبل غيرها فى زادها من السمن ، وتستهلكان منه المقادير العظيمة ، فجميع الطبقات تأكله ، وإن أشدهم فقراً لينفق نصف دخله اليومى ليحصل على قدر كبيرمن السمن يطبخ به غداءه ويشرب منه فى فطوره ربع رطل على الأقل . وحين كنت مقيما بجدة ارتفع ثمن السمن فوق ثمنه العادى بمقدار النصف لأن سفينتين محملتين من مصوع باعتا حمولتهما منه فى اليمن بدل أن تمضيا فى الرحلة إلى جدة كذلك تحمل السفن الحصر المصنوعة من سعف الدوم ، ويأخذ كل مركب منها مقداراً ، وتستعمل فى جميع أنحاء الحجاز واليمن حيث الدوم نادر ، وحيث لا ينزل إلى كسب الرزق بالعمل اليدوى إلا القليلون . وتفرش أرض المساجد فى مكة والمدينة بهذه الحصر ، وتجدد كل عام تقريباً بفضل هبات الحجاج ، وقل من الحجاج من يبرح مكة بغير حصيرة سواكنية صغيرة مصنوعة صنعاً دقيقاً على هيئة سجادة يؤدى عليها فريضة الصلاة . ويصنع هـذه الحصر البدو فى الجبال المجاورة لسواكن . ويصدر إلى جدة نوع صغير من المحار منتشر على السواحل الإفريقية ، ويأكله الأطفال وفقراء الناس على الأخص ، ويسمونه « السرمباق » ، ويزعمون أنه دواء للدوسنتاريا لما له من خواص قابضة . كذلك تصدر الذرة والقرب والحصر للحديدة ببلاد اليمن ، وهى أكبر سوق للجياد التى يجلبها تجار سواكن من وادى النيل . وقد قلت إن شريف اليمن شغوف بشراء الفحول الإفريقية يزود بها فرسانه . والجواد الذى يساوى فى شندى خمسة وعشرين ريالا يباع فى الحديدة بمائة أو مائة وخمسين ، ولكنها تجارة محفوفة بالخطر ، وكثيراً ما تنفق الجياد فى رحلة البحر لافتقارها إلى العناية الصحيحة التى لا تجدها على ظهر مركب ريفى صغير . وتنقل الهجن البشارية ــ وهى أنجب الهجن قاطبة ــ على المراكب الكبيرة إلى جدة ، فإذا وصلتها سالمة بيع الهجين منها بستين ريالا إلى ثمانين ، وهو ثمانية أضعاف ثمنها بسواكن . على أن نصف الهجن المشحونة على الأقل ينفق فى الطريق ، ويكلف نقل الهجين منها عشرة ريالات .

ويشترى تجار سواكن من جدة كل ما تحتاجه الأسواق الإفريقية من

بضائع هندية ، وكذلك الـكماليات التي تروج سوقها في سواكن ، كثياب النساء وحليهن ، والأواني المنزلية ، وشتى ألوان الطعام كالسكر الهندي والبن والبصل والبلح على الأخص ـ وهـو ليس من حاصلات شرق النوبة . كذلك يجلب من جدة الـكميات الـكبيرة من الحديد لصنع الحراب والمدى، ويصنعها الحدادون العاديون ـ ولم أجد غيرهم من مهرة الصناع بسواكن ، اللهم إلا البنائين والنجارين ـ ويزودون بها جميع البدو المحيطين بسواكن على رحلة خمسة عشر يوما .

ولا يدخل مرفأ سواكن من السفن الأجنبية كما علمت إلا القليل ، اللهم إلا إذا أكرهتها رداءة الجو على الالتجاء إليها . وتقوم بتجارة البحر مراكب يملكها قوم من سواكن وجدة لا صناعة لهم إلا الملاحة بين الساحلين . ولا يمضي أسبوع لا يصل فيه مركب من جدة أو يقلع إليها مركب . وفي أثنـاء مقامي أبحرت إلى الحديدة سفينة واحدة وإلى مخا أخرى وإلى جدة تسع سفن . أما السفينة القاصدة مخا فقد شحنت بشطر كبير من العبيد القادمين معنا في قافلة شندى ، فمعظم بلاد اليمن يقيم فيها سواكنية وهم يعملون وكلاء لمواطنيهم ، ووصلت من جدة سفينة ومن اللحية قارب صغير ، وإلى ذلك كان بالميناء أربع سفن أو خمس وجهتها سـاحل بلاد العرب . وكثيراً ما يكون ملاحو هذه السفن من البدو ، وهم يحذقون استعمال حبالها حذقهم حزم أحمال أبلهم ، ولـكن أكثر الملاحين صوماليون من الساحل الإفريقي الواقع بين الحبشة ورأس غردفوي ، وهم أنشط الملاحين في البحر الأحمر . وربان السفينة في العادة من أهل جـدة أو اليمن والسواكنية من أنشط صيادي الأسماك ، ولهم نحو اثني عشر قارب صغير تشتغل بالصيد في البحر . ولا تخلو سوق سواكن من السمك في أي وقت ، ولـكن لا يقربه من البدو إلا الأقلون . وقد يجد الصيادون اللؤلؤ في المياه القريبة من سواكن . ويمكن أن تعد سـواكن — على العموم — سوقاً من أهم أسواق العبيد في شرق إفريقية ، فهي تستورد كل عام من شندى وسنار عدداً من العبيد يختلف من ألفين إلى ثلاثة آلاف ، ولا يضارعها في هذا غير إسنا وأسيوط من مدن مصر ، ومصوع من مدن الحبش (ويمر بها كل عام نحو ثلاثة آلاف عبد

وخمسمائة مجلوبين من الداخل كما قيل لى فى جدة بعد ذلك) . ومن هذه النقط الأربعة ، ومن ثغور الحبشة الجنوبية ، ومن ساحل الصومال وموزمبيق ، يصل مصر وبلاد العرب مدد سنوى من العبيد يقدر بخمسة عشر ألفاً أو عشرين جلبوا من قلب إفريقية .

وتنصب سوق سواكن بالقيف فى ساحة مكشوفة تحيط بها أكواخ تعرض فيها نفس السلع التى تعرض فى سوق شندى تقريباً ، وفيها يقايض البدو على الجلود ويأخذون حاجتهم من الذرة والدمور . ويجى الحداربة والهدندوة الذين يحتكرون التجارة مع التاكة الأرباح الطائلة من بيع الذرة للبدو الشماليين . ورأيت فى سوق القيف كيزان الذره معروضة للبيع ، ولم أكن رأيتها منذ أربعة شهور ، ولا غذاء لفقراء سواكن سوى هذه الكيزان يأكلونها بالسمن . ويتعامل القوم فى جميع الصفقات الصغيرة بالذرة ، ويكيلونها بالحفنة أو بالمدّ العادى المستعمل فى شندى . أما فى الصفقات الكبيرة فالعملة المتداولة هى الريال دون غيره ، فهم لا يعترفون بالقرش ولا بالبارة ولا بعملة الذهب التركية . على أن عندهم ضرباً من البارات القديمة يقطعونه أرباعاً ويشترون به السلع الرخيصـــة . ويؤدون الثمن فى أغلى الصفقات بالأوقية من الذهب ، وقيمتها بالريال محددة .

وخلق السواكنية هو خلق القوم فى داخل البلاد على ما وصفت من قبل ، وعندى ما يحملنى على الاعتقاد بأنه هو الخلق السائد فى شرق إفريقية كله ، بما فيه الحبشة ، فليس بين طباع أهلها — كما وصفها بروس — وطباع النوبيين فرق يذكر . ويؤسفنى أن أضطر إلى رسم هذه الصورة القاتمة لجميع الشعوب الإفريقية التى رأيتها إلى الآن . ولو كانت خبرتى بهم خبرة سطحية لأحجمت عن الحكم عليهم هذا الحكم القاطع ، ولكنى جبت بلادهم فى زى أتاح لى معرفتهم معرفة وثيقة(*)، لذلك أرانى مضطراً إلى مصارحة القارئ برأيى فيهم ، فهم قد تفشت بينهم — بدرجات متفاوتة — رذائل خراب الذمة والجشع وإدمان الخمر وما إليه .

(*) إن سوء معاملته — وهو سر تحامله عليهم — يرجع إلى ارتيابهم فى أمره : أهو جاسوس ؟ وإن صح ذلك فلمن ، ألمحمد على ؟ ألالماليك ؟ ألالأوروبيين ؟ ألجهذا هو السر كله . (غربال)

والسواكنية يشاركون جيرانهم بدو الصحراء هذه الرذائل ويفوقونهم غلظة وقسوة . وإذا كان التجار السواكنية فى القافلة قد أمسكوا عن الإساءة إلىَّ فلا يتخذن القارىء هذا دليلا على رقة فيهم أو حنان ، فإن خوفهم من الترك — وهو خوف أشاعة فى قلوبهم فتح محمد على للحجاز — وخوفهم من أن يناقشوا أعسر الحساب لو عرف فى سواكن وجدة أنهم أساءوا معاملة «عثمانلى(*)» مثلى — هذا الخوف كان على الأرجح وازعاً قويا يكف عنى أذاهم ، وإن لم يبلغ من القوة مبلغاً يحملهم على إبداء أقل عطف نحوى خلال الرحلة . ولست أذكر أنهم تنازلوا ولو مرة فعاونونى على وسق جملى أو ملء قربتى ، أو فسروا لى مرة ما يعجم علىَّ من كلام القوم ، أو أدوا لى خدمة من هذه الخدمات الصغيرة التى يؤديها المسافرون بعضهم لبعض . بل إنهم — على نقيض ذلك — أكرهونى غير مرة على أن أقاسمهم زادى ومائى ، وكثيراً ما أرسلوا إلىّ فى العشاء عبيدهم يسألوننى بعض عشائى لسادتهم أو يستأذنوننى فى أن يشارك أحد عبيدهم عبدى طعامه بحجة أنه لم يجد وقتا يطهو فيه عشاءه . وقد كانت مخالطة السواكنية للبدو النوبيين ، وعدم استقرار حكومتهم ، أهم الأسباب فيما أصاب أخلاقهم العربية القديمة من انحلال وتدهور . وأنت تجد لهم — أنى تنقلت بين سواحل البحر الأحمر — طابعاً واحداً يتميزون به هو الجشع والعقوق ، أو كما قال عنهم عربى من أهل ينبع « حتى إذا سقيتهم من ماء زمزم فيخلوك تموت من الظمأ ولو كان بيرهم مليان » . ويشهد على هذا الطبع كل من أتيح له الاطلاع على دخائل بيوتهم . وفى سواكن لا يحترم الناس غير قانون الغابة وحده ، ومن العبث أن تحاول أداء مصلحة لك فى المدينة ما لم تشتر حماية حدربى ذى بأس . وتنشب المعارك الدامية بين السكان كل يوم ، وترى على جسومهم — ولا سيما على ظهورهم — ندوب الجراح التى يصابون بها فى هذه المعارك . وليس القتل عندهم نقيصة تغض من قدر الرجل ، بل إنه ليفاخر بعدد صرعاه فى هذه المشاجرات وبما أدى من دية عنهم . وقبل ثلاث سنوات أو أربع روع أهل المدينة كلها عبد لأحد كبار الحدارية . وكان العبد

(*) اتخذت لنفسى لقب « عثمانلى » حين بارحت شندى بعد أن سمعت فيها أن للباشا عاملا بسواكن وآخر بمصوع .

نسيج وحده قوة وبأساً وجرأة واقتحاماً . وبعد أن ارتكب أبشع الجرائم وقتل نفاً وعشرين شخصاً ترك سيده ، وكان ما يزال يبسط عليه حمايته بدافع الخوف منه . ثم لقي العبد حتفه آخر الأمر على يد فتى حاول العبد أن يغتصب أمه . وكنت ذات يوم جالساً مع الأغا فإذا ملاح مسكين يدخل علينا وجنبه يقطر دماً من طعنة سيف وهو يستغيث به من حدربي أراد الفتك به ، فأوصاه الأغا أن يفض خصومته مع الرجل بالحسنى ، ثم نفحه بكيلتين من الذرة ليطيّب خاطره . وأهل سواكن كأهل التاكه لا يعرفون لقرى الضيف معنى ، وتنتشر هناك المواخير انتشارها فى أى ناحية من نواحى النوبة ، ولكنى لا أعتقد أن امرأة من الحدارية تجرؤ على احتراف الدعارة جهراً . ولا علك مجال للعطارة بالسوق سوى عاهرات من عتائق الحبشيات . . ونساء القيف سافرات ، أما نساء الجزيرة فيتحجبن ويلبسن لبس النساء فى شبه جزيرة العرب .

وبالجزيرة مقهى واحد يقضى فيه أهل المدينة والحدارية أهم مصالحهم ويؤدون ثمن القهوة ذرة . ووسيلة الانتقال بين القيف والجزيرة الطوف أو الرمث ، ويعطون الرجل الذى يديره حفنة من الذرة ، ولكن السواكنية ضنينون حتى بهذا الأجر الضئيل ؛ فترى الرجل منهم يخلع ثوبه ويعقده مع خفيه وسيفه فوق رأسه ثم يعبر القنال سابحاً كما يعبر المصريون النيل . ولم أر سباحين أحذق منهم ولا أبرع ، وهم أمهر ما يكونون فى الاحتفاظ بالجسم حتى قمة الكتف منتصباً فى الماء بينما يسبح الرجل بأطرافه السفلى كأنما يمشى على أرض ثابتة ، ولا تكاد سرعته فى السباحة تقل عن سرعة السائر على الأرض(*).

والبشارية هى لغة الكلام الغالبة فى سواكن ، أما العربية فيتكلمونها بلهجة سقيمة مع أن أهل القيف جميعاً يفهمونها ، ولكن أهل المدينة يتكلمونها بوصفها لغتهم القومية ، وينطقونها بلهجة أهل جدة . وقد رأيت بين جيرانهم الهدندوة الذين يجلبون لسوق القيف السمن والغنم كثيرين يجهلون العربية جهلا مطبقاً .

(*) يسمى هذا الضرب من السباحة فى بحيرات سويسرة « دوس الماء »
Das Wasser Stampfen

ولأهل الجزيرة قاض ومفت ومدرسة أميرية ، وفقيه أو فقيهان ينتميان إلى طبقة العلماء ، وقد تقلد زعيمهم وعين أعيانهم وظيفة الأغا إبان حكم الشريف ، أما اليوم فهو يتزعم حركة المعارضة للأغا الحالى الذى نصبه محمد على ، والذى استحق نقد خصمه على تصرفاته الرسمية . وقبل أن أبرح سواكن أرسل إلىّ القاضى فوافيته سراً فى بيته ، وسلمنى رسالة رجانى أن أحملها إلى الحجاز ، وأسلمها لمحمد على شخصياً . وتتضمن الرسالة شكاوى من عمك والحداربة ، فقد نعتهم الكاتب بالعصيان والتمرد ، وآية ذلك أنهم أبوا التعامل فى بلدهم بعملة محمد على وبالقروش المصرية ، ونكلوا عن فريضة الجمعة حين أضيف الدعاء فى الخطبة للسلطان والباشا . أما عمك فقد رماه الكاتب بأنه معرة للاتراك ، وزعم أنه يرتمد فرقاً من البدو ، وأنه لوث مركزه بالانغماس فى شهواته المنحرفة(*) . وكان إنشاء الرسالة خليطاً عجيباً ما أنزل الله به من سلطان ، فقد خلعت على الباشا أسخف الألقاب وأبعثها على السخرية ، فأطلقت عليه فيما أطلقت « أسد البر وفيل البحر » . وقد وقعها وختمها اثنا عشر متظلماً ، وبالرغم من أننى لم أسلمها بنفسى فى الحجاز ، فقد استوثقت من أنها سلمت للباشا كما طلب إلىّ .

ولا يستعمل السواكنية من الأسلحة إلا أقلها ، وندر من أهل القيف من يجرؤ على إطلاق النار . وسلاحهم سلاح النوبيين ، أى السيف والرمح والدرقة والمدية . وفى المدينة نحو اثنى عشر جواداً . فإذا نشبت الحرب امتطى أشجع شجعانهم الهجن وباغتوا العدو . ويكاد كل بيت فى القيف يملك هجيناً . وبدو القيف ليسوا أكثر من بدو الصحراء احتفالا بدينهم ، ولو تحريت مدى علمهم به لما وجدت بينهم من يعرف كيف يصلى الفريضة إلا الأقلين ، بل إنهم — فيما روى لى — قل أن يصوموا رمضان . أما فى المدينة فالقوم يدققون فى القيام بالفرائض تدقيق كل الشعوب المشتغلة بالملاحة .

(*) قد تكون هذه هى الرذيلة الوحيدة التى لم تتغلغل بعد فى قلب إفريقية ، فقد سمعت الإفريقيين من جميع الطبقات يستهجنون أشد الاستهجان ما يرويه الحجاج العائدون إلى أوطانهم عن انحرافات الترك والأعراب .

ويبلغ عدد سكان سواكن — حسب تقديرى — ثمانية آلاف نسمة ، يعيش ثلاثة آلاف منهم فى الجزيرة ، ويسكن الباقون القيف .

ويملك بدو سواكن الماشية الكثيرة جداً ، وهم لا يبقونها فيما جاور المدينة إلا فى أعقاب الفصل المطير مباشرة حين ينبت الكلأ فى السهول المحيطة ، أما فيما عدا ذلك من الشهور فإن رعاتها يطلقونها لتسرح فى مضارب الهدندوة بجبل دئيب أو جبل لنقاى. وبين المدينة وهؤلاء البدو المجاورين مواصلات يومية لا تنقطع .

وعلى مسيرة ثلاث ساعات من سواكن وادٍ بجبل دئيب يرويه نهر ويملؤه النخيل ، وكله من ذكور النخيل التى لا تثمر . وينزل الوادى اليوم بعض الهدندوة . ويروى السواكنية أنه حين كان لمدينتهم وال خاص بها ، كان بهذا الوادى مدينة يختلف إليها السواكنية كثيراً وينفق فيها الباشا نفسه شطراً من الصيف ينعم فيه بهدوئها وجوها اللطيف .

وحين تهطل الأمطار يزرع بعض الهدندوة من سكان القيف منهلاً خصباً يسمى طوكر على نحو يومين جنوبى المدينة غير بعيد من البحر . والوادى فسيح خصب تكتنفه الجبال وترويه السيول ، ولكن نسبة غلته إلى استهلاك المدينة نسبة ضئيلة جداً .

وعلى نحو خمس ساعات شمالى سواكن تقترب سلسلة دئيب المذكورة اقتراباً شديداً من البحر ، والنتوء الحاصل هو الحد الشمالى لأملاك بدو الهدندوة ، وفيما وراءه تبدأ قبيلة الأمرأر ، وهى قبيلة مستقلة لا صلة لها بالقبائل السابقة بهذا الاسم ، والتى تجد مضاربها على الساحل كله حتى بلوغك جزيرة جبل مكور . وهؤلاء الأمراء على صفاء مع الهدندوة ، ولكنهم خصوم للبشاريين مع أن القبيلتين منحدرتان من جد واحد فيما يقال .

واستفسرت عن الطريق الساحلى إلى مصوع ، وهل هو مطروق أو مهجور ، فقيل لى إن أحداً لا يحاول سلوكه ، وإن المواصلات الوحيدة مع الجنوب هى

بطريق التاكة . ومن سواكن إلى أسوان رحلة عشرين يوما إلى أربعة وعشرين فيما يقال ، ولكن الدرب غير مطروق . وحدث فى العام الماضى حين كان الامص نعيم يقطع الطريق على المسافرين بين شندى والصعيد أن جماعة من مغامرى التجار السواكنية نظموا رحلة إلى مصر تسلك بلاد البشاريين مؤملين جنى ربح وفير مما يحملون من إبل وعبيد وسلع هندية شتى . وعلى الرغم مما بينهم وبين البشاريين من عداوة وحرب فقد استأجروا دليلين بشاريين ليضمنا سلامتهم وليرشداهم إلى المسالك والدروب ، واتفقوا على مقدار ضرائب المرور التى يؤدونها لشيوخ البشاريين . ويسافر التجار فى بلاد العرب بهذه الطريقة آمنين على أنفسهم فى أرض الأعداء ، فهم لا يجرءون على مسهم بسوء ماداموا فى صحبة نفر من قبيلتهم . بيد أن الإفريقيين أقل تحرجا من أهل جزيرة العرب ، فما إن نصفت قافلة السواكنية الطريق حتى أبيدت على بكرة أبيها فلم ينج منها فرد . لذلك ليس من المحتمل أن يسلك أحد هذا الدرب بعد هذا الذى وقع . وليس هناك اليوم اى اتصال بين الحداربة وبين القبائل البشارية التى تسكن الصحراء إلى الشرق من الأمرأر والهدندوة ، وإلى الشمال من الأمرأ حتى بلوغك أملاك العبابدة والأمرأر والهدندوة — على خصومتهم للبشاريين — لا يكرهونهم هذا الكره الدفين الذى يكنونه للحداربة ، وليس بين الفريقين من الصلات التجارية إلا أقلها . ويشترى الأمرأر من سواكن الذرة والدمور والتبغ ، ويقايضون بها على ماشية البشاريين وجلودهم . ولعل أهم بلدة من بلاد البشاريين علبة وهى جبل عال ملاصق للبحر ذو مرفأ صغير ، وهو على مسيرة عشرة أيام أو اثنى عشر من سواكن ، ونحو خمسة عشر من دراو بصعيد مصر . ويخيم شيوخهم فى وديان هذا الجبل الغنى بالكلأ فيما يقال ، وتسكنه القبائل الشديدة البأس ، ويعرفه أهل الصعيد جيد المعرفة ، وكثيراً ما يختلف إليه بدو العبابدة يحملون الذرة والمنسوجات القطنية المصنوعة بمصر . كذلك يختلف إليه شيوخ العبابدة ليجمعوا إتاوة يؤديها أهل الجبل نظير الإذن لهم بإطلاق ماشيتهم فى الفصل المطير

تدعى فى ذلك القسم من جبال شمال النوبة الذى يزعم العبابدة أنه ملكهم ، ولكن تكرار نشوب الحروب بين الفريقين يجعل أداء هذه الأتاوة غير منتظم .

وقيل لى غير مرة فى الصعيد وفى سواكن إن فى الصخور القريبة من الساحل المجاور لجبل علبة مساكن منقورة فى الصخر يبدو أنها من صنع « الكفار » . وعلبة بشهادة كثير من اللاحين هو المرفأ الوحيد الذى تستطيع أن تعتبره صالحاً لرسو السفن على الساحل الإفريقى بين القصير وسواكن . وللبشاريين فيه سوق منتظمة تتزود بالسلع من صعيد مصر وبربر ، ومن سواكن بطريق غير مباشر . وقد تقصد هذه السوق القوارب الصغيرة من بلاد العرب طلباً للجلود والسمن وإن يكن هذا نادر الحدوث ، ولكن أصحاب السفن يخشون خيانة البشاريين ، لذلك تراهم يزهدون فى هذه المغامرة التى تعرضهم لغدرهم فضلا عن الأخطار التى تكتنف الرحلة ، وذلك على الرغم مما قد يجنونه من ورائها من ربح طائل . ويقال إن الإبل موفورة جداً هناك ، وإن غذاء البشاريين يكاد يقتصر على لبنها ولحمها . وهم لا يزرعون وديانهم وإن لم تخل من الأنهار الصغيرة . لذلك يشتد عندهم غلاء الذرة لأنها تجلب لهم من بعيد ، فما يساوى منها فى صعيد مصر ريالين يشترى فى علبة بعيراً طيباً . وقد يكون من الممتع أن يزور المرء هذا الثغر الذى أحسبه قد غاب عن جميع السياح والملاحين المحدثين ، ولعل ارتياده يجلو نقط الخلاف على جغرافية هذا الساحل (*)

ولما بلغنا مشارف القيف صباح ٢٦ يونيو توقعت أن ندخل المدينة لساعتنا ، ولكن القوم لم يجروا على هذا . وانطلق التجار السواكنية إلى بيوتهم فى حين نزل التجار الأغراب عن دوابهم على مسيرة عشرين دقيقة من المدينة بقرب الآبار التى تمدها بالمياه ، وهناك وجدنا عدداً كبيراً من الحجاج الزنوج ينتظرون منذ أسابيع سفينة تقلهم إلى جدة ولما كان علينا أن ننتظر بهذا الموضع حتى يبت أمير سواكن فى أمرنا — وهو يفرض المكوس على جميع القوافل — فقد أقام

(*) راجع يومية ١٤ يولية .

كل منا لنفسه خيمة من عيدان ربطنا عليها الحصر . وفي العصر زارنا أخو الأمير ، وفي الغد أقبل الأمير نفسه ، فتقاضانا نصف ريال عن كل عبد ، وهي الإتاوة المقررة . ولما كان التجار السود يحملون بضاعة لا رسوم محددة عليها ، ولما كان هناك شك في أنهم يحملون في حقائبهم ذهباً ، فقد تم الاتفاق ودياً على أن يأخـــذ الأمير جملين من جمالهم — وكان لهم به معرفة قديمة . ويتقاضى رئيس القافلة من كل تاجر غير حضرمي ريالا فوق ذلك . أما أنا فقد اشتهر جملي في القافلة بشدته وخفته اشتهاراً حمل الأمير على طلبه مني ، فزعم لي أن كل إبل يجلبها التجار الأعراب من السودان هي حق له غير منازع ، لذلك أصر على الاستيلاء على جملي . وكنت قد رتبت أن أبيعه هنا لأوفي أجرة سفري إلى جدة ، وكنت على ثقة من أن مثل هذا القانون لا وجود له ، لذلك أبيت أن أذعن لطلب الأمير ، وأصررت على الاختصام إلى الجانب التركي ، ولا غرو فأنا الآن في بلد أستطيع أن أفيد فيه من الفرمان الذي أعطانيه إبراهيم باشا ، ومن فرمان قديم كان قد أعطانيه أبوه محمد علي حين غادرت القاهرة قبل ثمانية عشر شهراً ، وذلك قبل ذهابه إلى الحجاز . ولكني أمسكت عن الإشارة إلى الفرمانين لجهلي بطباع هؤلاء البدو ومدى طاعتهم لسلطان الباشا ، واكتفيت بطلب الاحتكام إلى الأغا وأعلنت أنني سأنزل على حكمه من فوري إذا أمرني بتسليم جملي . وكان الأمير قد منعني — من أول يوم وصلنا فيه — من العبور إلى الجزيرة ، أما الآن فقد بيّت أن يأتمر مع الأغا نفسه على سلب هذا الذي خاله مستضعفاً لا يبسط عليه أحد حمايته . فأبلغ نبأ وصولي إلى الأغا ، وما تم أن صحبني بنفسه إلى بيت الأغا بالجزيرة . ودخلنا على الرجل فألفيناه جالساً يستمع إلى بعض الملاحين ، فانحنيت له احتراما ، أما هو فقد وجّه إليّ الخطاب بالتركية بعبارات لا يخاطب بها غير الخدم ، فلما لم أجب بالتركية صاح بالعربية يسبني ويزعم أنني أتظاهر بجهلي التركية مع أنني قادم من عند إخواني المماليك بدنقلة . والواقع أنني كنت أبدو — بسحنتي ولحيتي — أشد شبها بالمماليك مني بأي جنس آخر من المشارقة ولكن كل فرد بالقافلة كان يعلم أنني قدمت من مصر إلى شندي ، وأنني لا أمت

إلى المماليك بصلة. ولا تبعد دنقلة عن سواكن أكثر من رحلة عشرة أيام إلى ستة عشر ، لذلك خيف من زمن أن يحاول المماليك التقهقر إلى هذا المرفأ ويتحالفوا مع الوهابيين فى بلاد العرب على محمد على عدوهما المشترك . وقد مر بسواكن أحد كشافهم — واسمه حسن جوهر كاشف — قاصداً مكة فى عام ١٨١٢ حين كان الشريف غالب يلى أمر جدة ، وعرف الناس أنه اجتمع مرات بسعود أمير الوهابيين . لذلك ظن الأغا أنه إذا اتهمنى بأنى مملوك متجسس أوهارب — وهى تهمة لست أحسبه مؤمناً بها فى قرارة نفسه — وإذا قبض علىّ بهذه التهمة استطاع أن يستولى على بضاعتى وهو فى مأمن من اللوم ، واستحق فوق ذلك شكر رؤسائه فى جدة وحمدهم له يقظته وفطنته . قلت للرجل فى هدوء إننى آت لأسمع من فمه هل للأمير الحق فى الاستيلاء على جملى ، فأجاب « ماهو الجمل بس ، بل نأخذ عفشك كله ونفتشه وندّر شملك مع أفندينا حقاً ، ولا تخمن إنك تحيّل علينا يا . . . ، واستكثر بخير نا إذا مارمينا رقبتك » قلت له إننى لست إلا تاجراً منكود الطالع ، وتوسلت إليه ألا يزيدنى عذاباً على عذاب ، وكنت أبغى بالطبع أن أهدىء من ثائرته دون إبراز الفرمانين إذا كان ذلك ميسوراً . ولكن سرعان ما أكرهنى على نبذ هذه الفكرة ، فقد شرع يسبنى ويلعننى بالتركية، ثم نادى شيخاً أعرج كان قد خلع عليه لقب « الولى » (أى ضابط البوليس) وأمره أن يضع الأغلال فى يدى ويلقينى فى السجن ويأتيه بعبدى وأمتعتى .هنالك تبين لى أن قد حان الوقت لإبراز فرمانىّ فأخرجتهما من جيب خفى فى زعبوطى . أما الفرمان الأول فمكتوب بالتركية على ورقة طولها قدمان ونصف وعرضها قدم، وممهور بخاتم محمد على الكبير ، وأما الثانى وهو أصغرهما فمكتوب بالعربية وعليه خاتم ابنه إبراهيم ، وقد لقبنى فيه « رجلنا إبراهيم الشامى » .

وما إن رآنى أبسط الفرمانين حتى طار لبّه ، أما الحاضرون فقد أخذوا يرمقوننى بنظرات ملؤها الدهشة . ولم يستطع الأغا أن يقرأ من الفرمانين إلا المكتوب بالعربية ، ولكنه قبّلهما جميعاً ووضعهما فوق رأسه ، وقال لى فى ذلة ومسكنة إنه ما دفعه إلى صنع ما صنع إلا الحرص على المصلحة العامة دون غيرها، ثم طلب

عفوى المرء بعد المرة . أما حق الأمير فى الاستيلاء على جملى فقد أصبح فى خبر كان،
ثم قال إنه أعفانى من أداء الضريبة عن عبدى وإن تمكن من حقه . وسألنى الأغا
بطبيعة الحال عن سبب هذا المظهر الذى كنت أبدو فيه . فهذه الثياب التى
لم تكن فى بداية الرحلة وجيهة ولا فاخرة قد غدت الآن أسمالا بالية . فأجبته أن
محمد على باشا أوفدنى لأتجسس على المماليك وأستطلع حالة بلاد الزنج . وأنى اتخذت
زى المتسولين لأكون فى مأمن من الرقباء . هنالك عظم قدرى فى عين يعك .
فبدأ يخشى بأسى ويخاف مغبة ما قد أنقل إلى الباشا عن مسلكه وحكمه فى سواكن،
وأصبح الرجل غاية فى الخنوع والتذلل . وأهدانى جارية وحلة من حلله . ولكنى
رفضت الهدية . وكنت طوال إقامتى بسواكن أختلف إلى داره كل يوم لأصيب
غداء طيباً ما كان أحوجنى إليه ، ولأنعم بتدخين تبغه العجمى . وكان أهل
المدينة يسخرون لتذلل الرجل وتقربه إلى صعلوك مثلى عما خاله جلبة لرضائى . أما
أنا فكان هدفى أن أظفر بالحماية ما دمت فى صحبته .وأن أجدد ما فقدت من قوتى
ونشاطى بالمشاركة فى طعامه الجيد . وأن أقتصد فى النفقة لأنه لم يبق معى الآن
سوى ريالين .

ولقيت فيمن يختلفون إلى مائدة الأغا شريفاً كان فيما مضى جابياً للشريف غالب
وأغا فى مصوع ؛ وقد ثبته محمد على أول الأمر فى وظيفته هذه ولكنه
طرده من خدمته بعد قليل لما ارتكبه من غش وتدليس ، فالتجأ إلى سواكن .
وقد عرف الرجل مستر صولت فى أثناء زيارته للحبشة ، وأنبأنى أن الشريف غالبا
كان قد أمره مشدداً بأن يمنع الأوربيين — لاسيما الإنجليز — من دخول
الحبشة ما استطاع إلى منعهم سبيلا . ولم يكن الرجل على علم بحقيقة أمرى؛لذلك لم
أجد ما يدعونى للتشكك فى صحة أقواله . ولم ينس القوم زيارة لورد فالنشيا
القصيرة لسواكن ، وكانوا يتكلمون عنها كأنها حدث فريد .

وبعيت طوال إقامتى بسواكن مسـا كناً للتجار الزنوج خارج القيف
على الرغم من إلحاح الأغا فى استضافتى بداره . وقد عاونتهم على تهريب
كثير من عبيدهم إلى المدينه ، فردوا إلى هذا الصنيع بأن أمروا عبيدهم
أن يجهزوا لى طرفاً من اللحم المجفف آخذه فى رحلتى عبر البحر الأحمر .

وكان يحيط بنا في مسكننا مئات من التكارنة ينتظرون سفينة تقلهم إلى الحجاز ، وهم خلال ذلك يكسبون قوت يومهم تارة بالاشتغال حمالين (فالسوا كنية قوم تمنعهم كبرياؤهم عن اتخاذ هذه الحرفة) ، وتارة بصنع قدور من الفخار لمطابخ المدينة . أما جملي فلم أبعه بأكثر من أربعة ريالات ، فإن أحداً من الناس لم يجرؤ على التقدم لشرائه بعد أن أعلن شيخ الحداربة رغبته في أن يشتريه ، وعلى ذلك استطاع الشيخ أن يفرض الثمن الذي ارتأى . وكان الجمل على فرط ما أصابه من عناء السفر يساوي ضعفي هذا الثمن ، فأثمان الإبل هنا كأثمانها في جنوب وادي النيل . وكان من القوة بحيث يطيق أن يحملني ويحمل عبدي حين يأخذ التعب منا كل مأخذ ، وذلك فوق ما يحمل من متاع وماء . وكنت أسمح للغلام بركوبه أربع ساعات أو خمس في الصباح ، ثم ينزل فأعقبه باقي النهار . وكان التجار السواكنية يعجبون أشد العجب لهذا التواضع ، ولكنه — والحق يقال — تواضع فيه من الرعاية لمصلحتي الشخصية أكثر مما فيه من الرفق بالغلام ، ذلك أنني كنت على يقين من أنه لو أعيا الغلام وخارت قواه ، لقاسمته هذا المصير لا محالة بعد قليل . وهبت علينا إبان مقامي بسواكن سموم لا أذكر لها نظيراً في شدتها وحرها اللافح ، فقد التهب الهواء من حولنا كأنه نار الله الموقدة ، وكادت الرمال التي تسفيها الريح علينا من كل جانب تزهق أرواحنا لولا لطف الله بنا .

وبدأ مركب صغير يوسق حمولته (واسم المركب منها في البحر الأحمر « صاى ») فأخبرت الأغا بأنني معتزم ركوبه . ولو كان الوقت غير الوقت ، والظرف غير الظرف ، لقصدت مخا أولا ، فإن الكولونيل ميست ممثل صاحب الجلالة البريطانية بمصر أولاني قبل مبارحتي القاهرة يداً أخرى فوق أياديه الكثيرة علي ، فتفضل بالكتابة إلى عامل شركة الهند الشرقية بمخا ينبئه بأن سائحاً بهذا الوصف قد يصل مخا من البر المقابل ، ويطلب إليه أن يمدني بما أحتاج إليه في أسفاري القادمة من مال . وكنت في وقت من الأوقات أنوي التوغل في جبال اليمن حيث أصول معظم قبائل البدو الذين يسكنون شبه جزيرة العرب ، وحيث تجد

أكثر عاداتهم وتقاليدهم القديمة باقية على نقائها القديم وفطرتها الأولى. فلما بارحت صعيد مصر كان فى نيتى الذهاب إلى مخا — سواء من مصوع أو من سواكن — ومن مخا إلى صنعاء عاصمة اليمن حيث أنضم إلى الحجاج اليمنيين فى رحلتهم السنوية إلى مكة عبر الجبال ، وكان القيام برحلة كهذه خليقاً بأن يسدى لجغرافية بلاد العرب أجل خدمة ، ولعله كان يكشف عن حقائق هامة فى تاريخ بلاد العرب . بيد أن ما جمعت فى سواكن من معلومات عن حرب الحجاز زهدنى فى هذا المشروع ، فقد كانت الطائف آنئذ مقراً لقيادة جيوش محمد على ، وكانت طلائع جيشه على مسيرة أيام جنوبى هذه المدينة ، فى نفس الجبال التى كان علىّ أن أسلكها ، وفيها احتشدت كثرة الجيوش الوهابية . ولم يكن عندى بصيص من أمل فى النجاة بجلدى من هؤلاء المتهوسين الذين سيحسبوننى لا محالة جاسوساً تركياً ويضحون بى على مذبح انتقامهم .

وأمر الأغا ربان السفينة بأن يعفينى من أجرة السفر . وأمر بشىء من البلح والسكر — وهما أفخر ما فى مخازن بيته — يحمل لى زاداً فى السفينة . وأقلعنا مساء السادس من يوليو . وقد ندمت على ركوب هذه السفينة حين رأيت ما احتشد على ظهرها من جمع غفير . ولكنى فهمت بعد ذلك أن كل مركب يبحر من سواكن ابتداء من هذا الوقت لغاية شهر الحج (وهو نوفمبر) يغص بالركاب كما غص مركبنا . وكان أصحابى التجار السود هم وعبيدهم من الكثرة بحيث لا يجدون فى هذا المركب متسعاً ، لذلك قرروا الانتظار حتى تحين لهم فرصة أخرى . وقد بلغوا جدة بعد أن بلغتها بثلاثة أسابيع . وكان لمركبنا — أو على الأصح قاربنا ، فهو لم يزد على ثلاثين قدماً أو أربعين طولا ، وعلى تسعة أقدام عرضاً فى أوسع نقطة — كان للمركب شراع واحد . وهو مكشوف لا ظهر له ولا مظلة . وكان قد وسق ذرة ليحتفظ بتوازنه على الماء . وكانت عدول الذرة(*) مغطاة بطبقات عديدة من الحصر والجلود أعدت مهاداً لمائة وأربعة من الركاب بما فيهم الملاحون . ومن

---

* تنقل الذرة من التاكة إلى سواكن فى عدول يؤلف العدل منها حمل جمل ، وفى هذه العدول تشحن إلى جدة .

هذا العدد خمسون من التكارنة رجالا ونساء . وخمسون من عبيد التجار السود أو السواكنية المسافرين بالمركب . وفى الليل رد إلى الشاطىء نحو خمسة عشر شخصاً أعاد إليهم الريس أجرة ركوبهم التى كانوا قد دفعوها مقدما ، ولكن كان لا يزال بالمركب تسعة وثمانون راكباً حين أقلعنا صباح الغد . وهذا الجشع الذى يدفع أصحاب المراكب إلى حشدها بالركاب كثيراً ما يكون وبالا عليهم ، فمن ذلك أن سفينتين كانتا تبحران قبل ستة أشهر من جدة إلى سواكن وعليهما عدد من الحجاج السودانيين فتحطمتا على الساحل غير بعيد من شمالى سواكن ، ولم ينج من ركابهما غير عدد قليل ، أما شحنتهما فقد غرقت بأكملها . ولا تخلو سنة من حوادث كهذا الحادث ، ولكن الريس العربى يقول « الله أكبر ! » ثم يفعل ما كان آباؤه وأجداده يفعلون .



الرّحلة مِنْ سَوَاكِنْ إلى جدّة

٧ يوليو — لبثنا فى الثغر طوال الصبح ننتظر زاداً من الماء . ويؤدى التكارنة وعبيدهم ريالا عن كل شخص لقاء هذه الرحلة . ويعلق كل منهم قربته على جانب المركب ، ويحفظون الماء الذى يلزم الريس والنوتية والتجار السواكنية خلال الأيام الثلاثة التى تستغرقها الرحلة فى أزيار كبيرة على مقدم المركب . وقد أوسع النوتية والسواكنية الزنوج ضرباً ، وكان هؤلاء يقتتلون على الأماكن فى السفينة. وأقلعنا مساء ثم رسونا بعد أن انتصف الليل عند مدخل خليج سواكن حيث طالعنا برج صغير متهدم . وهنا غادرنا الربان الذى قاد سفينتنا ليقفل عائداً إلى القيف براً .

٨ يوليو — أقلعنا بعد الشروق تحدونا ريح مواتية ، وكانت الطريق تتجه شمالا بحذاء الساحل وعلى أربعة أميال منه أو خمسة بين الصخور والشعاب المرجانية . وفى نحو الثالثة بعد الظهر دخلنا خليجاً ضيقاً جدا ، والسير فيه محفوف بالخطر ويسمونه دجوراتاج . ولا يكاد عرض الخليج فى مدخله يسمح لمركب أياً كان حجمه بالدوران ، ولكن الماء بعيد الغور إلا قرب شاطئه . والبر رملى محصب ينمو فيه بعض الشجر . ثم أقبل السكان البدو — وهم من قبيلة الأمرأر — يطلبون إتاوتهم ، وهى ذرة قيمتها نحو ريال فرضت على جميع السفن التى تقف بهذا المرسى . وقد باعنا القوم لبناً . ويسمى العرب هذه المرافىء كلها « مراسى » .

٩ يوليو — أبحرنا عقب الشروق ، والقاعدة المتبعة فى جميع سواحل البحر الأحمر أن تقلع السفن فى هذه الساعة وترسو فى أحد المرافىء بعد الظهر ، وهى قاعدة لا يحيد عنها اللاحون إلا إذا تهيأوا للعبور إلى البر المقابل . وجهل العرب بفنون الملاحة يحملهم على السير بحذر شديد فى هذا البحر الخطر ، وشعورهم بقلة درايتهم وبعدم كفاية مراكبهم يجنبهم الخروج إلى عرض البحر أو التعرض لريح مماكسة . ولا نجد على ظهر المركب الصغير من مراكبهم مقياساً للسرعة أو إبرة من إبر الملاحين ، فإذا وجدت هذه الآلات لم يستعملوها إلا نادراً . وكانت خطة الريس أن يسير بحذاء الساحل حتى يبلغ جبل مكور ، وتلك طريق المراكب السواكنية إبان هبوب الرياح الشمالية ؛ لأن الريح تكون فى العادة مواتية من هذه النقطة للعبور إلى جدة . والمراكب

الذاهبة من سواكن إلى عدا تسير عادة محاذية للساحل الإفريقى راسية فى مرفأ من المرافىء كل مساء حتى تصل مصوع ومنها تعبر إلى البر العربى . وفى القسم الشمالى من البحر الأحمر ترى المراكب الذاهبة من القصير إلى جدة تعبر إلى أقرب نقط البر المقابل ثم تسير محاذية للساحل حتى جدة . أما المراكب الذاهبة من جدة إلى القصير فتتبع الساحل حتى عرض رأس محمد (قول) ومنه تعبر إلى البر المقابل مستعينة بالريح الشمالية . ومراكب العبيد السواكنية أحوج السفن إلى السير بقرب الساحل لاحتشادها فى الغالب بالركاب والعبيد بحيث لا يستغنى الحال فيها عن التزود بالماء كل يوم .

وهبت علينا هذا الصباح ريح غربية موانية . وأصاب السودانيين جميعاً دوار البحر ، ولم يجد الراكب منا متسعاً لمد أطرافه ، ولزمنا أماكننا طوال النهار تحت لفحات الشمس المحرقة ، واضطر الملاحون للسير فوق أجسام الركاب ليؤدوا عملهم وأصبح المركب كله مسرحاً للفوضى والاضطراب والشجار . ومررنا فى الصباح بضريح شيخ يدعى « الشيخ برغوث » ، وللضريح قبة بناها على البر الملاحون السواكنية الذين يقدسون الشيخ ويعتبرونه وليا لهم وحامياً . ورأينا الكثير من الدلافين ، وهى فى حجمها وشكلها شبيهة بما تراه منها على ساحل مصر قرب مصاب النيل . ولم يسمح لى البحارة أن أرمى واحداً منها برمح لأن جرح دلفين منها فى اعتقادهم شؤم على الرحلة . وبعد الظهر رسونا على خليج جيايا ، وكنا طوال الصبح نسير وسط صخور لا تعلو عن الماء إلا قليلا . وفيما نحن نعبر الخليج جنحنا إلى بره ، وكثيرا ما يحدث هذا للسفن فى هذه الخلجان ، فقد ألف الملاحون أن يدخلوها ناشرين قلوعهم للريح ، فإذا أصبحوا على مسافة معلومة من البر طووها بسرعة وتركوا السفينة تجرى إلى المرسى ، ولكنهم قد يخطئون حساب هذه المسافة ، ولما كانت سفنهم بغير «هلب» فما أسرع ما ترتطم بالبر قبل أن تستطيع الدوران حول نفسها . وما إن ينزل الشراع حتى يقفز إلى الماء ثلاثة رجال أو أربعة معهم حبال مربوطة فى خطاطيف فيحكمون ربطها فى صخر مرجانى أو شجرة على [illegible] ثم

يمضى الركاب إلى البر كل عشية وقد ينفقون هناك الليل كله . ولما لم يكن معنا قارب صغير ، ولما لم يكن تقريب السفينة إلى البر أمراً ميسوراً فى جميع الحالات ، فقد كنا نضطر أحياناً إلى خوض الماء أو السباحة إلى البر[١] . وكان الزنوج يضربون خيامهم كل مساء على طريقتهم حين يسافرون فى الصحراء . ولفت نظرى هذا المساء امتلاء البر بالودع ، وكانت المياه التى تتخلل المرجان غاصة بالسمك مختلف الأشكال والألوان . وأرونى محار « السرمباق » الذى يأكله العرب على طوال ساحل البحر الأحمر ، لاسيما فى هذه المنطقة .

وقد رأيت بين الأصداف المتكاسة صدفة جراد البحر[٢] . ووفدت إلى البر جماعة من بدو الأمرأر يبيعون الماء والغنم (بسعر ثلاثة خراف سمان بما قيمته ريال من الذرة) ، والمحار والسمك المساوق والأرانب الجبلية[٣] ،ويأخذون من الريس العطايا التى ألفوا أخذها . وكانوا يجهلون العربية جهلا مطبقاً ، ومع أننا كنا نفوقهم عدداً فإنهم لم يعبأوا بنا ،وكانوا يعاملوننا فى غير احتفال ولاأدب. وخليج جيايا من أفضل مراسى هذا الساحل، وتستطيع السفن حتى الكبيرة منها أن تحتمى فيه حين يضطرب الجو وتشتد الأنواء .

١٠ يوليو — ساقتنا ريح طيبة قبل الظهر إلى خليج درورو ، وهناك رسونا لأن فى جواره بئراً غزيرة الماء . وقد مررنا أمس واليوم بخلجان أخرى تمخرها المراكب الريفية . وكل ربان على بينة من مواقعها ، ولكن الخبرة الطويلة بها ضرورية للتعرف على مداخلها دون خطأ ، وتقع هذه المداخل وسط تيه من البرك الضحلة . ومضى التكارنة وملأوا قربهم من البئر ، ولما عادوا ردهم الريس ليملأوا للملاحين قدراً كافيا من الماء . وكان هؤلاء المساكين

---

(١) فى مرة من هذه المرات سقط فى الماء جراب من جرابى كنت أودعته مجموعة الصخور التى جمعتها فى شندى ، وذلك بسبب إهمال أحد البحارة ، وقد بقى معى قليل من عينات هذه الصخور .

(٢) Lobster

(٣) كثيراً ما كنت أرى الأرانب الجبليه فى سوق سواكن ، وقد أخبرونى أن البدو فيما جاور المدينة يقصون آثارها فى الرمال ويأخذونها على غرة ثم يقتلونها فى الهجير وهى تتفيأ ظلال الشجر .

يلقون دائماً أشـــد الإساءة والهوان مع أن أحد منهم لايدين بفضل للريس ، فقد أدوا جميعاً أجرة ركوبهم . وكان السواكنية والملاحون يوسعونهم سباً وضرباً في النهار ويلزمونهم بالعمل في المركب بينما هم جلوس يدخنون في راحة ودعة . وكان النوتية لايكفون عن سرقة زاد هؤلاء الحجاج المساكين ومائهم ويحشدونهم في مكان ضيق كما يحشد ثلاثة أشخاص في غرفة لا تتسع إلا لاثنين. وكان جماعة الملاحين والتجار يخبزون الذرة صباح مساء في فرن صغير على مقدم المركب ، أما الزنوج فكانوا يصومون النهار كله — لأن استعمال الفرن حرام عليهم — إلى أن يرسوا على البر فيطهوا عشاءهم . ولو تجرأ أحدهم وأخرج ورقة من أوراقه ، أو قرأ صلاة أو كتبها ، لرشه بالماء سواكني منهم وأتلف له كتابه . وفي سواكن يتعرض التكارنة قبل ركوبهم البحر لمضايقة أخرى ، ذلك أن بعض التجار السودانيين ألبسوا عبيدهم مرات لباس الحجاج تهرباً من الرسوم المفروضة عليهم ، فلما عرف عنهم هذا اتخذ الأغا منه ذريعة لتحصيل الرسوم على الحجاج الأحرار زاعماً أنهم عبيد متخفون ، فهو يتقاضى من الحاج منهم ريالين حتى ولو استطاع أن يثبت كذب هذه الدعوى . وتغص سواكن بالتكارنة قبل موسم الحج بثلاثة شهور أو أربعة ، ولولا هذه الإساءات التي يلقونها على أيدي السواكنية ، ولولا ما يحف الرحلة عبر البحر الأحمر من مخاطر — وكثير منهم تفت في عضدهم هذه الرحله أكثر من رحلتهم إلى الساحل — أقول لولا هذا لازداد عددهم في سواكن أضعافاً.

١١ يوليو — كانت الريح مضادة ، فوجدنا أنفسنا محصورين بين الصخور ، وصرنا بحصن أو برج كبير خرب على ميلين من البر . وأخبرني السواكنية أن والياً قديماً لسواكن بناه بقرب بئر ، وأنه كان محطة على درب بين القصير وسواكن كان فيما مضى مطروقاً . وكنت قد سمعت من أهل الصعيد بوجود هذا الدرب في جبال النوبة من قديم ، وبأن والي سواكن كان يتخذه في سفره من مصر إلى مقر حكمه ، وأضاف السواكنية إلى ذلك أنه كانت تقوم أبراج كهذا البرج عند كل محطة على الطريق . على أنهم لم يعرفوا هذا إلا سماعاً ، فإن أحداً منهم لم يسافر بهذا الطريق .

وفى الجبال الواقعة شرق دراو بالصعيد ، وعلى ثلاث مراحل منها صوب البحر الأحمر ، سهل به آبار ماء عذب ، واسم السهل « الشيخ شادلى » نسبة إلى ضريح هذا الشيخ الذى مات هناك فيما يروون على الطريق الممتد من القصير إلى سواكن والذى تقع عليه الآبار . وللضريح منزلة كبيرة عند المصريين ،وقد بنى أحد بكوات المماليك فوقه قبة ، وكثيراً ما ينذر الناس زيارة الضريح وينحرون فيه شاة إكراماً للشيخ . وتحفل الوديان المحيطة به بالشجر ، وإذا صدق الرواة فإن هناك خرائب مبان ، وكهوفاً منقورة فى الصخر . وقد اشتهر الجبل منذ القدم بالزمرد ، ويؤيد معظم جغرافيي العرب هذا الرأى فى كتبهم، ولما بلغت الرواية مسامع محمد على باشا أرسل إلى الشيخ شادلى عام ١٨١٢ نفراً من جنده يرافقهم جواهرى رومى من القاهرة زعم أنه خبير بالأحجار الكريمة، وأخذت البعثة معها مئات من الفلاحين، وبعد أن لبثوا أياماً يحفرون الأرض الصخرية والسهل المجاور للضريح فى مكان قيل إن أحد بكوات المماليك وجد فيه حجراً نفيساً لا يقدر بثمن ، أخرجوا بمحض الصدفة الغريبة قطعة من الزجاج المعتم الأخضر يبلغ حجمها ثمانى بوصات مكعبة ، وعلى القطعة مسحة من لون الزمرد ، فأعلنوا على الفور أنهم وجدوا زمردة أصيلة، ثم حملوها ظافرين إلى القاهرة . وكنت قد وصلت إسنا توا حين مر هذا الجوهرى بها . فرأيت الكنز المزعوم فى بيت الحاكم ، ولكنى كرهت أن أطفىء فرحة رئيس البعثة بعد أن حسب نفسه فى عداد الأثرياء . وسمعت بعد ذلك أن نبأ هذا الكشف السعيد قد حمل إلى القاهرة قبل وصول الكنز إليها ، وأن مكتشفيه قد حظوا بجائزة سنية من الباشا ، وأنه مضى زمن طويل قبل أن يجرؤ خبير من خبراء الجواهر على مصارحة الباشا بأن الزمردة المزعومة ليست سوى قطعة من الزجاج . وكانت البعثة قد وجدتها فى طبقة سميكة من الجبس بين جدران قديمة ، ولست أشك فى أن مصنع زجاج قديم كان يقوم على هذه البقعة يوماً ما . والجبال المحيطة بهذا المكان كثيرة الشجر، ويحرق العبابدة من سنطها قدراً كبيراً يصنعون منه الفحم البلدى ، ويحملونه إلى النيل فيشحنه التجار بالمراكب إلى القاهرة . وتكثر فى هذه الجبال أعشاب الشيح والروثة ، ومنها يصنعون أفضل أنواع

القلى أو الصودا ، كذلك يكثر الرمل فى الوديان . لذلك كانت هذه البقعة مناسبة جداً لإقامة مصنع للزجاج ، ومن الثابت أن المصريين القدماء كانوا يستعملون الأوانى الزجاجية ، وفى أنقاض مدنهم جميعها شظايا من هذه الأوانى مختلفة الأشكال والألوان ، بل إنهم لا بد حذقوا هذه الصناعة حذقا عظيما وحاولوا صناعة زجاج يقلد الأحجار الكريمة ، ففى أثناء إقامتى بأسنا كشف عن كثير من القطع الزجاجية الصغيرة فى خرائب إدفو Apollinopolis Magna ، وكانت تزييفاً متقناً للجمشت والياقوت .

وقبل الظهيرة دخلنا خليج الفجع (*) ، ومدخله سهل ومرساته واسعة . وقد أصيبت قارية المركب هذا الصباح بعطب من جراء جهل البحارة بالقيادة ، والحق أنك لا تجد أعقد ولا أفسد من هذه الطريقة التى يقودون بها هذه السفن الريفية، فليس لأحد من الملاحين فيها عمل معين اختص به ، وكل حركة على السفينة تشيع فيها الفوضى والاضطراب ،وليس للريس سلطان حقيقى على رجاله، فهم يفعلون ما بدا لهم دون احتفال بأوامره أو أوامر الربان . ولكن جبنهم الشديد يقلل من وقوع الأضرار التى يصح أن تنجم عن هذا الجهل ، فكلما هبت ريح طوى الملاح العربى قلوعه وأرسى مركبه على البر وقبع هناك إلى أن تهدأ الريح . وإذا دنت السفينة من خليج قبل الظهر وكان هناك شك فى إمكان الوصول إلى الخليج التالى قبل المغرب بسبب حالة الريح ، بادروا بدخول الخليج الأول وأنفقوا بعد الظهر كله عاطلين ، فإنهم متى شدوا السفينة إلى البر بقوا حيث هم مهما تكن الريح مواتية .

والفجع مرسى مشهور على هذا البر ، وسرعان ما بدأنا سوقاً مع بعض البدو الذين أتونا بماء زلال . وتستمر الجبال محاذية للساحل بطوله على نحو أربعة أميال أو خمسة من البر ، ويرتفع البر شيئاً فشيئاً نحو سفوحها . والساحل رملى فيه طبقات طباشيرية كونها الصدف المتكلس ، وأينما تلفت وجدت الأصداف الكثيرة، وقد

(*) هذا اسم عربى ، أما أسماء الخلجان التى مررنا بها إلى الآن فبشارية .

خيّل إليّ أن كل ضرب منها اختصت به بقعة من الشاطىء . على أن بخليج الفجم أشتاتاً من هذا الصدف ، لفت نظرى منها السرمباق ، والصدف الأبيض الصغير الذى يسمونه فى القاهرة « الودع » ، وتستعمله نساء الغجر فى الإنباء بالبخت ، فيضربن بعضه ببعض وهن يذكرن اسم الشخص ويلحظن موقع الودع من الأرض حين يقع .

١٢ يوليو — هبت علينا ريح مواتية ، ولكن افتقارنا إلى الماء أكرهنا على دخول خليج عراقية قبل الظهر بكثير . وكان من عادتنا ألا نقلع فى الصباح إلا إذا ارتفعت الشمس فى الأفق ارتفاعاً يتيح لنا رؤية المياه الضحلة والشعاب على بعد كاف ، فإن عين الربان هى دليله الوحيد فى أكثر هذه الخلجان المتشابكة . وجلب العرب هذا المساء على الإبل والحمير قدراً كبيراً من الماء استقوه من مستودع لمـاء المطر موجود فى الجبال على ثلاث ساعات أو أربع . والخليج كله من الأصداف المتكلسة ، وهو مرفأ أمين للسفن الكبيرة . وفى هذا الموضع اشتبكت فى شجار عنيف مع بعض التجار السواكنية الذين لم يكفوا عن الإساءة جهدهم إلى الزنوج المساكين ، والذين أبوا أن يستمعوا إلى شىء من توسلاتى من أجلهم . وعلى الرغم مما رأوا من الاحترام الذى عوملت به فى سواكن فقد أسقطونى من عيونهم لأنى لا أملك ثوباً جديداً ، ولأنهم ظنونى مسرفاً فى عشرة هؤلاء السود الصعاليك على حد قولهم . وقد آزرنى فى جهودى للدفاع عن التكارنة رجل من الأروام المسيحيين قدم معنا من سواكن ، وكانت صحبته مبعث تسلية لى فى الرحلة ، واسم الرجل « اسطافا » وهو من أهالى الجبل الأسود ، والبحر صناعته . وكان قد زار إنجلترة قبل سنوات على مركب حربى بعثه محمد على باشا ليرجو الإذن له بالإبحار إلى البحر الأحمر بطريق رأس الرجاء الصالح ، وأقام الرجل فى بلاد الإنجليز عاماً كاملاً تعلم فيه شيئاً من لغتهم ، ولما عاد عينه الباشا قبطاناً لمركب فى البحر الأحمر . أما ذهابه إلى سواكن فلاسترداد بضع مئات من الريالات كان قد استدانها منه سواكنى ، وكان الآن عائداً إلى جدة . وقد خالنى الرجل — كما خالنى غيره من ركاب السفينة — شامياً ، وأخذ يحدثنى

فى عربية ركيكة . وأضحكنى كثيراً ما رواه عن أسفاره فى أوربا وعن مشاهداته فى انجلتره وعن عادات أهلها ، وكله هراء ظاهر وتلفيق مكشوف . أما معاملتى على ظهر المركب فلست أرى فيها ما يدعو للشكوى إذا قارنتها بمعاملة غيرى من الركاب ، وقد نفحت الريس بريال من عندى — وكان رجلا من أهل جدة — فزاده هذا رغبة فى توفير أسباب الراحة لى ، وكان الراكب من التجار يؤدى عن سفره ريالين .

١٣ يوليو — كانت الريح معتدلة ، فبلغنا خليج تاضه فى الثانية صباحا مستعينين بالمجاذيف ، وكثيراً ما كنا نلجأ إليها . وكانت هناك قرية للأمرار ملاصقة للبر . ولم نعرف عن هؤلاء البدو الأمانة أو الذمة ، لذلك وقفنا على مسافة كبيرة من البر . وسبح بعض البحارة إليه ليتفقوا مع شيخهم على الإتاوة التى يؤديها المركب . وقد اضطررت — واضطر معى القبطان الرومى — إلى أداء نصف كيلة من الذرة فوق المبلغ المشروط ، بحجة أننا فى خدمة الباشا ، وأننا لسنا عرباً كالباقين . ثم رسونا على رمث صغير كان يسحب من البر بجانب المركب . وقد أحسن البدو الذين احتشدوا حولنا معاملتنا ، أو قل إنهم تركونا وشأننا دون مضايقة . وهم ينتمون إلى عشيرة كوبا ومن أمهات عشائر الأمرار ، ويسكنون هنا فى خيام من شعر الماعز الأسود كخيام عرب شبه الجزيرة . وجملة الخيام ثلاثون أو أربعون ، وخيمة الشيخ مضروبة إلى جوار قبر جده ، وكان رجلا جليل القدر بين قومه ، لذلك شيدوا له قبراً من الحجر . وفى المساء أقبلت القطعان الكثيرة من الإبل والغنم والماعز تعدو إلى البر لتشرب من عيون تنبع وسط الشجر بقرب البحر ، وعدد العيون ست ، وماؤها كلها زعاق فيما خلا واحدة . وصوف هذه الغنم قصير ردىء النوع ، أما شعر الماعز فطويل . وفى الجبل خزانات لمياه الأمطار ، ولكن البدو ألفوا ماء العيون ، لذلك لا يكلفون أنفسهم مشقة جلب الماء العذب من بعيد ، ويستحيل الشاطىء — غير بعيد من الآبار — صخرياً جداً ، وتكسوه الأحجار الهشة الكبيرة ، ثم يرتفع فجأة صوب الجبل ، والصخور — على قدر ما أسعفنى النظر — كلها من الجرانيت

الأشهب . وأنفقنا الصباح كله فى المساومة على شراء اللبن ، فبعد أن شربت النوق حلبها أصحابها ووضعوا اللبن أمامها فى أوعية كبيرة من السمار المجدول جدلا رقيقاً كتلك التى يصنعها البرابرة جنوبى أسوان . وكنا قد جلبنا معنا قدراً من الذرة والتبغ — وهما خير ما يتعامل به الناس فى هذا البر — فكان الرجل منا يضع بجوار كل وعاء ما يراه ثمناً مناسباً من الذرة أو التبغ ، ولكن البدوى منهم كان يقول بكل برود « كاك »(*) (أى امش) ويمضى فى ذلك إلى أن يزيد الرجل التبغ أو الذرة إلى القدر الذى أضمره البدوى كاملا غير منقوص ، فهو لا يقبل المساومة إطلاقاً . وقد وجد بعض التجار السواكنية والملاحين نساء لهم بهن صلة قديمة ، وبالرغم من أن الريس كان قد أمر الركاب أن يعودوا جميعاً إلى المركب بعد الغروب فقد ظل هؤلاء على البر ، وكنا نسمع غناءهم الصاخب طوال الليل . والنساء هنا سافرات يتمتعن بحرية واسعة . ولباس الرجال القميص المألوف من الدمور ، وسلاحهم الحراب والدرق ، ويحمل بعضهم السيوف . وأمتع الأشياء عندهم وأحبها شرب البوظة شأن النوبيين جميعاً . وقد يتعرضون لغارات الأعداء لكثرة ما يقتنون من ماشية . ويفد أهل ينبع من حين لحين فى مراكب صغيرة مسلحين بالبنادق فينهبون ماشية المنطقة كلها محتجين بأنهم يثأرون من الأمراء لأنهم قتلوا بعض بنى جلدتهم ممن تحطمت بهم سفينة على هذا البر .

١٤ يوليو — بينما كنا واقفين خارج الخليج كانت تدخله سفينة قادمة من جدة ، والسفن القاصدة منها إلى سواكن تعبر البحر عادة من هذه النقطة ثم تلتزم الساحل جنوباً حتى تبلغ نهاية رحلتها ، وندر أن تعبر البحر رأساً إلى سواكن ما لم تكن الريح مواتية جدا . ولو أسعفتنا الريح لعبرنا من هذا الخليج ، ولكنها كانت ريحا جنوبية ،لذلك يممنا شطر جزيرة صغيرة على أميال

(*) تلك عادة بدو الشام أيضاً حين يبيعون خيلهم ، فيعرض المشترى الثمن الذى يبغى دفعه ، ويقول البائع عند كل عرض « حط » دون أن يذكر المبلغ الذى يريد ، حتى يصل المشترى إلى الرقم الذى أضمره فى نفسه .

من تبادة ، وهناك دخلنا خليجاً جميلا لنرتقب فيه هبوب ريح شمالية . واسم الجزيرة « جبل مكور » ،وسميت كذلك لأنها تكاد أن تكون كلها جبلا صخريا واطئاً . ومكور مشتقة من كوّر يكوّر ، وهى فى لهجة بحارة اليمن العبور إلى البر المقابل[1] . أو الإقلاع بغرض العبور . ويعبرون البحر من هذه الجزيرة لسببين ، فوقوعها فى عرض أعلى من عرض جدة يتيح للسفن الإفادة من الرياح الشمالية إفادة تامة ، والمعبر منها خلو من البرك والصخور الخفية التى تجعل الملاحة فى الليل محفوفة بالخطر . ويستغرق العبور عادة يومين بليلة .

وتفرقنا بين الأشجار القصيرة التى تزخر بها سواحل الجزيرة والتى ينمو بعضها حتى فى الماء ، ونشبه أوراقها أوراق الصبر[2] وخشبها هش قصم . ومحيط الجزيرة — على قدر ما تبينت — يناهز أميالا ثمانية ، وعلى جانبها الشمالى والشرقى جزيرة أكبر منها كثيراً . وقد أردت التوغل فى داخل الجزيرة ، ولكننا أمرنا بأن نكون على أهبة الرحيل حال تنبهنا إذا تحولت الريح شمالية . وصخور الجزيرة صخور ثانوية (رسوبية) يخالطها الطباشير ، وهى جرداء فيما عدا الساحل الذى ينمو عليه الشجر . وعلى برها الغربى مرمى آخر ولكنه أضيق من الجنوبى الذى رست عليه سفينتنا . وتسكن الجزيرة نحو عشرين أسرة بشارية ، وقوام غذائهم السمك ، ولا يملكون من الغنم والماعز إلا ماندر لأن الجبل شحيح الكلأ . وفى شمال الجزيرة بضع آبار ، ولكن ماءها زعاق يعافه الجميم حتى أهل الجزيرة . وفى الشتاء يجدون ماء المطر بين الصخور ، أما فى الصيف فيعبرون كل أسبوع إلى بر القارة على الطوف الذى يستخدمونه فى صيد السمك — ولا يبعد البر عنهم أكثر من ميل أو ميلين — فيستقون

(١) فيقولون « نحن كورنا البحر فى اليوم الفلانى » أو « نحن كورنا من الجبل إلى جدة » . أما فى الأنحاء الشمالية من البحر الأحمر فيستعملون فى المعنى الثانى الفعل « دفع » فيقولون « نحن دفعنا من راس محمد إلى البر الغربى » .

Aloe (٢)

الماء من عيون إلى الشمال من تبادة . ويلوح أنهم يعتمدون فى غذائهم على السمك والمحار والبيض ، هذا إلى قليل من اللبن يأخذونه من غنمهم التى لا تزيد على الثلاثين عدداً . ويصيدون بالشباك والصنانير التى يشترونها من السفن السواكنية ، ويصنعون الدرق المدور والمربع من جلد صفيق يأخذونه من سمكة كبيرة لا علم لى بها ، وقطر الدرقة منها نحو قدم ونصف ، وهى من القوة والمتانة بحيث تثبت لضربة الرمح . ويجمعون من الجبال فى هذا الفصل عدداً هائلا من بيض طائر من فصيلة النورس(*) كثير الانتشار فى هذه البقاع . وأقبل إلى الخليج نحو اثنى عشر رجلا وامرأة يسوقون بعض الغنم ويعرضون للبيع شيئاً من اللبن والبيض . وكانوا يكومون صفار البيض المسلوق على درقهم أكواماً ويحملونه على رءوسهم . وقيل لى إنهم يحفظونه الأسابيع على هذه الحال . وكان رجالهم ونساؤهم نحافاً مهزولين ، أما العربية فيجهلونها . وكنت أريد المقايضة على شىء من اللبن ، ولكن مظهرى روع النساء ترويعاً نفرهن من أى معاملة معى . وكانوا كلهم يتلهفون على الذرة التى لا سبيل للحصول عليها إلا من السفن الراسية فى برهم ، ولكن غنمهم كانت أعز عليهم وأغلى ، لذلك أبوا التفريط فيها برغم ما عرضنا عليهم من ثمن مجز .

وتبدأ أملاك البشارية من النقطة المجاورة للجزيرة من بر القارة ، وتمتد إلى الشمال رحلة ثمانية أيام إلى حدود بلاد البدو العبابدة . ويتعرض أهل مكور لغارات الأمرأر تأتيهم من تبادة إذا نشبت الحرب بين القبيلتين ، وفى هذه الحالة يلجأون إلى بر القارة . ويبدو أن أهم أهدافهم فى سكنى الجزيرة هو الاتجار مع السفن التى ترسو عليها فى طريقها من جدة إلى سواكن أو العكس . وقيل لى إنهم يعدون الجزيرة ملكا لهم ، وأنه غير مسموح لسواهم من البشاريين بسكناها . وقد ظن بعضهم أنها « جزيرة الزمرد » ، ولكن ملاحى العرب يطلقون هذا الاسم على بضع جزائر تقع إلى الشمال بين هذه الجزيرة وبين القصير .

(*) Sea—gull

وقيل لى فى الجزيرة إن على رحلة يوم آخر إلى الشمال — أى من عشرين ميلا إلى خمسة وعشرين ، وهو معدل ماتقطعه هذه المراكب فى اليوم — خليجاً كبيراً يتوغل فى الأرض ، واسم الخليج « مرسى دنقلة » وعلى مدخله جزيرة . ويشتهر الخليج بصيد اللؤلؤ ، وقد ذهب إليه مرة قبطان مركبنا « الريس سيد مصطفى الجداوى» ، وعاد منه بكمية طيبة من اللؤلؤ المتوسط الجودة أخذها منه الشريف غالب بعد ذلك فى جدة . وذكر لى الرجل أن قاع البحر فى هذا الخليج حافل بأصداف اللؤلؤ ، وأن صيدها ميسور لقلة غور الماء . على أن القوم لا يرتادونه اليوم لصيد اللؤلؤ ، فهم من جهة يخشون غدر البشاريين الذين يسكنون هذا المرسى ، ومن جهة أخرى — وهو السبب الأهم — يخاف أصحاب السفن أن يشاع عنهم أنهم وجدوا كنوزاً من اللآلئ فيسترعى ذلك انتباه حكومة جدة فوراً. وقد أكدوا لى غير مرة أن ربابنة السفن فى سواكن والقصير لا خبرة لهم إطلاقاً بالملاحة على الساحل الواقع إلى الشمال من جبل مكور فى طريقك إلى القصير ، وأن هذا الساحل لا يعرفه من ملاحى جدة إلا نفر قليل من قبيلة عرب الزبيدية ، وعلمهم به ضئيل . وليس بين القصير وسواكن تجارة ولا مواصلات مباشرة ، ونذر من أهل البحر الأحمر من يجرؤ على الملاحة فى هذا الشطر من الساحل أو فى الشطر الشمالى الواقع بين القصير والسويس . وقد يرسو عرب الزبيدية دون غيرهم على مرفأ علبة ، وهو على رحلة أربعة أيام من مرسى دنقلة ، وعلى رحلة خمسة أيام من جبل مكور . ويقال إن اللؤلؤ يوجد على طول هذا الساحل حتى مصوع جنوبا ، ولكنه أوفر مايكون فى مرسى دنقلة .

وقد اضطررنا أن نصلح ثقبا فى السفينة أحدثه ارتطامها أمس بصخر مرجانى . كذلك تم توزيع الشحنة والركاب توزيعاً يترك للملاحين متسعاً لقيادة السفينة فى رحلتها عبر البحر ، وهى رحلة لا يؤديها العرب إلا جزعين خائفين مستغيثين بالنبى والرسل والأولياء جميعاً .

١٥ يوليو — هبت صبيحة اليوم ريح مواتية فخرجنا الى عرض البحر ، وجيء ببوصلة من مخزن أخشاب السفينة ، ولكن ذلك لم يكن إلا إجراء شكلياً ،

فقد اختلف الريس والربان على الجهة التى يقع فيها الشمال بالضبط . وأقبل المساء فاشتدت الريح ، واستبدل الملاحون بالشراع الكبير شراعا أصغر منه . وأرخى الليل علينا سدوله فكان بريق الماء حين يهتز يثير دهشة الزنوج وعجبهم ، وعبثاً حاولوا فهم علة هذه الظاهرة من البحارة . وأنفقنا ليلة باردة مضنية ، فقد أعوزنا المكان الكافى للنوم ، وبدا على جوّابى الصحراء الشجعان شدة الخوف والفزع فى عرض البحر ، فكان ذلك مبعث تسلية للسواكنية .

١٦ يوليو — طالعنا فى الصباح الباكر ساحل بلاد العرب ، واتضح الآن جهل الربّان، فبدل أن نجد أنفسنا تجاه ساحل جدة — حيث كان ينبغى لو أنه استرشد بإبرة الملاحين فى سيره — وجدنا أنفسنا جنوبها بخمسين ميلا على الأقل . ودخلنا خليجاً صغيراً والريح تملأ شراعنا ، وكاد يغرقنا إعصار هب آنئذ . ووجدنا الشاطىء بلقعاً لا آبار فيه ولا عيون إلى مسافة كبيرة ، ولم نر فيه أثراً للبدو . واشتد كربنا لقلة الماء ؛ فقد أوشك أن يفرغ ما أخذناه منه أخيراً فى عراقية ، ولم يبق فى قرب التكارنة قطرة . وكانت الريح معاكسة ولا أمل لنا فى بلوغ جدة فى أقل من يومين . وفى المساء ترك أكثر التكارنة السفينة قاصدين جدة سيراً على الأقدام ، فقد أوهمهم البحارة أنها أقرب كثيراً مما كانت ، وأشاروا لهم على جبل يبعد عن مرسانا اثنى عشر ميلا قائلين إن به عين ماء . ولكن الجبل — كما علمت فيما بعد — خلو من العيون، ولم يكن هدف البحارة من هذا التضليل إلا التخلص من الحجاج خشية أن يكرههم العطش آخر الأمر على أخذ ماء البحارة غصباً(*). وقلّ أن تصل جدة سفن حجيج سواكنية لم يقاس فيها الركاب عذاب الظمأ ، فهم يحشدون فيها حشداً يستحيل عليهم معه أن يأخذوا من الماء أكثر من زاد أيام ثلاثة ما لم يضحوا بغيره من أسباب الراحة ، وهى تضحية لا يرتضونها . وجبل مكوز الذى تقلع منه السفن عابرة للبر الغربى لا ماء

(*) قضى هؤلاء التكارنة البائسون يومين ونصفا قبل أن يبلغوا جدة ، ومات منهم فى الطريق ظمأ امرأة وغلام ، ووصل الباقون فى حالة من الإعياء يرثى لها ، وقد شكوا من كذب البحارة مر الشكوى .

فيـه إطلاقاً ، وقد لقيت بعد ذلك زنوجاً فى جدة لم يذوقوا المـاء فى هذه الرحلة أربعة أيام بأكلها . واضطررنا إلى البقاء راسين هنا الى الغد . والأصداف فى هذا البر أقل منها فى سابقه .

١٧ يولية — أقلعنا حوالى الظهر تحدونا ريح جنوبية ، وعند الغروب رست السفينة على صخر مرجانى غير بعيد من الساحل . وقد عرا الشمس هذا الصباح كسوف يكاد يكون كلياً، واشتدخوف الملاحين ومن بقى بالمركب من التكارنة من هذه الظلمة الغريبة التى لفتهم .وجريا على السنة ركع كل مسلم بالسفينة ركعتين وصلى « صلاة الـكسفة » ، وبعدها راحوا يقرعون الأباريق والسيوف والدرق والملاعق بعضها ببعض طوال الـكسوف .

١٨ يوليو — ركدت الريح هذا الصباح ، واضطر البحارة لاستخدام المجاذيف ، وطال تجديفهم حتى كلت أيديهم . ودخلنا حوالى الظهر مرفأ مقابل ضريح شيخ فوقه قبة ، واسم الشيخ عمرو ، ولم يكن بالمركب قطرة ماء.وقيل إن بالجبل وراءالبر بئرماء ، ولـكن أحداً فى السفينة لم يعرف موقع البئر على التحقيق . ومع أننا كنا مشرفين على جدة بحيث نسمع أصوات مدافعها فى المساء فإنه كان من المحتمل أن نظل فى السفينة أياماً أخرى نتضور فيها ظمأ . لذلك طلبت نقلى إلى البر على طوف كان الريس قد ابتاعه من تبادة ، وتبعنى الراكب الرومى وسوا كنيان وعبيدهما . وسارت جماعتنا الليل كله على البر ، وهو أرض قاحلة تـكسوها طبقة ملحة ، حتى لقينا الدرب الرئيسى الذى يحاذى الساحل حتى اليمن . وعلى نحو ساعة من جدة بلغنا مخيما لبعض البدو ، فشربنا فيه وجددنا نشاطنا ، ثم دخلنا المدينة سالمين موفورين . وفى صباح ١٩ يوليو هرّبنامن معنامن عبيد إلى جدة ، لأن كل عبد ينزل المدينة من مركب يؤدى عنه صاحبه ريالا . أما السفينة فقد وصلت فى اليوم التالى،وهو ٢٠ يوليو ١٨١٤ .

فهرس الاعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ش)

(ص)

(ل)

(م)

(هـ)

(و)

(ى)

تصويب الأخطاء الطباعية

نورد الصواب وحده فيما يلي :

صفحة	سطر		صفحة	سطر	
١٢	١٦	محمد على	١٤٣	٤	البشاريين
١٥	٨	طلّقا	١٤٧	١٦	شقوق
٢٤	١٨	الخارجيين	١٥٢	١	أبوروش
٢٦	٤	منها		١٧	وقضينا
٢٩	١٦	كنيستان	١٥٥	٢١	أينع
٣٢	٣ الهامش	فى النيل إلاّ	١٥٦	٢٥	الشجر والعشب
٣٣	١٩	النقوش	١٥٨	٥	ضريح
٣٥	١٧ الهامش	وكانوا وثنيين	١٦٠	١٦	دعوكايب
٣٨	١	وتسمى	١٧٨	١٠	نملك
٤٧	١٢	سكّوت	١٨٢	١١	للقحط
٥٣	٢	لذلك	١٨٧	٢٤	يتقاضى
٧٠	١٩	اسمـا	١٩٢	٢٠	السالف ذكره
٨٢	١٧	ميممين	٢٠٣	٧	ورحالها
٨٨	١	رسماً لبرياربوس	٢٠٥	١	انضممت
٩١	١٧	يبدو	٢١١	١٩	قبانى
٩٣	١٥	فى هرمونتيس	٢١٣	١٣	جبيل أم على
٩٧	١٢	يشملها	٢١٥	١٢	الأسر القوية
١٠٢	١٧	شبيه فى موقعه	٢٢٣	٢٥	فاشتراها
١١١	٧	وتشير	٢٣٦	٢٠	أرباحهم فى
	١٩	بيوتاً		١٠	ضرائب
١١٧	١٥	حسن قوسى ،	٢٤٥	١٨	أربجى
١٢٢	١	ولداً	٢٥٠	٢ الهامش	على حدود دنقلة
١٢٣	٢٣	سفنه	٢٥١	١٠	. وقد نزل
١٤١	٢١	برضى	٢٥٦	٤	يؤديان لها

صفحة	سطر		صفحة	سطر	
٢٧١	١٤	اطمئنانا	٣٣٧	١٣	ونصفا
٢٧٢	١٥	بلهجة مصرية	٣٤٣	١٧	(الحداربة)(*)
٢٨٤	٢٤	ثمانى		(*)	الهامش
٢٩٢	٢٢	القريبة	٣٤٦	٢٥	يولٌ
٣١١	٨	عنها	٣٤٧	٢٤	أربعاً
٣١٤	٢٢	الدندر	٣٤٨	١٣	النعام
٣٢٢	٩	دارفور		١ الهامش	السودان
٣٢٨	٢٢	تغطيه	٣٥٦	١٤	الأمرأر
٣٢٩	١٩	نجاد ووهاد	٣٥٧	٤	علبة
٣٣٣	١٥	فخيما	٣٦١	٣	كبرياؤهم
٣٣٥	١٨	أثراً لجرانيت	٣٣٧	١٩	وكان بيننا
٣٣٦	٩	عشر ساعات			

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



إن هذا الكتاب يشمل الكثير من المعلومات، فهو أدب رحلات وهو أيضًا بحث اجتماعى يتناول حياة النوبيين، كما أنه كتاب فى التاريخ وفى الجغرافيا وفى الآثار، وقد عرض بأسلوب سهل بسيط بحيث يستوعبه المتخصص وغير المتخصص... أسلوب بسيط بساطة أهل النوبة.

لقد نجح هذا الرحالة الطموح فى أن يردف قارئه وراءه على ظهر دابته ليجوب معه قرى النوبة ونجوعها من أسوان وإلى آخر قرية حط رحالة فيها (شمال الخرطوم)، وجعله يعيش معه هذه المغامرة الحلوة الصعبة الخطرة، وأكسبه خبرات لم يكن يعرفها عن هذه البلاد ولم يسمع عنها.

